

إيما في حلب ذات يوم وقصص أخرى

مختارات من القصة القصيرة الأمريكية
في القرن العشرين

الطبعة الثانية

ترجمة وتقديم: أحمد الشيمي
مراجعة وتحرير: طلعت الشايب

2/970

ربما في حلب ذات يوم
(وقصص أخرى)

مختارات من القصة القصيرة الأمريكية في القرن العشرين

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٩٧٠ / ٢

- ربما فى حلب ذات يوم (وقصص أخرى)

(مختارات من القصة القصيرة الأمريكية فى القرن العشرين)

- أحمد الشيمى

- طلعت الشايب

- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة لمختارات من القصة القصيرة الأمريكية

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة .

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦

فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.mail:egyptcouncil@yahoo.com

Tel.: 27354524 - 27354526

Fax: 27354554

ربما فى حلب ذات يوم (وقصص أخرى)

مختارات من القصة القصيرة الأمريكية
فى القرن العشرين

ترجمة وتقديم: أحمد الشيمى
مراجعة وتحرير: طلعت الشايب



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ١٠٩٢٧ / ٢٠٠٩
التزقيم الدولى: 7 - 321 - 479 - 977 - 978
طببع بالهئية العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

- مقدمة المترجم.....9
- زلج ١٩١٥ "بنجامين روزنبلات".....27
- نفوس صغيرة ١٩١٦ "مارى ليرنر".....37
- المرأة الأخرى ١٩٢٠ "شروود أندرسن".....61
- قمر متقد بلون الدم ١٩٢٣ "جان تومر".....73
- القتلة ١٩٢٧ "إرنست همنجواى".....89
- عيد ميلاد مزدوج ١٩٢٩ "ويلا كاتر".....113
- سرقة ١٩٣٠ "كاترين آن بورتر".....157
- ذلك الغروب لشمس المساء ١٩٣١ "وليام فوكنر".....167
- أخى الميت يأتى إلى أمريكا ١٩٣٤ "ألكساندر جودن".....211
- ربما فى حلب ذات يوم ١٩٤٤ "فلاديمير نابوكوف".....221
- الشجرة الثانية على الناصية ١٩٤٨ "إيه. بى هوايت".....237
- أبناء الفلاح ١٩٤٩ "إليزابيث بيشوب".....247

- الزوج الريفى ١٩٥٧ "جون تشيفر".....263
- إلى أين أنت ذاهبة، أين كنت؟ ١٩٦٧ "جويس كارول أوتس".....305
- المفتاح ١٩٧٠ "إسحق باشيفز سنجر".....337
- مدينة الكنائس ١٩٧٣ "تونيال بارثلمى".....355
- إيماءة ١٩٨٠ "جون أبدايك".....365
- منستيونغ ١٩٨٩ "أليس مونرو".....385
- فى الغسق ١٩٩٤ "أليس إليوت دارك".....421
- اللدتان ١٩٩٥ "جش جن".....453
- بيليو جرافيا الكتاب.....481

إهداء

إلى المترجم المبدع الأستاذ/ طلعت الشايب

مقدمة المترجم

تستحق القصة القصيرة بوجه عام والأمريكية بصفة خاصة أن يُحتفى بها بمناسبة انقضاء قرن، شاركت دون ريب فى بناء صرحه الثقافى والاجتماعى. وهو القرن الذى فيه نضجت وفيه استقرت لتستقبل القرون التى سوف تجيء بعده بخطى وثقة بالمستقبل مطمئنة للخلود. وكتاب هذه القصص عاشوا خلال القرن العشرين وشهدوا أحداثه وتأثروا بها وعبروا عنها أو عن بعضها. والقرن العشرون هو قرن الانتقالات الكبرى فى تاريخ البشرية عامة وتاريخ أمريكا خاصة. فهو قرن الحروب المتصلة - أو يكاد أن يكون قرن الحروب المتصلة - التى لم تعرف البشرية مثلها عمقاً فى التدمير وبعداً فى التغيير. فهو القرن الذى دالت فيه ممالك، وانهارت إمبراطوريات، وتبدلت خرائط، وقامت جمهوريات بسبب نشوب حربين عالميتين فى بدايته وفى منتصفه بالإضافة إلى حرب وصفت بأنها باردة مع أن ضحاياها من البشر زادوا على ضحايا الحربين العالميتين ومع أن التغيير الذى أحدثته تلك الحرب الباردة لم يكن أقل خطراً من التغيير الذى أحدثته الحربان العالميتان والدليل على ذلك أن الحرب الباردة انتهت بسقوط الاتحاد السوفييتى الذى كانت مساحته أكثر من خمسة وعشرين مليوناً

من الكيلومترات المربعة المتصلة. كانت الولايات المتحدة القوة الحاسمة فى هذا السقوط مما زاد من نفوذها وأتاح لها التدخل فى الشئون الدولية للحفاظ على مصالحها أحياناً وفرض هيمنتها أحياناً أخرى.

شهد كتاب هذه القصص إذن الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية والحرب الأهلية فى إسبانياً والكساد التجارى الكبير فى الثلاثينيات وظهور الأنظمة الشمولية فى ألمانيا وروسيا وغيرهما من دول المعسكر الشيوعى، ثم شهدوا الثورات المتتالية السياسية والعلمية والاجتماعية والأدبية وغيرها. شهدوا ثورات التحرر الوطنى ونهاية عصر الاستعمار، وشهدوا الإنجازات العلمية الهائلة التى جعلت من القرن العشرين قرن السيارات والطائرات والصواريخ وانشطار النواة والكمبيوتر والصعود إلى الفضاء والنزول إلى أعماق الأرض. شهد كتاب هذه القصص هذا كله وعبروا عنه فى القصة القصيرة التى لقيت اهتماماً من الأمريكيين يفوق اهتمامهم بسائر الفنون الأدبية الراسخة كالرواية والشعر والمسرحية.

ازدهرت القصة القصيرة فى الأدب الأمريكى حين بدأ انحسارها فى الأدب الأوروبى فى العصر الفكتورى الذى سادت فيه الرواية الطويلة وعلا صوت الشعر. وقد شهد الثلث الأخير من القرن التاسع عشر انتقال القصة القصيرة إلى الولايات المتحدة حين تجاهلها الإنجليز والفرنسيون. توقف الإنجليز عن تناول القصة القصيرة فى مناظراتهم وأنديتهم، وفى معرض حديثهم عن دور الأدب فى الحياة لم

نجد من النقاد الإنجليز من يبحث عن أى دور للقصة القصيرة، ولم نجد منهم من يتناولها بالنقد والتحليل مثلما كان الشأن مع الرواية والشعر. وربما كان للصحافة دور فى الحط من قدر القصة القصيرة فى نظر قرائها وذلك للصلة الوثيقة بين الاثنين، فلم يكن ديكنز وموباسان وكبلنج ينشرون قصصهم القصيرة والطويلة إلا من خلال الصحافة التى شهدت أيضا ازدهارا لافتا فى القرن التاسع عشر.

استقرت القصة الأمريكية القصيرة إذن فى القرن التاسع عشر على يد إيجار ألان بو وهوثورن وثورو وغيرهم. فقد كتب هوثورن القصة القصيرة فى عام ١٨٤٢، وقدم بو تعريفه للقصة القصيرة فى العام نفسه ومن قوله:

لا نستطيع أن نقرأ الرواية فى جلسة واحدة... الرواية نظرا لطولها لا تحقق التأثير الشامل الذى تصبو إليه... لأن القارئ الذى يتوقف بعد قراءة فصل أو فصلين من الرواية لأن شئون حياته اليومية تحول بينه وبين مواصلة القراءة، إنما يهدم الانطباع الشامل القوى الذى يتركه العمل الأدبى فى الوهلة الأولى. والقصة القصيرة — شأنها فى ذلك — شأن القصيدة القصيرة وكل عمل فنى مختصر تتيج للكاتب أن يفرض رؤيته كاملة على القارئ. أثناء القراءة تصبح روح القارئ فى قبضة المؤلف، فى مأمن من المؤثرات الخارجية والظروف الطارئة التى من شأنها أن توقف القراءة، وفى مأمن من الملل والسأم أيضا اللذين قد يمتنعان القارئ من مواصلة القراءة.

كان بو يعبر فى الواقع عن المزاج الأمريكى الذى يتفق مع الأدب القصير. وكانت القصة القصيرة هى الشكل الطبيعى الذى وجد فيه الأمريكيون ضالتهم التى عبروا من خلالها عن طريقة حياتهم فى مجتمع ليس الاستقرار من طبيعته. يقول البروفسور أ. والتون ليتز مؤكداً:

وجد الأمريكيون ضالتهم فى القصة القصيرة بسبب ضحالة الحياة الأمريكية وافقارها للنسيج الاجتماعى الغنى والمعقد الذى تمتاز منه الرواية عادة. الأدب الموجز كان الصيغة المثلى والطبيعية للتعبير عن تجاربهم التى كانت عميقة ولكنها كانت معزولة، وهو الصيغة المثلى للتعبير عن خبرة اجتماعية محلية ومجزأة برغم توافر رؤية كونية شاملة لدى هؤلاء الكتاب.

ولم تكن قصص بو مع ذلك مخصصة للحياة الأمريكية فى تصويرها للشخصيات وتناولها للأحداث ورسمها للمشاهد، وإنما كانت تنطلق فى ذلك كله من الحياة الأوروبية التى كان بو خبيراً بها. اتصلت كتابات بو القصصية بالحياة الأوروبية أكثر من اتصالها بالحياة الأمريكية. وكان بو يكتب وفى ذهنه الحياة الأوروبية، وعينه على الرومانسية فى أوروبا وليس على البراجماتية فى أمريكا. وكان هوثورن يقول: إنه لا يستطيع أن يكتب رواية متخذاً من حياة قصيرة ضحلة كالحياة الأمريكية مادة لها، وكان يقول: إنه لا يستطيع أن يكتب رواية يكون فيها البطل أضخم من الحياة ذاتها. وحين كتب هوثورن

الرواية اتخذ من حياة الناس فى نيو إنجلاند موضوعاً لها وهى حياة بيوريتانية محافظة شديدة الصلة بالعصر الفكتورى الإنجليزى. ولكن بو وهوثورن هما رائدا القصة الأمريكية القصيرة دون منازع، وهما اللذان غرسا هذا الفن فى التربة الأمريكية وتولياه بالرعاية حتى أثمر بعد ذلك ثماراً أمريكية خالصة إلى أن جاء هرمان ملفل الذى كان أكثر اقتراباً من الحياة الأمريكية فى رواياته وقصصه القصيرة، فقد كانت شخصياته مغامرة شديدة الطموح ساعية لتحقيق أهدافها مهما كانت التكلفة وهى شخصيات تعبر أصدق تعبير عن الإنسان الجديد فى أمريكا، وهو إنسان مغامر طموح ماض فى طريقه لا يلوى على شىء ولا يكثرث بعقبة ولا يقف أمام مبدأ. وملفل هو كاتب رواية موبى دك التى يعتبرها البعض أفضل رواية أمريكية على الإطلاق. وملفل هو الذى صور فى قصصه القصيرة الصراع بين الأعراق المتباينة التى هى سمة من سمات المجتمع الأمريكى، وكان يتتبأ بثورة الأقليات الملونة وخاصة الزنوج على الأغلبية البيضاء. وكان ملفل ينطلق فى ذلك كله من حياته الغنية بالتجارب، فقد عمل موظفاً فى بنك وبائعاً فى متجر وأجيراً فى مزرعة ومعلماً فى مدرسة وبحاراً فى سفينة، ومارس أعمالاً أخرى كثيرة مما زوده بمادة وفيرة استعملها فى قصصه.

ولم ينته القرن التاسع عشر حتى برزت على الساحة أسماء كانت قادرة حقا على الدخول بالقصة القصيرة إلى آفاق القرن

العشرين. يسجل أول القرن العشرين أسماء أمبروز بيرس وفرانك هاريس وهاملن جارلاند وباك لندن وستيفن كرين وأو هنرى وويلز كاتز وشروود أندرسن وكاترين آن بورتر وسنكلير لويس. وكان يمكن لاستيفن كرين أن يكون أعظمهم جميعًا لولا أن وافته الأجل بمرض السل ولم يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره. وستيفن كرين هو الذى كتب رواية نوط الشجاعة الأحمر، وعددا من المجموعات القصصية منها القارب المفتوح، والوحش، واللوكاندة الزرقاء.

ولعب جاك لندن وأو هنرى دورًا بارزًا فى تأصيل القصة القصيرة فى الأدب الأمريكى وجعلها أمريكية خالصة. وكان جاك لندن ماركسيا يؤمن بالصراع بين الطبقات وكان لنشأته فى سان فرانسيسكو مجهول الأثر على أدبه وحياته، فقد تعلم كيف يكون الاعتماد على النفس، وكان يحب السفر حتى حاز ثروة كبيرة وخبرة أكبر فى شئون الحياة والعباد. وكرس بعد ذلك قلمه للكتابة عن المحبطين والمقهورين بين مطرقة الرأسمالية وسندان البراجماتية، وكان يرى أن الحل يكمن فى الاشتراكية. وكان جاك لندن قارئًا جيدًا لداروين وهكسلى وسبنسر وكبلنج ونيتشه وماركس. وكانت شخصيات لندن تبعًا لذلك أفرادًا يتحدون الظروف، ظروف الطبيعة والمجتمع فيغلبون أحيانًا ويغلبون أحيانًا أخرى. ومن ناحية أخرى تمثل كتابات جاك لندن فترة الانتقال إلى القرن العشرين خير تمثيل، ففي قصصه القصيرة بالذات نحس بانتهاء عصر الإيمان بالدور الذى كانت تلعبه الأرستقراطية

كحارس أمين على القيم، ونحس كذلك بانتهاء عصر البراءة وبداية عصر جديد لا بقاء فيه للضعيف، وهو العصر الذى عبر عنه شعراء الحداثة فى كتابات إزرا باوند وإيمى لويل وإدون إيرلنجتون روبنسون وإدجار لى ماسترز وروبرت فروست و ت. إس. إليوت وغيرهم. وشهد هؤلاء الكتاب انتصار أفكارهم بنشوب الحرب العالمية الأولى وحدث الكساد التجارى الكبير والحرب فى إسبانيا وظهور الأنظمة الشمولية وصولا إلى الحرب العالمية الثانية.

ولم يكن الشعر وحده الذى علا صوته فى تلك الفترة، بل كانت القصة أكثر تعبيراً عما سمته جرتود ستين بالجيل الضائع، وهو الجيل الذى عبر عنه إرنست همنجواى فى رواياته وقصصه القصيرة على الأخص. فى تلك الفترة كتب أو هنرى القصة القصيرة بغزارة وكان يعبر فيها عن هزائم هذا الجيل الضائع وعن معاناة المقهورين والبؤساء. وفى تلك الفترة أيضا كتب تيودور دريزر روايته المأساة الأمريكية التى عبر فيها عن الحياة الأمريكية فى مرحلتها الانتقالية بين الفكتورية المحافظة والحداثة المتمردة. وكان يقول إن الأمريكيين أعداء أنفسهم لأن المادية هزمت نفوسهم وجردتهم مما يميز الإنسان عن الوحوش الضارية وهو الوازع القيمى والأخلاقى.

وكتبت ويلا كاثر أكثر من أربع مجموعات قصصية إلى جانب رواياتها التى تزيد على العشر. صورت ويلا كاثر الحياة فى نبراسكا أبرع تصوير، وعبرت عن خيبة أمل جيلها فى العالم المادى وتنبأت

بزوال هذا العالم. وكانت كاثر تهرب من هذا العالم إلى عوالم أخرى في الزمن الماضي. ولدت ويلا كاثر في عام ١٨٧٣ في جبال شمال غرب فرجينيا حيث كانت أسرتها تعمل بالزراعة ولكن أسرتها انتقلت، عندما كانت في السادسة، إلى مزرعة في نبراسكا وكانت ولاية جديدة عندئذ يسكنها مهاجرون من ألمانيا والنرويج وتشيكوسلوفاكيا التي احتقت بهم في قصصها. كانت كاثر تكن العداء للحياة الأمريكية الحديثة التي طغت عليها المادية وتراجعت فيها القيم الروحية، مما زاد من غربة الفرد وقضى على أمله في حياة تقوم على الحب. ولذا عمدت كاثر في رواياتها الأخيرة على الأخص إلى تذكر حياة الماضي القريب وإلى الإبحار بالقارئ إلى عوالم قديمة استطاعت بقلمها النابض أن تعود بها حية أمام القارئ.

وفي تلك الفترة أيضا كتب شرود أندرسن قصصه القصيرة التي عبر فيها عن عالم الحداثة خاصة في مجموعته القصصية "وانسبرج أوهايو" التي رسم فيها شخصيات قلقة حائرة لا تصل إلى هدفها وإن وصلت لا ترضى عما حققته. شخصيات تبدو لها الحياة كابوسا طويلا لا فكاك منه تحاول الهرب منه إلى عالم مختلف لا يعرفونه، ومن ثم فهم معذبون ولا يحسون بالسلام النفسي. وشخصيات أندرسن تعاني من الأمراض الاجتماعية وتحس بالغربة وتحاول أن تتخلص من هذا القيد، وفي سعيها للخلاص تبدو أفضل من الذين يستكينون للظلم ويخضعون لرتابة الحياة العادية. وكان أندرسن

يستخدم لغة مألوفة لا تصعب على القارئ متوسط الثقافة ولكنه كان بارعًا مع ذلك في استخدام تيار الوعي ورصد التقلبات النفسية لشخصياته. وكان فولكنر وهمنجواي يعترفان بتأثير أندرسن، وكان فولكنر يقول: إن أندرسن هو الأب الروحي لجيلنا.

جعل همنجواي من نفسه المتحدث الرسمي لما يسمى بالجيل الضائع في رواياته وقصصه القصيرة. نشر أولى مجموعاته القصصية بعنوان "في زماننا ١٩٢٤" و"رجال ونساء ١٩٢٧" التي أكد بها موهبته. وتميز أسلوب همنجواي بالحوار المقتضب السريع في قصصه القصيرة بالذات كما هو واضح في قصة "القتلة" التي قمنا هنا بترجمتها. ويأخذ عليه النقاد اهتمامه الزائد بمشاهد الدم في رواياته وقصصه. وفي قصة القتلة نجد شخصياتها تواجه مصيرا غامضا وبعضها لا يأبه بما سيحدث مثل الملاكم أول أندرسن. لقد خطا همنجواي بالقصة خطوات واسعة، ووجد الصلة بينها وبين السنوات الأولى من القرن العشرين، وهي سنوات تتميز بإحساس بالغربة وقلق وتمرد على الحياة. وذلك لما كان يبدو في الأفق من اقتراب صراع مرير بين القوى الاستعمارية الكبيرة التي كانت تستعد لافتراس ما تبقى من دول العالم الثالث ووراثه الدولة العثمانية والهيمنة الكاملة على طرق التجارة ومصادر المواد الخام والسيطرة على أكبر مساحة من سوق الاستهلاك من أجل تصريف بضائعهم بعد أن فاضت وتجاوزت حد حاجتهم. وكان همنجواي، وغيره من الكتاب الكبار،

يعرف أن الصراع هذه المرة سوف يكون مريرًا ومهلكًا بسبب تطور آلة القتل وظهور أسلحة الدمار الشامل التي قضت على الثقة في قدرة العلم على توفير الأمن للإنسان كما كان يعتقد الناس في القرن الثامن عشر والتاسع عشر.

والحق أن اسم همنجواي يرتبط برواياته الشهيرة أكثر من ارتباطه بقصصه القصيرة فما إن تسمع اسم همنجواي حتى يقفز إلى ذهنك رواياته "لمن تدق الأجراس"، و"وداعًا للسلاح"، و"العجوز والبحر"، و"الشمس أيضًا تشرق". ورغم ذلك فإن قصصه القصيرة تتفوق على روايته الطويلة لما تتميز به هذه القصص من حيوية في رسم الشخصيات وقدرة غريبة على شد انتباه القارئ من أول كلمة إلى آخر كلمة، وكذلك لأن شخصيات قصصه شخصيات أمريكية خالصة يعرفها القارئ من أول سطر يقرأه وهي ليست شخصيات نمطية متكررة ولكنها شخصيات مستحثة تملؤها الرغبة في الحياة أو تملؤها الرغبة في الموت ولكنها صادقة لا تحتمل الشك.

وشهدت فترة العشرينيات إحياء الهارلم الذي أتاح للسود أن يكتبوا عن أنفسهم وعن معاناتهم في مجتمع يفرق بينهم وبين الأغلبية البيضاء. وكانت كتابات جان تومر في ذلك الإطار لافتة خاصة في قصصه القصيرة وروايته التجريبية "كين" التي صور فيها مأساة السود بسبب التفرقة العنصرية من ناحية، وبسبب إهمال قضيتهم من قبل المجتمع والإعلام من ناحية ثانية، وبسبب استكانة السود وعجزهم عن

الدفاع عن قضيتهم من ناحية ثالثة. وكتب لانجستون هيوز، بالإضافة إلى قصصه القصيرة وقصائده، رواية سماها "ليس بدون ضحك" تناولت حياة السود في مجتمع يرفضهم. ولم تنته فترة العشرينيات حتى كان وليام فولكنر قد انتهى من نشر جل رواياته وقصصه القصيرة. وعرف فولكنر باستخدامه لتيار الوعي مع فرجينيا وولف وجيمس جويس وشروود أندرسن. وكان فولكنر يعبر عن القضايا التي عبر عنها معظم كتاب الحداثة مثل تداعي القيم، بل تداعي مجتمع كامل بكل تقاليده وعاداته، والصراع المقيت بين الأجناس وخاصة معاناة السود في هذا الصراع غير المتكافئ مع البيض. ولكن فولكنر تميز بأسلوب خاص تخلص فيه من العبارة الثقيلة التي نجدها عند كتاب تيار الوعي. فقد كتب فولكنر باللغة العامية الأمريكية أحيانا. وكان في وسعه أن يرسم أمام القارئ مجتمعا كاملا ينبض بالحياة وخاصة المجتمع الأمريكي الذي يتفجر بالعنف والعنصرية والموت. وفي قصة "ذلك النزول عند الغروب" نجد نانسي لا تفعل شيئا حيال الموت الذي يتربص بها بسبب خيانتها لزوجها جوبا حين حملت من شخص آخر. ولكننا نحس في الحوار بؤس السود وموقف البيض الذي يتجرد من العاطفة، بل نحس بالوجود الإنساني القلق من خلال حوار ينجزه الأطفال أغلب الوقت، وهو ما يمنح القصة بعدا فلسفيا حرا تَشَى به الأسئلة البريئة التي لا تبدو بريئة كل البراءة.

أما فترة الثلاثينيات فقد شهدت تقدما من ناحية الصنعة في

الأدب عامة ولم تشهد تقدما كبيرا في الكم، وفي كم القصة القصيرة على الأخص، ولا يذكر النقاد غير قصص يودورا ولتي التي كتبتها في بداية الأربعينيات. ولم يكتب جون تشيفر ورايت موريس وجان ستافورد إلا بعد الحرب العالمية الثانية. وتوفرت القصة التي كتبت بعد الحرب على الهجوم على الحرب ونتائجها النفسية والمادية، وأنهى الكتاب باللائمة على المؤسسة العسكرية الأمريكية والسياسة الأمريكية بصفة عامة، ومن أشهر الأعمال في هذا الصدد رواية كتبها جون دوس باسوس بعنوان "ماذا نحن في فينتام؟" ونشرها عام ١٩٦٧. ولم يكتب باسوس القصة القصيرة ولكنه كان يتمتع بأسلوب سهل جميل جعل سارتر يقول عنه في عام ١٩٣٨: إنه أفضل كاتب في القرن العشرين.

ونشرت فلانري أوكنر مجموعتها القصصية "الرجل الطيب صعب أن تجده (١٩٥٥)"، وكانت أوكنر، التي قضت وهي في التاسعة والثلاثين بمرض جلدي، تختار شخصياتها من بين البسطاء في جورجيا الذين يتوقون للطمأنينة النفسية التي تأبأها عليهم الحياة العصرية التي تغرق في المادية وتقف موقفا معاديا للقيم ولا سيما بعد الحرب العالمية الثانية. لقد كان ضحايا هذه الحرب بالملايين في ميادين القتال ولكن ضحاياها من المدنيين أكثر بسبب الأمراض النفسية التي انتشرت بعد وقف النار على الجبهة.

لقد أصبحت القصة القصيرة في الأربعينيات والخمسينيات أسيرة الحرب العالمية الثانية، تتخذ موضوعاتها من الحديث حول أسبابها

ونتائجها، والعائدين من الجرحى الذين فقدوا الإيمان بكل شئ، وكان القلق النفسى والتشاؤم وسيطرة الخوف والبحث عن معبود جديد فى العلم تارة والخرافة تارة أخرى من المظاهر البارزة فى مجتمع ما بعد الحرب. وكان للقصة الأمريكية أن تشهد حقبة أخرى من الانحطاط مع التدهور الذى ساد المجتمع الغربى بعد الحرب؛ وهو تدهور أصاب العقل الأمريكى بسبب شك العلماء والمفكرين فى أن يوفر العلم حياة آمنة مستقرة لبنى البشر، وبعد أن أحس الأمريكيون أنهم يعيشون فى عالم يتربص بعضه البعض الآخر. عبرت القصة القصيرة عن الانحطاط الذى واكب الحرب وما بعدها وأثبتت الحرب أن الحداثيين كانوا على حق حين أقروا بفقر الحياة الأمريكية، وأن المؤسسة العسكرية الأمريكية هى التى سوف تدمر طموحاتهم فى حياة أفضل، حياة يسودها الحب والسلام.

ومن النتائج البارزة لفترة ما بعد الحداثة التى بدأت بعد الحرب العالمية الثانية ظهور عدد كبير من الكتاب اليهود الذين راحوا يعبرون عن معاناة اليهود فى ألمانيا فيما يعرف بالمرحلة وآثار الحرب على هجرة اليهود من أوروبا إلى الولايات المتحدة وإسرائيل. كان هؤلاء الكتاب يعرفون التقاليد اليهودية والديانة اليهودية. منهم سول بيلو الحائز على جائزة نوبل عام ١٩٧٦ والذى اختار له أبدايك قصة "الطبق الفضى" (١٩٧٩) وبيلو هو صاحب رواية "إلى القدس والعودة منها ١٩٧٦" التى يصور فيها الصراع فى الشرق الأوسط وتأثيره النفسى على اليهود. وله أيضا قصة يصور فيها الصراع بين اليهودى

المعاصر وماضيه. وكان بيلو يتخذ شخصياته من اليهود ويصور المعاناة التى يلقاها اليهودى فى مجتمع مسيحى رغم أنه لم يكن يحب أن ينعتة النقاد بالكاتب اليهودى. وبعيدًا عن تقرير كتاب الصحف ومقالاتهم الدعائية، ورغم الجوائز والأوسمة الكثيرة التى حصل عليها فإن سول بيلو يتمتع فى الواقع بمكانة متواضعة بين كتاب الأدب العالمى وذلك لأنه انحاز للدفاع عن دولة إسرائيل دون أن يتسلح بضمير المثقف الذى يجب أن يبحث عن العدل دون غيره، ولذلك جاءت كتبه أقرب للدعاية المباشرة منها إلى الأدب الحقيقى. وليس أدل على ذلك من شهادة الزمن، فالقارئ اليوم لا يقبل على كتب بيلو بقدر ما يقبل على كتب همنجواى وفولكنر وشروود أندرسن وغيرهم من الكتاب الكبار الذين انحازوا للفقراء والمقهورين ولم يصنعوا من أنفسهم أبواقًا لغير الحقيقة.

وبرنارد مالامود صاحب قصة "اللاجئ الألمانى" (١٩٦٤)، وكان يصور شخصيات محطمة مخيبة للآمال يمتاحها من التاريخ اليهودى ليدافع عن قضايا اليهود المهاجرين وأبنائهم. وإسحاق باشيفز سنجر الحائز على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٧٠ وكاتب قصة "المفتاح" (١٩٧٠) كان يكتب باللغة اليديشية، وهى لهجة من العبرية، ولم يعرفه العالم إلا بعد أن ترجمت أعماله إلى الإنجليزية. ولم يتخل سنجر عن قضايا اليهود فى كل قصصه مثل هجرتهم إلى عالم غريب يتخذ منهم موقفًا معاديًا. وكان سنجر بسيطاً فى لغته سهلاً فى تناوله وعرضه. ويلاحظ القارئ اهتمام محررى الكتاب بأدب اليهود فأدرجا

ما يقرب من ست قصص تتناول هجرة اليهود إلى أمريكا ومعاناتهم في البلاد التي هاجروا منها. ومن أجل إدراج هذه القصص وإبراز هذه المعاناة كان عليهما التضحية بمعيار "الأحسن" عن المعايير الفنية التي رتبها هذه القصص على أساسها وتجاهل الكثير من القصص عالية الجودة لكتاب آخرين كان لهم الحق كل الحق في أن تدرج أسماؤهم في كتاب القرن.

وتميزت الستينيات ببروز عدد من أبرز كتاب القصة الأمريكية القصيرة مثل جاك كيرواك وفيليب روث وجون أديك وجون بارت ودونالد بارثليمي وفلاديمير نابوكوف وأليس مونرو وجويس كارول أوتس وروبرت أولن بتلر. واستطاع هؤلاء التعبير بجدارة عن فترة ما بعد الحداثة؛ إذ شهدوا انهيار البنيوية على يد جاك دريدا وانهيار كثير من دعاوى الحداثيين، مما جعل معظمهم يحاول إحياء الرومانسية وكانوا أكثر بغضا لما انتهت إليه السياسة الأمريكية وأكثر سخطا على الحياة نفسها وأكثر ميلا للغربة وأكثر ثقافة. وكان يمثلهم في تعدد الاهتمامات والثقافة الغزيرة فلاديمير نابوكوف الذي كتب الشعر والمسرحية والقصة القصيرة والسيرة الذاتية ومارس الترجمة والنقد الأدبي إلى جانب اهتماماته العملية الواسعة. وكتب مقالات في الشطرنج وكان نابوكوف يمثل الأديب في عالم ما بعد الحداثة الذي يجب عليه أن يلم بالكثير. وكان معروفا بالتلاعب بالألفاظ. أما أليس مونرو فقد صورت في قصصها عوالم تضرب في القدم. عوالم أخذتها من العصر الفكتوري وأعادتها إلى القارئ تفيض بعبق التاريخ القريب

بأسلوب فذ يجمع بين الشاعرية والطرافة كما نرى فى قصة "نهر منستيونغ". أما جويس كارول أوتس فإنها من أكثر كتاب القصة القصيرة غزارة فى الإنتاج وخير من فهم الحياة الأمريكية فى فترة الخمسينيات والستينيات وعبرت عنها فى قصصها الكثيرة. وقصة "إلى أين أنت ذاهبة، أين كنت؟" تبرز فهم أوتس للشباب الأمريكى فى نهاية الستينيات وجنوحه للعنف والجريمة وتعلقه بقيم جديدة تصدر من مادية مقبنة. وجويس كارول أوتس من أغزر كتاب القصة القصيرة إنتاجاً فى الوقت الحاضر، كما وصل عدد رواياتها إلى أربع وعشرين رواية بالإضافة إلى إسهامها فى النقد الأدبى والقضايا العامة.

هذه المختارات التى أجمع النقاد على أنها من أحسن القصص الأمريكية القصيرة فى القرن العشرين ترصد المجتمع الأمريكى خلال قرن كامل وتعطى فكرة مهمة عن التغيرات الاجتماعية والنفسية والسياسية التى اختبرها هذا المجتمع وتحملها وخرج منها أكثر تماسكاً وأكثر استعداداً لتحمل غيرها من الأزمات. فى قصص هذه المجموعة يتلمس القارئ روح العصر الذى كتبت فيه ويقف عند اللحظات الفارقة فى تاريخ الأمريكيين ويعايش تجربة من تجارب هذه الأمة وهى تجارب كثيرة وغنية: مثل تجربتى الهجرة. ونكاد نقول إن كلمتى الهجرة والحرب هما المفتاح إلى فهم الشخصية الأمريكية؛ فالهجرة تعنى ترك الوطن الأم والاستقرار فى عالم جديد والمهاجر مستعد فى سبيل تحقيق هذا الهدف للقتال من أجله وإزاحة العقبات التى تعرقل مسيرته. وهكذا تم للأمريكيين إزاحة الهنود الحمر أصحاب الأرض

الأصليين وحصارهم بين الأودية والمرارات وكأنهم ليسوا من البشر. وبدأت بعد ذلك الحروب بين هؤلاء المهاجرين الأوروبيين وبين الفرنسيين تارة والإنجليز تارة أخرى، ثم فيما بينهم هم أنفسهم تارة ثالثة فيما عرف بالحرب الأهلية الأمريكية بين الشمال الثرى والجنوب المتخلف، وبعد النصر وتوحيد البلاد أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية ذات المساحة الشاسعة تتمتع بقوة اقتصادية كبرى وفائض زراعى وصناعى كبير يجبرها على السعى للخروج من عزلتها لتصرف هذا الكم التجارى الضخم الذى فاض عن الحاجة وهذه القوة العسكرية الكبيرة التى تتعدى حدود غرض الدفاع عن النفس إلى القدرة على السيطرة على معظم مناطق العالم المهمة.

زَلَج (١٩١٥)

بنيامين روزنبلات

كان زَلَج العجوز موضع ازراء بنى قومه اليهود. لم يتنازل أحد ويدعوه بـ "رَب" (*) زَلَج، ولا أن يلحقوا باسمه كلمة "مستر" التى يستخدمها الأمريكيون، يقول جيرانه الذين يعرفون عنه كل شىء: "الرجل العجوز مثل برميل تحطم منه ضلع". إنه لا ينفق سنتاً ولا يدين بالولاء لمكان، فالانتماء فى ذلك الركن الشرقى من مدينة نيويورك لا يعنى شيئاً إلا أن تكون عضواً فى تجمعات دينية لا حصر لها. اليهودى المذهب هو الذى يلتحق بجمعية تتكفل بدفن الأعضاء الذين ينتمون إليها كى يتسنى له الحصول على لحد صغير فى نهاية الرحلة الشاقة. لم يلتحق زَلَج حتى بواحدة من تلك التجمعات، وكانت زوجته تعلق بين الحين والحين فى حسرة مكتومة: "سنظل وحيداً هكذا كالحجر".

(*) لقب يهودى يساوى «المسيد» Mister فى اللغة الإنجليزية، وهى مشتقة من كلمة rabbi العبرية وتعنى الحاخام وهو الملم بالشريعة اليهودية والدين اليهودى ومؤهل للقيادة الدينية. (المترجم)

كنت تراه يقف كل يوم فى محل العباءات الذى يعمل به، يلوح بمكواته الثقيلة على القماش الحار، لا ينظر حوله إلا فيما ندر. كان أصحاب الحرف يزدرونه لأنه بعد غياب يومين أثناء الإضراب عاد إلى العمل. لم يكن يطبق البطالة ويفزع من أن يجىء يوم سبت ولا يتسلم فيه المظروف الذى يحتوى على أجره.

كان غريب الهيئة فى عيون إخوانه: قامّة طويلة وجسد كأنه قد من حديد. وعندما كان يمعن النظر ببلاهة فى شىء كان يبدو مثل شمشون الجبار. كان شعره الرمادى طويلاً ومرسلاً فى خصلات يعوزها الترتيب على منكبين عظيمين فيهما انحناء خفيفة كأنهما لعملاق. ملابسه الرثة تعلو جسده كأنها الأهدام البالية، وتغطى رأسه الضخم تلك القبعة العتيقة صيفاً وشتاءً.

كان قد قضى الجزء الأكبر من حياته فى قرية منعزلة فى روسيا، يحرث الأرض ويرتدى زى الفلاحين الروس. وعندما هاجر ابنه الوحيد إلى أمريكا، ولده الوحيد الذى ماتت زوجته هاجر إلى أمريكا (وفى يده ابنه الذى لم يتجاوز الثانية عشرة). انفطر قلب الأب حزناً ومع ذلك قرر البقاء فى قريته، مسقط رأسه، مهما حدث. قرر البقاء فى قريته حتى يلقى ربه. ولكن خطاباً وصله ذات يوم من الابن يقول فيه إن مرضاً ألم به، خفف من هذه الأخبار السيئة بضع كلمات تبعث على التفاؤل: "... أما حفيدك موسى فإنه يذهب إلى مدرسة حكومية. إنه الآن أمريكى الجنسية تقريباً، ولم يجبره أحد على نسيان

إله إسرائيل... لقد اقترب ميعاد عماده..."، وعندما انتهيا من قراءة الرسالة بكى زليج وبكت زوجته ثلاثة أيام بلياليها. لم يتكلم العجوز كثيراً ولكنه راح يعرض متاعه القليل للبيع.

كان على الفلاح المسكين أن يواجه العالم خارج حدود قريته ويختبر الحزن المُمض. طمأن نفسه بأنه سوف يألف البلاد الجديدة التي اختارها ابنه وطناً. ولكن الرحلة الطويلة الغريبة بالقطار تارة والسفينة تارة أخرى ملأته بالحيرة البغيضة، وملأه بالذهول صخب المدينة التي وجد نفسه يتيه في فوضاها واضطرابها. وبروح ملأتهها الكآبة بدأ يتأمل الجحيم الجديد وقد أحس بأحشائه تتحجر. أصبح قريب الشبه بالبرميل المكسور حقاً. ذهب عن عينيه بريق الحياة. خلا عقله إلا من فكرة واحدة تلح عليه، وخلا قلبه إلا من رغبة واحدة يخفق بها؛ أن يدخر من المال ما يكفى لعونته وأسرته في أقرب وقت إلى قريته، مسقط رأسه.

حمل قلبه تلك الرغبة ومعها الألم المبرح في صمت، لا يرى شيئاً غيرها ولا يحس بشيء غيرها: الرغبة في العودة إلى الوطن. قبل أن يجد عملاً كان يزرع طرقات مانهاتن كل يوم جيئة وذهاباً بخطواته العملاقة، بينما كان الصبية وحتى الصغار ينحرفون إلى الممرات الجانبية ليفسحوا له الطريق. كان يبدو مثل حيوان خرافى شديد الرهبة، وكان سهمًا يشير إلى رأسه وقلبه الكبيرين.

وفي المحل الذي وجد فيه وظيفة، كان العمال يخشونه في

البداية، ولكنهم وجدوا فيه آخر الأمر عملاقاً لا يضر، وغير مرة رموه بتهكم لاذع لضخامة رأسه. ومن بين كل من كانوا يعملون في المحل من النساء والرجال، لم يفز بصحبة زليج غير البواب المسيحي، وكان بولنديا قصير القامة مفتوح الفم وجل العينين. ما أكثر النكات التي استهدفت ذلك الثنائي الغريب. كان الرجل الذي يطلق النكات في المحل يقول مازحاً: العجوز العملاق مثل الفيل الذي يطعم بالدراهم بدلاً من الفول السوداني".

وكان يقاطع المتحدث بنبرة الموافق ويقول: "آه، آه، إنه حتى لا يشم". وفي ساعة الغداء يسهب في الحديث عن زليج على هذا النحو: "أرأيتم، المال هو دمه ولحمه، يجوع نفسه لكي يجمع من الدولارات ما يضمن عودته إلى بلاده. أخبرني البولندي بكل شيء. ولماذا يظل هنا؟ إن حرية العقيدة لا تعني له شيئاً. لم أره في المعبد، وحرية الصحافة... به! لم أره يقرأ حتى جريدة التاجيلات اليهودية".

كان زليج يستقبل هذا الغمز واللمز بمسلك رواقى خبير، لم يحرك بياض عينيه إلا فيما ندر، ولكن سرعان ما كان يعقد جبينه الثقيل في تقطبية عابسة، وينزل بمكواته المتقدمة بكل قوته على القماش. وعندما دوت أخبار مذابح اليهود في روسيا عبر الأطنطى، وتظاهر سكان الجيتو في مانهاتن عبر الشوارع الضيقة التي انشحت بالسواد، وعبر الطرقات التي كانت صاخبة بالحياة وقد لانت بالصمت حينئذ، وأحكم رتاج المحلات فيها والدكاكين، كانت صرخات الحزن العميق

تتطلق من كل باب ونافذة، كان الشخص الوحيد الذى بقى فى محله فى ذلك اليوم هو زليج العجوز. لم يدعه زملاؤه للحاق بالموكب. أحسوا بتناقض هذا البهيم مع مشهد المعزين فى المسيرة الصامتة. قال البواب المسيحى فى اليوم التالى إنه فى لحظة انطلاق اللحن الجنائزى من الشارع البعيد، خلع زليج قبعته المتسخة بسرعة، وأعادها إلى رأسه بسرعة وتوتر شديد. وقال البولندى فى نبرة استغراب واضحة: كان يبدو أكثر قسوة مما كان، ونزل بمكواته بقوة على القماش حتى خشيت أن يقع المبنى.

ولكن زليج لم يعر كل ذلك اهتمامًا يذكر. أعطى كيانه ووجوده لجمع كل ما يكسب، وكان أخشى ما يخشاه أن يضطر إلى إنفاق بعض مما يدخر اضطرارًا. وغير مرة كانت زوجته تستيقظ فزعة من شبح العجوز زليج فى ملابس النوم على سريره يحصى أوراق البنكنوت التى كان يعيدها دائمًا إلى مكانها تحت الوسادة. وكثيرًا ما كانت تلومه لشحه ولؤمه وإحجامه عن الإنفاق خلا المبلغ البسيط الذى كان يخصصه لمصاريف البيت. كانت تستجديه وتتصحه وتترف الدموع وهى تشير إلى الجدران العاطلة من الطلاء والأثاث المتآكل وملابسهم البالية، وكان يقول لها بين الحين والحين: "لا أملك سنًا واحدًا أقسم بربى".

قالت له فيما يشبه النواح: ابننا مريض ويحتاج لتغذية جيدة وراحة، وحفيدنا لم يعد طفلًا وقريبًا سيحتاج للمال ليكمل دراسته... بالأيامى الحالكة السواد... إنك تقتلها.

تغير لون زليج، ارتعشت يده من كلام زوجته، وظننت المرأة المسكينة أنها أحرزت بعض النجاح، ولكن ما مرت برهة حتى أنشأ يقول بصوت لاهت: "لا أملك سنتًا واحدًا أقسم بربى".

وذات يوم وصل الخبر إلى زليج العجوز وهو فى محل عمله بأن ابنه قد داهمه المرض الشديد. وبينما كان يرتقى درج البيت صاح أحد الجيران: "أسرع إلى الطبيب، المريض فقد السوى". ورد زليج بصوت أشبه بصوت القادم من قبر: "لا أملك سنتًا واحدًا أحلف لكم بالله".

بدأ مدخل البيت يزدحم بالمستأجرين بأسمالهم البالية، أغلبهم من النساء والأطفال. ومن بعيد كنت تسمع الصرخات الإيقاعية الصادرة من الأم. صمت العجوز لحظات، اقشعر بدنه كله من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، ثم سمع الجيران تمتمة الحزينة التى تشى بالموت وهو ينزل الدرج: "سأذهب وأقترض من مكان ما... سأذهب وأقترض من شخص ما...". وجاء بطبيب، وعندما طلب منه حفيده نقودًا ليذهب لإحضار الدواء خطف منه الروشنة وأسرع خارج البيت وهو لا يزال يتمتم: "سأضطر إلى الاقتراض... سأضطر إلى التسول".

وفى وقت متأخر من تلك الليلة سمع الجيران صرخة تصدر من شقة زليج العجوز، وفهموا منها أن الابن ودع الدنيا. كيس نقود زليج ظل يزداد نحافة كل يوم. سحب منه يدين مرتجفتين وأنفق على مراسم الجنازة وهو يتلفت بعينين زائغتين. وبشكل آلى حضر المراسم

اليهودية الخاصة بالدفن التي قام بها الجيران. تناول سكيناً وأحدث شقاً عميقاً في معطفه الرث ثم خلع خفيه وجلس على الأرض، وحنى رأسه الخالية من الشعر، وقد شله الحزن دون أن يذرف دمعة واحدة.

راح عمال المحل ينظرون إليه حين عاد بعد أيام الإجازة الثلاثة. حتى البولندي لم يجرؤ على الاقتراب منه. بدا كأن غشاوة تغطي عينيه المتوهجتين، اقتحمت التجاعيد العميقة وجهه وتضاءل جسده العملاق في عيونهم. وبعد ذلك اليوم أمعن في تجويع نفسه أكثر من السابق. ولكن الرغبة في العودة إلى روسيا "ليموت في وطنه في نهاية المطاف" فقدت قليلاً من قوتها الأولى. ثمة شيء الآن يشده بخيط ضعيف إلى العالم الجديد.

على رابية صغيرة في "دار الحياة"، وتحت شاهد نقشت عليه كتابة بالعبرية القديمة، يرقد جزء منه مدفوناً في الثرى. حاول جاهداً الابتعاد بأفكاره عن تلك الرابية. كم مضى من الزمن وهو يصر على الادخار دون ملل؟ العمر يلاحقه بخطوات متسارعة، وقوته على العمل بدأت تقل، ولكن حلمه في الرجوع إلى الوطن بدا قريباً من التحقق. أسابيع قليلة أو بضعة أشهر لا غير! أشاع اقتراب الموعد دفناً في هيكله البارد. في وسعه أن يتعطف ويكلم زوجته بشأن الخطط التي أعدها من أجل مستقبلهما في بلاده وخاصة كلما كانت تعيد على مسمعيه شكواها المالية. كانت كثيراً ما تقول وهي تشير إلى حفيدها الذي لم يبلغ بعد طور المراهقة: "أرأيت ماذا صنعت بنا وبالصبي المسكين؟ منذ أن ترك المدرسة وهو يعمل لأجلك، وماذا في النهاية؟"

حينذاك كان يقلب زليج خفق فجأة كمن يشعر بخوف غامض مباغت. كان حديثه عن حفيذه مبهمًا بعيدا عن التماسك، يتحدث عنه كمن يجيب عن سؤال لم يفهمه وهو يخشى أن يعرف محاوره ذلك. هو اجس مريرة تتعلق بالصبي بدأت تتحرش بأحلام العجوز بعد أن كان لا يعيره اهتمامًا في البداية. لقد كبر الصبي دون مشاكل. جرفته تيار الدراسة العلمانية المتعاطف في الجانب الشرقي. كان يعد نفسه لدخول الجامعة في هدوء. وفي غمرة حماسه ليكرس المبلغ المطلوب كان زليج قليل الاهتمام بما يجرى حوله. والآن وهو على وشك النصر أصبح واعيًا بخوف زائد من شيء غريب يتشكل في رحم المألوف، شفق بصدر ملأه الشك. وذات مساء تنأى إلى سمعه مصادفة حديث الصبي مع جدته عن كراهيته للاستبداد الروسي وعن عزمه البقاء في الولايات المتحدة، وانتهى بعد ذلك للتوسل إليها للتوسط لدى جده ليمنحه بالمال الضروري لإكمال دراسته في الجامعة.

نظر إليهم العجوز زليج بعينين قاسيتين وأنشأ يبرق ويرعد في ثورة غضب جائحة وهو يقول: "سوف تكمل دراستك في روسيا أيها الغبي الأحمق". أما زوجته المسالمة فقد استجمعت شجاعته وانفجرت فيه: "نعم... من واجبك أن تعطى كل ما انخرت لحفيذك هنا وليس في روسيا... يا لحظي التعس... في روسيا لا يقبلون اليهود في جامعاتهم".

تحول لون وجه العجوز إلى اللون الأرجواني. نهض من فوق

مقعده كالمجنون أخذ يلوح بيده ناحية الصبى مهدداً. كان يرى فيه عدواً حقيقياً لا يحبه، العدو الذى طالما كان يخشاه منذ زمن بعيد. ولكن زوجته سارعت بمقاطعته بصرخة حادة: "أنت رجل مجنون، انظر إلى الصبى المريض، أنت السبب فى موت ولدنا، جعلته يذبل مثل شمع ذوت أمام عيوننا". فى تلك الليلة كان زلج يتقلب فى فراشه كمن أصابته حمى. لم يذق للنوم طعمًا. ولأول مرة أدرك ما كانت تعنيه زوجته عندما أشارت إلى الصبى المعتل. لقد مات أبوه بالسل كما أخبرها الطبيب.

نهض على قدميه وقطرات من عرق بارد تلمع على جبينه وتسيل على وجنتيه ولحيته. وقف وقد علاه الشحوب وراح يتنفس بصعوبة. تمكنت منه الهواجس وسمع صوتاً ثقیلاً يناديه: "الصبى... ماذا أنت فاعل مع الصبى؟"

كانت أضواء الفجر الأولى تطل عبر خصائص النوافذ. الصمت يغلف المدينة الراقدة فى سبات غريب. تذكر حين استيقظ رضيع من أطفال الجيران يصرخ من مرض ألم به وانتهى به الأمر إلى سعال خانق. حرّض الشيخ ذو الشعر الأشيب نفسه ومشى على رءوس أصابعه فى خطوات بطيئة إلى حيث كان يرقد الصبى. مكث فترة يحدق فى ملامح الغلام الذابلة وجسده الضعيف، ثم رفع إحدى يديه ومس برفق شعر الصبى ولاطف خديه وثقنه. فتح الصبى عينيه وألقى نظرة سريعة على الهيكل المتداعى الذى يقف بجواره. أغلق بعدها عينيه على نحو ينم عن قسوة واضحة.

- هل كرهت النظر إلى وجه جدك؟ هو عدوك الآن... هه؟

كان صوت العجوز متهدجًا كصوت طفل استيقظ في منتصف الليل. لم يجب الصبي، ولكن العجوز لاحظ كيف كان جسده النحيل يرتجف، وكيف كانت الدموع تنهمر من عينيه، وكيف غارت خدوده. لبث هنيهة صامتًا ثم أقبل على الصبي ودنا من أذنيه وهمس بصوت متهدج: أنت تبكى، إه؟ جدك هو عدوك الآن. يا أحمق! غدا سأعطيك نقود الجامعة، أكرهت النظر إلى جدك! هو الآن عدوك، إه؟

نفوس صغيرة (١٩١٦)

مارى ليرنر

عمة زوجى، مارجريت أوبراين، فى الخامسة والسبعين. عرفت أنها كانت تدنو من النهاية. لم تكن تشكو أو تتذمر، فلقد عاشت حياة طويلة صعبة، والآن تحس بالتعب. حضر قس شاب أدار جميع الطقوس الخاصة بعشائها الربانى، كان يضع الزيت المقدس على جفنيها ويقول: "يا رب اغفر لها خطايا النظر"، ويضع الزيت المقدس على شفتيها ويقول: "يا رب اغفر لها خطايا اللسان". ويضع الزيت المقدس على أذنيها وعلى يديها اللتين امتلأتا بالعقد، وعلى قدميها الكليلتين. أصبحت جاهزة، بيد أنها كانت تخاف من معاناة أكثر ضراوة مع دنو ساعتها. ولذا بسطت يديها فى هدوء تحت قلبها، هنالك حيث لم تتحرك فى أحشائها نسمة، واستكانت لقدرتها الغريبة على التحمل، وبدا أنها استسلمت لحلم جميل. حضر الجيران لرؤيتها. نهضت قليلاً وأقبلت عليهم مرحبة. كانت تخص كل واحد منهم بكلمة: "وهل ذهبت ابنتك جوليا إلى نيويورك يا مسز كارتى؟ لن يشيها شيء، بل ستذهب على ما أعتقد. لقد فعلت الشيء نفسه عندما جئت من وطنى القديم. كنت أظن أن الشوارع ملأى بالنقود. ياه... ياه... لازلت

أرى التلال الخضراء فى بلادى". أو تتجه إلى المسز دلفن وتقول:
"فعلها تيرنس مرة أخرى، أعرف ذلك من نظرة عينيك. يا للمسكين!
أليس من شىء يقنعه بالتراجع؟ إيه يا عزيزتى! العطش نهاية الشراب
والحزن عاقبة كل حب". وإذا بقى زوارها أكثر من دقائق معدودة فإن
انتباهها يتشنت وتصبح إجاباتها غريبة ملغزة. إنها مثلاً تنغمم بشىء
مثل: "كل الأبرشيات المبيع" أو: "تلال ويكلو". أو تقول: "كهف كورك
الجميل يمتد حتى المحيط". ثم تغرق فى النوم وعلى شفثيها ابتسامة
معلقة، وعيناها مقفلتان تتسلل منهما، مع ذلك، نظرة غريبة تُشى
ببعض انتباه. فى مثل هذه الأوقات يهمس زوارها: "يا الله، إنها على
وشك النهاية لا ريب". ثم ينسحبون فى هدوء حزين إلى داخل المطبخ.

أنا لينان، ابنة أخيها، ربة بيت وأم لعدد من الأطفال، كانت
تتوقف عن أعمال البيت أحياناً التماساً للراحة وتبادل الحديث.

صاحت المسز هانلى ذات يوم:

- ألم يتوقف قلب هذه السيدة المسكينة المريضة؟ هل يعود لها
عقلها فعلاً؟

- هل أنت من هذا الرأى؟ أنا أيضاً أظن أن عقلها يعود، عندما
تريد هى، ولكنها فى الغالب تتسحب إلى ذاتها، تبدو أشبه
بنحلة مشغولة بشىء ما، شىء يملأ رأسها يوماً ويخلو منه
يوماً آخر. ورغم أنها ترقد أغلب الوقت فإن النوم لا يزور
عينها إلا لحظات معدودات، وفى الليل أسمعها أنا وزوجى

تتاجى نفسها كأن تقول: "لا، لا، لقد أصبحت ماضيًا، إنى عائدة إلى البداية الأولى لا محالة". أو تقول فى أحيان أخرى: "ها هو... قد جاء... لو أستطيع أن أستوقفه!".

- وهل عرفتُم ماذا تقول فى تلك الهينة السرية؟

- لم نفهم شيئًا، زوجى يقول إنها تتخيل نفسها فى مصعد. ولكن ذلك لأن زوجى يقضى يومه فى صعود وهبوط كالقربة المخفضة داخل مصعد، فماذا نتوقع منه غير هذا التفسير؟ لا شيء غير الصعود والهبوط، حتى فى أحلامه طوال الليل، مثلها تمامًا. أما أنا فإنى ممزقة بين سفرها الدائم ووعيتها المتقطع، أصبح أحيانًا فى أذنيها: "هل تحتاجين شيئًا يا عمى مارجريت؟. وتجيبينى فى عصبية ونفاد صبر: "لا، ولكن لماذا لا تكفين عن هذه الثرثرة والصياح؟".

- يا الله! يا الله!

- وهل تحسبين أنها تحب وجود الصغار؟ إنها تمكث معهم دقيقة أو دقيقتين ثم تقول إنها تريد أن تبقى وحدها، وتقول وهى تغلق عينيها: "خذهم بعيدًا عنى، لدى من هم أكثر قربًا!".

- أو تظنين بعد ذلك أن عقلها سليم؟

- أجل، عقلها سليم. هو شيء غامض فى رأسها تريد أن

تتذكره فحسب. أقرب مثال عندما كان الأب فلنت هنا. كانت مؤدبة ووقوراً في البداية، ثم بدأ تبرمها ونفاد صبرها، لم ينتبه المسكين لتلميحاتها، أغلقت عينيها وغابت في أطوارها الغريبة مرة أخرى. عندئذ كان في وسعي أن أقسم أنها تخشى أن تفقد شيئاً.

ولأن الزائرة، كانت زوجة شابة، كان لديها تفسيرها الذي أحبت أن تجازف بطرحه:

- لو كانت أرملة أو متزوجة لكانت الآن متعلقة بشخص ما أو أناس تحبهم. أو لعلها تجتر الآن أيام الشباب من جديد. وهل تظنين أن الشباب يمكن أن يعود؟

هزت أنا رأسها وقالت:

- قالت لى أمى إنها سيدة ناضجة من يومها. كل ما كانت تريده هو العمل وانخار المال والذهاب إلى الكنيسة كلما فرغت من العمل.

- ليس الأمر كما تظنين.

كانت عمة زوجى تصبح أحياناً:

- لو أتى عدت إلى سن الخامسة والعشرين ثانية، لبدأت بداية جديدة مختلفة!

- ربما... ربما... ولو أتى أشك في هذا.

لم يكن الأمر على ذلك النحو. كانت العجوز ترقد وسط وسائدها وعيناها مقفلتان تتسلل منهما، رغم ذلك، نظرة تشى بتركيز وانتباه غريبين. لم تكن تبحث عن حبيب شبابها الضائع، رغم أنها أحببت رجلاً ذات يوم، وكان طيفه يمر بأحلامها من حين إلى آخر وتحاول، كما كانت تفعل في الواقع، أن تصده. عندئذ كانت تنطق بهذا التعليق الغريب: "ها أنا ذى قد أصبحت ماضياً! لا بد أنى عائدة إلى نقطة البداية". وعندما كانت تبدأ فى اجترار ذكريات وعيها الأول، فإنها لا تلبث أن تمتطى سنين عمرها المتدفق وتحاول، فى كل مرة، الإتيان بالمزيد؛ بيد أن المشاهد الأبعد زمناً كانت تستعصى عليها. وإذا آنست منها قرباً حقيقياً فإنها لا تلبث تلك المشاهد أن تزول. كان نزولها نهر الذكريات مباحثاً لا ينتظر. كم كان هذا النزول مصدر عذابها ما بين القرب والبعد. تتوخى البقاء ولكن شيئاً غامضاً يجر بها بسرعة خاطفة تفوق توقعها لضوء النهار الردىء. عندئذ كانت تغير اتجاه الشراع دائماً وتجتهد فى استعادة الصعود.

واليوم قالت ابنة أخيها شيئاً عن سوق دونى بروك، فأنا أيضاً غادرت الوطن القديم منذ أن كانت طفلة، ملأت أشربة مركبها الخيالى بريح طيب وأغلقت أبوابها جميعاً أمام مألوف اللحظة. استتفرت جماع قوتها من أجل الحلم، وما مضت برهة حتى حلقت روحها فى مكان يكثر فيه الناس. لم تنزعج لأنها كانت قد خبرت ذلك الشيء من قبل. كان ذلك يعنى فى الواقع أنها صادفت النبع الذى منه تكرر حتى الثمالة. الصور تتوالى بعد ذلك فى عز الترقب والشوق، باهتة يكتنفها

الغموض فى البداية، ثم لا تلبث أن تبدأ كل صورة فى ظهورها المتجسد وممارسة دورها الكاشف. أحياناً تأتي فى صورة سخابة أيرلندية فى هيئة يمامة ومرجة نضرة، أو انهمار مباغت لمطر غزير، أو انقشاع سريع لغيوم كثيفة لا يبقى بعدها غير تساقط حبات من مطر تعلقت بأوراق الشجر على مرأى من الشمس الساطعة.

اقتحمت أضواء الصيف البيت لتغمر حجرتها الصغيرة المرتبة. ثم ها هى فتاة صغيرة فى الرابعة ترقص على مرأى من الجميع، وترتدى فستاناً زين بألوان قرنفلية غامقة يضيق عند أعلاه ويتسع عند أسفله. شقت طريقها إلى منزل جديد صغير تصدر منه أصوات الشواكيش الإيقاعية تمتزج بأصوات الرجال الذين يشيدون بيتاً. يملأ الأرضيات ما فاض من قطع الخشب. ارتقت الفتاة الصغيرة الدرج ثم ألقت نظرة سريعة اتجهت بعدها ناحية الدرج الضيق الجديد. صاح أحدهم:

- أين ذهبت مارجريت؟ لم ننته من الطابق العلوى بعد، قد يقع بالفتاة الصغيرة.

صاح بها أكبرهم:

- بيجى... تعالى هنا!

سمعوا صوتاً حاداً أشبه بالصياح ممتزجاً بالبهجة. وسرعان ما ظهر الفستان القرنفلى عند الدرج.

- أوه... تعالى... الرجل القصير العجوز غريب الشكل هنا يا
أبى! العجوز الذى يرتدى القبعة الطويلة! تعالى بسرعة
لنتفرجى.

أسرع الرجلان إلى الدرج لمساعدتها على النزول.

- أين هو؟

استدارت لتبحث عنه، ثم علت وجهها الكأبة عندما لم تجده.

- ذهب.. الرجل القصير ذهب!

ضحك أبوها وهو يحملها بين ذراعيه ويقول:

- إنه صغير جدا يا بيج، ترى هو فى حجمك؟

- لا... لا... أصغر.

- فى حجم الطفل الرضيع؟

عندئذ فكرت هنيهة وقالت:

- نعم، فى حجم الطفل الرضيع، ولكنه رجل يا أبى...

- حسناً، ولماذا لا تفكرين فى ملاحظته والإمساك به والاحتفاظ

به رهينة عندك حتى يفتدوه؟ إنهم يخفون قوارير إلى جوار
قوارير من الذهب، هؤلاء الأقزام مستعدون لدفع أى شىء
لمن يتركهم وشأنهم.

تجهمت حزناً وقد تعلقت عبرة بين أهداب عينيها كادت تسقط:

- أريده أن يعود.

- لست واثقاً من عودته، ذلك الجنى اللئيم، ما إن تتجاهليه مرة فلن يعود مرة أخرى.

هزت مارجريت أوبراين منكبيها فى غبطة غامرة. ذلك الماضى البعيد كان جديداً على أحلامها. لم يحدث أن غاصت كل هذه المسافة الموعلة فى القدم. بيد أنها تتذكر كل شيء كأنه يحدث الآن. بدت كأنها تشم رائحة بقايا الخشب وقطع الأثاث المتناثرة والرائحة الجيرية للدهانات القائمة من القبو الحجري.

واصلت العجوز حلمها، تستعين عليه بمخزون ماضيها الذى لا ينضب. منه تستدعى أحب الذكريات إلى قلبها واحدة تلو أخرى. هنالك أنت مارجريت الصغيرة ذات الضفيرة القصيرة المتكلمة من مؤخرة رأسها، والقلنسوة الصغيرة، والشال الذى تزين به عنقها، تسعى مجهدة إلى مدرستها فى أحد أيام الشتاء الماطرة. لقد شهدت الكثير من هذه الأيام الشتوية القاسية خلال عامها الدراسى. ولكن بقى هذا اليوم محفوراً فى ذاكرتها بسبب ما ذرفته من دموع. رأت المقاعد الطويلة، وألواح الكتابة الإردوازية، والخراطم المعلقة، والمعلم طويل القامة يقف عند منضدته ويسمع الفتاة الصغيرة تعلن عن نيتها من خلال النشيج:

- لا أريد أن أرجع إلى المدرسة مرة أخرى يا مستر وايلد.

- ماذا بك يا مارجريت؟ ولماذا لا تريدين العودة؟ ألم أكن لطيفاً معك؟

قالت وقد خنقتها الدموع:

- لا يا مستر وايلد، بالعكس لقد كنت لطيفاً معي للغاية، ولكنهم يقولون إنك تسعى لتحويلى إلى البروتستانتية؛ لذلك لن أعود مرة أخرى.

سحب الرجل الطويل الفتاة الصغيرة إلى حجره وراح يؤكد لها أنه لن يفعل، لن يجبرها أحد على ترك مدرستها التي أحببتها. شرح لها السيد وايلد أن زملاءها يريدون مضايقتها فقط؛ لأنها أكثر استجابة منهم للدروس... ومحبوبة.

كانت مارجريت الصغيرة تجثو على ركبتيها على الأرض الحجرية الباردة للكنيسة وتمعن النظر في صور القديسين، أو تصيح السمع لخشخشة أفرع الشجر الغضة في حديقة الكنيسة.

وهذه مارجريت أخرى أطول قليلاً تتأشد أباهما أن يشتري لها جريدة الأغاني الشعبية في كل مرة يذهب إلى السوق. جرائد طويلة ذات ورق رقيق وأسطر الشعر فيها متقاربة. تلك الأشعار التي كانت تضاهيها بالألحان المعروفة. مارجريت هذه كانت تتظف المدفأة وتكوم جذور العشب وتغنى وهي على منصبتها قريباً من المدخنة. كانت تغنى أحياناً عن "المعطف القصير القديم الأحمر الذى كان أبى يرتديه" والذى كان على حد قولها: "أزرار أزرار أزرار". أو تصدح بأغنية أخرى لها بداية مختلفة: "آه يا حبيبى، ما خطبك، طال غيابك. ذهب

جونى إلى السوق. وعدنى بشراء عقدة من شريط أزرق لأربط بها شعرى البنى الجميل".

ثم مرت صورة الجنى الذى سحر ممخضة اللبن ومنع تكون السمن رغم كل المحاولات، لم تتكون نقطة واحدة منه!! فككت مارجرى وأمها الممخضة وفحصا كل جزء فيها... لم يجدا شيئاً. قالت الأم:

- لا شئ غير الجنى حل بها. عيد الموتى سيكون يوم الجمعة. ضعى طبقاً من القشدة هذه الليلة لسكان المكان.

وحملت الفتاة التى كانت ترتدى عباءة قطنية زرقاء، والتى كانت تغازل جدائل شعرها الطويل الداكن رياح المساء فتضرب منكبيها، حملت القشدة على لوح حجرى ووضعته أمام مدخل الباب وقلت راجعة. وفى الصباح... كيف جاء السمن! ما إن بدءا فى خضخضة اللبن حتى شعرا به يتشكل داخل القربة. وعندما غسلت مارجرى الممخضة تجنبت النظر فى أركان الحجرة المظلمة، إذ الهواء متقل بالحركة ورصدت أنفاها همسات غامضة.

ثم تمر صورة الفتاة طويلة القامة فى العباءة الزرقاء ذاتها يغطى رأسها شال هذه المرة. أخذت حبات من ثمار البطاطس التى تم استخراجها وطرحها فى الفضاء. التقطت ثمرة صغيرة مستوية من دلو. ثمرة مستطيلة وملساء أعجبها تتاسقها الذى تميزت به من بين جميع الثمار. هتفت لأمها:

- ثمرة غاية فى الجمال.

تركت الأم مغزل الصوف لتلقى نظرة على الثمرة وقالت:

- معك حق! إنها من موائد الجان. فتشى جيدًا وستجدين مقاعدهم الصغيرة أيضًا.

وحدث ما قالته الأم، وجدت مارجریت أربع ثمرات من الشكل نفسه أصغر حجمًا تصورت أنها مقاعد صغار الجن.

- هل أعطيهم للنحلة الصغيرة تلعب بهم يا أمى؟

- لا تفعلنى ذلك. بل ضعهم خارج الباب. وفى الصباح حين تذهبين إلى الحقل لن تجدى لهم أثرًا. سوف يأخذها الجنى مرة أخرى.

ومن ثم رتبت مارجریت المائدة الجنية والمقاعد على عتبة باب البيت. وفى الصباح أرادت أن ترى النتيجة بين إقبال وإحجام؛ كانت تخشى أن تجد الثمرات هناك وتفسد القصة. ولكن... كلا... لقد ذهبت، ولم تجد لها أثرًا رغم أنها بحثت عنها فى كل مكان. وحتى هذه لم تكن آخر الثمرات الغريبة التى تعثر عليها.

مارجریت تنتقل من مشهد إلى مشهد. تظهر الآن وسط حشد من بنات وصبية يلعبون.

- ماذا نلعب؟

- نجرب اختبار اللباب.

- هاكم الورق.

كتب كل واحد اسما على ورقة وأسقطها فى جرة الماء. وفى الصباح تسالت مارجريت التى تستولى عليها الهواجس وبحثت عن ورقتها. لقد سبق السيف العذل!، طالعت سطحها المروض ففاضت عينها بالدموع. لقد كتبت اسم جدتها لأمها وأندرت حالة الورقة بموت الجدة فى غضون العام. كانت الأوراق الأخرى سليمة. عمدت مارجريت لإخفاء ورقتها التى تتنر بشؤم، ولم تنفوه بكلمة لأحد رغم أن الأطفال راحوا يتذمرون: هناك ورقة ناقصة، هناك ورقة ناقصة!! ورقة من؟ ورقتي هنا، هل هى ورقتك يا جون؟ هل هى ورقتك يا أستر؟ ولكن مارجريت لم تبج بالسر. وفى هذا العام كانت الجدة قد رحلت، كانت عجوزًا طاعنة فى السن رغم حيويتها البادية. وتوقفت مارجريت عن ممارسة هذه اللعبة التى كانت أشبه بالرهان على الأقدار، بقية حياتها.

وكشأن الفتيات لا يمسن بزمam الزمن، استوت مارجريت - بسرعة ورسوخ قدم - امرأة كاملة للنضج. طالت تنورتها وأصبح لزاما عليها أن تعقص جدائل شعرها وترسله خلف ظهرها ولكنها تركتها تتلى كيفما اتفق، وظلت تعدو مع الصبية بحثاً فى الأحراش، تتسلق أشجار التفاح، وتتدفع عبر التلال التى تخفق فيها الرياح. كانت الأم تضرب المثل بأختها مارى التى كانت، رغم أنها أصغر سناً،

تجلس فى هدوء بجوار المدفأة وتقوم بالتطريز علامة على الألب.
وكان فى وسع مارى أن تشغل بالإبرة وتحفظ بنماذج منها. كانت الأم
توبخ مارجريت بقولها:

- أى نوع من الفتيات أنت؟ ألا تملين من الجرى والوثب
كالغزلان؟ لقد حان الوقت لتعلمى شيئاً. كل ما
تعرفينه هو الصفارات وبنادق الكشافه التى لا نفع فيها؟

وبالها من أصوات صغيرية ألقتها من الأعواد الصغيرة التى
جمعتها من أشجار الصفصاف وقت الربيع. وبنادق الكشافه التى
صنعتها من سيقان نزع من اللب وملأها بماء الجبول بأعواد تعمل
عمل المكبس. كانوا يختبئون خلف جذوع الشجر ويرشقون بالماء
العدو والصديق. وكثيراً ما كانوا يعودون إلى منازلهم وقد احمرت
آذانهم وينامون دون عشاء زاعمين أنهم لم يلحظوا المائدة وقد قدمت
عليها البطاطس المحمصه التى كانوا يسمونها البطاطس الضاحكة
لانشطار وجهها، إلى جانب اللبن المخضوض والبيض الجديد وفطير
الشوفان والزبد الطازج. كانت الأم تقول وعلى فمها ابتسامة خفيفة
عندما تراهم فى الصباح يلتهمون العصيدة التهاماً.

- الطفل الذى لا يتناول عشاءه يصبح اثنين على مائدة الإفطار.
- كم كانت الحياة تملأ هذه المخلوقات! أتصير إلى شيخوخة
مقينة تلك المخلوقة التى كانت ترفل فى العافية؟ كيف تتم هذه
الأشياء؟ لقد بدا تقدمها للرزين نحو النضج بعيداً عن ذلك

المصير المحتوم، قعيدة إلى رحيل تنكئ على بوابة الخروج
فى ضوء القمر. ورغم أنها داخل جدران البيت فإنها لا تبدى
اعتراضاً على الخروج. بيد أن أحداً لم يلاحظ الخوف فى
عينها.

قالت الأم دون قصد ذات مرة:

- هو ذا ابن مكورى طويل الساقين يبحث عن مارى، وأراهن
على ذلك.

ولكن جبرى مكورى لم يأت من أجل مارى، رغم أنها تزوجته
آخر الأمر، وهاجرا إلى الولايات المتحدة بأطفالهما بعد بضع سنوات
من رحلة أختها دون رفيق إلى تلك البلاد البعيدة.

إن دخول جبرى مكورى المفاجئ دليل على قيام عالم حلمها
المنقطع على ضحالة الواقع. من كان ليهتم بحياة مخططة سلفاً لامرأة
ناضجة؟ الفتنة تقع الآن على مبعده منها، وإن أتاح لها فجوات بين
نوبات الألم قدراً من سعادة، كانت على الفور تدير وجهها ممثلة
بالترقب صوب رؤى الطفولة الأولى. أحياناً كان فى وسعها القيام
بالرحلة مرتين دون أن يستولى عليها التعب. ولكن نوبات راحتها
كانت تقصر، وكثيراً ما كان الواقع يقطع الحلم قبل أن يكتمل ليحرمها
لحظات بهجتها. وكثيراً ما تظهر رؤية أكثر حضوراً من مثيلاتها
اللاتى تريد الإمساك بهن. وأخيراً عادت بها كلمات آنا العرضية إلى
مررها الوعر على النحو الذى سبق.

وكما تقول ابنة أخيها: عندما تكون فى يقظتها بعيدا عن الأحلام
تفعل أنا ما فى وسعها مما يصرفها عن الحلم، ترسل الصغار
ليسألوها: "هل تريدن كوبًا من الشاي الآن يا جدتى؟ أو شيئًا من
حلوى العنب؟"

وذات يوم، بعد أن قضت المريضة يوما آخر تصارع نوبات
الغياب، أحضرت أنا سترتها الجديدة المصنوعة من الحرير لتأخذ رأى
عمتها. كانت العجوز متأفة فى ملابسها وتتمتع بنوق عال. وكانت أيام
الصبا الأول تحيك لنفسها ما ترتديه. راحت العينان المتهالكتان
الحادتان تحديقان فى الأشرطة الرائعة التى كانت تزين صدر الفستان
وسألت بنبرة انتقاص:

- ما كل هذه الأشرطة الملصقة؟

وردت أنا فى حق:

- لعلك تريدن مثله، ترتدينه مثل سويتز الجرسى الملىء
بالأزرار من أعلاه إلى أسفله.

التمع وجه العجوز بضوء مباغت وهتفت:

- هذا ما كنت أبحث عنه منذ زمن... سيأتى الآن... المعطف
الأحمر! لابد أنى راجعة إلى نقطة البداية.

وغابت من جديد، تراخى جسدها كأنها تهىئ نفسها لمنوم
مغناطيسى. ولكى تصل إلى الصورة التى تبتغى رؤيتها فى صالة

عرض عقلها، كان عليها أن تبحث عن نقطة للبداية ثم تتأمل الصور بعد ذلك في ترتيب مقصود.

بأق من الفتيات فى أول الصبا يرفلن فى ثيابهن الوردية أو الزرقاء بأرجلهن العارية من الجوارب، أو يرتدين البروغ^(*)، ويعبثن بأطراف تنوراتهن خفصاً ورفعاً، أو يطوين جدائل شعورهن الثقيلة فى دلال فائن. وفى منتصف الطريق يلوح طيف آخر يشق طريقه، فتاة فى التاسعة أو فى العاشرة تنتهى يميناً وشمالاً أمام بقايا مرآة قديمة لا تكاد تعينها على الرؤية. تقطب جبينها لرؤية الفستان الأحمر الذى يغازل كاحليها. اشترته الأم أكبر من مقاسها حتى لا يسبقه جسد الفتاة فينمو بعيداً عنه. كانت أكمامه تبتلع ذراعيها الصغيرتين السمرأوين، وكان منكبيها قد دسا فى كيس فضفاض. وكان صدر الفستان نائماً بشكل غريب يبعث على الضحك، قالت: إنى أبدو فيه أشبه بذكر البط، لأن أرتديه هكذا. وقطبت مارجريت جبينها فيما يشى بعزم مباغت: "فى وسعى أن أصلح من شأنه كما أصلحت معطف جون ليسصبح على مقاس مارتن".

تناولت إبرة ومقصاً وخيطاً وتسللت إلى غرفة نومها الصغيرة. كان النهار فى أوله عندما بدأت القص والفتق. ذهب الصباح واقتربت ساعة الغداء.

- بيجى، ترى أين ذهبت البنات؟

^(*) حذاء أيرلندى غليظ. (المترجم)

- لعلها ذهبت إلى عمّتها تيريزا.

- أحسن أنها ابتعدت عن عيني الآن لأن يدي تَأْكُلَنِي على ضربها "علقة"؛ تقف يميناً وشمالاً أمام المرأة وتثرثر عن مقاس المعطف الذي اشتريته لها لأنه أكبر قليلاً!

وبخطى متسارعة مضى الظهر والخياطة الصغيرة الجالسة في غرفتها مشغولة بالفتق والرتق والتجريب والفتق والرتق من جديد: "يجب أن أصغره بقدر ما أستطيع".

اضطرت لاعتلاء النافذة كي تلحق بآخر أضواء النهار. وعندما حل الغسق أزاحت شعرها الأسود عن خديها الحمرابين، وأقحمت جسدها الرقيق في الفستان الأحمر. أصبح على القد تماماً. أصبح أشبه بزي الفروسية الذي كانت ترتديه سيدة رأتهما تجوب الريف من أجل الصيد. بدا ضيقاً عندما زررته عند صدرها الطفولي الأمسح. وكان خصرها أشبه بالمربع محشوا فيه حشواً. وقريباً من وركيها الهزيلين كان يرفرف في رقص مبتهر. وتحت كانت تتورثها القطنية تغطي ساقيهما اللتين سفعتهما الشمس بآثار الجروح التي سببتها حشائش العليق الخشنة.

نزلت الدرج بخطوات واثقة وهي منتشية بالنصر. كانت الأم وواحدة من الجيران تجلسان أمام المدفأة التي استعرت بوقود الخث.^(٩)

(٩) نسيج نبلي نصف متقحم يتخذ وفودا. (المترجم)

وقفت أمامهما بنفس مطمئنة لم تلبث أن دببت فيها الريبة حين رأت الدهشة تعلو وجهيهما. دارت حول المرأة بينما صاحبت بها الأم:

- يا نهارك أسود، ما جلد السجق هذا الذى ترتدينه؟

وأردفت بعد أن عرفت ما كان من أمر الفستان:

- يا رب ارحمنى، أرايت يا إلين، إنه بقايا الفستان الجميل الذى اشتريته لها واسعا لكى يكفيها خمس السنوات القادمة!!

قالت الفتاة وقد همت بالبكاء:

- كان أكبر من اللازم، أبدو فيه مثل ذكر البط.

ثم فى نبرة تملق:

- لقد ضيقته قليلاً يا أمى، إنه يبدو رائعاً الآن، ثم إننى قد لا أضمن كثيراً فى المستقبل. انظرى إلى مقاسه الآن، بالضبط.

- بالضبط! احفظ عقلى يا رب.

سألت الجارة:

- هل هى التى قامت بإصلاحه بنفسها؟

فقالت مارجريت فى نبرة تحد:

- نعم، أنا، أنا الذى قصصته.

فقالت الجارة لأم مارجريت:

- ماجى، إنه عمل ممتاز لطفلة فى سنها؛ يجب ألا تلومينها، لقد قصته كأحسن ما يكون. ثم انفجرت فى ضحك لم تستطع له دفعا وقالت:

- إنها هى التى ستلبسه، يا ربى، كل ما تحتاجه الآن جواد وسرج وتصبح فارسة!

وبهذا التبكيت انتهى النقاش حول التدمير الجائر للفساتان الجميل، حيث يندر وجود الفساتين الجميلة فى ذلك البيت.

كم من الزمن ارتدت ذلك الفستان (المحزق)، وكم بدت فيه جميلة رغم ما كان من ضحك الصبية واستهزائهم.

يا لها من متعة وجدتها العجوز فى استعادة تلك الحادثة بما احتوت عليه من تفاصيل دقيقة. لقد زودها ذلك بإحساس بالوجود. كانت مارجريت أوبراين ترى بعين الحلم كل هذه الكائنات الطيفية دون أن تأبه لها. ولكن الفتاة الصغيرة ذات الفستان الأحمر هى كل ما علق بذاكرتها حقا. لقد أصلحت الكثير من الفساتين بعد هذه الحادثة، وارتدى من صنع يدها كثير من الفتيات المولعات بالمتع والمغامرة. قصت الفساتين الجميلة لعرائس يرتدينها فى الكنيسة يوم زفافهن، لم يتبق شئ فى ذاكرتها غير ذكرى الفستان الأحمر. فى وسعها الآن أن تحس بالملمس الناعم لقماشه الكرزى^(*) الجميل وهى تعمل فيه بإبرتها،

(*) قماش صوفى خشن. (المترجم)

بإصبعيها الصغيرتين، وفي وسعها أن ترى وهج ألوانه الغنية على
وجنتيها السمرائين من سفح الرياح. هتفت متهلة:

- إلى الحياة إذن!

وسألتها أنا بشيء من الأسى:

- أية حياة يا عمتي مارجريت؟ أتخشين من النهاية المحتومة يا
عمتي العزيزة؟

- لا... لا... البتة. لقد أسلمت وجهي لله منذ زمن بعيد رغم
المرارة التي يختبرها المرء في البداية. إن الله غفور رحيم.
ثم إننا لن نخلد في هذه الدنيا.

طرفت عيناها المفتوحتان على موقدي الجاز المشتعلين وكأنها
تأنس للضوء الخافت. تساءلت في رنة سخرية:

- لم كل هذه الأضواء؟ ألا تعلمون أن زوجة الشماع قد رحلت
ولا يزال ضوء النهار، الذي لن أعدل به ضوءًا آخر، لم
يرحل بعد؟

أذعنت أنا وجلست بجوار الفراش في غسق يوم من أيام الربيع
المعتدلة. تسالت نسمات خفيفة من تحت الستائر البيضاء الناعمة
أرسلت معها عبق العشب المستجد، وأريج زهور الكمثرى من الفناء.
بنت اللحظة استثناء منبت الصلة بساعات النهار المهرولة والمقطوعة

للراحة والتفكير والإفضاءات، لحظة طليقة لا بد أن العجوز أحست بأهميتها فاستدارت ناحية ابنة أخيها ومدت إليها يداً حذرة وهى تقول:

- آنا يا ابنتى، تعرفين أننى فى آخر لحظات العمر، أنا أعرف. ولكن ليس هناك امرأة فى كامل عقلها أكثر منى. هل تريدان أن أخبرك بما فكرت فيه وأزمنت عمله خلال الأيام والليالى الماضية؟ قد تضحكين، سوف أفك أسر النفوس الصغيرة.

وحاولت آنا أن تتمثل خيالات العجوز فلم تضحك، ولكنها بكل ما تحمله من حب وفهم لثقافة السلت^(*) اغرورقت عيناها بالدموع. قالت: إنه تفكير يجيئنى أنا نفسى أحياناً، فكل الفتيات الصغار اللاتى كننهن أصبحن فى ذمة الماضى. عندئذ هتفت العجوز وقد سررتها استجابة آنا غير المتوقعة:

- لقد قلتها بنفسك إذن! ومعى أنا بالذات يصبح الأمر مدعاة للأسف حقاً. ففتياتى الصغيرات الفاتئات اللاتى أحببت لى يذكرهن أحد سواى. وحتى أنا لى أذكرهن فى المستقبل القريب. أحياناً أراهن يناشدننى ألا أتوقف عن ذكرهن، فكان لزاماً على أن أبقى على حياتهن فى الذاكرة، إنى لاحقة بهن. صدقنى إن هذه الأطياف الصغيرة هى عزائى الحقيقى، وإن صغار الواقع هم الخيال.

(*) السلت هم أحد الشعوب الهندية الأوروبية التى استقرت فى وسط أوروبا وانتشرت إلى أوروبا الغربية والجزر البريطانية خاصة. (المترجم)

بدا كأن أنا استعادت جمالها التليد بعد أن أتت عليه هموم البيت والأطفال. أقبلت على العجوز إقبال العاشقة، وقالت لها فى همس حنون:

- عمتى الحبيبة، لقد فأتك الكثير منهن. سوف أجلس معك كل مساء وقت الغروب لأسمع منك عن أولئك الفتيات الفاتنات اللاتى يقطن عقلك. لقد حكى لى أمتى كثيرًا عن الوطن القديم، وأستطيع أن أتذكره جيدًا رغم أنى كنت أصغر القوم. مارى ومارجريت وجون ومارتن وإستر والعم شميوس وغيرهم كثيرون. سأراهم معك بالوضوح نفسه، فى رأسى ركن تتوالى فيه الصور متسارعة كثيفة كثافة النجوم فى ليلالى الشتاء. ومعى سوف يرقصن ويقصفن إلى يوم الدين.

وكان العجوز قد نالت منى قلبها. بدأت تعيد طرح مخلوقاتها الصغيرة سعيدة لأنها وجدت آخر الأمر من تأتمنه عليهن، وسعيدة لأنها أنقذت من وحش النسيان المهلك. كانت تسأل وتجييب فى سعادة غامرة وكأنها تحدث شخصًا ثالثًا: "هل تتذكرين تلك الفتاة الحمقاء التى كانت تعصب رأس ثورها بالمنديل؟ هل تتذكرينها الآن؟، والأخرى المؤنية التى قصت فستانها الأحمر الجميل؟"

كانت العجوز ما برحت تبطئ الخطو نحو القدر المحتوم. وقبل شهر من ساعة الفراق كان الربيع يقترب من نهايته. وبدأت ساعات النهار تطول إيدانًا بقدم الصيف. وفى أوقات الشفق المتناقلة راحت

المرأتان تعقدان الجلسات لاستحضار الذكريات. وعلى اللحاف الأبيض اهتزت الأطياف طربًا متألفة بريعان صبا لا يصدق. لقد ألفت هذه الكائنات الفاتنة فكن يأتين طوعًا ليسرين عنها ساعات الألم، يرفلن في الفتنة والبهجة ويعنّنها في لحظات نشوتها المقدسة.

حدث القس الشاب أنا بشأن العجوز في أيامها الأخيرة قال:

- إنها سيدة طاهرة، ستال نهاية القديسين. من تأملاتها الصوفية يرى نور السماء المقدس يضيء وجهها، إنها تبدو كمن يسمع ترتيل الملائكة.

وافقت أنا على استنتاجات القس احترامًا له، ولكنها لم تطلعه على خطة العجوز الأخيرة. كان قسا ورعًا حسن النية. وتعلمت أنا كيف تحرض زوجها على أن يهتم بالنفوس الصغيرة. وعندما تنفض يدها من أمور الحياة الدنيا لا تلبث أن تعود بسرعة إلى الحلقة السحرية.

المرأة الأخرى (١٩٢٠)

شروود أندرسن

"أنا فى حالة حب مع زوجتى". ملاحظة غير ضرورية قالها، فلم أسأله عن علاقته بالمرأة التى تزوجها. مشينا حوالى عشر دقائق، قالها أثناء ذلك مرة أخرى. استدرت لأنظر إليه. بدأ يتحدث وحكى لى الحكاية التى أنوى أن أضعها أمامكم الآن.

كل ما كان يريد أن يحكيه حدث أثناء أكثر أسابيع حياته ازدهارًا بالأحداث. كان سيتزوج مساء يوم الجمعة. ويوم الجمعة السابق عليه تلقى برقية تزف إليه خبر تعيينه فى وظيفة حكومية. شئ آخر حدث جعله مزهوا بنفسه وسعيدًا، فقد كان يكتب الشعر سرًا، وخلال السنة الماضية نشر الكثير من قصائده فى مجلات الشعر. أحد هذه الأندية التى تمنح الجوائز لما يرونه أحسن القصائد المنشورة خلال العام المنصرم وضعت اسمه على رأس قائمتها. نشرت قصة نجاحه فى الجرائد التى تصدر فى مدينته، مسقط رأسه. ونشرت إحدى صورته. وبطبيعة الحال كان سعيدًا غاية السعادة. وظل مشدود الأغصاب طوال الأسبوع. كان يزور خطيبته، وهى ابنة قاض، كل

يوم من أيام الأسبوع تقريبًا. وعندما كان يذهب إلى هناك كان المنزل يمتلئ بالناس. أصبح يتلقى الكثير من الرسائل والبرقيات والطرود. وما كان ليقف في ركن يريد أن يخلو بنفسه قليلاً حتى يجد الكثير من الرجال والنساء يقبلون إليه لسماع حديثه وتهنئته على الوظيفة الحكومية وعلى إنجازهِ كشاعر. أصبح الكل يمتدحه. أصبح يجد صعوبة في النوم كلما آوى إلى فراشه. في مساء يوم الخميس ذهب إلى المسرح وبدأ أن الجميع يعرفونه هناك. الجميع يحيونه. وبعد انتهاء الفصل الأول عمد خمسة أو ستة رجال وامرأتان لمغادرة مقاعدهم والالتفاف حوله. غرباء آخرون كانوا يجلسون في الصف نفسه الذي كان يجلس فيه، مدوا أعناقهم ونظروا. لم يحدث أن كان موضعاً لمثل هذا القدر من الاهتمام من قبل.

وكما قال لي عندما حكى لي عن تجربته، كانت هذه الأوقات غير طبيعية تماماً بالنسبة له. كان يشعر أنه يطفو في الهواء. وعندما كان يأوى إلى فراشه بعد مقابلة الكثير من الناس وسماع الكثير من كلمات التقريظ كانت رأسه تهتز طرباً. وعندما يغلق عينيه كان يتخيل أن جموعاً غفيرة من الناس تقتحم عليه حجرته، وكأنما أصبح مركز اهتمام الناس جميعاً في بلدته. استحوذت عليه أكثر الأفكار جموحاً وغبابة. رأى نفسه يركب عربة يجرها حصان عبر شوارع المدينة وقد فتحت النوافذ على مصاريعها، بينما الناس يتدافعون نحو الأبواب ويهتفون باسمه، يعقب ذلك صيحة ابتهاج عالية. تعبر العربة شارعاً

تسده الجماهير الغفيرة. مائة ألف من العيون تتطلع إليه ولسان حالها يقول: ها هو البطل، أنت الذى صنعت من نفسك بطلاً.

لم يستطع صاحبى أن يشرح لى: هل كانت بهجة الناس به بسبب قصائده الغراء أو بسبب عمل خارق جاء به فى وظيفته الحكومية الجديدة؟. كانت الشقة التى كان يعيش فيها فى ذلك الوقت تقع فى شارع فوق تل عند طرف المدينة، ومن نافذة حجرة نومه كان يوسعه النظر إلى أشجار وسقف مصنع ونهر. وإذا لم يستطع النوم، بسبب الأحلام التى ما فتئت تتزاحم على رأسه، وتحرمه لذة النوم، كان يغادر الفراش ويترك نفسه نهياً للتفكير.

حاول السيطرة على أفكاره. ولكن عندما جلس إلى جوار النافذة، وكان فى كامل يقظته، حدث ما لم يتوقعه وما يمكن أن يحط من قدره. كان الليل خلواً من الغيوم رقيق النسائم، وكان القمر بدرًا. أراد أن يحلم بالمرأة التى ستصبح زوجته، وراح يفكر فى أبيات لقصائد فخمة أو ابتداع خطط ترقيه فى عمله. أما عقله فقد رفض الكثير من هذه الخطط والقصائد وكان ذلك مفاجأة له.

على ناصية الشارع الذى يسكن فيه يقع محل سجاثر وكشك جرائد يديره رجل سمين فى الأربعين وزوجته، امرأة نشيطة ضامرة الجسم ذات عينين فانتنتين رماديتين. كان من عادته أن يتوقف كل صباح لشراء جريدة قبل أن يذهب إلى المدينة. أحياناً لم يكن يرى إلا الرجل السمين. ولكن فى أحيان أخرى كان الرجل يختفى وتبقى المرأة

لنعطيه ما يريد شراءه. كانت، كما أكد لي للمرة العشرين، وهو يحكى لي حكايته، امرأة عادية جدا لا يميزها شئ خاص. ولكن لأمر ما لم يستطع أن يفهم لماذا كانت تثيره غاية الإثارة عندما يكون بجوارها. وأثناء ذلك الأسبوع، وسط فوضاه الأخيرة، كانت هي الشخص الوحيد الذى ظل متماسكا خاليًا من العقد. عندما كان يفكر فى الأمور الفخمة والقصائد العصماء كان خياله يذهب إليها. كان خياله يتوقف عند فكرة واحدة؛ وهى كيف تكون له علاقة غرامية بهذه السيدة!.

"عجزت عن فهم نفسى". قال وهو يسرد لى القصة: "فى الليل عندما نهدأ المدينة، وفى الوقت الذى ينبغى أن أكون فيه نائمًا، كنت أفكر فيها طوال الوقت. وبعد يومين أو ثلاثة من هذا التفكير بدأ إحساسى بها يدخل فى أحلام يقظتى. أصبحت مشوش الذهن إلى درجة مخيفة. وعندما ذهبت لرؤية المرأة التى هى الآن زوجتى وجدت أن حبنى لها قد تأثر بأفكارى المضطربة تلك. هناك امرأة واحدة فى العالم كنت أريدها أن تعيش معى وتكون رفيقى فى رحلة الحياة. ولكنى الآن، كما ترى، أريدت هذه المرأة الأخرى أن تكون بين ذراعى. لقد وجدت طريقها إلى كيانى. كان الناس يقولون: إننى رجل عظيم خليق بالأمور العظيمة. فى ذلك المساء، عندما ذهبت إلى المسرح، عدت إلى البيت مشيًا لأنى كنت أعرف أنى لن أقدر على النوم. ولكى أراضى رغبة ملحة فى نفسى ذهبت وجلست على الرصيف بجوار دكان السجائر. كان الدكان فى مبنى من طابقين. أعرف أن المرأة تعيش فى

الطابق الثانى مع زوجها. جلست ساعات طوالاً مستنداً إلى جدار بيتها، وما برحت أتخيلها هى وزوجها وهما على فراشهما وذلك ما أثار حفيظتى".

"ثم بدأت أغضب من نفسى. ذهبت إلى البيت ونمت وأنا أرتعش من الغضب. كان هناك الكثير من الكتب الشعرية والنثرية التى كنت أعجب بها، وضعت بعضها بجوار سريرى".

"كانت الأصوات القادمة من الكتب مثل أصوات الموتى. لم تستطع الحروف المطبوعة أن تنفذ إلى مشاعرى. حاولت التفكير فى المرأة التى أحببت، ولكن طرفها أضحى بعيداً، شيئاً لا صلة لى به فى تلك اللحظات. رحت أقلب فى الفراش وأقوم وأقعد. كانت تجربة قاسية".

"وفى صباح يوم الأربعاء دخلت المتجر. هناك كانت تقف المرأة بمفردها. أعتقد أنها كانت تعرف مشاعرى نحوها. ربما كانت تفكر فى مثلما كنت أفكر فيها. داعبت أركان فمها ابتسامة غامضة. كانت ترتدى فستاناً من قماش رخيص به مزق عند الكتف. لابد أنها كانت أكبر سناً بعشر سنوات على الأقل. وعندما وضعت النقود على الطاولة الزجاجية التى كانت تجلس خلفها ارتعشت يداى حتى صدرت من النقود أصوات حادة مجلجلة. وعندما تحدثت كان صوتى الصادر من حنجرتى بعيداً غريباً عنى. لم يصل إلى مجرد الهمس. قلت لها: "أريدك، أريدك الآن. ألا تستطيعين الهرب من زوجك؟ تعالى إلى شقتى الليلة الساعة السابعة".

"وجاءت المرأة بالفعل إلى شقتي في السابعة. في ذلك الصباح لم نقل شيئاً. كان كلانا يرمق الآخر بنظراته. نسيت كل شيء في هذا العالم فيما عداها. ثم أومأت برأسها وذهبت إلى حال سبيلها. والآن وأنا أفكر في الموقف لا أستطيع أن أتذكر كلمة واحدة مما قالته. جاءت إلى شقتي في السابعة وكان الظلام يملأ الأركان. يجب أن تفهم أن ذلك كان في شهر أكتوبر. لم أشعل النور وكنت قد صرفت خادمي".

"لم أكن على ما يرام في ذلك اليوم. زارني كثير من الناس في مكتبي يبتغون رؤيتي، ولكنني كنت غائبة في الاضطراب وأنا أتحدث إليهم. عزوا اضطرابي إلى اقتراب زواجي وانصرفوا يضحكون".

"في ذلك الصباح، قبل زواجي بيوم تسلمت خطاباً طويلاً غاية في الرقة من خطيبتى. في الليلة السابقة لم تستطع هي أيضاً أن تنام، فقد غادرت الفراش وراحت تكتب الرسالة. كل ما كتبتّه كان واضحاً وواقعياً. ولكنها كانت كإنسان حى، بدا أنها توارت على مسافة ما. بدت لى أشبه بطائر يحلق في سماوات بعيدة. وكنت أشبه بصبي ريفي حافى القدمين ينظر إلى طيفها المتراجع. ترى هل فهمت ما أقصد؟".

"أما الخطاب فقد عبرت فيه عن كل خلجات قلبها. كانت في الواقع غرة لا تعرف من أمور الحياة شيئاً، ولكنها كانت امرأة. أغلب للظن أنها نامت على سريرها وبدأت تكتب بعصبية كما أفعل أنا. كانت تدرك أن تغييراً كبيراً على وشك أن يلهم بحياتها، وكانت سعيدة وكانت خائفة أيضاً. هناك كانت تفكر في الأمر كله. ثم غادرت الفراش

وقررت أن تتحدث معى على الورق. أخبرتني كم كانت خائفة وكم كانت سعيدة أيضاً. ومثل كل الفتيات الصغيرات كانت تسمع من يهوس لها. الرسالة كانت رقيقة وناعمة. ومما قالتها: "سوف ننسى بعد الزواج ولفترة طويلة أننا كنا رجلاً وامرأة. سنكون كائنين بشريين فحسب. تذكر هذا. أنا امرأة جاهلة ولذا فسوف أبدو ساذجة وعبيطة في كثير من الأحيان. يجب أن تحبني وتكون حنوناً صبوراً معى. وعندما أعرف أكثر، وعندما تعلمنى مع مضى الوقت خبرات الحياة، سوف أسعى لأن أرد لك الجميل. سوف أحبك كل الحب. كيانى كله سوف يكون ملكك. إمكانية ذلك متوفرة لدى، وإلا لما فكرت فى الزواج مطلقاً. إنى خائفة ولكنى سعيدة فى الوقت نفسه. أوه، إنسى سعيدة! أصبح زواجنا قاب قوسين أو أدنى".

"الآن ترى بوضوح أية ورطة أنا فيها. فى مكتبى، بعد أن قرأت رسالة خطيبتى، أصبحت فجأة أكثر عزمًا وقوة. أتذكر أنى غادرت مقعدى وتمشيت فخوراً بأنى سأكون زوجاً لامرأة بهذا النبيل والكرم. بدأت أهتم بخطيبتى اهتماماً بالغاً بعد أن عرفت ضعفى. وعقدت العزم على أن أتخلص منه. وفى الساعة التاسعة قررت أن أذهب لرؤية خطيبتى. "أنا على ما يرام الآن" قلت فى نفسى. إن روعة شخصيتها وجمالها الروحي أنقذنى من نفسى. سوف أذهب إلى البيت وأطرد المرأة الأخرى. فى الصباح كنت قد كلمت خامى فى التليفون وقلت له إنى لا أريده أن يكون فى الشقة ذلك المساء. أمسكت بسماعة

التليفون لأقول له ألا يخادر الشقة. ولكن فكرة ألحت على، فأنا لا أريده في الشقة على أية حال، قلت في نفسي: فماذا يقول عندما يرى امرأه في شقتي في مساء اليوم السابق ليوم زواجي؟ وضعت سماعة التليفون وقررت الذهاب إلى البيت. إذا كنت أريد لخادمي أن يبقى خارج الشقة، هذا لأنى لا أريده أن يسمعنى أحادث المرأة. لا يمكن أن أكون فظا معها. سوف يكون على أن أجد بعض التفسير".

"جاءت المرأة في الساعة بالضبط. وكما قد تتوقع سمحت لها بالدخول، ونسيت العزم الذى أضمرته. ربما لأن النية لم تكن متوفرة لأفعل شيئاً. لم تضغط على الجرس وطرقت الباب برقة بالغة. بدا لى أن كل ما فعلته في ذلك المساء كان رقيقاً وهادئاً ولكنه كان محدداً وسريعاً. هل استعطت أن أشرح لك؟، عندما جاءت كنت أقف خلف الباب، كنت أقف منذ نصف ساعة. كانت يداى ترتعشان كما كانتا ترتعشان في الصباح عندما نظرت عيناها إلى وعندما وضعت القروش على طاولة المحل. عندما فتحت الباب دخلت بسرعة وأخذتها بين ذراعى، ووقفنا هكذا في الظلام. لم تعد يداى ترتعشان. شعرت بسعادة غامرة وقوة طارئة".

"رغم أنى حاولت أن أشرح لك كل شئ فلم أخبرك عن المرأة التى تزوجتها. كما ترى فقد ركزت على المرأة الأخرى. لقد قلت لك إنى أحب زوجتى. جملة نطقت بها بسرعة. بالنسبة لرجل فى ذكائك لا تعنى هذه الجملة شيئاً. والحق أنه لو لم أحدثك فى الأمر لكنت أكثر

مكينة الآن. فلا بد أنك تظن الآن أنى أحب زوجة بائع السجائر. هذا ليس صحيحا. كنت أحس بها خلال الأسبوع الذى سبق زواجى، ولكن بعد أن جاءت إلى شقتى سقطت من نظرى تمامًا.

"أترانى أقول الصدق؟ إننى أسعى جاهدا لأن أقول لك ما حدث بالضبط. أريد أن أقول إنى لم أفكر فى المرأة التى جاءت إلى شقتى منذ ذلك المساء، والآن، ولكى أكون صادقا بالفعل، أقول إن هذا لم يحدث. فى ذلك المساء ذهبت إلى خطيبتى فى التاسعة، كما طلبت هى فى خطابها. لا أعرف كيف أقول لك إن المرأة الأخرى ذهبت معى. هذا ما أعنيه كنت أقول لو حدث شئ بينى وبين زوجة بائع السجائر، فلن أكون قادرا على إتمام زواجى. كنت أقول لنفسى: "إما هذا وإما ذلك".

"والواقع أنى ذهبت لرؤية حبيبتي ذلك المساء يملؤنى إيمان جديد فى مستقبل حياتنا معًا. أخشى أن أكون قد خلطت الأمور وأنا أحاول أن أحكى لك كل شئ، فمِنذ لحظات قلت لك إن المرأة الأخرى، زوجة بائع السجائر، ذهبت معى. لم أكن أعنى أنها ذهبت فعلاً. ما أريد أن أقوله: إن شيئاً من إيمانها بما تريد وشجاعتها فى رؤية الأمور ذهب معى. هل هذا واضح لك؟ عندما وصلت إلى منزل خطيبتى كان هناك حشد من الناس يقفون هنا وهناك. بعضهم كان أقارب جاءوا من أماكن بعيدة لم أرها من قبل. حدثتني بنظرة سريعة عندما دخلت الحجرة. كانت تظن أن رسالتها أثرت فى عمق. كان

لرسالتها تأثير كبير. نهضت بسرعة واتجهت ناحيتي. كانت مثل طفلة سعيدة. وقبل أن تتجه عيون الناس المستطلعة إلينا قالت الشيء الذي كانت تريد أن تقوله، قالت بصوت عال: "أوه، أنا سعيدة جداً أنك فهمت. سنكون إنسانين وليس مجرد زوج وزوجة".

"وكما قد تتوقع، ضحك الجميع. ولكني لم أضحك. تعلقت الدموع بأهداب عيني. كنت أريد أن أهتف بأني سعيد حقاً. ربما فهمت ما أقصد. في المكتب في ذلك اليوم عندما قرأت رسالة خطيبتى، قلت لنفسى: سوف أعتنى بهذه السيدة الشابة، العزيزة لدى. ثمة شيء جميل فى هذا كما ترى. فى بيتها عندما صاحت بالطريقة التى أوضحتها لك، وعندما ضحك الجميع قلت لنفسى شيئاً كهذا: "سوف يعتنى كل منا بالآخر". ولقد همست فى أذنيها بشئ من هذا. والحق أقول لك إنى قد تخليت عن برجى العاجى. روح المرأة الأخرى فعلت ذلك بى. قبل أن يتجمهر الناس حولى ضمنت خطيبتى إلىّ وتعانقنا. كانوا يعتقدون أن التأثير بلغ بنا حداً كبيراً لمجرد رؤية كل منا الآخر. ماذا كانوا يظنون إذا عرفوا الحقيقة؟ الله وحده يعلم!

"مرتان الآن وأنا أقول لك إننى لم أفكر بعد ذلك المساء فى المرأة الأخرى. هذا صحيح، ولكن أحياناً فى المساء عندما أتمشى وحدى فى الشارع كما نتمشى الآن، وعندما يأتى المساء ناعماً سريعاً كما أتى تلك الليلة، فإن إحساسى بها يمتلك عقلى وجسدى. لم أرها بعد ذلك اللقاء. فى اليوم التالى تزوجت ولم أذهب إلى شارعها مرة أخرى.

ولكن كثيرًا ما يعتورني إحساس حاد مباغت بأننى بذرة فى الأرض غمرتها أمطار الربيع الدافئة، وكأنى لست رجلاً بل شجرة".

"وكما ترى فإنى رجل متزوج وكل شئ على ما يرام الآن. زواجى بالنسبة لى واقع جميل. وإذا أردت أن تقول إنى لست سعيدًا فى زواجى فإنى أقول لك إنك تكذب وأكون صادقًا فيما أقول. لقد حاولت أن أحكى لك عن تلك المرأة الأخرى. أشعر ببعض الراحة عندما أتحدث عنها. لم يحدث ذلك من قبل. ترى لماذا أصبح من السذاجة بحيث أخشى أن أعطيك الانطباع بأنى لا أحب زوجتى. ولو لم أكن أثق فى فهمك بشكل طبيعى لما تحدثت إليك. وبقدر ما تسمح الظروف سوف أفكر فى المرأة الأخرى هذه الليلة. هذا يحدث أحيانًا. يحدث بعد أن أذهب إلى الفراش. زوجتى تنام فى الحجرة المقابلة لـحجرتى والباب نتركه مفتوحًا دائمًا. سيكون القمر مضيئًا الليلة. وعندما يضىء القمر فإن خيطًا من ضوءه يتسلل إلى سريرها. وسوف أستيقظ فى منتصف الليل. ستكون هى نائمة وإحدى ذراعيها فوق رأسها".

"ما هذا الذى أتحدث عنه؟ الرجل لا يتحدث عن زوجته الراقدة على سريرها. ما أريد أن أقوله لك إنه بسبب هذا الحديث سوف أفكر فى المرأة الأخرى الليلة. أفكارى لن تأخذ الشكل الذى أخذته فى الأسبوع السابق لزواجى. سوف أتساءل ماذا بقى من تلك المرأة؟. للحظة سوف أحس مرة أخرى أنى أضمرها بقوة. سوف أفكر فى أننى،

ولمدة ساعة، كنت قريبًا منها أكثر من أى شخص آخر. ثم سوف أفكر في الوقت الذى أكون فيه قريبًا من زوجتى على ذلك النحو. لا زالت، كما ترى، امرأة مستيقظة. وللحظة سوف أغلق عيني وسوف تتظر هاتان العينان الحادثان الذكيتان الواقعتان لتلك المرأة الأخرى فى عيني. سيصاب رأسى بدوار. وعندئذ سوف أفتح عيني بسرعة وأرى مرة أخرى المرأة العزيزة التى قررت أن أعيش معها حياتى كلها. ثم سوف أنام، وعندما أستيقظ فى الصباح سيكون الأمر أشبه به عندما غادرت شقتى المظلمة بعد أن خضت أكثر تجارب حياتى استحقاقًا للتذكر. ما أريد أن أقوله، كما تستنتج الآن، هو أنه بالنسبة لى، عندما أستيقظ، ستكون المرأة الأخرى قد اختفت من حياتى تمامًا.

قمر متقد بلون الدم (١٩٢٣)

جان تومر

١

من وسط جدران الحجر النحيلة، من وسط ألواح الأرضيات الخشبية المهترئة، وروافد الخشب الصلدة مبتورة الأذرع لأشجار البلوط القائمة فى مصنع قطن أقيم قبل الحرب، حل الغسق. ومن ظلمة الغسق ظهر القمر بدرًا مكتملاً يتوهج مثل عقدة ملتهبة فى خشبة صنوبر لينير البوابة الكبيرة، ويمطر بوابل رقيق من الضوء أكواخ الزوج المتراسة على طول الشارع الوحيد فى جى المصنع. اكتمال البدر عند البوابة الكبيرة نذير معروف. عنده تصدح الزنجيات بأغنيات مرتجلة تحت تأثير سحره الطاغى.

كانت لويزا تغنى وهى قائمة من قمة التل من مطبخ البيض. كان لون جلدها فى لون أوراق البلوط على الأشجار الصغيرة وقت الخريف. كان ثدياها صليبين نافرين مثل حبات جوز البلوط الناضجة. وغناؤها أشبه بهمس الرياح الخفيض فى أشجار التين. بوب ستون، الابن الأصغر لمن تعمل عندهم، كان يحبها. والناس، بالمناسبة،

يظنون أنه نال رضاها أيضًا. وبالنظر إلى ذلك الدفء المتألق الذى يعثور قلبها عندما تفكر فيه يمكن القول إنه كان قد حاز رضاها فعلاً. نوم بوريل الذى يسميه سكان البلدة بالصبى الضخم، كان يحبها أيضًا. ولكن العمل فى الحقول طوال اليوم بعيدًا عنها لم يمنحه الفرصة ليعبر لها عن حبه. رغم أنه سعى لذلك كثيرًا فى أمسيات كثيرة. ولكنه لم يفلح فى بلوغ غايته. وعلى قوته فى القبض على الفأس أو المحراث لم يجد سبيلا إلى امتلاك قلبها، أو هكذا كان يظن. إن الناس فى البلدة كانوا يظنون أنها له أكثر مما كان هو يظن. لونه الأسود كان يرجح كفته على بياض ستون حين تعقد بينهما المقارنة. كان عقلها يفكر فى الأمر على نحو لا يبين وهى قادمة من قمة التل فى إياها من مطابخ البيض، وأثناء غنائها العذب وهى تتطلع إلى قرص القمر المحتجب وراء الغيوم.

كانت قلقة غاية القلق ومضطربة جدا. حاولت دون أن تتعجل أن تثبت على أحدهما، بوب أو نوم. كانت تقابل بوب فى حقل القصب كما فعلت منذ ساعة أو نحو ذلك، وليس ذلك بجديد. وسعى نوم لطلب يدها الذى تحس به آتيا فى الطريق، يمكن تأجيله إلى أجل غير مسمى. لم يكن فى الواقع لأى منهما شأن خاص فى قلبها. ولأمر ما كانا يختلطان فى ذهنها عندما كانت تحقق فى بلاهة فى قرص القمر الساطع. ومن هذا الارتباك كان القلق والاضطراب يستوليان عليها. كانت شفتاها ترتجفان، وتزداد حركة عينيها فى محجريهما، قلقلًا

وهياجًا. كلاب سوداء بلون الصداً وكلاب مخططة باللون الأسود الضارب للأصفر، ترقد في الزوايا والأركان المظلمة للمداخل المسقوفة، أو تتبح حول الأفنية الخلفية، ترفع الآن أنوفها في الهواء، وتشم ارتعاشات شفتيها بالغناء. ظلت الكلاب تتبح أو تعوى في نغمات حزينة كئيبة، على نحو متقطع، وكأنها تدشن لفجر مشنوم أو ليقظة شريرة. ارتجلت النساء أغنيات مفعمة بالشهوة. أغنياتهن حشوات قطنية على آذانهن كي لا يسمعن. أقبلت لويزا إلى البلدة وتعثرت في خطواتها المتناقلة أمام منزلها. كان القمر ينهض لملاقاة ركام كثيف من السحب سيخفيه عما قريب.

قمر زنجى أحمر. آثم!

قمر متقد بلون الدم. آثم!

يطلع من بوابة هذا المصنع.

ومن وسط ظلمة الغسق الداكنة، على فرجة بين أشجار الغابة نهض وهج رقيق منتشر على شكل مروحة تحت السحابات الوطيئة. وفي كل مكان كان الجو مثقلا برائحة القصب المغلى. على الأرض كومة ضخمة من أعواد القصب كالظلال المبقعة. وبغيل شيد وثاقه بعمود يدور ببطء وقد نال منه التعب حول مجور الطاحونة. وعلى ضوء مترنح لمصباح زيتي كان هناك زنجي يسوط البغل تارة ويلقى بأعواد القصب فى فوهة الطاحونة تارة أخرى. وصبى سمين يمشى الهوينى، يحمل دلاء من عصير القصب اللذى بين الطاحونة وموقد الغلى. كان البخار يتصاعد من إناء الغلى النحاسى. رائحة القصب المغلى كانت تنطلق من الإناء النحاسى وتبلل الغابة والتل اللذين مالا ناحية البلدة تحت شذاه المنتشر. حول الموقد ثمة من كان مشغولا بمص لباب أعواد القصب البيضاء، مع أنهم ليسوا مضطرين إلى ذلك، ففى وسعهم أن يمسوا القصب فى المصنع. وفى وسع المرء أن يرى الضباب الرقيق قد انتشر من الموقد المتقد نحو السماوات الخفيضة.

كان دافيد جورجيا العجوز يقلب العصير المتكاثف بمغرفة طويلة يمسك بها بكلتا يديه. كان دافيد جورجيا العجوز يلزم الموقد ويروى الحكايات عن البيض، وعن استقطار الويسكى سرا، وعن جمع القطن وعن الحسنات الزنجيات. كان يحكى للرجال الذين تحلقوا

حول الموقد ليستمعوا له. كان توم بورويل هناك يمص عودًا من القصب ويغرق في الضحك مع الآخرين إلى أن جاء نكر لويزا على لسان أحد الجالسين. قال شيئًا عن لويزا وبوب ستون والجورب الحريري الذي أهداه لها. صعد الدم إلى عنق توم متقدًا، أشد اتقادًا من نار الموقد. قام وحملق مغضبًا في الجميع وقال: إنها فتاتى. وضحك ول ماننج. ووثب توم نحوه وحمله بعنف من فوق الأرض ودفع به فوق. ونهض أصدقاء ماننج للدفاع عنه. استل توم سكينًا طويلة وحمل عليهم يريد أن يفتك بهم لولا فرارهم إلى الأشجار القريبة. كان لدى توم ما يكفيه. حيا دافيد جورجيا العجوز وأدار وجهه صوب الطريق إلى البلدة. فى ذلك الوقت بدأت الكلاب تنبح وبدأت الديكة تصيح. أحس توم بغرابة مسلكه. أحس بأسعة البرد وهو بعيد عن العراك والموقد. ارتعش. ارتعد خوفًا عندما طالع البدر يمضى نحو الغمام. هو الذى لم يعر اهتمامًا لمخاوف الزنجيات العجائز. حاول أن يركز كل تفكيره فيما سيقوله للويزا. عندما استدار إلى الشارع رأى لويزا تجلس أمام منزلها. مضى ناحيتها، يمشى الهوينى وهو يمس بيده حرف قبعته الجميلة بألوانها الكثيرة، وملمسها الناعم. قال إنه يريد أن يتحدث إليها. لم يجد ما يقوله لها. حتى إذا وجد ما يقوله التصقت الكلمات فى حلقه. دفع بقبضة يده الضخمة فى جيب (أفروله) وشاعت فى وجهه ابتسامة عريضة واقترب منها:

- أنت تربدنى يا توم؟

- هذا ما أتمناه يا لويزا.

- حسنا، ها أنذا...

- وها أنذا أيضا، ولكن ماذا بعد؟

- كنت تريد أن تقول شيئا.

- أريد أن أقول، لكن الكلمات مثل البقع على ورق النرد، لا طائل منها. إنها تتعثر في حلقى. هناك أوقات لا تطاوعني فيها الكلمات. لا أعرف لماذا. إنه الحب الذي أحس به نحوك هو الذي يسلبني لسانى. سأخبرك الآن. نعم يا لويزا أنا أحبك! لم يكن الوقت مواتيا لأطلعك على الأمر. كنت صغيرة وتذهبين إلى الكنيسة. وكان يمكن أن أفكر فى غيرك. ولكن يا لويزا أنا أحبك. رأيتك هنا تجلسين أمام منزلكم قرب البئر بين نسوة أخريات وأحببتك. حملت صورتك معى إلى الحقول. كل يوم كنت أجد القدرة على حمل المحراث وجمع القطن. لقد كدت أظعن مارلو أمس بسببك. هممت بقتله. العام القادم، صدقيني، ستكون لدى مزرعتى الخاصة. سوف أشتري لك ما تأخذينه الآن من البيض. جوارب، فساتين وردية. بالطبع لا أعلم ماذا يفعل البيض عندما تأخذين أشياءهم. البيض يفعلون بالسود ما يريدون دائما. إنهم لا يملكون الحب يا لويزا. بوب ستون يحبك. طبعًا هو يحبك. ولكن ليس بالطريقة التى يهمس بها القوم. هل هذا صحيح يا حبيبتى؟

- لا أعرف ماذا تقصد يا توم.

- طبعًا أنت لا تعرفين. لقد كنت أظن زنجيين بسبك اليوم. كان يجب أن أردعهما يا حبيبتي. الزنوج دائمًا يصنعون شيئًا من لا شيء. بالإضافة إلى ذلك فإن البيض مخادعون. لا أطيع أن يخدعك أحد. على الأقل لست أنت.

- ماذا أنت فاعل يا توم؟

- أقتله، كما كنت سأقتل الزنجيين.

- لا يا توم...

- قلت لك: سأفعل، ولن يردني أحد. ولكن ليس هذا هو وقت الكلام في هذا الأمر. الآن غني لي يا لويزا. وبينما أن أسمع سأهيم في حبك.

تناول توم يدها. أحس بلمس يدها ناعمًا رقيقًا في يده الضخمة الخشنة. انزلق بجسمه الضخم ليجلس بجوارها أمام منزلها. كان القمر يتوارى وراء الغمام الأرجواني الغامق. أحضرت سيدة عجوز مصباحًا مضاء وعلقته فوق البئر العمومي، فألقى ظله الضخم وسط الطريق، في مواجهة توم ولويزا. رفعت العجوز غطاء البئر وأمسكت بالسلسلة، وبدأت تسحب الدلو الثقيل وترفع عقيرتها بالغناء. حرك الصوت مشاعر أناس ألقفهم ضوء المصباح الذي تسال إلى نوافذ الحجرات الأمامية للأكواخ. ثمة ظلال لأشخاص يتبادلون الكلمات على التراب الأبيض للطريق. آخرون فتحوا النوافذ وبدعوا يتجاوبون مع غناء العجوز. لويزا وتوم وأهل الشارع شرعوا يرفعون أصواتهم بالغناء.

قمر زنجى أحمر. آثم!

قمر يتقد بلون الدم. آثم!

يطلع من بوابة هذا المصنع.

كان بوب ستون يسير متتداً من شرفته إلى حيث العنمة التى تنهض من ظل أشجار التتوب والمغوليا. بياض جلده الناصع يعلوه الشحوب، تحولت النضرة على خديه إلى اللون الأرجوانى وكأنما أراد أن يتسق لون بشرته مع الأحداث. قرر أن يتصرف كما ينبغي لرجل أبيض. مر أمام البيت بموقده الضخم المفتوح الذى كان أيام الرق مطبخاً للمزرعة. هناك رأى لويزا منكبة على عملها. دخل كما يفعل السيد وأخذها. اتسم مسلكه بالوضوح والصراحة والجرأة. لم يختلس النظرات أو يتسلل. كان يكره التناقض. فقدت أسرته كل نفوذ. اللعنة! لا، فأسرته لم تزل تملك الزوج فى الواقع. فقدت أسرته كل نفوذ، ما عساهم يظنون به إذا علموا؟ أمه؟ أخته؟ يجب ألا يخبرهم بشئ. اختلطت حمرة الشفق بحمرة وجهه. لا يهم ما يقول لداته فى البلدة، ولكن ماذا عن أصدقائه هناك فى الشمال؟ إنه يتصور دهشتهم واستياءهم. لم يعرفوا بعد. التفكير فى إخبارهم يستثير ضحكه. يحسن بالخل عندما يتخيل عيونهم تحلق فيه. لابد من إيجاد تفسير، اللعنة، ماذا يفسر لهم؟ لن يفعل. ومتى كان الجنوبى يخفض جناح الذل لشمالى أو لشخص آخر. لا يا سيد. هو يحب لويزا وهو ذاهب الليلة لرؤيتها. إنها فتاة حسناء، على طريقتهما: الطريقة الزنجية. وما الخطأ فى

الطريقة الزنجية؟ لا يعرف. كان ينبغي أن يعرف. لقد عرفها منذ وقت طويل يكفي لمعرفة السر. كان ذلك شيئاً خاصاً بالزواج لا سبيل إلى معرفته. حين تستمع إليهم في الكنيسة، لا تستطيع الوقوف على هذا السر. وحين تنظر إلى وجوههم لا تطلع على أمرهم. وحين تتحدث إليهم لا تعرف شيئاً، اللهم إلا ترويح الإشاعات، إلا إذا كانوا هم يريدون الحديث معك. الزنجى أكثر من مجرد كونه زنجياً. كيف ذلك؟ شئ يبعث على الرهبة. شئ أكثر؟ من سمع عن أحد يخاف من زنجياً؟ أخبره كارتويل أن توم بيرويل لحق بلويزا بعد أن ذهبت إلى منزلها. لا يا سيد. لا يوجد زنجى يجرو على الاتصال بفتاته. يريد واحداً يحاول ذلك. شخص حتى في منزلته. بوب ستون، من عائلة ستون العريقة، متورط في شجار مع زنجى! ومن أجل فتاة زنجية! فى الأيام الخوالى، الأيام المجيدة... ها! كانت هى الأيام حقاً. أسرته فقدت كل نفوذ. ليس إلى هذا الحد. ما زال يتمتع بنفوذ يكفيه لعبور حقل قصب العجوز لمون، ويجتاز الغابة ويقابلها هناك. هى جديرة بذلك. فتاة زنجية جميلة. ولماذا زنجية؟ ولماذا لا تكون فتاة وحسب؟ لا. كان يذهب إليها لأنها زنجية. حلوة... أحس برائحة القصب المغلى. رأى وهج الموقد، سمع أصوات الرجال المتحلقين حوله. هم بتجاوز الموقد لولا أنه سمع من يذكر اسمه. توقف. ارتعش. استند إلى شجرة وطفق يتسمع.

- زنجى سيئ. نعم يا سيد. كان زنجياً سيئاً منذ شب عن الطوق.

- كان توم بيرويل عضواً في عصابة قطاع طرق.
- ماذا نظنه فاعلاً ببوب ستون؟
- لا أدري. لن تجدوه إذا فعل شيئاً يا حبيبي!
- هذا لا يحتاج إلى تفسير.
- الشاب ستون لن يترك الفتاة. وأكد لكم ذلك. الدم الأزرق يجري في عروقه.
- هذا صحيح، سوف يدخل معه في عراك.
- ولكنه يغضب الزوج.
- اخرس يا زنجي. أنت لا تدري عن تحدث.

انقذت أذنا بوب ستون وكأنما وضعهما في نار الموقد. الغضب المتقد اضطرم داخله وصعد إلى وجهه. أحس بقدميه وكأنهما داستا على جمرات فحم ملتهب مما دفعه لسرعة الحركة. دار حول المتحلقين حول الموقد. لم يسمع صوت غصن يتحطم تحت قدميه. وعندما وطئت قدماه أول الطريق إلى البلدة اندفع كالسهم. أصابه الغضب الشديد بعمى طارئ قبل أن يتجاوز الطريق. اصطدم بأجمة قصب على حدود الزراعات. أدمت أوراق القصب وجهه وشفتيه. أحس بطعم الدم في فمه. ارتدى على الأرض وغرس أصابعه في الطين. كانت الأرض باردة. جذور القصب الباردة سلبته النار التي انقذت في يديه.

وبعد هنيهة من التفكير ظنّها طالت عقد العزم على رؤية لويزا. نهض على قدميه ومضى بتّودة إلى المكان الذي سيقابلها فيه. ليس للويزا وجود. توم بيرويل أخذها. نتأت العروق في رأسه وتمددت في وجهه. بلل اللعاب الدم الناشف على شفتيه. عض على شفتيه. ذاق طعم الدم. ليس دمه، إنه دم توم بيرويل. اجتاز بوب حقل القصب وخرج مرة أخرى إلى الطريق. كلب راح يتلوى أمامه على الطريق إلى البلدة. لم يره بوب. قفز الكلب إلى جانب الطريق كي يفسح الطريق أمام بوب. اندفاع بوب الأعمى جعله ينقلب على قفاه مرة أخرى. أحدث سقوطه على الأرض صوتًا مكتومًا. أصيب بدوار. نبّح الكلب. تجاوبت معه الكلاب في أنحاء الريف. فوقًا للدجاج وصاحت الديكة منزرة بثورة جنونية من عيون محتقنة بالدم. لزم المغنون في البلدة الصمت. أوصدوا النوافذ. سكون بارد بين صياح الديكة يغشى توم ولويزا في جلستهما أمام البيت. وفجأة اندفع شخص من الظلمة ووقف في وجهيهما. نهض توم على قدميه.

- ماذا تريد؟

- أنا بوب ستون.

- نعم يا سيد، وأنا توم بيرويل. ماذا تريد؟

اندفع بوب نحوه بقوة. خطا توم جانبًا خطوة وأمسك به من كتفه وطرحه أرضًا ووقف فوقه مفرشًا رجله.

- دعنى أنهض.

- نعم يا سيد، ولكن انتبه لأفعالك يا بوب ستون.

أشخاص قلائل من السود دفعهم صوت الشجار تحلقوا حولهم.
نهض بوب على قدميه.

- قاتل رجل لرجل يا توم وسوف أريك.

واندفع بوب نحوه مرة أخرى. وتتحى توم جانبا خطوة وطرحه
أرضا مرة أخرى. ووقف فوقه.

- ابتعد عنى أيها الزنجى النذل.

- الآن أنت تشتم. انهض.

رفعه توم لأعلى وراح يضربه بقوة وعنف. كل ضربة كانت
تحدث دويا وكأنما تحطم شيئا ثميناً رقيقاً لا يعوض. تهافت بوب تحت
أقدام الوقوف. لمس يده فى جيبه واستل سكيناً.

- هذه لعبتى يا حبيبى.

واستل توم مدية طويلة تلمع بلون أزرق ودفع بها فى حلق
بوب. شعر بوب فى البداية بطعم الغثيان فى حلقه ثم بدأ الدم يتدفق.
شعر بعد ذلك بألم حاد مفاجئ جعله يترك سكينه تسقط على الأرض.
لطم رقبتة بيده ووضع الأخرى على رأسه وكأنه أراد أن يمنعها من
السقوط. بدأ يتأوه. استدار مترنحاً ناحية قمة التل متجهاً إلى مساكن

البيض. تسال الزوج الذين شهدوا الشجار إلى بيوتهم وأطفأوا المصابيح. أما لويزا التي أذهلها الموقف فقد رفضت الذهاب إلى البيت. مضت تترنح هي الأخرى وتهادى جسدها فاستندت على السواح البئر الخشبية. استندت نوم بيرويل على خشب البئر أيضا. وقف في مكانه لم يحرك ساكنا، غاصت قدماه في المكان.

وصل بوب شارع بروود. هرع البيض نحوه. أنكفأ على وجهه بين أيديهم.

توم بيرويل "...

اندفع البيض في كل اتجاه، مثل النمل الطواف في بحثه عن الطعام. كان الصمت رفيقهم فيما عدا دبيب أقدامهم المتوتر. بنادق الخرطوش والمسدسات والحبال والكيروسين والمشاعل. وصلت في وقت واحد سيارتان ضخمتان بكشافات ساطعة. ارتفع صوت وقع الأقدام المتوتر إلى هدير خفيض. ثم هدا كل شيء ليفسح المجال لسماع وقع أقدامهم المتوتر على تراب الطريق الكثيف. صمتهم المحمل بالنذر على قمة التل سبقهم إلى سكنى الزوج. أما الزوج فقد سحقهم الخوف، اصطدم بجدران المصنع وتوقف هناك. كان توم يعلم أنهم آتون. عجز عن الحركة. اصطدمت أضواء كشافات السيارتين بوجهه فأحس بها تخترق جسده. تسمز في مكانه. هم بالجري. انطلقت صيحة مدوية من الجمع المحتشد. استدار توم. أحاطوا به. انهالوا عليه. اندفعوا نحوه بأعداد كبيرة. رجل ضخم بوجه أبيض جامد وخدين مترهلين، عارضه وصوب فوهة بندقيته (الخرطوش) إلى بطنه:

- يدريك خلف ظهرك أيها الزنجى.

كان معصما توم مكبلين. كان الرجل الضخم يدفعه بعنف ناحية البئر. نحرقه فوق البئر، وعندما يحترق الخشب سيهوى جسده فى القاع. يجب أن يموت مرتين هذا الزنجى اللعين. وجدت لويزا من يردها إلى البيت. اندفع الحشد. كان اندفاعهم رهيبًا. كانوا يجرونه إلى المصنع. كان توم يتحرك فى الاتجاه المقصود. ولكنهم كانوا يضطرون إلى جره. وصلوا إلى البوابة الكبيرة. وصل الحشد قبلهم. دبب الأقدام المتوتر. الصمت. دق الخازوق فى الأرض. كومت حوله ألواح خشب الأرضيات المهترئ. صب الكيروسين على ألواح الخشب. شد وثاق توم بالخازوق. كان صدره عاريًا. دقت المسامير فى جسده فسالت منه خيوط ضعيفة من الدم غمر شعره. تجمد وجهه وتحجرت عيناه. ظن الناس أنه قضى لولا بقية من أنفاس متقطعة. ألقيت المشاعل على الخشب. انطلقت أعمدة النار يشيعها دخان أبيض سميك. هتف الحشد. صمت الحشد. الآن يرى توم وسط النيران. انتصب رأسه مثل حجر أسود. برزت عينا توم. استقرت رأسه على صدره. علا الصياح. تردد الصياح عبر جدران الحجر الهيكلية فرجع مائة صرخة. صياح مائة حنجرة. تسال ظل صيحة إلى النيران وخرج من بوابة المصنع الأمامية. راح يصفق بجناحيه مثل شبح ميت يتخبط عبر الشارع الوحيد. لويزا تجلس على درجة سلم أمام بيتها. لم تحس به، ولكنها فتحت عينيها ببطء. طالعت البدر بسطع أمام البوابة الكبيرة. البدر شر، نذير شؤم. راح يمطر منازل القوم الذين تعرفهم بوابل من نور. أين

كان أولئك الناس؟ شرعت تغنى لعلهم يخرجون ويرددون معها الغناء.
ربما يأتي توم بيرويل. على أية حال البدر أمام البوابة الكبيرة كان
ينذر بالشؤم، وكان يجب أن تغنى له:

قمر زنجى أحمر. آثم!

قمر متقد بلون الدم. آثم!

يطلع من بوابة هذا المصنع.

القتلة (١٩٢٧)

إرنست همنجواي

فُتِحَ باب مطعم هنري للوجبات السريعة ودخل رجلان وجلسا إلى منضدة طويلة. سألهما جورج:

- ماذا تريدان أن تأكلا؟

قال أحدهما:

- لا أدري، ماذا تريد أن تأكل يا آل؟

قال آل:

- لا أدري، لا أعرف ماذا أريد أن أكل.

كان الظلام يزداد رسوخاً خارج المطعم. ضوء الشارع لم يرح النافذة. شرع الرجلان اللذان جلسا إلى الطاولة يقرآن القائمة. كان نك آدمز يراقبهما من موقعه عند الطرف الآخر من المنضدة. كان يتحدث مع جورج عندما دخلا، قال الأول:

- سأخذ قطعة مشوية من خاصرة الخزير مع صلصة تفاح وبطاطس مهروسة.

- الخنزير المشوى ليس جاهزاً الآن.

- لماذا تضعون "الزفت" فى القائمة إذن؟

أخذ جورج يشرح له:

- إننا نعدّه للعشاء، تستطيع أن تجده فى الساعة السادسة.

نظر جورج إلى ساعة الحائط خلف الطاولة وقال:

- الساعة الخامسة الآن.

عندئذ قال الرجل الثانى:

- الساعة الخامسة والثلاث.

فقال الأول:

- فيها ثلاث ساعة تقديم.

- فى ستين داهية أنت والساعة. ماذا لديك من طعام؟

- أستطيع أن أحضر لك أى ساندويتشات، يمكنك أن تأخذ فخذ خنزير وبيض، أو خنزير مقعد وبيض، أو كبدة خنزير مقعد، أو شريحة لحم بقرى.

- هات لى قطعة لحم دجاج مع بسلة خضراء وصلصة وبطاطس مهروسة.

- هذا فى العشاء.

- كل ما أطلبه تقول فى العشاء... إيه؟ هل هذه طريقتكم؟

- أستطيع إحضار فخذ خنزير وبيض أو لحم خنزير مقعد وبيض،
كبد و.....

قال المدعو آل:

- سأخذ لحم خنزير وبيضًا.

كان يرتدى معطفا أسود مزررًا عند صدره. كان وجهه صغيرا
أبيض وشفاه مزوموتين. كان يضع لفاخًا من الحرير حول عنقه
ويرتدى قفازين.

قال الآخر:

- هات لى لحم خنزير مقعد وبيضًا.

كان فى حجم آل تقريبًا. أما وجهاهما فمختلفان، ولكنهما
يرتديان الأشياء نفسها كالتوأم. كانا يرتديان معطفين ضيقين على
جسديهما. جلسا مائلين للأمام، وكان كلاهما يستند بمرفقيه على
الطاولة. سأل آل:

- أعندك ما نشربه؟

- بيرة بيضاء ومشروبات غازية أخرى وجعة بالزنجبيل.

- مرة أخرى هل عندك شئ نشربه؟

- هذه التى ذكرت لك فحسب.

قال الآخر:

- هذه بلدة حارة، ماذا يسمونها؟

- سميت.

سأل آل زميله:

- هل سمعت عنها من قبل؟

قال الزميل:

- كلا.

سأله آل:

- ماذا تفعلون هنا أثناء الليل؟

- نزيد الزميل:-

- يتعشون. كلهم يأتون إلى هنا ويتناولون العشاء الكبير.

قال جورج:

- هذا صحيح.

عندئذ سأله آل:

- إنن تعتقد أن هذا صحيح؟

- بالتأكيد.

- أنت ولد ذكى ورائع، أليس كذلك؟

قال جورج:

- بالتأكيد.

قال الآخر القصير:

- حسناً، أنت لست ذكياً ولا رائعاً. هل هو كذلك يا آل؟

قال آل:

- إنه غبي. ثم تحول إلى نك وسأله:

- ما اسمك؟

- آدمز.

قال آل:

- ولد آخر ذكى.

- أليس هو كذلك يا ماكس؟

أجاب ماكس:

- يبدو أن المدينة تمتلئ بالصبيّة الأنكباء.

وضع جورج الطبقين، فخذ الخنزير والبيض، والآخر بلحم الخنزير المقدد والبيض، على الطاولة. ووضع أيضاً طبقين آخرين: بطاطس محمرة وأغلق الباب المفضى إلى المطبخ. وسأل آل:

- أيهما طبقك؟

- ألا تتذكر؟

- فخذ الخنزير مع البيض.

قال ماكس:

- ولد نكي.

مال إلى الأمام وأخذ فخذ الخنزير والبيض. أكل الرجلان وقفازهما على يديهما. راح جورج يراقبهما فيما كانا يأكلان.

نظر ماكس إلى جورج:

- إلام تنظر؟

- لا شيء.

- لا.. كنت تنظر إلى..

قال آل:

- لعل الولد يقصد المزاح يا ماكس.

ضحك جورج.

قال له ماكس:

- لا ينبغي لك أن تضحك. يجب ألا تضحك البتة. أسمعت؟

قال جورج: حسناً.

تحول ماكس إلى آل وخاطبه:

-إنن هو يعتقد أن هذا حسن. إنه يظن أن هذا حسن. إنه ولد طيب.

قال آل:

-أوه إنه من المفكرين.

وواصل الأكل. سأل آل ماكس:

-ما اسم الولد الذكى الذى يجلس عند طرف الطاولة؟

قال ماكس لنك:

-يا ولد يا ذكى، أراك تصول وتجول عند الناحية الأخرى من
الطاولة مع صاحبك.

سأله نك:

-ماذا تقصد؟

-ليس لى أى مقصد.

قال آل:

-الأحسن أن تبقى قريباً أيها الولد الذكى.

وعاد نك إلى الطرف الآخر من الطاولة. سأله جورج.

-وما الحكمة فى ذلك؟

قال آل:

- ليس من... شأنك. من بداخل المطبخ؟

- الزنجى.

- ماذا تقصد بالزنجى؟

- الزنجى الذى يقوم بالطهى.

- مره أن يأتى إلى هنا.

- ولم يأتى إلى هنا؟

- أخبره أن يأتى إلى هنا.

- أين تظن نفسك؟

قال الرجل الذى يدعى ماكس:

- نعرف من نحن يا غبى، أتظننا أغبياء مثلك؟

قال له آل :

- كلامك ساذج، لماذا تجادل هذا الصبى؟ اسمع (موجهًا حديثه

إلى جورج) أخبر الزنجى أن يأتى إلى هنا.

- ماذا تريد أن تفعل به؟

- لا شئ. ليكن عقلك فى رأسك أيها الولد الذكى، ماذا نفعل

بزنجى؟

فتح جورج الكوة المؤدية إلى المطبخ ونادى: سام، تعال هنا لحظة.

فتح باب المطبخ ودخل الزنجى وسأل:

- لم تتأدون على؟

ألقى الرجلان الجالسان على الطاولة نظرة على الزنجى. وقال له آل:

- حسناً يا زنجى. عليك أن تقف هنا.

سام الزنجى يقف فى (مربلته) ويبادل الجالسين النظرات ويقول:

- نعم يا سيدى.

نهض آل من فوق مقعده وقال:

- سأرجع إلى المطبخ مع الزنجى والولد الذكى. عد إلى المطبخ أيها الزنجى، عد معه يا ولد يا ذكى.

مشى الرجل القصير خلف نك وسام الطباخ عائدين إلى المطبخ وأغلق الباب خلفهم. جلس المدعو ماكس على الطاولة مواجهاً جورج. لم ينظر إلى جورج، بل نظر إلى المرأة المعلقة خلف الطاولة. كان محل هنرى قد تحول من حانة إلى مطعم يقدم وجبات الغداء. قال ماكس وهو يحدق فى المرأة:

- حسناً أيها الولد الذكى، لماذا لا تقول شيئاً؟

- فيم كل ذلك؟

- اسمع يا آل (صاح ماكس) الولد الذكى يريد أن يعرف فيم كل ذلك؟

سمع صوت آل من المطبخ يقول:

- ولماذا لا تخبره؟

- ماذا تظن؟

- لا أرى.

كان ماكس ينظر فى المرأة طوال حديثه:

- لن أقول شيئاً.

- اسمع يا آل، الولد الذكى يقول إنه لن يقول شيئاً.

- وماذا تظن أنت؟

- أسمعك... حسناً.

قال آل من داخل المطبخ. أزاح الدعامة التى يستند إليها باب الكوة التى تمر عبرها الأطباق من المطبخ وإليه مع زجاجة (الكتشب).
خاطب جورج من المطبخ:

- اسمع يا ولد يا ذكى، قف قليلاً عند البار. تحرك قليلاً ناحية اليمين يا ماكس.

كان مثل مصور يرتب لالتقاط صورة جماعية. قال ماكس:

- تحدث معي يا ولد يا نكي. ماذا تظن أننا فاعلان؟.

لم يتفوه جورج بكلمة. ولكن ماكس قال:

- سأخبرك، سوف نقتل سويديا. هل تعرف سويديا ضخمة الجثة
يدعى أول أندرسن؟

- أجل.

- يأتي هنا ليأكل كل ليلة، أليس كذلك؟

- أحياناً يأتي إلى هنا!

- يأتي إلى هنا في السادسة، أليس كذلك؟

- هذا إذا أتى.

قال ماكس:

- أتعرف كل ذلك يا ولد يا نكي؟ تحدث عن شيء آخر، هل
تذهب إلى السينما؟

- مرة كل فترة.

- عليك بالذهاب إلى السينما كثيراً، السينما شيء جيد بالنسبة لولد
نكي مثلك.

- لماذا ترمعون قتل أول أندرسن؟ ماذا فعل بكما؟

- لم يحدث أن أتيت له الفرصة لفعل أى شئ لنا. لم يحدث حتى أن رأنا.

صاح آل من داخل المطبخ:

- سوف يرانا مرة واحدة فى حياته.

سألها جورج:

- لماذا تريدان قتله إذن؟

- سنقتله لحساب صديق. خدمة لصديق أيها الولد الذكى.

صاح آل من داخل المطبخ:

- صه. لا تتكلم كثيرًا فى هذا الأمر.

- حسنًا، أردت أن أريح الولد الذكى.. أليس كذلك يا ولد؟

قال آل:

- إنك تتكلم كثيرًا فى (الزفت). الزنجى وصبيه الذكى راضيان

كل بالآخر. لقد شددت وثاقهما وأصبحا كعاشقين فى دير.

- أظن أنك كنت فى دير.

- وماذا أدراك.

نظر جورج إلى ساعة الحائط.

- إذا جاء أحد إلى المطعم أخبره بأن النظاهى فى إجازة، وإذا

ألح فى الطلب أخبره بأنك ستطبخ بنفسك. هل فهمت الرسالة
يا ولد يا زكى؟

قال جورج:

- حسنًا، ماذا أنتما فاعلان بنا بعد ذلك؟

قال ماكس:

- هذا يعتمد على الظروف. هذه نقطة لا نعرفها إلا فى حينها.

نظر جورج إلى ساعة الحائط. كانت الساعة تشير إلى السادسة
والربع. فتح باب المطعم المؤدى إلى الشارع. دخل سائق ترام وقال:

- مرحبًا يا جورج، هل أستطيع تناول العشاء؟

- سام فى إجازة. سوف يعود خلال نصف ساعة.

قال السائق:

- سأعود إذن بعد نصف ساعة.

نظر جورج إلى ساعة الحائط. كانت تشير إلى السادسة والثلاث.

قال له ماكس:

- تصرف جيد منك يا ولد يا زكى. أنت رجل شهم مدرب.

قال آل من داخل المطبخ:

- إنه يعرف أنى كنت سأقطع رأسه.

قال ماكس:

- لا، ليس الأمر كذلك. الولد الذكى لطيف، إنه ولد لطيف ومهذب. أنا أحبه.

عندما وصلت الساعة إلى السابعة إلا خمس دقائق قال جورج:
- لن يأتى.

دخل المطعم رجلان آخران. ذهب جورج إلى المطبخ ليعد ساندويتش لحم خنزير مع البيض (سفرى) لأحدهما. دخل المطبخ ورأى آل. كانت قبعته السوداء تتحرف للوراء قليلاً وكان يجلس على مقعد بجوار باب المطبخ الصغير وفوهة بندقيته الخرطوش تستند إلى عمود معدنى. كان نك والطباخ خلفهما يستندان إلى جدار فى الـركن وقد سد آل فم كل منهما بفوطـة. أعد جورج الساندويتش ولفه فى ورق حرارى ووضعـه فى كيس وأعطاه للرجل الذى دفع ثمنه ومضى. قال ماكس:

- الولد الذكى يمكنه عمل كل شئ. يستطيع أن يطبخ وكل شئ. أنت فى وسعك أن تجعل من أية بنت جميلة زوجة سعيدة ياولد.

قال جورج:

- نعم. صاحبك أول أندرسون لن يأتى.

قال ماكس:

- سوف نمنحه عشر دقائق أخرى.

راح ماكس يراقب المرأة والساعة. كانت عقارب الساعة تشير إلى السابعة وخمس دقائق. قال ماكس:

- لنذهب يا آل، الأفضل أن نذهب، صاحبك لن يأتي.

قال آل من داخل المطبخ:

- الأفضل أن نصبر خمس دقائق أخرى.

وخلال الدقائق الخمس دخل رجل وراح جورج يشرح له أن الطباخ مريض، وسأل الرجل:

- ولماذا لا تأتون (بزفت) طباخ آخر؟ ألا تعلمون أنكم تديرون مطعماً للغداء؟

قال ماكس:

- هيا بنا يا آل.

- ماذا أنت فاعل بالولدين النكيين والزنجي؟

- ليذهبا في أمان.

- أوتظن ذلك؟

- أجل، هم يعرفون أننا لن نتركهم.

قال آل:

- لا أحب ذلك، هذا يزيد عن الحد. إنك تتكلم كثيراً جداً.

قال ماكس:

- يا للجحيم، لقد كنت أبتغى التسلية، ألم نتسل؟

قال آل:

- إنك تتكلم كثيراً على أية حال.

خرج من المطبخ. أحدثت ماسورة بندقيته الخرطوش نثوءاً فى خصر معطفه الضيق أصلح منه يديه المغطاتين بالقفاز. قال لجورج:

- إلى اللقاء يا ولد يا ذكى. أنت ولد محظوظ للغاية.

قال ماكس:

- هذا صحيح، كان يجب أن تدخل سباق المسدسات يا ولد يا ذكى.

خرج كلاهما من الباب. ظل جورج يراقبهما وهما يمران تحت ضوء القوس الساطع ويعبران الشارع. كانا يبدوان فى معطفيهما الضيقين وقبعتيهما السوداوين أشبه بممثلين فى مسرحية هزلية. عاد جورج من خلال الباب المترنح واتجه إلى نك والطباخ.

قال سام الطباخ:

- لا أحب هذه المواقف، لا أريد أن أتعرض لمثل هذا ثانية.

نهض نك، لم يحدث أن وضع أحد فوطة في فمه. نزع الفوطة
بكل قوته وهو يقول:

- ما هذا (الزفت)؟!

قال جورج:

- كانا ينويان قتل أول أندرسن. كانا يزعمان رميه بالرصاص
عندما يأتي إلى هنا للعشاء.

- أول أندرسن؟

- بلى.

تحسس الطباخ أركان فمه بإبهاميه، وسأل:

- هل ذهب كلاهما؟

قال جورج:

- لقد ذهبا في داهية.

قال الطباخ:

- لا أحب هذه الأشياء.

قال جورج لنك:

- اسمع الأفضل أن تذهب لتخبر أول أندرسن.

- موافق.

قال سام الطباخ:

- الأفضل أن تبقى بعيدًا عن هذا الموضوع تمامًا. الأحسن أن تبقى بعيدًا، هذا أفضل.

قال جورج:

- لا تذهب إذا كنت لا تريد أن تذهب.

قال سام:

- التورط في موضوع كهذا لن يفضي بك إلى طريق معروف. أحسن ابق بعيدًا.

قال نك لجورج:

- بل سأذهب لأراه. أين يسكن؟

غادر الطباخ المكان هو يقول:

- للصبيّة الصغار يعرفون ما يريدون.

قال جورج:

- يسكن في نزل هيرش.

- سأذهب إلى نزل هيرش.

خارج المطعم كان ضوء الشارع يتخلل أفرع الشجر العارية.

سار نك في الشارع مجاورًا لممرات السيارات، ثم اتجه إلى ضوء

آخر فى شارع جانبى. وبعد ثلاثة بيوت وجد نزل هيرش. رقى
درجتين وضغط على جرس الباب، سمع صوت امرأة خلف الباب:

- هل أول آندرس هنا؟

- هل تريد أن تراه؟

- نعم إذا كان هنا؟

تبعك المرأة على بسطة درج وعادت ثانية إلى نهاية الممر
وطرقت الباب:

- من بالباب؟

- ثمة شخص يريد أن يراك يا مستر آندرس.

- أنا نك أنمز.

- ادخل.

فتح نك الباب ودخل الحجرة. كان أول آندرس يرقد على
السريّر بجميع ملابسه. كان من أبطال المصارعة فى الوزن الثقيل،
وكان أطول من السريّر بكثير. كان يضع وسادتين تحت رأسه. سأل
نك دون أن ينظر إليه:

- هات ما عندك.

قال نك:

- كنت في مطعم هنري وجاء رجلان وأوتقاني أنا والطاهي
وقالا إنهما يريدان قتلك.

بدت نبذة لك سانجة عندما قال ذلك. لم يرد أول أندرسن ولكن
نك استمر يقول:

- أغلقا علينا باب المطبخ وكانا يزعمان رميك بالرصاص عندما
تأتى لتناول العشاء.

ظل أول ينظر إلى الحائط ولم يقل شيئاً.

- وكان من رأى جورج أن أذهب وأخبرك.

- وماذا فى يدى أن أفعل؟.

- سأخبرك بملاحهما.

- لا أريد أن أعرف ملاحهما. شكرًا على مقدمك لتخبرنى
بالأمر.

قال أول أندرسن ذلك وكان ما زال ينظر إلى الحائط.

- حسنًا.

ألقي نك نظرة فاحصة على الرجل الضخم الراقد على السرير وقال:

- ألا تريدنى أن أذهب لأبلغ البوليس؟

- لا، هذا لن يفيد.

- ألا تريد منى شيئاً؟

- لا، ليس فى يدك شئ.

- لعله مجرد مزاح.

طوى أول آندرسن جسمه تجاه الحائط وقال لنك:

- كل ما أعرفه أننى لن أخرج طوال اليوم.

- ألا تستطيع أن تترك المدينة؟

- لا... لقد شُبعْتُ من الجرى فى كل مكان.

ثم قال وهو ينظر إلى الحائط:

- ليس هناك ما يمكن فعله الآن.

- ألا تستطيع تدبير الأمر يوماً ما؟

- لا، لقد تورطت فى خطأ.

ثم أردف بالصوت نفسه الخالى من المعنى:

- ليس هناك ما يمكن فعله، بعد فترة سوف أقرر الخروج.

قال نك:

- الأفضل أن أعود لأرى جورج.

قال أول آندرسن دون أن ينظر ناحية نك:

- مع السلامة. شكرًا على حماسك.

هم نك بالخروج، وقبل أن يغادر الغرفة ألقى نظرة أخيرة على جسد أول الضخم الراقد على سريره ينظر للحائط. قالت صاحبة النزل وهي تصحبه إلى الخارج:

- لم يغادر حجرته طوال اليوم. لا أشك في أنه مريض.

- قلت له: يمكنك أن تخرج يا سيد آندرسن وتتمشى في يوم خريفي صحو كهذا، ولكنه بدا غير راغب في ذلك.

- لا يريد أن يخرج؟

- أنا آسفة لأنه ليس على ما يرام. إنه رجل مهذب جدًا، ألا تعرف أنه كان ملاكمًا.

- أعرف ذلك.

- لا يمكن أن تعرف ذلك إلا من شكله. ثم توقفنا عند الباب المؤدى إلى الشارع لتكمل حديثها:

- إنه رجل مهذب وكفى.

- حسنًا، طبت مساء يا مسز هيرش.

- أنا لست المسز هيرش، المسز هيرش هي صاحبة النزل، أنا أعتنى به فقط، أنا المسز بل.

قال نك:

- حسنًا، طبت مساءً يا مسز بل.

- تصبح على خير.

مشى نك في الشارع المظلم حتى وصل إلى الركن المضيء تحت ضوء القوس ثم اجتاز ممرات السيارات قاصدًا مطعم هنري. كان جورج في الداخل، ينتظر خلف الطاولة.

- هل رأيت أول؟

- نعم، وجدته نائمًا في حجرته ولا يريد أن يخرج.

فتح الطاهي باب المطبخ عندما سمع صوت نك.

- لا أريد حتى أن أسمع. وأغلق الباب خلفه.

- هل أخبرته بما حدث؟

- طبعًا أخبرته ولكنه كان يعرف كل شيء.

- وماذا ينوي؟

- لا شيء.

- هل سيقتلونه فعلاً؟

- أعتقد أنهم سوف يفعلون.

- لا بد أنه تورط في شيء في شيكاغو.

- أظن ذلك.

- شئ فطيع.

- شئ بشع.

تناول جورج خرقة ومسح بها الطاولة.

قال نك:

- ترى ماذا فعل؟

- لعله خان لاعبًا في مباراة؛ اتفقا على أن يخسر في الحلبة ولم يفعل. هذا ما يمكن أن يقتلوه من أجله.

قال نك:

- لقد قررت الرحيل من هذه المدينة.

- نعم، هذا أفضل شئ.

- لا أستطيع أن أتصور أنه نائم في حجرته وهو يعرف أنه سيلقى حتفه. إنه شئ بشع.

قال جورج:

- حسناً، الأفضل ألا تفكر في الأمر.

عيد ميلاد مزدوج (١٩٢٩)

وبلا كاشر

حتى في المدن الأمريكية التي يشبه بعضها بعضا غاية الشبه، حيث يعيش الناس حياة مكرورة لا تختلف من شخص إلى شخص، يتنازعون المنافع نفسها، ويتداولون الأفكار نفسها، ما برح المرء يقابل أناسا غير متسقين مع زمانهم، يعيشون في الحاضر وهم من بقايا ماض مضطرب. لم يزل المرء يشهد بدايات محبطة لمستقبل لا يستطيع أن يتوقعه.

أثناء خروجه من المحكمة المبنية بأحجار رمادية في مدينة بيتسبرج، قابل القاضى همرسلى واحدا من هؤلاء الناس الذين لا يستريح إلى مقابلتهم؛ يحس عندما يقابلهم بالحرج لأنهم لا يجيدون فن الحياة كما ينبغي. رآه القاضى وهو خارج من باب المحكمة يهيم بصعود الدرج ويميل بناحية من جسمه دفعا للريح، ويمسك بطرف قبعته اللباد كي لا تقع. كان يغذ الخطى مندفعًا برأسه للأمام وكأنما عقد العزم على تحقيق مأرب. حدث القاضى نفسه بأن يتوارى خلف باب جانبي تجنبًا للمقابلة، ولكن ذلك لم يكن يتسق مع مبادئه.

حياه مهمهما: "طاب يومك يا ألبرت" وهو يشعر بالحرص لهذه المقابلة المفاجئة سيما بينما خطف ألبرت قبعته من فوق رأسه وانفرج شذاؤه عن ابتسامة عريضة تشي بسعادة بينة وبما يشبه الزهو. كشفت فعلته عن رأس يثير الانتباه: صغير، عاطل من الشعر، محدد المعالم، محكم الصنع وكأنما قدّ من خشب ثمين بيد نجار حاذق فى استخدام المخرطة. وجه ناعم حليق تعلوه عتمة فى لون القهوة الدافئة. كانت عيناه اللتان فى لون البندق لا تستقران فى محجريهما. لم يكن فى طور الشباب، ولكنه كان نشيط الحركات. كان مسلكه أمام القاضى المقطب مجللاً بالاحترام والإعجاب بعيداً عن الارتباك. سأله القاضى عن صحته وصحة عمه. فرد ألبرت قائلاً: صحة عمى ممتازة بالنسبة لسنه. منهك القوى ولا يتحمل الإجهاد والتوتر ولكنه لا يشكو من شئ. سيحتفل بعيد ميلاده قريباً. سيكون فى الثمانين فى أول ديسمبر، وسأكون فى الخامسة والخمسين فى اليوم نفسه. عندما ولدت كان يحتفل بعيد ميلاده الخامس والعشرين فسمونى باسمه. ورد القاضى فى ابتسار: "جميل".

التفت القاضى يمنة وبسرة كأنه يستمع إلى إعلان رديء العرض ولكنه لم يبد اعتراضاً وأردف فى ود ممزوج بالحنق: هذه مناسبة ينبغى أن أتذكرها. هل لى أن أفعل شيئاً بعينه.. أى شئ نقدمه له فى عيد ميلاده. ثم أخذ يفأق ويسعل.

وضحك ألبرت الصغير، كما كانوا يسمونه، ضحكة تشي بالنقة

وقال: فعلا نحتاج منك شيئاً أيها القاضى همرسلى، كنت أنوى زيارتك بالفعل لأطلب منك شيئاً، فسوف أعد له عشاء خاص بهذه المناسبة، وأنت تعلم أن عمى يحب الخمر الجيدة التى يتعذر الحصول عليها هذه الأيام حيث تكثر السلع المغشوشة.

قال القاضى وهو يحدق هذه المرة فى عينى ألبرت مباشرة: "بالأكيد، بالتأكيد، لا تعطه من هذه السلع المهربة، سأجد لك نوعاً جيداً فى مشربى، تعال غدا مساء بعد الثامنة ومعك حقيبة. سأكون سعيداً لمساعدتك يا ألبرت، وسعيداً لأن العجوز فى صحة جيدة... سلام يا ألبرت".

فى تلك الأثناء دفع أنجلهارت الباب الثقيل وفتحه ولم يتركه حتى مر القاضى بسلام. كانت سيارة القاضى همرسلى فى انتظاره. وفى الطريق إلى بيته فى ثل السنجاب ظل يفكر بشئ من الأسى فى أمر ألبرت أنجلهارت وعمه.

كان الرجل عطوفاً بطبعه على الرغم من تعبيرات وجهه القاسية وملامحه العابسة. كان يضم الإخلاص لأصدقائه القدامى، الأسر القديمة والمثل القديمة. لم يكن يابه بما يسمونه النجاح فى عالم اليوم، ولكنه كان يرجوه لأصدقائه ويحزن عندما يسعون إليه ولا ينالونه. حزن عندما أخبره ألبرت بشئ من الزهو أنه فى الخامسة والخمسين، لأنه كان يعرف أن ألبرت لم يحقق شيئاً ذا بال خلال هذه السنين الطوال. كان ألبرت أنجلهارت آخر من بقى من عائلة أنجلهارت، ولم

يكن بينهم من حقق شيئاً. ماتوا جميعاً وهم أشد فقراً مما كانوا عليه في مبتدأ حياتهم. بدعوا حياتهم بمصنع زجاج على ضفة النهر وثروة تضمن النجاح وبيت واسع في أولغني وسمعة اجتماعية طيبة، ولكن كل شيء راح الآن... اندثر.

كان العجوز أوغست أنجلهارت حريصاً على ماله مفعماً بالنشاط رغم أنه كان يركب رأسه في كثير من الأمور. كان صديقاً للقاضي همرسلي ومن عملائه الأوائل. أما أبناء أوغست الخمسة فقد باعوا المصنع بعده وبددوا المال في مشاريع فردية وهمية. فقدوا البيت الواسع وماتوا جميعاً فقراء وبقي ألبرت. كان يمكن أن يعيشوا ويكسبوا المال ويشتروا الضياع ويعمروا البيوت لولا تلك الكبرياء الألمانية الكاذبة المستقرة في طبعمهم. ومع أن أوغست كان من الشاكلة نفسها فقد استطاع أن يحقق ما حققه. والحق أنه رباهم تربية خاطئة. كان شديد الزهو بهم، بأبنائه الخمسة حسنى الهندام مشرقى الوجوه. أما هم فقد ضيعوا الوقت في لعب التنس واحتساء النبيذ والاستماع للموسيقى الصاخبة في الملاهى الليلية والسفر إلى نيويورك. ماذا فعل ألبرت الصغير بما ورث من ثروة أبيه؟ كان يجيب وهو يضحك ضحكاً طويلاً بأنه أنفقها على قطارات بنسلفانيا.

كان أكثر ما يحير القاضي همرسلي هو كيف يجد ألبرت ما يعيش منه. كان ألبرت يعمل في وظيفة صغيرة في مجلس المدينة. كان يعتمد كلية على هذه الوظيفة إذ لم يكن يملك من حطام الدنيا غير

هذا البيت الصغير الرث الذى يعيش فيه مع عمه العجوز. لم يكن الناس يحترمونه إلا إكراماً لأبيه الذى كان ضابطاً شهماً فى الحرب الأهلية، وظل يخدم الناس بعد الحرب ويوفر لهم الوظائف فى مصنعه وغير مصنعه. وكما قال القاضى همرسلى للقاضى مريمان بشئ من المرارة عندما ذكر اسم ألبرت عرضاً: لولا أصدقاء أبيه القدامى لما استطاع هذا الشخص أن يستمر فى حياته. وهذه أسوأ نعمة يُتهم بها رجل بعد المساس بالشرف.

يقع منزل القاضى همرسلى على تل السنجاب أمام أكمة تكثر بها أشجار البلوط العتيقة. يعيش وحيداً مع ابنته الأرملة مارجريت بارمنتر. كانت مارجريت مشغولة دائماً ولكنها تجد الوقت الذى تتناول فيه العشاء مع أبيها فى البيت، وكان ذلك كل نصيبه من الأُنس والاجتماع. كان بيته مريحاً مزدهماً بالأثاث القديم، وكانت حجرة المكتبة فخمة التجهيز لأنها كانت مختلاه عندما لا يكون نائماً أو فى المحكمة. عندما نزل لتناول العشاء تلك الليلة وجد المسز بارمنتر جالسة إلى المائدة ترتدى ملابس السهرة. طويلة القامة مليحة الهيئة تملك سيارة جميلة حسنة التجهيز. كان وجهها مثل وجه أبيها، يجمع بين ملامح الجد ولامح الود، بيد أنها لم تأخذ من خشونة طبعه ولم ترث ذلك الانقباض اللاشعورى فى عضلاته الذى يدهمه إذا احتدم أو اعترض على شذوذ فى منظومة الحياة. أما هى فقد كانت تستقبل حماقات الحياة بصدر رحب أو دون اكتراث كبير.

وبينما كان خادمهما الزنجى العجوز يهين له المقعد، ألقى القاضى على ابنته نظرة عجلى من تحت حاجبيه وقال فى نبرة حادة مشوبة بالاستياء:

- رأيت ابن أوغست أنجلهارت هذا المساء.

كانت، وهى صغيرة، تخف للدفاع عن الشخص الذى يهاجمه أبوها لأنه أغضبه وخيب أمله. ولكنها الآن تشارك أباهما الإحساس بأن الناس مصدر قلق وخيبة أمل. أصبحت تترك الآن أن غضب أبيها وهجومه القاسى على بعضهم إنما يصدر من نفس مشفقة عليهم وقلب قلق من أجلهم، وأنه لم يكن ليقسو على الناس لو لم يكن يحس نحوهم ببعض الود؛ لذا أجابته فى صوت خفيض: أوه، حقاً، أنا لم أره منذ أعوام، منذ الحرب، كيف يبدو الآن؟ أما زال رث الهيئة؟

- ليس رثاً كما ينبغي، هذا الشخص سيتسول فى يوم من الأيام.

عندئذ تنهدت المسز بارمنتر وقالت:

- أخشى ذلك، ولكنى أعتقد أنه سيقبل ذلك عن طيب خاطر.

- وهز القاضى منكبيه غيظاً وقال:

- سيعرج علينا غداً مساء يريد شيئاً لعمه.

- فرصة أن أراه بنفسى إذن، لابد أن السن بدأ يظهر عليه، لا

أتحيله كبر واستقر عقله فى رأسه.

- لا تلحى عليه فى البقاء، لا أريده أن يتسكع حول منزلنا.
سيأخذ ما يريده ويمضى إلى حال سبيله. لقد بلغت قحته أن
أخبرنى أن عيد ميلاده الخامس والخمسين فى أول ديسمبر،
وهو يوم ميلاد عمه، سيقوم حفلا لعمه العجوز!

ثم تتحنح القاضى وسعل ولكنه لم يستطع رد ابتسامة لاحت على
وجهه، بينما ظلت شفتاه على حالهما من السخرية المرة فى حين
امتلات عيناه بمزاح مكرر.

- هل بلغ كل هذه السن؟ نعم.. لأنه عندما كنا عند المسز
سترتس فى روما كنت فى الثالثة عشرة ولا بد أنه كان فى
الثلاثين.

وسعل الأب مرة أخرى وقال:

- أفضل له أن يذهب إلى بيت جده!

تطلعت المسز بارمنتر إلى أبيها وقالت:

- أوه، لا أدري، ألبرت لن يكون ذا فائدة كبيرة فى بيت جده،
مع أنه كان نافعا للمسز سترتس فى روما.

- ولماذا تريدان من الرجل أن يتسكع هناك. جميع رجال أسرتهما
حققوا شيئا.

- حققوا الكثير جدا! ألبرت مكث فى روما ثلاث سنوات، تعلم

الإيطالية وهذا يساعده كثيرًا الآن. أنت نفسك لم تزل ترسل في طلبه ليأتى إلى مبنى المحكمة عندما تحتاج مترجمًا. أليس كذلك؟

- هذا لا يحدث كثيرًا، ولكنه يتقاضى بضعة دولارات إكرامًا لخاطر أبيه.

وبعد العشاء دلف القاضى إلى مكتبته بينما كانت المدفأة متقدة، وكان الكتاب فى انتظاره وقد وضع مدية فتح الورق عند الصفحة التى توقف عندها عن القراءة فى الليلة الماضية فى العاشرة والنصف بالضبط. وفى طريقه عمد إلى الباب الأمامى وفتحه وأضاء نور الشرفة وألقى نظرة على مقياس الحرارة وسجل شيئاً فى كراسة لديه. وخلال دقائق قليلة كانت ابنته فى زى السهرة تقف عند باب المكتبة لتودعه ونزلت إلى الصالة. أصاخ السمع هنيهة حتى سمع الباب الأمامى يغلق، صوت الاطمئنان. كان يحب أن يرى بيته مرتبًا خاليًا طوال المساء إلا من كتبه. كان قارئًا جيدًا فى اللاهوت والفلسفة وتاريخ أمريكا الشمالية القديم.

II

بينما كان القاضى همسلى مشغولا بالقراءة فى مكتبته كان ألبرت أنجلهارت يجلس فى بيته إلى البيانو العمودى فى ركن من حجرة الطعام يضرب عليه مقطوعة كريسليانا لشوبان ليشتنف أذنى

عمه العجوز. كان يرتدى سثرة تدخين من القطيفة فى لون العقيق الأحمر. يقع المنزل الذى يعيش فيه ألبرت مع عمه فى ركن غريب من المدينة، فى شارع حقير قائم على تل يقع على مبعده مسن شارع جارسن المزدحم. بيت صغير من طابقين مبنى من الطوب الأحمر. كان المنزل ملكاً لأحد العمال فى مصنع الزجاج، وكان أبو ألبرت قد أخذه منه وفاء لدين ميت. لم يكن المنزل شيئاً مذكوراً فى ذلك الوقت حين كان أوغست أنجلهارت وأسرته يعيشون فى منزلهم الكبير الواسع (بجملوناته) الكثيرة كشأن البيوت الألمانية يشرف على الحديقة العامة فى أولغنى. وكانوا يمتلكون الكثير من العمارات بالإضافة إلى مصنع الزجاج القائم على ضفة النهر. وعند وفاة الأب استبدل الأبناء بالمنزل الكبير والمصنع والأرض نقوداً سائلة. وبقي هذا البيت الصغير منسياً لم يتعرض للبيع أو الرهن. وذات يوم وجد ألبرت الابن نفسه الوحيد الباقى على قيد الحياة، وأنه لا يملك من حطام الدنيا شيئاً سوى ذلك المنزل الصغير وبعض المنقولات الشخصية. حتى عمه أخفق فى إحراز أى نجاح يذكر فى مجال الطب فقرر التقاعد. وهكذا استقر ألبرت وعمه فى ذلك المنزل الواقع فى الجهة الجنوبية من المدينة.

والغريب أن ألبرت لم يحفل بالقنوط الذى كان يمكن أن ينتابه بسبب ذلك كله. اختبر الفقر بالتدريج. قبل أن يرث البيت كان يعيش فى نزل، بدا التغيير إذن فى اتجاه الصعود وليس فى اتجاه الهبوط. كان سعيداً حين وجد له منزلاً مرة أخرى، يضع فيه أثاثه وكتبه وصوره التى كان يعدها جزءاً من نفسه وأعلى الأشياء عنده، سجله

الحافل بتاريخه الشخصى وتاريخ العائلة، ذكريات عمره وسنين شبابه التى تسالت منه دون رجعة.

وهو جالس إلى البيانو، تعلوه لوحة لثلاث راقصات باليه فى مشرب باللون الأسود المخضب بالأحمر، أو جالس إلى منضدة الكتابة جميلة الزخارف، كان يبدو وكأنه لم يزل ذلك الشاب الأنيق الذى كان يجلس هناك منذ زمن ولى. تحت قدميه تغطى الأرض رقع السجاد الرائعة، وتزدان أرفف مكتبته بكتبه التى جمعها عن شغف حقيقى لكتاب لم تصمد أفكارهم أمام زمن متغير رغم حدائثهم. كان فى وسعه استرداد اللحظة التى أثارت هذه الكتب فيها العالم ثم ما لبثت أن استقرت فى أعماق النسيان، فقدت الآن قدرتها القديمة على استمالة العقول وإغواء النفوس.. رف كامل للكتاب الأصفر وحقيبة تملى بلوحات أوبرى بيرسلى أحد أقطاب الرمزية فى نهاية القرن أو "المنحطين" كما كانوا يسمونهم. وديوان شعر صغير يضم الأعمال الشعرية الكاملة لشاعر حديث ممتاز يدعى إرنست داوسن. وكتب أوسكار وايلد الذى تبدو شقاوته الآن موضحة قديمة أشبه بقبعة بالية ربيثة محفوفة بالزهور والريش نصل لونها على رأس حسناء من العصر الفكتورى.

كان ألبرت وعمه يعيشان فى الطابق العلوى من البيت. أما الطابق الأرضى فقد كان مؤجراً لنقاش زجاج ألمانى كانت زوجته طبخة ماهرة فكانت ترسل إليهما العشاء ساخناً كل ليلة على مصعد

صغير. كان المنزل يشرف على الشارع مباشرة، وكان الذهاب إلى شقة ألبرت يجتاز ممرا ضيقا ممهدا في جانب من البيت، ويرتقى بسطة أمامية قبل أن يرقى درجا خشبيا. كانت الشقة من أربع حجرات خصصا اثنتين منها للنوم وحجرة جلوس أنيقة دافئة كانا يأكلان بها، ومطبخ صغير كان ألبرت يعد به الإفطار كل صباح. وبعد ذهابه إلى السوق كانت المسز روبر تأتي من الطابق الأرضي وتقوم بغسل الأطباق وتمسح الشقة وتسلي الدكتور أنجلهارت العجوز.

أخبر ألبرت على مائدة العشاء، تلك الليلة، عمه العجوز بما كان من شأنه مع القاضي همرسلي وعن سؤال القاضي عن صحته. ولم يستطع العجوز أن يدارى اغتباطه رغم غلبة نبرة الغرور على رده الذى لم يتجاوز أسنانه.

- ألا تزال ابنته تعيش معه؟ امرأة جميلة حقا بنت ال... !

لم يتزوج العم ألبرت، بيد أنه كان خبيرًا متضلعا بأحوال النساء فى شبابه.

وإذ فرغا من العشاء جلس ألبرت إلى البيانو، كما كان يفعل كل ليلة، إلا إذا خرج لبعض شأنه، وشرع بضرب قطعة يشنف بها أننى عمه العجوز. كان عازفا جيدا حقا. كان الدكتور ألبرت يجلس أمام المدفأة يدخن سيجاره الشهير ويستمتع باهتمام. لم تعد عيناه تلمعان ببريق الحكمة والقوة والخبرة كعهده فى السابق، يطل منهما الآن بريق ضعيف لا تعرف أيوحى بازدياء خفى أم بغرور متأصل أم بحزن

عميق أم بشئ بعيد المنال لا تعرف كنهه. نال الزمن من معالم وجهه
وكانما دخل فى صراع محوم مع الأقدار. يهدئ نفسه حين يشبه نفسه
باله الغابات عند الإغريق لأن قمتى أذنيه متفتتان. وكثيرا ما كان
يزعم أمام أبناء أخيه أن أنفه الضخم المتدلى علامة على طبع مفلور
على الحب. كان فمه عامرًا بأسنان صفراء طويلة تردهم بين فكليه
دون تناسق. تصطك عندما يحتد احتجاجًا على الفن الحديث. كان
شاربه قصيرًا ومنتصبًا على الجانبين. وكان شعره الذى يشتعل شيبًا
الآن قصيرًا ومرفوعًا على الطريقة الفرنسية. وكانت يده صغيرتين
تعوزهما الرقة، تبرز عظام مفاصل أصابعه بشكل واضح رغم أناقتهما
الظاهرة.

فى حلقه ندبة طويلة خشنة، كان يقول لأبناء أخيه الشباب إنها
بسبب رصاصة انطلقت فى الظلام من مسدس زوج غاضب. ولكن
أخاه أوغست كان يقول إن الزجاج هو سبب الندبة فى حلق أخيه، هام
ليلة فى الحديقة بعد أن شرب حتى الثمالة فسقط على الأوقية الباردة
المخصصة لحماية النبات. وعندما فرغ ألبرت من ضرب مقطوعة
شوبان شرع، دون توقف، يعزف موسيقى سترافنسكى.

عندئذ تلمل الدكتور أنجلهات أمام المدفأة وبان القلق على
وجهه. استدار ناحية ابن أخيه برأسه التى مال بها الكرى وعض على
نواجذه وقال: تبًا لها من موسيقى، فقر فى الخيال وفقر فى الإبداع،
نهاية القرن!

وقال ألبرت وهو يضحك: ظننتك نمت. لماذا تستخدم هذه العبارة التى تمنى بسنك؟ هل تحب هذه إذن؟ وأنشأ يضرب الفصل الثانى من أوبرا بيلاس وميليساندا.

لوماً الطبيب وقال: نعم، هذه أفضل رغم أنها لا تستهوينى كثيراً، وجعد أنفه كأنه يشم رائحة ماء، وألقى

على ألبرت نظرة شزراء من عينين نصف مغمضتين تتم عن ترفع مصطنع عن التأثير وقال: هذه جديدة طبعاً بالنسبة للعامة، ولكن بالنسبة لى فهى أشبه بموسيقى باخ.
- إذا أحببت.

كان ألبرت مثل القاضى همرسلى، حريصاً على العزلة، بحسب الخلوة بكتبه ساعات كل يوم ويتيح الفرصة لعمه الطبيب أن يأوى إلى فراشه بعض الوقت. وبعد أن فرغ من نصف دسنة من الأغاني الألمانية التى كان العجوز يحب سماعها دائماً ولكنه لم يكن يلح فى طلبها، غاصت ذقن العجوز فى قبة قميصه وقد علت وجهه مسحة من حزن عميق مكبوح، وفقدت ملامحه كل معنى وبدا كمن ينفر من شئ. لقد أخذ الكرى بمعاقده جفونه وبدأ النور يستوى عنده بالظلمة. واجهت الدكتور أنجلهات خسارة كبيرة فى أواخر أيامه. والحق أنه عانى من الخسارة مرتين.

وإذ غادر ألبرت البيانو نهض الطبيب ومشى إلى حجرته متقللاً بالنوم، ولكنه توقف قليلاً عند الباب ورفع يده وحنى رأسه كثيراً لنحية

ألبرت حتى ظهر شعره المنتصب وانفه الذى يشبه اللؤلؤة الطويلة ثم دلف إلى حجرته وأغلق الباب خلفه. عاد ألبرت إلى كتبه وقد تنهى إلى سمعه صوت الماء المتساقط من الدش فى حجرة عمه. لم يكن الطبيب يأخذ الدش قبل الهجوع توقيًا للبرد. لعله كان يحلم بذلك المطرب الذى كان يسميه أمام ابن أخيه: "لينور المنتظر".

III

منذ سنوات طويلة خلت كان أفراد أسرة أنجلهارت يعيشون فى البيت القديم فى أولغنى مع أهم بعد وفاة أبيهم. كان الدكتور أنجلهارت عندئذ يمارس الطب فى عيادته التى تشرف على الحديقة العامة على مسافة خمس دقائق مشيًا من شقة امرأة أخيه. كان يتناول الغداء معهم بعد أن ينتهى من ساعات العيادة الصباحية. كان البيت لا يبعد كثيرًا عن سوق أولغنى، أفضل سوق فى العالم وكانت المسر أنجلهارت تختلف إليه كل صباح طوال حياتها تبتاع منه الخضروات والدواجن والأجبان والسجق وألوان الأسماك المشوية والمخللة. وبعد أن تنتهى من جولتها كنت ترى صبية فى مرايلهم البيضاء يعبرون الحديقة ركضًا وهم يحملون مشترياتهم الكثيرة. الجميع يعرف منزل آل أنجلهارت المبنى بالطوب الملون بألوان شتى، و(جملوناته) الخلابه وأبراجه الصغيرة والنافذة الزجاجية الكبيرة التى تقع فى ناحيته الغربية تعكس منظرًا للقناة الكبرى فى فينيسيا على خلفية سانتا ماريا ديلا

سالوت، وفي أمامية الصورة جندول (زورق فينيسيا) وسائقه ضامر الجسم. وكان الناس يقولون إن أوغست والممزر أنجلهارت كانا ينبغي أن يجلسا في مقدمة الصورة حتى تكتمل.

كان الدكتور أنجلهارت أخصائيا في علاج الحنجرة، حناجر المطربين بالذات. لقد درس كل قصاصة تركها مانويل جارسيا بعد وفاته وكل حوار أجرى معه. كان الطبيب المعالج لعدد كثير من المطربين، ويزعم أنه أنقذ أصواتا كثيرة من الضياع. هواء بيتسبرج لا يساعد الحنجرة. كان الفنانون يسعون لمشورته قبل سفرهم، وكان قائدو الأوركسترا ونقابات الفنانين ينصحون المطربين بالذهاب إلى الدكتور أنجلهارت؛ لأنه كان يتساهل في الأجر خاصة عندما كانوا يرسلون إليه صورهم الفوتوغرافية المنزلية بتوقعاتهم المزخرفة. وكان يرد اسمه في مذكرات كبار المغنين كورود اسم مالك جياذ السباقات في فصول عن الجياذ السريعة. لقد منحه ذلك الحماس للأصوات إحساسا بالتميز، بكونه مفردا في مهنته مما جلب له السعادة والرضا وخلفه رجلا فقيرا في الوقت نفسه.

وذات صباح عندما كان الدكتور أنجلهارت يتمشى كعادته حول الحديقة العامة قبيل الذهاب إلى مكتبه، توقف هنيهة أمام مدرسة أولغني الثانوية لأنه سمع غناء. جوقة ترتيل من أصوات التلاميذ. كان شهر يونيو وكانت نوافذ المصلى مفتوحة. ظل الطبيب يتسمع لحظات قلائل ثم أمال رأسه ناحية جانب واحد ووضع سبابته على أنفه التي كانت

أشبهه باللؤلؤة وحانت منه نظرة شزراء قلقة مستطلعة. من بين الأصوات سمع صوتاً متميزاً. وعقب الضربة الأخيرة على البيانو سمع ضحكة معدنية وهممة. استوقف الطبيب ضحياً لدى خروجه وعلم منه أنها كانت بروفة حفل التخرج. فى تلك الأثناء سمع عزفاً آخر على البيانو وما لبث أن سمع الصوت نفسه، وحده هذه المرة يردد بالألمانية: لتكن هادئاً كالليل، عميقاً كالمحيط.

وكان على حق... أجل... الصوت صوت سوبرانو كامل النضج؛ قوى، عميق، مطمئن، ثابت، ينبعث منه الدفء حتى فى النغمات العالية. وقبل أن تنتهى من السطر الثانى دلف إلى المبنى برفق حتى وصل إلى المصلى ورأى مارجريت ثيسينجر لأول مرة. رأى فتاة ألمانية يافعة ناضرة الجمال، تقف إلى جوار البيانو طلاقة المحيا تتوهج بالعافية. بدت له أشبه بزهرة الفاونيا التى تفتحت لتوها فامتلات بأشعة الشمس - أشعة الشمس فى شعرها الأسمر الضارب إلى الحمرة وفى عينيها الصغيرتين بلون البندق. وما فرغت من غنائها حتى انطلقت مسرعة على سلم المبنى مع أحد الصبية.

كان الدكتور ألبرت ينتظر بالباب، ولدى خروجها وهى تحمل معطفها وكتبها المدرسية دنا منها وقدم نفسه وسألها إذا ما كانت ترغب فى زيارة المسز أنجلهارت وتتناول الغداء معهم وتغنى هناك "أوه، لا مانع". وقالت إنها كانت تعرف أحد أبناء أنجلهارت وإنها كانت تتمنى دائماً رؤية النافذة الجميلة من الداخل.

وفى الظهر ذهبت إليهم وغنت لهم قبل الغداء وكانوا يقومونها. كانت تتكلم ألمانية أقل من المتوسط وإنجليزية أسوأ. تربت فى وسط عادى جداً، كان حديثها بالعامية ولكنه لم يكن سوقياً أو فظاً. كانت ساذجة لا تعرف غير ما تفعل. سعد أبناء أنجلهارت بوجودها؛ لأنها كانت مريحة جداً ومهتمة بكل شئ. حكّت لهم عن الأوقات الرائعة التى تذهب فيها للرقص فى صالات ضاحية تيرنز وعن نزواتها الخلوية فى غابات أولغنى الباردة والملونة بالدخان. وظل الصبية غارقين فى الضحك عندما ذكرت لهم تلك الغرائب. كل شئ فى نظرها كان رائعاً، ساعدها على ذلك دفء مشاعرها ونشاطها، حتى كونها فى الصف الأول فى مدرسة أولغنى الثانوية كان رائعاً، هكذا قالت لهم.

زارتهم أكثر من مرة بعد ذلك وتناولت الغداء عندهم لأنها أحببت الأولاد وأعجبها البيت كما قالت. كان الدكتور يراقبها عن كثب طوال الوقت. بدت دون طموح أو هدف، كانت تغنى ليحبها الناس فحسب. الذكاء ينقصها، ولكن دفء مشاعرها كان أهم من الذكاء على حد قوله. دعاها إلى مكتبه وظل يحاصرها بالأسئلة، وعندما فرغ من استجوابه صمت برهة أمام تلك المخلوقة الرقيقة الساذجة وانحرف برأسه على طريقته المعهودة وقال لها: "أنسة ثسينجر، يشرفنى أن أعلن لك أنك على أعقاب المجد".

وجلجت ضحكتها العذبة المدوية وقالت:

- أليس غريباً أن تتعب نفسك من أجلى على ذلك النحو؟!

ورفع الدكتور سبابته وعاد يقول:

-ولكن بشرط أن تقلعي عن سخافتك وسذاجتك وتتركي هؤلاء الحمقى الذين تغنين معهم، اتركي كل هذه السخافات.

وتحرك بكل كيانه كأنه كان يهيم بعصر عنق دجاجة، وغالبت مارجريت ضحكة كادت تنطلق من بين شفثيها. كان الدكتور أنجلهارت يريد منها أن تذهب معه إلى نيويورك فوراً لتبدأ الدراسة. وأبدى استعداداً للإنفاق على دراستها. لقد قرر في لحظة أن يغامر بكل شيء في سبيل ذلك الصوت.

ولكن لا فائدة! قالت: إن ذلك لطف منه وكرم، وإنها تحب زملاءها في الفصل جداً. وإنها تريد أن تتخرج في السنة الأولى ذلك العام مع أقرانها. بالإضافة إلى ذلك فقد حجزت لها أكبر كنيسة في بيتسبرج موقعاً متميزاً في جوقة الترتيل رغم أنها لم تزل تلميذة في المدرسة مما سيجلب لها بعض النقود والملابس الجميلة لأول مرة في حياتها.

وأثناء السنة الدراسية دأب الدكتور أنجلهارت على الذهاب إلى الكنيسة التي كانت تغنى بها بانتظام، يراقبها ويغمرها بعبارات التقريظ والإعجاب، ويجادلها بشدة أحياناً، ويحاضر لها أحياناً أخرى سعيًا منه لبث الطموح في وردة الفاونيا الكبيرة. كانت مهتمة جداً بأمور أخرى في ذلك الوقت، ولكنها تحملته، وصبرت على إلحاحه، وتفهمت إخلاصه، وتحملت طريقته المسرحية كما كانت تسميها. تخرجت في

السنة الأولى فى يونيو، وكانت دون التاسعة عشرة. وبعد حفل التخرج مباشرة فرت مع مندوب شركة تأمينات إلى شيكاغو وكتبت رسالة إلى الدكتور ألبرت قالت فيها: "أقدر لك عطفك علىّ وحدبك على صوتى وحنوك على شخصى، ولكنى أظن أنى سأدع صوتى يرتاح فى الوقت الحاضر".

وتلقى هذه الأنباء بحزن وأسى شديدين. وعمد إلى صورها فأحرقها. وأحرق أيضًا خطابها الذى كتبه بخط يشبه الخريشة لتشكره على هداياه. وكانت كآبته تزداد حدة فى وحدته عندما لا يجد ما يتهمها به. كان يتهمها دائمًا بخيانة موهبة ربانية كهذه. أين تخبئ الجوهرة الآن، فى تلك الحياة المتواضعة التى اختارتها؟

وبعد ثلاث سنوات من هروبها ودون مقدمات أيضًا اقتحمت عليه مكتبه فى شارع أرش ذات صباح وأخبرته أنها عادت لتدرس وأن زوجها تورط فى بعض شئونه ويريدها أن تكسب من صوتها كى تقله من عثرته "صوتى أفضل من السابق". قالت له وهى تتطلع إليه بعينيهما الصغيرتين الضاربتين إلى اللون الأخضر مع وميض ذهبى يشع منهما، وصدقها. أترك فجأة كم كانت صديقة على نحو لم يعهده عند أحد. غيبة ويعوزها الطموح ولكنها صديقة صدقًا لم يعرفه عند رجل أو امرأة، وهى الآن امرأة. ولكنها شلال هادر من الدفء والحيوية.

رافقها إلى بيت زوجة أخيه، وكان ألبرت هناك فأرسله عمه إلى

البيانو. ولم يكن مخطئاً. ظل يحول رأسه بعيداً عن عينيها لكي يخفى فرحته، أو ليخفى، مرة أو مرتين، دمة انحدرت على صفحة وجهه، أو يخفى الندوة التي جلبتها الإثارة والسعادة إلى عينيهِ. فالصوت زغم كل شيء، قال في سره، شيء جسدي. كانت تكبر وتتضج مثل ثمرة فاكهة تعرضت لأشعة الشمس، الصوت والجسد. غادر الدكتور أنجلهات حجرة الموسيقى ودلف إلى معهد الموسيقى وأشار براحة يده في حركة خطابية بينما تراجعَت شفتاه عن أسنانه وأنشأ يقول: "أيها السيدات والسادة، هذه واحدة منكم، الآن أقدمها لكم ثمرة ناضجة".

وعندما عاد إلى مغنيته خاطبته باهتمام شديد من تحت قبعتها الجميلة المحلاة بأزهار الليلاك: "قبل زواجي يا دكتور أنجلهات عرضت على أن تأخذني إلى نيويورك لأحد الأساتذة وتقرضني المال الذي أبدأ به. إذا كنت لا تزال عند وعدك فأنا على ثقة بأنه لن يمر وقت طويل قبل أن أرد لك نقودك. سوف أتبع تعليماتك. كنت تقول لي إنه يجب أن يكون لدى رغبة وطموح في الدراسة".

وحقق فيها برهة ثم عاد يقول: "لاحظي يا جريشن أنني غيرت الوصفة. الطموح لا يكفي. الآن يجب أن نراهن على المجد، الطموح والترقي!"، وأشار لأعلى بسبابته.

وفي نيويورك لم يأل جهداً في الدعاية لها وجذب اهتمام أصدقائه ومعارفه. وفي غضون أسبوع أصبحت محميته من الفنانات اللاتي يشار إليهن بالبنان. وجد لها فرصة في دار الأوبرا عندما

تقاعدت إحدى نجوماتها التي كانت تلميذة بولين جارسيا فيادروه. باختصار حقق الدكتور أنجلهات حلم حياته. اكتشف صوتاً رائعاً. ولم يمض عام حتى كانت مارجريت تحتل أحد أهم المواقع في جوقة ترنيل أكبر كنيسة في نيويورك. وأصررت على تعويض راعيها قبل أن تذهب إلى الخارج لتكمل دراستها. كان الدكتور أنجلهات يزورها كثيراً في نيويورك للنصح والإرشاد، ولكي يملأ عينيه من كنزهِ المكتشف. كان يرتجف خوفاً عندما كان يركب عبّارة جرسى. كان يخاف من غدر الدهر. يتذكر مستقبلها الفني فتهدأ روحه بين جنبيه. كنت ترى رجلاً صغير الجسم معتدا بنفسه في طور الكهولة يقف عند سياج العبّارة يميل رأسه بشدة وكأنه يخاطب مدرجاً مليئاً بالطلاب ويحصى باهتمام شيئاً على أصابعه.

ولكن الدهر ضرب ضربته، ومن النقطة التي لم يتوقعها الدكتور، من الجسد اليافع الذي كان يتألق بالعافية والنضرة، من تلك الصحة الوافرة التي تتضح بالقوة التي كان الدكتور يسميها "القوة الريفية" زهواً بها. لقد أغرى نجاح مارجريت الكثير من أمهات الفتيات اللاتي كن يردن احتراف الغناء، فقصدن مكتبه، وكان يرحب بهن ولا يضمن عليهن بكلمات الإطراء والتمنيات الطيبة ولكنه ما يلبث أن يصرفهن بإيماءة رقيقة من إصبعيه وهو يقول فيما يشبه الهمهمة: "عم لها صوت حلو، تستطيع أن تغنى قليلاً، صوتها نظيف!!". لم يكن يمل من الثناء على غناء ورونته السانجة والمقارنة أمام أبناء أخيه بينها

وبين المغنين فى تلك الفترة. كان يقول إن إيما إيماز متكلفة جدا، وإن صوت جبر الدين فيرار شاحب، وإن أخرى متصنعة جدا.

مكنت مارجريت فى نيويورك عامين تحقق النجاح تلو النجاح، وفى تلك الأثناء كتبت للدكتور تخبره عن ورم ألم بها ويريد الأطباء استئصاله بالجراحة. وما إن فرغ من قراءة الخطاب حتى توجه إلى المحطة واستقل أول قطار إلى نيويورك. كشفت العملية عن أن الأمر لم يكن بالهين. الورم خبيث. استشرى حتى عجز مشرط الجراح عن استئصاله أو كبح جماحه. كانت أمها وجنتها قد ماتتا بالمرض نفسه.

ظلت مارجريت المسكينة عامًا فى المستشفى تعالج من ذلك المرض العضال. وكان الدكتور ألبرت يزورها يوميا ويرى حالتها وهى تسوء يوما بعد يوم. كانت التطورات سريعة ومثبطة. أمضى الشتاء والربيع كالتائه فى مستنقع مظلم. عانى أكثر مما عانت. كانت رابطة الجاش مفعمة بالأمل. لم تظن، إلى آخر لحظة من عمرها، أن يد الموت مبسوطة إليها فرحة بلقائها.

فى آخر مرة رآها كانت مستسلمة وإن ظلت رابطة الجاش، مستهينة بالكرب، تخاطب الكهل بلغة اعتذارية وكأنها ترجو منه الصفح لأنها خيبت أمه، مثل طفل يعتذر عن شئ ثمين حطمه. ضمير جسمها فأضحت كالشبح النائم أو كطفلة لم تتعد السابعة. أزالوا شعر رأسها وبانت العروق على يديها رغم أن اللون الأحمر كان مافتي يخضب وجنتيها.

- آسفة غاية الأسف لأننى لم أصغ لتصبحتك بدلا من الهروب مع قل، أرأيت الآن كيف هنت عليه، فى الوقت الذى فعلت أنت كل شئ من أجلى. لو أعطيت عمرى مرة أخرى الآن لما ترددت أن أحياء حياة مختلفة.

وترك الدكتور ألبرت يدها وتقدم إلى النافذة وأنشأ يدمدم بالفرنسية: "لم؟ لماذا؟"، وما زال يحرق فى ذلك المربع المتوحش من الزجاج دون أن يعى شيئا. وعندما كف كف دمه وهذا روعه عاد إلى مقعده بجوار سريرها. وضعت رأسها الحزين فوق ركبتيه وتطلق وجهها بابتسامة باهتة واستمرت تقول بلسان ثقيل:

- لا أظن أنك تؤمن بالآخرة، نادرا ما تجد عالما يؤمن بالآخرة. فإذا وجدت حياة أخرى هناك لن أنساك، سوف أحب أن أتذكرك.

وعندما جاءت الممرضة لتعطيها حقنة تحت الجلد خرج الدكتور ألبرت إلى الحديقة العامة، وهام على وجهه دون أن يعرف له جهة مقصودة. ولم يزل هذا شأنه حتى شم رائحة حلوة جعلته يتوقف. تهافت تحت شجرة زيزفون زاهرة وأسلم رأسه إلى ركبتيه وظل يهذى وينتحب كالنكلى: "الشباب، الفن، الحب، الأحلام، الوفاء الخالص - لماذا؟ لماذا ترحل عن هذا العالم إلى ظلمة لا يعلمها أحد. لماذا؟ لماذا؟". تهافت على الأريكة كالثلمل أو كمن حضرته المنية وراح يهذى بكلمات من هاينه^(*): "الله أكثر قسوة منى فى سخريته، ليس هناك من

(*) شاعر وكاتب ألماني (١٧٩٧ - ١٨٥٦)

هو أقدر منه على صنع القسوة. كُحلة منى!". وطفق يتذكر وهو يضرب رأسه بقبضته المكورة ويقول: "كُحلة لأن صادفت مصيبة كهذه! تعتذر للقوة التي دفعتها إلى هذا المصير، القوة التي خدعتها وغررت بها. نعم بسبب الله وتريد أن تعتذر لله!".

وشخص الرجل المعذب بصره عبر أغصان الزيزفون المتعانقة فرأى قوس السماء الأزرق لا يجيب أبدًا، فإذا استرخى وجهه وعادت أنفاسه للانتظام تعلقت عيناه فجأة بقطع من السحاب الرقيق أشبه برعوس الملائكة في لوحات رافاييل. أحس أن نفسه تغادره وترحل مع تلك السحابات. الأمر فوق طاقته. وعندما قفل راجعًا إلى المستشفى ذلك المساء علم أنها رحلت راضية مطمئنة بين الحادية عشرة والثانية عشرة، ساعة كان رابضًا على الأريكة في الحديقة العامة.

بدأ العم الدكتور يكثر من الضمت ويكثر من ترديد مرثيته حتى كادت تخرج معها روحه: "على أية حال لقد نقت طعم الموت من أجلها. هذا هو نصيبي وكفى. لم تحس بآلام النزع مثلى... نامت ولم تستيقظ. اضطرمت نار نزعها في داخلي... داخل جسدي أنا... لاقت حتفها داخلي".

IV

أصبح الدكتور أنجلهارت قليل الخروج. كان ابن أخيه يصحبه أحيانًا في أيام الأحاد المعتدلة إلى الترام الذي يجتاز جبل أوليفر ثم

يعرج به إلى مقبرة ألمانية قديمة ودير. وعندما يصفو الجو كان يتمشى كل أصيل على الرصيف أمام منزله لبيتاع جريدة أو علبه سجاثر. وعندما كانت إلزا الصغيرة الجميلة حفيذة مديرة منزله تراه قبل أن يعبر الشارع، كانت تلحق به وتتمشى معه قليلاً. وفي الصباح عندما كانت المسز ردر تقوم بالمسح والكنس، كان الدكتور يصعد إلى الطابق الأعلى ليشم الهواء من شرفة تطل على المحكمة.

كانت المحكمة مبنية بالقرميد يعلوها صهريج من الطراز القديم. تزدان ساحتها بحفنية كبيرة وثلاث شجيرات من نوع الأيلنطس. أما آل أنجلهارت فقد اشتهروا بزراعة الشجيرات الصغيرة في دفيئات معروفة لدى الناس في أولغنى. وكانت تلك الأشجار الصغيرة محل اهتمام الدكتور أنجلهارت البالغ. يحب النظر من شرفته إلى الملابس المنشورة على حبل الغسيل المشدود بين جذوعها على شكل مثلث، تحول حسارة بصره بينه وبين رؤية رقائق السخام التى كانت تهبط من المداخل القريبة على الملاءات البيضاء. فى الصيف لم يكن يمل من رؤية الأوراق الكثيفة الخضراء على شجيراته الثلاث، لا تصدر منها نأمة فى الليالى الساكنة الرطبة عندما يعلى القمر المخضب بالحمرة أسطح المداخل. وفى الخريف كان يراقب الأوراق الصفراء تتساقط فوق الرصيف القرميذى. عندما يحل يوم مولده كان يحب النظر إلى الأشجار وهى عاطلة من أوراقها وقد تلافعت أغصانها الصغيرة المعقوفة كثيرة العقد بقشرة رقيقة من الثلج.

ولم يزل هناك رابضاً في مجثمه متلفعاً بدثار غليظ وعلى رأسه قبة خشنة من اللباد - لم يكن بأنس للقلنسوة - ويضع قفازين من الصوف على يديه، حتى أقبلت إلزا تحمل غزلها تريد أن تؤنس وحدته. كانت تخطط جهاز عرسها بنفسها، وكان ذلك يسعد الدكتور رغم ما يعنيه ذلك من رحيلها الوشيك إلى بيت الزوجية في وهاد أولغنى وأنه سوف يفتقدها. خطيبها الشاب كارل أبربوك يمتلك الآن نصف دكان جزارة في سوق أولغنى، وفي عجلة من أمره.

وعندما كانت المسز ردر تفرغ من تنظيف المكان كانت تقبل على الدكتور وتمهد البساط تحت قدميه وهي تقول له: "حان الوقت للدخول يا دكتور".

V

وفي المساء التالي، بعد العشاء غادر ألبرت الصغير البيت يحمل حقيبة فارغة في يده، الحقيبة التي طالما أخذها في رحلاته إلى نيويورك في فصل عروض الأوبرا. توقف هنيهة في الطابق الأول ريثما يطلب من إلزا أن تصعد إلى الطابق الثاني لتجلس مع عمه لبعض الوقت، ثم استقل الترام الذي عبر به جسر ٢٢. وفي طريقه أحس بالوهج المتصاعد من مصانع الفولاذ.

وإنه لجالس ينتظر على تل سوهو ليستقل ترام شارع ٥، إذا برقأتق الهواء البارد المشبع بالصقيع تتساقط فجأة، تمنى لو كان يرتدى

معطفه القديم ضنا بهذا الجديد من البلل. عليه الآن أن يحتاط لكل شئ. كان يفكر فى أن يستقل سيارة أجرة حين أقبل الترام المنشود ميمما شطر الشرق. نزل عند بداية أحد الشوارع المفضية إلى تل السنجاب وشرع يصعد فى تودة. كانت الأشياء قد اكتست باللون الأبيض من جراء الثلج المتساقط. كان ألبرت يألف تلك الأماكن كلها، زملاء المدرسة القدامى كانوا يقطنون فى تلك الأماكن أو فى جها، فى تلك المنازل الكبيرة ذات الأبراج الحجرية وساحاتها الواسعة وأفانين الأشجار التى قامت فى عرصاتى وحول دروبها. كان يضطر للقفز يمينا أو يسارا فى الفينة بعد الفينة تفاديا لسيارة مسرعة، يندفع على الطرق المكسوة بالحصى إلى رصيف المشاة المبنى بكتل الأحجار الصخرية. لو نظر الساكنون إلى ألبرت الآن لحزنوا له، بيد أنه لا يحزن لنفسه. تطلع إلى النوافذ المضاءة ورأى بقايا الأنوار الحمراء على رعوس أجمات (الروندرون) وهز عاتقيه. رفاق الدراسة الذين يقطنون هنا الآن ماذا فعلوا بحياتهم؟ اختلفوا إلى نيويورك كما كان يفعل، ولكنهم كانوا يذهبون لاستشارة طبيب أو ليلحقوا أبناءهم بالمدارس، أو ليدفعوا فواتير أبناء لا سبيل إلى إصلاحهم.

قال فى نفسه إنه: "أفضل منهم بكثير، هذه الراحة الجامدة، ذلك الأمان القاسى المكبل بالحديد لم يرق له كثيرا. تلك المنازل الضخمة لا تتطوى على شئ إلا صيغة الحياة العائلية المكرورة والخلافات والضغائن الأسرية. أحس ألبرت أنه خلو من الهموم مطلق المسراح

وهو يرتقى التل في معطفه الرقيق. قال فى نفسه: إن حياته الحاضرة أكثر روعة من حياة معظم أصدقائه ملاك العقارات. لا زال يجد المتعة وقد عاش حتى النخاع ثورات الفن والموسيقى من تقاليع الفترة. وهو الآن لا يستطيع أن يبدل حياته وينسى ذكرياته - تذكر فجأة معلمه رافاييل جوزفى - من أجل واحد من هذه المنازل الفخمة، ولن يستبدل بحياته حياة رجل من هؤلاء الذين يقطنون هنا. لو برز ميفيستوفيليس (*) الآن من بين أشجار الرودوندرون ووقف خلفه يلوح له بهذا العرض لما وافق. المال؟ نعم قد يأخذ منه قدرًا يسيرًا.

غمرته بالظل أشجار البلوط التى تعانقت ذوائبها أمام منزل القاضى همربلى. رأى سيارة منتظرة فى الممشى قريبًا من الدرج الذى ارتقاها إلى الباب. أشار له الزنجى بالدخول. وعند دخول الصالة كانت المعز بارمنتر تهبط الدرج.

- آه، أهو أنت! ألبرت! قال لى أبى إنك ستأتى فى المساء فأمرت سائقى أن ينتظر حتى أراك.

وتخلى ألبرت عن حقيبتة ووضع قبعته وتناول يدها برقته المعهودة وهتف بها:

- يا لها من سعادة أن أراك! لا أراك كثيرًا ولكن رؤيتك تسعدنى جدا. لقد مر وقت طويل مذ كنا فى فيلا سيببون.

(*) كبير الشياطين فى أساطير العصور الوسطى كان فاوست قد باع له روحه مقابل إعطائه القوة والمعرفة. (المترجم)

وعرفت المسز بارمنتر صدقه من عينيه. ظل ممسكاً بيدها وكأنما يريد أن يبقى عليها بين يديه أطول فترة ممكنة. وقفا برهة فى ضوء الصالة المحجوب. كانت المسز بارمنتر ترفل فى جمال رقرق. لها نصيب من قوة أبيها واعتداده بنفسه مع تلقائية بعيدة عن التحفظ. قال فى نفسه إن الاندفاع والطيش من سلائقها الأصيلة، فى حين كان أبوها متحفظاً يجفل من أقل المضايقات. لم تكن المسز بارمنتر تخشى الانتقاد أو القيل والقال. تفعل ما تريد ولا تأبه بشئ وما يلبث أن يقبل منها الناس ذلك. حتى بارمنتر كان يقبل منها رغم أنه كان شخصاً فظاً عنيداً.

جلجت ضحككتها عندما ذكرها بالصيف الذى قضياه فى منزل المسز سترتس فى روما. أعطته معطفها لكى يحمله.

-أتذكر يا ألبرت كيف كنا نستيقظ مع الفجر أيام المهرجانات ونقف أمام بوابة الحديقة لنلقى نظرة على الملك الشاب قادمًا من الريف على رأس موكب من الفرسان؟ كيف كانت أشعة الشمس تلمع على خونته! يا إلهي! لقد رأيته الصيف الماضى، اشتعل رأسه شيباً وساعت أحواله.

-وكنا دائماً نريد أن نهرب معاً إلى روسيا، أين هى روسيا الآن؟ كل شئ تغير إلا أنت يا مسز بارمنتر.

-أتمنى أن يكون ما نقوله صحيحاً. ولكنى لست المسز بارمنتر الآن، أنا مارجورى إذا سمحت. كم من مرة أتذكر تلك الأصائل السعيدة التى قضيتها معك أنت وإخوتك فى الحديقة

وراء منزلكم القديم فى أولغنى. ثمة الكثير الذى أريد أن أحدثك عنه، متى يكون حفل الميلاد هذا؟ هل لى أن أرسل بعض الورود لعمك؟ أتذكر دائماً إحسانه مع مارجريت ثيسنجر المسكينة. طبعاً لم ينسها أبداً. لقد تأخرت وأبى فى انتظارك. طابت ليلتك، سأترك لك رسالة.

وانحنى ألبرت وقبل يدها بالطريقة العتيقة. احتفظ بيدها برهة ريثما يستنشق فى تودة أريج ملابسها وعبير فرائها، أريج عالم كان ينتمى إليه ذات يوم ووجد نفسه خارج إطاره دون أن يشعر، عالم لا يذكر منه شيئاً الآن إلا حينما يقف فجأة أمام شئ فائن من بقاءه. تحررت من يده فى رقة وأسرع إلى قبعته وشرع يشيعها إلى الباب ولكنها ردت فى رفق وقد أضاعت وجهها ابتسامة حانية وهى تقول: "كلا، كلا، أبى ينتظرك فى المكتبة، مع السلامة".

كان القاضى همرسلى ينتظر فى الطريقة المفضية إلى الباب يمسك بحزمة مفاتيح وينظر بطرفى عينيه بنفاد صبر، يريد أن يفرغ من مهمته ويعود إلى عزلته. كانت المكتبة تفتح على الصالة فلم يجد بدا من أن يسمع إلى حوارهما. لم تعجبه طريقة ابنته البريئة فى حديثها مع ذلك الرجل الذى يدعى الشباب وهو فى طور الكهولة، ويعيش عزباً وكان يجب أن يكون صاحب أسرة وبيت، وفقيراً وكان يجب أن يكون غنياً.

وبينما كان ألبرت يهبط النل قادماً من عند القاضى همرسلى وقد

امتلات حقيبتة بالشمبانيا الفاخرة قال فى نفسه: إن أكبر عيب فى الفقر هو السقوط من حسابات العالم والحيلولة بين المرء وبين الحسان. الله وحده يعلم أنه كان فى وسعه الاستغناء عن كل الرجال. أما النساء أمثال مارجورى همرسلى فلا يتحلقن إلا حول الجذوة المنقذة - المال الوفير والنجاح والقصور الفخمة واليخوت الفاخرة والسيارات الفرنسية الفارهة.

وبينما كانت السيارة تمضى بها قالت المسز بارمنتر فى نفسها: إنها يجب أن تكثر من زيارة ألبرت وعمه فيما يستقبلها من أيام، ونساءلت: كيف فرطت فى صداقة قديمة كل تلك السنين الطوال؟ تذكرت أنها كانت تقضى أسبوعًا فى الفينة بعد الفينة عند عمتها فى أولغنى. كانت تأنس إلى عمتها ولا تستريح إلى أولادها كثيرًا. كانت تجد فى حديقة أنجلهارت متنفسًا. كانت الحديقة خالية من النجيل إلا القليل الذى علته الأوساخ بسبب الإهمال، ولكن الأرض كانت تغطيها الحصباء وتزدان بسياج من أزهار الليلك البهيج وقت الربيع، وبسياج من شجيرات الباباريس الحمراء وقت الخريف وبأفانين الأزهار وأقفاص الطيور والصبية المستلقين هنا وهناك فى ملابس التنس يصنعون أكواب العصير قبيل الغداء، أو يحسسون القهوة تحت أشجار الجميز بعيد العشاء. كان أبناء انجلهارت يختلفون عن سائر الأولاد، أشبه بشخصيات الروايات والمسرحيات. كان الأولاد من أقرانها يحتقرون البنات حتى يريدوها، عندئذ يلاحقونها فى قسوة ووحشية

مقيّنة لا تهدأ. كان أبناء أنجلهارت يحترمونها دون أن يعمدوا للحاق بها، كانوا يعجبون بجمالها دون ابتذال، وكانت تحب هذا الأسلوب.

VI

وفى أصيل يوم الأول من ديسمبر غادر ألبرت مكتبه فى إدارة الشئون الدينية فى الساعة الرابعة وقد ساوره إحساس كان يحس به عندما كان صبيا فى المدرسة وكان اليوم الدراسى ينتهى عند منتصفه قبيل أعياد الميلاد. كان يفكر فى يوم ميلاد عمه أما يوم ميلاده هو فلم يكن مصدر غبطته. كان يشعر برجفة لا يعرف لها سببًا عندما يتذكر يوم مولده. كان يسير فوق جسر سميتفيلد حين غشت الكون ظلمة داكنة بسبب مرور سحابة ثقيلة غطت قرص الشمس. كان الهواء متقلًا بالبرد. راحت المصابيح على المنحدرات الصخرية الشاهقة على طول جبل واشنجتون ترسل أصابع غليظة من الأنوار المبهرة. فى صباحه كانت تلك المنحدرات الشاهقة بأضوائها التى تطاول السماء تذكره بمدينة آسيوية بعيدة لا تفارقها السحب، المدينة المحرمة كما كان يسميها دائمًا. حسنًا، كان ذلك منذ زمن طويل؛ جرت مياه كثيرة تحت هذا الجسر منذ تلك الحين، دالت ممالك وانهارت إمبراطوريات.

فى ذلك الوقت لم تكن الأحوال قد ساءت. وكان العم الدكتور لم يزل مفعماً بآمال كبار. الأفضل ألا يفكر فى هذه الأمور كثيرًا. دلف إلى داخل ترام مار بوثبة مفاجئة فأصبح وجهًا لوجه أمام نسوة

طاعنات في السن يقبضن بأيديهن على سلال السوق، تداعين ليفسحن له مكاناً للجلوس.

وعندما عاد إلى البيت كانت المائدة جاهزة بالفعل يزينها غطاء جميل من الكتان من ميراث الأم كانت تريد أن تهديه لإلزا يوم زفافها. كانت المسز ردر تنشره بعد غسله بعناية فائقة. ازدانت المائدة بكل أنية فضية إلا من الورود التي نسيها ألبرت فعمدت العجوز إلى نبات إبرة الراعي الذي أحضرته معها ليتوسط المائدة. كان العم ألبرت يجلس أمام المدفأة في سترة التدخين القديمة وقد أخذ الكرى بجفنيه وعلى ركبتيه سفر لشيلر.

- سأضع أزرار الزينة على قميصك، حان الوقت لارتداء ملابسك يا عمي الدكتور.

سدّد الدكتور إلى ابن أخيه نظرة من عينيّن نصف مفتوحتين وغشيت وجهه ابتسامة ملؤها السخرية وقال:

- أرئدى بدلة السهرة الآن؟

- طبعاً بدلة السهرة، إلزا ستذهب مع كارل إلى حفلة تنكرية وسيعرجان علينا قبل ذهابهما.

- "ألبرت..." نادى الطبيب وعلى وجهه ابتسامة غامضة وسأل ألبرت: "من أين جئت بهذا النبيذ؟".

- "آه، هل وجدته في الثلاجة، هذا نبيذ القاضي همرسلي، أصر على أن يرسله إليك مع تمنياته الطيبة".

وعندما نهض العم ألبرت سحب عاتقه لأعلى وقال بشئ يشبه
الزهو: لا زلت ألقى الاهتمام من أمثالي على الأقل. ثم ما لبث أن
انحدر إلى لغة سوقية فظة حين أردف وهو ينظر إلى ابن أخيه من
تحت جفنيه:

- "تالله إن كاستا من هذه الراح لكفيل بجلائل الأعمال إذا سرتُ
في المرىء".

- "ستال كل ما تريد اليوم، هذا يومك، هل حلفت جيداً؟ سأخذ
(دشا) وأرجو أن أجذك جاهزاً عندما أنتهى من الحمام".

وما مضى نصف الساعة حتى خرج ألبرت مرتدياً ملابسه
الرسمية ليجد عمه الدكتور منكبا على القراءة فى ديوان شاعره
المفضل.

- البنطلون طويل جداً، لماذا لا أرتدى بذلة السهرة وبنطلونى
القديم؟ إلزا لن تلاحظ شيئاً.

- بل ستلاحظ، لقد ألفت هذه الملابس. عجل يا عمى.

وأذن الدكتور أنجلهارت، وعندما فرغ من ارتداء ملابسه،
والتطلع إلى نفسه فى المرأة، رضى عن هيئته كامل الرضى رغم أنه
استبدل خلسة بالمنديل الكتان الذى أعطاه له ألبرت مندبلاً آخر من
القطن. وعندما رجع إلى حجرة السفرة كانت المسز ردر تضع أقداح
الراح على المائدة.

أخذ ألبرت مقعده أمام البيانو ليضرب لعمه قطعة موسيقية فيما تبقى من الوقت أمام العشاء. غلبه إحساس بأن الأمر لا يعدو كونه جلبة بدون طائل. ولكن طرقاً خفيفاً على الباب خفت له الأذان. دخلت إلزا وخطيبها الشاب. كانت ترتدى زى البولنديات وكان أبربوك يرتدى تنورة اسكتلندية بهية.

-تهانئ لك فى يوم ميلادك أبها السيد الدكتور، لقد أحضرت لك زهوراً.

ودنت منه وانحنى إليه لتستقبل قبلته وهى تضع حزمة من البنفسج فى يده. ونهض الدكتور أنجلهارت وطفق يحدق فى أزهار البنفسج وهو يقول: أظننتى من أنصار بونابارت؟ انصح أصدقائك فى روما يا ألبرت أن ينثروا الزهور أمام موسلينى. ثم عمد إلى الفتاة وأمسك بيدها ودار بها دورة كاملة وظل يعلق على نحافة نراعيها مما كانت تقابله دائماً بضحكاتهما المعدنية.

-ولكنها الموضة يا سيدى الدكتور، النساء يسعين اليوم وراء النحافة قدر استطاعتهن.

-ياه، أتوجد موضة فى هذه الأمور أيضاً؟! الرجل لا يرضيه إلا ملء نراعيه حتى تخمد نيرانه المتقدة! أليس كذلك يا كارل؟

كان كارل شاباً طلق المحيا ناضر الوجه تثير أذناه الانتباه. ما

لبث أن لاذ بالصمت عندما دخلت سيدة بارعة الجمال. أما إلزا فقد
تراجعت قسماً وجهها وحبست أنفاسها.

دخلت المسز بارمنتر دون أن تطرق الباب تمتلئ يداها بالورود
ويتبعها سائقها يحمل صندوقاً كبيراً. "ضع الصندوق هنا وانتظرنى".

اندفعت داخل الحجرة وعانقت الدكتور أنجلهارت برقة دون أن
تنتظر حتى تلقى بالزهور بين يديه وتحرر من معطفها الفرو. قالت
له:

-أردت أن أهنتك بنفسى. أخبرونى لى دخولى أنك تستقبل
الناس. خذ هذه الزهور يا ألبرت من فضلك، أريد أن أخلو
ساعة بالدكتور أنجلهارت.

ووقف الدكتور أنجلهارت وعلى سحنه وقار طارئ ولم يزل
يقبض على أزهار البنفسج فى يديه وتمتم مع انحناءة مخلصه وهو
يقول: "لم كل هذا التبجيل والتقدير؟". وردت على الفور: "لشخصك
المتميز يا سيدى العزيز، لقد كنت دائماً أهم من عرفت من الرجال فى
نظرى".

ولكن فرط الفرح لم يجعله ينسى صديقته الصغيرة التى تسرى
عنه أوقات عزله الطويلة. رآها متوجهة نحو الطريقة فناداها بلهجة
آمرة: "إلزا، أين قبلة المساء؟". شداها ناحيته وهو يقدمها إلى المسز
بارمنتر قاتلاً: "هذه إلزا يا مسز بارمنتر، صديقتى الأثيرة. لابد أنك
رأيت شعرها الجميل قبل أن تقصره". وتورد وجه إلزا خجلاً ونظرت

فى عىنى السىة لترى وقع حءىء العجوز من نظراتها. طبع الءكءور قبة على جىبىنها وأرسل ىءه على شعرها القصىر. وقال بصوت لىن: "تسة عشر عامًا، لو جاءت الأعوام التسعة عشر التالىة على هذا النحو من السعاة لما همنا ما بقى من العمر. فلىرحمنا الله".

- "شكرًا لك ىا عمى الءكءور، طابت لىلتك".

وذهبء إزاءا تتعثر فى خجلها وأستءار إلى المسز بارمنئر وقال: "هذه البنت الصغىرة هى الورءة التى تزىن شتائى، إنها ورىئتى، سأترك لها كل ما أملك".

- "أترك لها ما شئت عءا هءىة عىء مىلءك إذا سمحت، هذه الشمبانىا لك، أءضرتها لك خصىصًا لهذه المناسبة".

وضحك الءكءور وضحك ابن أخىه وقالوا فى صوت واءء: "كن أباك أعطانا زجاءتىن الیوم".

وانتقلت عىنا المسز بارمنئر بىن ألبرت وعمه وقالت: "أبى؟ حسنًا فعل، هذه تهنة منه أىضًا، لم ىقل لى. كل منا لءىه خزائنه الخاصة التى ىفءحها عءءما ىرىء. لا أظن أنه فءح خزائنه منذ أن تعشى معه رئىس المحكمة. الآن مضطرة إلى ترككما. ابتهج طوال اللىل، ثلاث زجاءات كفىلة بءلك. قالت السىة الطیبة لءى ءخولى إن العشاء سىوضع بعء نصف ساة".

فى تلك اللحظة أقبل الرءلان عىلها ىءعوانها للعشاء: لا تذهبى

من فضلك، من فضلك، ابقى معنا للعشاء! هذا كل ما نطلبه منك. وبدأ ألبرت يتوسل إليها بالإيطالية التى يجهلها عمه: "شكرًا يا ألبرت، ولكن عندى ارتباط على العشاء، كان يجب الآن أن أكون عند نهاية شارع أنجلورث".

- "ولكن هذه مرة فى العمر، من أجله هو على الأقل! أما إذا كان زملاؤك فى انتظارك فنحن لا نجبرك طبعًا".

وحمل عنها معطفها ولكن بعد أن امتنع لونه وبدأ التعب على وجهه وهو يحمل المعطف الذى دست فيه نراعاها وأسبلته على جسدها ولكنها قالت: "لا أستطيع، ولكن لدى رغبة حقيقية! دعنى أكتب رسالة إذا سمحت، سأبعث بهنرى يخبرهم أنى سأتى بعد العشاء".

وضغط ألبرت على يدها بامتنان وصحبها إلى مكتبته.

- آه يا ألبرت! المنضدة الإيطالية نفسها، وهذه الأشياء فوقها، الأشياء نفسها التى كانت لديك فى حجرتك فى فيلا سيبيون! لقد كنت تكتب لى الرسائل على هذه المنضدة. كانت طريقتك بارعة فى كسب قلوب الفتيات الصغيرات. لو كان لى ابنة اليوم لطلبت منك أن ترسل لها الرسائل نفسها مرة أخرى.

وعندما فرغت من رسالتها أقبل العم ألبرت بخطواته المتثاقلة وقد أحكم رباط عنقه على قميصه تصحبه موجة من عرف الكولونيا. ذهب ألبرت لإشعال الشموع وإحضار براد الشمبانيا فى حين جلست

المسز بارمنتر إلى الدكتور وقبلت منه سيجارة وأنشأت تحكى له بشئ من البساطة والتلقائية ما كان من أمر مارجريت ثيسنجر. وكان ذلك أكثر ما يجلب السعادة إلى قلب العجوز في يوم ميلاده لاسيما حين يصدر عن المسز بارمنتر وليس عن ألبرت الذى مل تلك القصة الحزينة وعمد آخر الأمر إلى غناء الأغاني التى كانت تغنيها مارجريت.

قالت المسز بارمنتر على مائدة العشاء:

- "أتعلم يا ألبرت أن هذا هو الشئ الوحيد الذى أعرفه من عالم ما قبل الحرب. لقد عشنا فترة فى عزلة عن العالم، العقد الأخير من القرن الماضى والعقد الأول من هذا القرن. أنا لا أومن بالطائرات أو موسيقى الجاز أو الفن التكعيبي. أبى فى سن الدكتور أنجلهارت تقريبًا. لا نشترى الأشياء الجديدة ولم نحس بالعزلة رغم ذلك. كيف ترون الأمور الآن؟"

ابتسم ألبرت بشئ من الأسى وقال:

- "أعتقد أنه لا يوجد من الشباب من يدهشنا بالجديد".

عندئذ تمتم الدكتور: "إلزا، ولكنها لم تزل طفلة".

وقالت المسز بارمنتر:

- "أنا حزينة من أجل الشباب اليوم، تبدو القسوة فى تصرفاتهم والغصة فى قلوبهم. لم يترك لهم شئ يتميز بالروعة، كلها

أشياء سقيمة، تلك الحرب دمرت كل شئ. الفتاة لا تجد لها مكاناً تلجأ إليه مثل منزلكم القديم الذى كان يمثل بـصناديق الملابس الكتانية المدخرة، شئ يعتز به المرء ويفخر به. كان منزلكم رائعاً، يا لها من موسيقى كنا نسمعها. هل تذكر عندما كنت تصحبني إلى سماع جوزفى وهو يعزف مقطوعة براهمة الثانية؟ مع جيركى؟ كانت آخر مرة أسمعه فيها. ما شأنه مع الدهر الآن؟ تلاشى، أليس كذلك؟"

وتتهدأ ألبرت وهز رأسه وقد ألقت به الشمبانيا فى بحر من الحزن الرومانسى البهيج:

- "أست أدري، لقد مكثت طويلاً فى روما لكى أعرف بنفسى. كنت ألتقى دروساً منه قبل سفرى إلى الخارج؛ لم ألحظ تغييراً على حياته، رغم أنه كان يقل من حفلاته الموسيقية وعندما عدت كتبت إليه رسالة فور وصولى إلى نيويورك - كان يعيش على مقربة من هدمسون فى ذلك الوقت. وتلقيت رداً من مدبرة منزله تقول إنه لم يعد يعطى دروساً، كان مريضاً ولا يريد أن يرى أحداً. وذهبت إلى بيته فى الحال. ولم يؤذن لى بالدخول، وأخبرونى أن أنتظر فى الحديقة وانتظرت طويلاً. وفى النهاية خرج فى ملابسه البيضاء كالعادة ويرتدى قبعة بناما ويستد إلى عكاز صغير. صافحنى وسألنى عن المسز ستريتز ولكنه كان رجلاً مختلفاً. هذا كل ما أعرف. لقد

انتهى، اضمحل. كنت أتحدث إلى خياله.

- "المخدرات إذن!" تتمم الدكتور بجانب من فيه.

- "هراء!". وهز ألبرت منكبيه بشئ من السخرية وقال: "حتى لو كانت المخدرات فقد كانت شيئاً ثانوياً في حياته، نتيجة وليس سبباً. إنه الشلل الذي بدأ يزحف إلى مخه".

ومالت المسز بارمنتر وهي تقول :

- "ألا يزال يحتفظ ببهائه القديم؟ لقد كانت رأسه أجمل رأس في العالم. هل تذكر جبهته؟ هل تسرب إليه المشيب؟ كان شعره، كما أتذكر، كستنائي اللون ضارباً إلى الحمرة".

- "قليل من المشيب، ولكن وجهه خلا من التعبير وخلت عيناه من البريق، وأصبح متثاقلاً في مشيه".

- "هل كان ينوى إعطائك دروساً؟".

- "لا، قال: إنه لم يعد يعطى دروساً. قال: إنه يأسف لذلك؛ لأنه لم يعد يرغب في رؤية الناس، كان يوقع النغمات بعكازه على الحصى مقطب الوجه ويقول: إنه لم يعد يرغب في رؤية الناس، وقال: إنه كره رؤية الوجوه الآدمية وكره سماع الأصوات الآدمية! قال: أنا آسف ولكن هذه هي الحقيقة. كنت أنظر إلى يده اليسرى التي وضعها على ركبته دون حراك. تعجبت كيف وانتى القدرة على النهوض والانصراف. لقد

نهض وصافحني وفهمت أنه يجب أن أنصرف. وفي يأس تام سألته: هل تعنى الموسيقى شيئاً الآن له؟ قال وعلى وجهه ابتسامة باهتة، شبح ابتسامته القديمة: نعم - بعض منها. وغاب داخل بيته، وكانت هذه آخر كلمات سمعتها منه".

- "آه يا ربى، ولديه كل ما هو جميل، واسم ملاك! ولكننا نزيد من حزن الدكتور. افتح زجاجة أخرى يا ألبرت. لقد فعل أبى خيراً. ولكن لم نشرب نخباً واحداً. لماذا لا نشرب نخب بعضنا بعضاً؟ نخب شئ نهتم به ونجّله؟" وحدجت الدكتور أنجلهارت بنظرة بينما كان يرفع باقة البنفسج ليشمها بوجه ذاهل.

- "فلنشرب نخب الدكتور أنجلهارت".

وضع الدكتور زهوره، رفع كأسه برفق وأمسك به أمام عينيه مباشرة، كانت حركة يديه ناعمة رشيقة واثقة كشأنه دائماً. وتطلق وجهه بالبهجة وهي تنتظر إليه. وقال فى تودة:

- "سأشرب نخب لينور المنتظر". وقال ألبرت:

- "وأنا سأشرب نخب شبابى، شبابى الرائع!"

اندفعت العبرات إلى عيني المسز بارمنتر وهي تقول فى نفسها: آه، هذا ما يودى إليه حب الناس، نشرب نخب سخافاتهم وحمقهم. ثم قالت بصوت عال:

- "آه، وأنا سأشرب نخب صداقتنا العائدة وعشرات المناسبات التي سنتعشى فيها معًا. أحبكما أنتما الاثنين أكثر من كل من عرفت.

وعندما عاد ألبرت بعدما شيع المسز بارمنتر إلى سيارتها وجد عمه واقفًا أمام الموقد يستند بمرفقه إلى حافته ويلف سيجارته ويستغرق في التفكير. قال في نبرة حميمة:

- "ألبرت، نبيذ جيد، وموسيقى جيدة، وامرأة جميلة - هذا ما يستحق العيش من أجله!".

وبدأ ألبرت يضحك. لم يكن العجوز يمزح طوال الوقت.

- "لماذا يا عمي أنت ومارتن لوثر...".

ورفع الدكتور يده بأمره بالتوقف. لقد تورد وجهه على نحو غامض. لم يكن يدرك أنه كان يريد الاقتباس. ورد بحدة: "مارتن لوثر كان سوقيا من الدرجة الأولى، غبي!". وتوقف برهة ريثما يشعل سيجارته وأردف: "لا تخذعن نفسك، مثلها يعرف دائمًا متى ينجح الرجل مع المرأة!"

وصب ألبرت الكأس الأخير وشرع في احتسائه وهو يقول في نبرة منتقدة: "حسنًا، لقد أحرزت تقدمًا مؤكدًا الليلة، فأنا أرى أن مارجورى كانت معجبة بك، إنها قادمة لاصطحابك في سيارتها غدا، استعد".

وأرسل الدكتور يده المرتجفة يمسح بها على شعره الكثيف الذى
قصره على الطريقة الفرنسية. وهو يتمتم ضاحكاً: "حتى فى أيامنا
الآخيرة!".

سرقة (١٩٣٠)

كاترين آن بورتر

كانت محفظتها في يدها عندما دخلت. وقفت وسط الحجرة تمسك بروب الحمام حول خصرها وتناولت منشقة مبتلة. راجعت الماضي القريب وتذكرت كل شيء بوضوح تام. نعم لقد فتحت المحفظة وبسطتها فوق الطاولة بعد أن جففتها بمنديلها.

كانت قد قررت أن تستخدم المصعد، وعلى نحو تلقائي نظرت في كيس نقودها لتتأكد من أن لديها نقوداً تكفى لدفع الأجرة، وكانت سعيدة عندما رأت أربعين سنتاً في المكان المخصص للعملات المعدنية. همت بالدفع، ولكن من عادة كاميلو عندما يراها على الدرج أن يسقط السنتات الخمس في فوهة الآلة قبل أن يدفع الباب الدوار قليلاً ويعينها على الدخول من خلاله مع انحناءة خفيفة دليلاً على الاحترام.

كان كاميلو مجاملاً بطريقته الخاصة. سارت معه إلى المحطة تحت المطر المنهمر. كانت تعلم أنه فقير مثلها. وعندما أصر على أن يستقل سيارة أجرة كانت حازمة معه: "أنت تعلم أن ذلك لن يفى

بالغرض". كان يرتدى قبعة جديدة بحاجب جميل ذى لون أسمر
شاحب، عملى على حد قوله. كان يرتديها لأول مرة بيد أن المطر
أفسدها. قالت فى نفسها: ولكن هذا شيء يدعو للأسف، من أين له
بأخرى؟ وكانت تقارنها بقبعات إيدى التى تبدو قديمة دائماً وكأنها
تركت عمداً تحت رحمة المطر ولكنها كانت تلائم رأس إيدى بالصدفة.
ولكن شخصية كاميلو تختلف غاية الاختلاف. فإذا ارتدى قبعة بالية
رثة، تبدو بالية رثة على رأسه ويفقد هو بالإضافة إلى ذلك جزءاً من
رونقه. لو لم تكن تخشى أن يسيء كاميلو الفهم لقالت له وهما يغادران
منزل ثورا: اذهب إلى البيت، ففى وسعى أن أذهب إلى المحطة
بنفسى. عاجلها بقوله:

- "كتب علينا أن يسقط المطر الليلة على كلينا".

ترنحت قليلاً قبل أن ترتقى درج الرصيف - كانت بطناهما قد
ملئتاً بمحشيات ثورا - قالت: "على الأقل يا كاميلو اعمل فى معروفاً
ولا تصعد هذا الدرج دفعة واحدة وأنت فى هذه الحالة، فالأمر بالنسبة
لك لا يعدو كونه سقطة واحدة وتتكسر رقبتك".

صدرت من كاميلو الإسباني ثلاث انحناءات سريعة دون أن
يتكلم. أخذ يثب فى الظلام الماطر ووقفت تراقبه. كان شاباً رشيق
الحركات، سوف يستيقظ فى صباح الغد ويمعن النظر فى قبعته التى
أفسدها المطر وخفيه المشبعين بالماء ويجد لهما صلة بفقره. وبينما
كانت تراقبه وجنته يقف فى الركن البعيد ويخلع قبعته ويخفيها تحت

معطفه. أحست أنها خانته عندما تجسست عليه بالنظر، فمن شأنه أن يتقد وجهه خجلاً إذا عرف أنها تشك في أنه يحاول أن ينقذ قبعته.

صك أذنيها صوت روجر أقوى من وقع المطر المنهمر على إفريز الدرج، كان يريد أن يعرف ماذا كانت تفعل في هذا المطر المنهمر في ذلك الوقت، وهل كانت تظن نفسها بطة؟ كان وجهه الهادئ الذي تبدو عليه علامات الأسى يغرق في المطر. ضرب معطفه عند الصدر ضربة خفيفة ليتخلص من نتوء مائي على معطفه الذي أحكم تزريره وقال: "تعالى نأخذ سيارة أجرة".

أسندت ظهرها على نراع روجر الذي أحاط منكبيها، تبادلنا نظرة تشي بعاطفة حميمة ثم نظر من النافذة إلى المطر الذي غير لون وشكل كل شيء. كان التاكسي يروغ بين الأعمدة المجاورة للسكة الحديد، ينزلق بخفة عند المطبات. قالت: "كلما اجتاز مطباً أحس براحة، لابد أنني سكرى فعلاً". وقال روجر: "لابد أنك كذلك".

انتظرا عند الإشارة عند تقاطع شارع الأربعين بالطريق السادس. رأيا ثلاثة صبية يتمشون أمام مقدمة سيارة الأجرة أشبه بخيالات بهيجة تحت أضواء مصابيح كروية الشكل، بالغى النحافة يرتدون ملابس قنزة قصت على عجل وأربطة عنق زاهية الألوان. كانوا فاقدى الاتزان ولبثوا لحظات يتميلون أمام السيارة ودار بينهم حوار. مالوا برعوسهم كل في اتجاه الآخر كأنهم يشرعون في الغناء.

قال الأول:

- "حين أتزوج لن يكون ذلك لمجرد الزواج، وإنما أتزوج للحب،
أترى؟"

قال الثانى:

- "قل هذا الكلام لها، لم لا تذهب إليها وتقول كلامك هذا لها؟"

أما الثالث فقد صدرت منه صرخة أشبه بالنعيب وقال:

- "هذا الضايغ ما معه؟ ماذا معه؟"

ورد الأول:

- "آه أغلق فمك، معى كثير".

ثم صدرت منهم جميعاً صرخة حادة وراحوا يتدافعون عبر
الشارع وأخذ اثنان منهم يصفعان الثالث على قفاه ويدفعانه بقوة. علق
روجر بقوله: مخبولون، حمقى بلا شك.

فتاتان كانتا تعدوان برشاقة، ترتديان سترتين قصيرتين شفافتين
من قماش ضد المطر، إحداهما خضراء والأخرى حمراء، كانتا تثنيان
رأسيهما تجنباً للمطر المنهمر. كانت إحداهما تقول للأخرى: نعم
أعرف الكثير عن الرجل، ولكن ماذا عنى؟ أنت دائماً تلتمسين له
الأعذار. ثم أسرعتا الخطى بسيقان أشبه بسيقان البجع يلتمع بياضها
مع الخطو.

تراجع التاكسى للخلف ووثب للأمام، وبعد هنيهة قال روجر:

"جاءنى خطاب من ستيلا اليوم وسوف تعود فى السادس والعشرين من هذا الشهر، ولذا أعتقد أنها قررت الاستقرار. عندئذ قالت: جاءنى خطاب أنا أيضاً، أظن أن الوقت حان لكى تحزما أمركما."

عندما توقف التاكسى فى ركن شارع ٥٣ قال روجر: "سيكفى المبلغ إذا أضفت عشرة سنتات من عندك". فتحت حافظة نقودها وأعطته السنتات العشرة. قال لها: "جميلة هذه المحفظة."

- "إنها هدية عيد ميلادى وهى عزيزة علىّ. كيف يسير عرضك؟"

- "أوه، لا زال مستمرا على كل حال. لا أذهب إلى هناك، لم يشتر أحد شيئاً حتى الآن. لقد شبت من الجدل."

- "ذاك يتوقف على الصمود، أليس كذلك؟"

- "الصمود هو الجزء الصعب."

- "تصبح على خير يا روجر."

- "تصبحين على خير، ضعى نفسك فى طست ماء ساخن وعليك بالأسبرين، يبدو أنك على وشك الإصابة بالبرد."

- "سأفعل."

ارتقت الدرج وحافظة نقودها تحت إبطها، وعند أول بسطة سمع بل وقع خطواتها، ومد رأسه بشعره المائل وعينيه الحمراءوين وقال: ناشدتك الله تعالى نشرب شيئاً، لدى أخبار سيئة، وأنت مصدر

طمأنينة لا يخيب أملاً. شرباً كأسين وحكى لها كيف رفض المخرج مسرحيتين له بعد أن اختار الممثلين مرتين وقام بثلاث بروفات، "قلت له: أنا لا أدعى أنها رائعة فنية! قلت: إنها عرض جيد وحسب. وقال لى: إنها لا تتفع (ببصلة)، هل تفهم؟ إنها فى حاجة إلى طبيب. ولهذا السبب يستولى على الإحباط، غاية الإحباط." كانت الدموع تخنقه وهو يقول: لقد كنت أبكى وأنا ثمل." ثم سألها إذا ما كانت تعلم أن زوجته تتمره بتبذيرها: "إننى أرسل لها عشرة دولارات كل أسبوع برغم حياتى التعيسة هذه، وهذا ليس من حقها. إنها تهددنى بالسجن إذا لم أفعل، ولكنها لا تستطيع أن تفعل ذلك. دعيها تحاول بعد الطريقة التى عاملتني بها! ليس لها الحق فى النفقة، وهى تعرف ذلك. ولكنى أرسل لها النقود لأنى لا أطيق أن أرى إنسانا يعانى. وأنا أعمل الآن بشكل ما عازفاً على البيانو والفيكترولا، كليهما..." قالت له: "جميل هذا أحسن من لا شئ". خصها بل بنظرة طويلة ثم قال وهو يتمخط: "حصلت عليها عند ريسى بخمسة وتسعين دولاراً... قال لى ريسى: إن هذه الوظيفة كانت لمارى دريسلر وكانت تأخذ ألفاً وخمسمائة دولار، ولكن المكان محروق الآن، هل تفهم هذا؟"

تناولت كأساً أخرى وعادت إلى شقتها فى الطابق العلوى، وهناك، تذكرت الآن بوضوح. أخرجت الخطاب من محفظتها قبل أن تنتشرها فى الهواء لتجف.

جلست وقرأت الخطاب مرة أخرى. كانت هناك عبارات تصر

على أن تقرأها أكثر من مرة. عبارات تدب فيها حياة بمعزل عن سائر أخواتها حتى إنها عندما كانت تعتمد لقراءة العبارات التي قبلها أو بعدها كانت تتحرك مع حركة عينيها ولم تستطع تفاديها... "أفكر فيك أكثر مما أقصد أن... نعم، إننى أتحدث عنك... لماذا تسعين بشغف لتدمير... حتى لو استطعت أن أراك الآن فلن أراك... لا يستحق كل هذا... المقيت...". مزقت الخطاب بتؤدة إلى شرائح صغيرة، وأضرمت فيها النار فى موقد الفحم أمامها.

وفى أول ساعات الصباح كانت فى طست عندما طرقت الباب زوجة البواب ودخلت وقالت بصوت عالٍ، إنها كانت تريد فحص مشاع التدفئة قبل حلول الشتاء. وبعد أن جالت فى الحجرة لدقائق معودة خرجت زوجة البواب وهى موصدة الباب بعنف.

خرجت من الحمام لتأخذ سيجارة من علبة سجائرها فى المحفظة. ولكن المحفظة كانت قد اختفت. ارتدت ملابسها وأعدت فنجاناً من القهوة وجلست تحتسيه بجوار النافذة. قطعاً أخذت زوجة البواب المحفظة، وطبعاً سيكون من الصعب استردادها منها دون الكثير من المشادات المضحكة. فلتذهب فى داهية هى والمحفظة. وما عقت العزم على نسيان الأمر حتى باغتها فى الوقت نفسه غضب شديد جعل دمها يغلى. وضعت الفئجان فى هدوء وسط المنضدة ونزلت الدرج فى قلق واضح على وجهها. ثلاث بسطات طويلة وبعدها صالة قصيرة وبسطة أخرى قصيرة تتحدر إلى البدروم حيث

كانت زوجة البواب تتظف الفرن. كانت آثار الفحم على وجهها. قالت لها فى عصبية:

- "من فضلك محفظتى، ليس بها أية نقود. لقد كانت هدية ولا أريد أن أفقدها."

استدارت زوجة البواب دون أن تقف وحدقت فيها بعينين مضطربتين حادثتين. داهمهما ضوء أحمر انعكس من الفرن.

- "ماذا تقصدين ب هاتى محفظتى؟"

- "حافضة نقودى الذهبية اللون التى أخذتها من فوق المنضدة عندما دخلت ججرتى. يجب أن أستردها."

قالت زوجة البواب:

- "أحلف بالله ما وقعت عيناى على محفظتك أبداً، وهذا يمين أحاسب عليه أمام الله."

قالت لها فى مرارة بدت فى صوتها قبل أن تغادر المكان:

- "إنن احتفظى بها.. احتفظى بها إذا كنت فى حاجة ماسة إليها."

تذكرت أنها لم تخلق باباً فى حياتها بسبب مبدأ أمنت به يجعلها لا ترى راحة فى امتلاك الأشياء، وكذلك تباھيها المناقض للواقع أمام تحذيرات أصدقائها بأنها لم تفقد، على سبيل المثال، قرشاً واحداً فى حياتها بسبب سرقة. رتبت حركات حياتها دون اعتبار لإرانتها فى كل الأمور.

فى تلك اللحظة أحست أنها سَلَبَتْ عِدْداً هائلاً من الأشياء الثمينة، مادية ومعنوية: أشياء فقدتها أو حطمتها بسبب نقيصة فيها كامنة، أشياء نسيبتها فى منازل كانت تتنقل منها إلى غيرها، كتب استعيرت منها ولم تُرد، رحلات خططت لها ولم تقم بها، كلمات انتظرت أن تسمعها ولم تسمعها، وكلمات أعدتها للرد على إهانات استبدلت بها خيارات مرة وبدائل لا تحتمل كان الصمت أفضل منها، ورغم ذلك كان لا مفر منها. المعاناة الطويلة الصبور لصدقات تحضر، الموت السريع الغامض الذى لا يفسر للحب. كل ما كانت تملكه فى الماضى، وكل ما افتقدته، فقدته كله دفعة واحدة، وفقدته الآن مرة أخرى فى غمرة التذكر.

كانت زوجة البواب تتبعها على الدرج والمحفظة فى يدها وعيناها تتقدان بحمرة عميقة. دفعت إليها بالمحفظة وهى على بعد نصف دسنة من درجات السلم وقالت:

- "لا تخبرى أحداً بما حدث. لابد أنى كنت مخبولة. أحياناً أجن فى رأسى، أقسم لك على ذلك، أسألى ابنى."

تناولت المحفظة بعد تردد واستمرت زوجة البواب تقول:

- "لى ابنة أخ فى السابعة عشرة، فتاة جميلة كنت أظن أننى سوف أهديها لها. إنها فى حاجة إلى محفظة جميلة. لابد أنى كنت مخبولة، كنت أظن أنك لن تأبهى بها، إنك تتركين الأشياء هنا وهناك ولا يبدو أنك تهتمين بها."

- "لقد افتقدت هذه لأنها كانت هدية لى من شخص..."

- "لقد كان سيهديك غيرها إذا فقدت هذه. أما ابنة أخى فتحتاج إلى مثل هذه الأشياء الظرفية. علينا أن نعطي الشباب فرصته. هناك من يضع عينه عليها من الشباب، ربما يريدون الزواج منها. هي فى حاجة ماسة لهذه الأشياء الجميلة الآن. أنت امرأة ناضجة وقد أخذت فرصتك وعلينا أن نعى ذلك!"

مدت يدها بالمحفظة إلى زوجة البواب وقالت:

- "أنت لا تعرفين عم تتحدثين، ها هي المحفظة خذوها. لقد غيرت رأيى. لا أريدها حقيقة."

عندئذ نظرت إليها زوجة البواب بحنق وقالت:

- "لا أريدها الآن، ابنة أخى جميلة وليست فى حاجة لتؤكد ذلك. هي شابة وجميلة مهما كانت الظروف. أظن أنك أنت التى فى حاجة إليها أكثر منها!" ثم قالت وهي تنصرف:
- "أنت التى سرقتها منها الآن!"

وضعت المحفظة على المنضدة وجلست ممسكة بكوب القهوة البارد فى يد وهي تقول لنفسها:

- "لا ينبغي أن أخشى أى لص غير نفسى التى قد لا تترك لى شيئاً".

ذلك الغروب لشمس المساء (١٩٣١)

وليام فوكنر

I

يوم الاثنين لا يختلف الآن عن سائر أيام الأسبوع في مدينة جفرسون. فالشوارع الآن مرصوفة، وشركات الهاتف والكهرباء تجد في قطع أشجار الظل كل يوم - بلوط الماء والجميز والخرنوب والدردار - لتسح الطريق لأعمدة من حديد تحمل عناقيد من المصابيح المنقخة والباهتة والبيضاء والضعيفة. ولدينا مغسلة ملابس في المدينة تطلق جولاتها صباح الاثنين، تجمع حزم الملابس في عربات بيضاء لامعة صنعت خصيصا لهذا الغرض. ملابس الأسبوع كله المتسخة تمر الآن كالشبح خلف أبواب النفير الكهربائية سريعة الصياح، وصرير احتكاك المطاط بالإسفلت كصوت تمزيق الحرير، حتى الزنجيات اللاتي كن يجمعن ملابس البيض جريا على عاتقهن القديمة، رحن يأخذن تلك الملابس ويسلمنها لتلك العربات.

ولكن قبل خمسة عشر عاما كانت الشوارع هادئة يعلوها التراب

والظل، تمتلئ بالزنجيات اللاتي استقرت صرر الملابس فوق رؤوسهن المعجمة في اتران غريب. صرر شد بعضها إلى بعض بملاءات فبدت أشبه ببالات قطن يحملنها هكذا دون أن تلمسها أيديهن خلال المسافة بين مطابخ بيوت البيض وأحواض الغسيل السوداء عند مداخل الأكواخ في غور الزنوج.

كانت نانسي تضع صررتها على رأسها وتضع على الصرة بعد ذلك قبعة البحار التي كانت ترتديها صيفاً وشتاء. كانت طويلة القامة ذات وجه عنيف حزين وخدين غائرين مما جعل أسنانها تتوارى قليلاً. كنا أحياناً نسير معها جزءاً من الطريق عبر الزقاق والعشب لنراقب الصرة المتزنة على رأسها والقبعة التي لا تهتز ولا تترنح حتى عندما كانت تنزل لعبور المصرف ثم تشرع في الصعود من جديد وتتحنى كي تعبر السور. كانت تنزل على يديها وركبتيها وتزحف لتعبر الحفر، ورأسها مع ذلك ثابت تقوم عليه الصرة مثل صخرة أو بالونة، ثم تنهض على قدميها وتواصل السير.

أحياناً كان أزواج هؤلاء النسوة يتسلمون الملابس المتسخة بأنفسهم ويوزعونها بعد غسلها، ولكن جوباً لم يفعل ذلك بالنيابة عن نانسي حتى قبل أن يخبره أبي بأن يبقى بعيداً عن منزلنا، وحتى عندما كانت تلمس مريضة وكانت نانسي هي التي تأتي وتطبخ لنا.

وعندما تكون نانسي في بيتها كنا نضطر أحياناً إلى النزول عبر الزقاق إلى بيت نانسي ونخبرها بأن تأتي لتناول الإفطار. كنا نقف عند

المصرف لأن أبى نصحنأ بالآ نتحرش بجوبآ؁ كان زنجيا قصير القامة
فى وجهه ندوب؁ كنا نلقى بالأحجار على بيت نانسى حتى تقترب من
الباب دون شىء على رأسها وتقول:

- ماذا تريدون من اقتحام بيتى؟ ماذا تريدون أيتها الشياطين
الصغيرة؟

قالت لها كادى:

- يقول لك أبى أن تأتى لتناول الإفطار؁ يقول لك أبى إن الإفطار
انتهى من نصف ساعة الآن؁ ويجب أن تأتى الآن.

قالت نانسى:

- لا أفكر فى أى إفطار؁ دعونى أنام.

قال لها جاسون:

- أراهن على أنك سكرى الآن. هل أنت سكرى يا نانسى؟

قالت نانسى:

- من قال ذلك؟ لابد أن آخذ كفايتى من النوم. لا أنوى الإفطار.

وبعد لحظات توقفنا عن ضرب البيت بالطوب وقفلنا راجعين
إلى منزلنا؁ وعندما جاءت نانسى آخر الأمر كان الوقت متأخرًا بالنسبة
لى للذهاب إلى المدرسة. ولذا كنا نعتقد أنه الويسكى؁ حتى كان يوم
قبضوا عليها واقتادوها إلى السجن؁ ورآها السيد ستوفال وكان صرافا

فى بنك، وشماسنا فى الكنيسة المعمدانية، وما رأته نانسى حتى أنشأت
تقول:

- متى تدفع لى حقى أيها الرجل الأبيض؟ ثلاث مرات لم تدفع لى
شئنا...؟

عندئذ دفعها السيد ستوفال فوقعت على الأرض، ولكنها ظلت
تقول له: "متى تدفع لى حقى أيها الرجل الأبيض؟ ثلاث نوبات مضت
دون أن ... حتى فاجأها السيد ستوفال بركلة على فمها بعقب قدمه
وحال مدير الشرطة بينهما، ونانسى مع ذلك تضحك وهى راقدة فى
الشارع وتبصق الدماء والأسنان ولكنها استمرت تقول: "ثلاث نوبات
مضت دون أن يدفع لى سنًا واحدًا".

هكذا عرفنا كيف فقدت نانسى أسنانها. تحدث الناس طوال ذلك
اليوم عن نانسى والسيد ستوفال. أما الذين مروا بالسجن فى تلك الليلة
فقد سمعوا نانسى تغنى وتولول طوال الليل. رأوها تمسك قضبان نوافذ
السجن بكلتا يديها. وكثيرون منهم توقفوا عند السور ينصتون إليها
والى السجن وهو يحاول إسكاتها دون جدوى. لم تسكت حتى طلوع
الفجر عندما سمع السجن صوت ارتطام وصرير احتكاك فى الطابق
الثانى. وصعد إلى هناك ووجد نانسى معلقة من خصاص النافذة. قال:
إنه الكوكايين وليس الويسكى؛ لأن الزنجى لا يقم على الانتحار إلا إذا
كان جسمه ملينًا بالكوكايين. ولأن الزنجى الذى يمتلى جسمه
بالكوكايين لا يصبح زنجيا بعد ذلك. حررها السجن من مشنقتها

وأعادها إلى وعبها، ثم راح يعمل فيها ضرباً ولكماً وجلذاً بالسياط. كانت تريد شنق نفسها بردائها. ربطته بطريقة صحيحة ولكن عندما قبضوا عليها لم تكن ترتدى غير هذا الرداء، فلم يكن معها شيء لتوثق به يديها اللتين لم تطاوعاها على ترك إفريز النافذة. سمع السجناء الضوضاء وهرع ناحيتها ووجد نانسي معلقة من النافذة، عارية تماماً.

عندما كانت دلسى مريضة فى كوخها ونانسى هى التى تطبخ لنا، كنا نرى مريلتها منتقخة. كان ذلك قبل أن يخبر أبى جوبا أن يبتعد عن بيتنا. كان جوبا فى المطبخ يجلس أمام الموقد بندية موسى على وجهه الأسود مثل خيط متسخ. قال: إن نانسى تخفى تحت بطنها بطيخة وكان الوقت شتاء.

قالت لها كادى:

- من أين جئت بالبطيخة فى الشتاء؟

قال جوبا:

- لم أفلها، لست أنا الذى منحتها البطيخة. ولكن فى وسعى أن أقطعها وأعيدها كما كانت.

قالت له نانسى:

- ما الذى يجعلك تتحدث بهذا الكلام أمام الأطفال؟ ولماذا لا تذهب لعملك؟ لقد فعلت ما فعلت. أم هل تريد أن يأتى السيد جاسون ويراك تتجول فى مطبخه وتتحدث بهذا الكلام أمام الأطفال؟

قالت كادى:

- أى كلام؟

قال جوبا:

- لا.. أنا لا أتسكع فى مطابخ البيض. البيض هم الذين يتسكعون فى مطبخى، فى وسع الأبيض أن يأتى إلى منزلى ولا أستطيع أن أمنعه. عندما يأتى إلى منزلى أصبح بدون منزل. لا أمنعه ولكنه لا يستطيع طردى من منزلى أيضًا. لا يستطيع أن يفعل ذلك.

كانت دلسى لم تزل مريضة فى كوخها. أخبر أبى جوبا أن يبتعد عن منزلنا. كانت دلسى لم تزل مريضة منذ فترة طويلة. كنا فى المكتبة بعد العشاء. قالت أمى:

- ألم تنه نانسى؟ لقد أخذت وقتًا كافيًا فى غسل الأطباق.

قال أبى:

- ليذهب كوينتن ويراها. اذهب يا كونتن لتعرف ما إذا كانت نانسى قد انتهت، أخبرها أنها يمكن أن تذهب إلى البيت.

ذهبت إلى المطبخ. كانت نانسى قد انتهت من غسل الأطباق وإعادتها إلى مكانها وكانت المدفأة مطفأة وكانت نانسى تجلس على مقعد قريبًا من الموقد البارد. نظرت إلى. قلت لها:

- أمى تريد أن تعرف هل انتهت من الأطباق؟

قالت نانسي وهى تنتظر إلى:

- أجل، انتهيت.

قلت لها:

- ما هذا؟ ما هذا؟

قالت:

- لست سوى زنجية. هذا ليس خطئى.

نظرت إلى، وهى تجلس على المقعد بجوار الموقد الخامد وقبعة البحار على رأسها. عدت إلى المكتبة. أصبح الموقد خامداً، والمطبخ خالياً من الدفء والبهجة، والأطباق نظيفة مرتبة، ولا أحد يريد أن يأكل تلك الساعة.

- هل انتهت؟

- نعم.

- وماذا تفعل الآن؟

- لا شئ. لقد انتهت من كل شئ.

قال الأب:

- سأذهب وأرى.

قالت كادى:

- ربما تنتظر جوبا ليأتى ويأخذها إلى البيت.

قلت:

- جوبا ذهب.. سافر.

كانت نانسي قد أخبرتنا بأنها ذهبت ذات صباح إلى البيت ولم تجد جوبا في البيت.

قالت نانسي:

- لقد تركنى. ذهب إلى ممفيس ليراوغ شرطة المدينة فترة من الزمن على ما أظن.

قال أبى:

- الأحسن أنها تخلصت منه. أمل أن يبقى هناك على الدوام.

قال جاسون:

- نانسى تخشى الظلام.

قالت كادى:

- وأنت أيضاً تخشى الظلام.

قال جاسون:

- أنا لا أخشى الظلام.

قالت كادى:

- بل أنت مثل قطة مفروعة.

قال أبى:

- أنا ذاهب مع نانسى إلى الزقاق.. إنها تقول إن جوبا عاد.

قالت أمى:

- هل رآته فعلاً؟

- لا.. اتصل بها أحد الزنوج وأخبرها بأنه عاد إلى المدينة. لن أغيب طويلاً.

قالت أمى:

- سنتركنى وحدى لتوصل نانسى إلى منزلها؟ سلامتها أغلى عندك من سلامتى؟

- لن أغيب طويلاً.

- أتترك هؤلاء الأطفال دون حماية لتدور مع الزنجرى الهائم؟

قالت كادى:

- أنا ذاهبة أيضاً معه؟ هل أذهب معك يا أبى؟

قال أبى:

- ماذا سيفعل مع رجال البوليس إذا صادفه سوء الحظ وقابلهم؟

قال جاسون:

- أريد أن أذهب معك يا أبى.

قالت الأم:

- جاسون!

كانت تتحدث إلى أبى، كنت تعرف ذلك من نبرة صوتها. وكأنها كانت تعتقد أن أبى يفكر طوال الوقت فى عمل الأشياء التى لا تحبها. جلست فى هدوء فأنا وأبى نعرف أن أمى تريد أن أبقى معها. ولذا فإن أبى حتى لم ينظر إلى. كنت الأكبر سناً. كنت فى التاسعة وكادى فى السابعة وجاسون فى الخامسة.

قال أبى:

- أبداً. لن نبقى طويلاً.

كانت نانسى ترتدى قبعتها. وصلنا إلى الزقاق. قالت نانسى:

- جوبا كان دائماً طيباً معى. عندما يكون معه دولاران كان يعطينى أحدهما.

مشينا فى الزقاق. قالت نانسى:

- عندما أجتاز الزقاق سأكون على ما يرام.

كان الزقاق مظلماً دائماً. قالت كادى:

- هذا هو المكان الذى يخشى جاسون ظلامه فى عيد الهالوين.

قال جاسون:

- أنا لا أخاف.

قال أبى:

- ألا تستطيع العمة راشيل مساعدته؟

كانت العمة راشيل عجوزاً تعيش وحيدة فى كوخ خلف كوخ نانسى. شعرها أبيض، تدخن الغليون بجوار الباب طوال النهار وهى لا تقوى الآن على العمل. يقولون إنها كانت أم جوبا. أحياناً تقول إنها أم جوبا وأحياناً أخرى تقول إنها لا تعرفه من قريب أو بعيد.

قالت كادى:

- بل كنت تخاف. أنت أخوف من فرونى. أنت أخوف حتى من الزوج.

قالت نانسى:

- ألا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً له؟ إنه يقول إننى أنا السبب فى إيقاظ الشيطان داخله. ولا يوجد إلا شيء واحد يسكته، من يهجهه من جديد؟

قال أبى:

- حسناً! لقد ذهب الآن. لا شيء يدعو لخوفك الآن. فقط اتركى البيض وشأنهم.

قالت كادى:

- تترك من وشأنهم.. البيض؟ كيف تتركهم وشأنهم؟

قالت نانسى:

- لم يذهب إلى أى مكان. أستطيع أن أحس به هنا الآن فى الزقاق. هو يسمعنا الآن ونحن نتحدث، كل كلمة، يختبئ فى مكان ما وينتظر. أنا لم أراه، ولن أراه إلا مرة واحدة بهذا موسى. ذلك موسى الذى يعلقه بخيط ويضعه على ظهره داخل قميصه. عندئذ لن أفاجأ، مجرد المفاجأة.

قال جاسون:

- لم أكن خائفاً.

قال أبى:

- لو كنت حريصة فى كل تصرفاتك لما حدث كل ذلك. ولكن الآن كل شئ على ما يرام. ربما يكون فى سانت لويس الآن. ولعله تزوج بغيرك الآن ونسيك تماماً.

قالت نانسى:

- إذا كان فعل ذلك فالأفضل أن لا أبحث عنه. سأقف هناك وكل مرة يحوطها بنزاعيه سوف أقطعها له. سأفصل رأسه عن جسده وأشق بطنه بالفأس وسوف...

- بس - قاطعها أبى.

قالت كادى:

- تشقين بطن من يا نانسى؟

قال جاسون:

- لم أكن خائفاً. سأعبر هذا الزقاق الآن وحدى.

قالت كادى:

- يا رجل! لن تجرؤ على وضع قدمك فيه لو لم نكن معك.

II

كانت دلسى لم تزل مريضة. لذا كنا نأخذ نانسى كل ليلة حتى

قالت أمى:

- إلى متى يحدث هذا؟ تتركوننى وحدى فى هذا البيت الكبير بينما

ترافقون زنجية خائفة إلى بيتها؟

جهزنا سريرًا من القش لنانسى فى المطبخ. وذات ليلة

استيقظنا على صوت آت من الدرج المعتم. لم يكن بالغناء ولا

بالصراخ. كان هناك ضوء فى حجرة أمى وسمعنا وقع أقدام أبى فى

الصالة متجهاً إلى الدرج الخلفى. وتوجهنا أنا وكادى إلى الصالة.

كانت أرض الصالة باردة. كانت أخمص أقدامنا تهرب من مس

الأرض ونحن نحاول الإنصات إلى الصوت. كان أشبه بالغناء ولم يكن غناء. مثل الأصوات التى تصدر من الزنوج.

توقف الصوت وسمعنا أبى ينزل الدرج الخلفى. تسورنا الدرج وسمعنا الصوت من جديد. كان صوتاً خفيضاً. رأينا عيني نانسى من موقعنا وهى تنظر ناحية الحائط. كانت عيناها أشبه بعيني قطعة كبيرة تتكى على الحائط وتنتظر إلينا. وعندما نزلنا الدرج إلى حيث تجلس تخلت عن إصدار الأصوات. ووقفنا هناك حتى عاد أبى من المطبخ بمسدسه فى يده. عاد مع نانسى إلى أسفل ورجعا بسرير نانسى المصنوع من القش.

فرشنا السرير فى حجرتنا. وبعد أن أطفئ النور فى حجرة أمى كان فى وسعنا أن نرى نانسى مرة أخرى. همست كادى:

- نانسى. هل أنت نائمة يا نانسى؟

غمخت نانسى بشيء لم نتبينه. شيء مثل أوه أو كلا، لم أعرف أيهما. شيء لا يصدر إلا منها. شيء يأتى من فراغ ويذهب إلى فراغ حتى إننى تخيلت أن نانسى لم يعد لها وجود البتة. عندئذ أمعنت النظر فى عينيها ونحن على الدرج فانطبعا فى جفنى مثلما تفعل الشمس عندما نخلق عيوننا بعد النظر إليها. همست نانسى:

- يسوع. يسوع.

همست لى كادى:

- هل كان جواباً؟ هل حاول المطبخ؟

قالت نانسي:

- يسوووووووووووووووووووو ع.

قالت على هذا النحو حتى تلاشى الصوت مثل عود ثقاب أو شمعة محترقة.

قالت كادي:

- نانسي. هل تريننا؟ هل ترين عيوننا أيضاً؟

قالت نانسي:

- ما أنا إلا زنجية. الله يعلم. الله يعلم.

همست كادي ثانية:

- ماذا رأيت في المطبخ؟ من الذى حاول الدخول؟

قالت نانسي. وكان فى وسعنا أن نرى عينيها:

- الله هو العالم. الله هو العالم.

وتعافت دلسى من مرضها وبدأت تطبخ لنا الغداء. وقال لها أبى:

- الأفضل أن تبقى فى المنزل يوماً أو يومين.

قالت دلسى:

- ولماذا؟ لو تأخرت يوماً آخر لأصبح هذا المطبخ خرباً. غادروا

المكان الآن حتى أنظفه.

وطبخت دلسى لانا العشاء أفضا. وفى تلك الليلة، وقبل حلول
الظلام، جاءت نانسى إلى المطبخ. قالت لها دلسى:
- كيف عرفت أنه رجع؟ أنت لم تريه.

قال جاسون:

- جوبا زنجى.

قالت نانسى:

- أحس به. أحس به راقدا هنا. فى الغور.

قالت دلسى:

- الليلة؟ هل هو هنا الليلة؟

قال جاسون:

- دلسى زنجية أفضا.

قالت دلسى:

- هل تريد أن تأكل شيئا؟

قالت نانسى:

- لا أريد شيئا.

قال جاسون:

- أنا لست زنجيا.

قالت دلسى:

- اشربى قهوة.

وصبت كوبا من القهوة لنانسى.

- هل تعرفين أنه خارج البيت الليلة؟ كيف تعرفين ذلك؟

قالت نانسى:

- أعرف. هو هناك ينتظر. أعرف. لقد عشت معه طويلاً. أعرف

ما ينوى عمله قبل أن يعرف هو نفسه.

قالت دلسى:

- اشربى قهوة.

أمسكت نانسى بالكوب وقربتّه من فمها ونفخت فيه. زمت

شفتيها فأصبحتا أشبه بلسان حية أو كفم من المطاط. كأنها تخلصت من

كل الألوان التى على فمها مع نفخ القهوة.

قال جاسون:

- لست زنجيا. هل أنت زنجية يا نانسى؟

قالت نانسى:

- ولدت (زفت) كذلك. سأعود قريباً من حيث قدمت.

III

بدأت تشرب. وبينما كانت تشرب ممسكة الكأس بكائنا يديها أنشأت تصدر الصوت مرة أخرى. أطلقت الصوت داخل الكوب ففزعت القهوة هاربة إلى خارج الكوب على يديها وقميصها. نظرت إلينا وجلست هناك ومرفقاها عند ركبتيها تمسك بالكأس بكائنا يديها وتنظر إلينا عبر الكأس المبتل وتصدر الصوت. قال جاسون:

- انظروا إلى نانسي. نانسي لا تستطيع أن تطبخ لنا الآن. أصبحت دلسي في صحة جيدة الآن.

قالت دلسي:

- لماذا لا تسكت الآن؟

كانت نانسي تمسك الكأس بكائنا يديها. وتنظر إلينا، تصدر الصوت وكأنها انقسمت إلى امرأتين: واحدة تنظر إلينا والأخرى تصدر الصوت. قالت دلسي:

- لماذا لا تجعلون المستر جاسون يكلم رئيس الشرطة في التليفون؟

عندئذ توقفت نانسي وهي تمسك بالكأس بكائنا يديها الطويلتين السمراوين. حاولت احتساء بعض القهوة مرة أخرى، ولكن القهوة قفزت من الكوب على يديها وقميصها فوضعت الكأس على الأرض. كان جاسون يراقبها. قالت نانسي:

- لم أستطع ابتلاعها. حاولت ولكنها لم تنزل في حلقى.

قالت لها دلسى:

- هل ستنزلين إلى الكوخ؟ روى سوف يضع لك فراش القش وسوف أكون هناك بسرعة.

قالت نانسى:

- ألا من زنجى يوقفه؟

قال جاسون:

- لست زنجيا. هل أنت زنجية يا دلسى؟

قالت دلسى:

- لا أعتقد ذلك. ثم أردفت وهى تنتظر إلى نانسى:

- لا أعتقد ذلك. ماذا أنت فاعلة إذن؟

كانت نانسى تنتظر إلينا. كانت عيناها قلقتين كمن يخاف ألا يكون لديه وقت للنظر. كانت تنتظر إلينا، إلى ثلاثتنا فى وقت واحد. قالت: هل تذكرون الليلة التى بت فيها فى خبرتكم؟ وحكت كيف استيقظنا فى الصباح الباكر ورحنا نلعب. كان يجب أن نلعب بهدوء على سريرها القش حتى استيقظ أبى وكان الوقت قد حان بالنسبة لها لتنزل وتتناول الإفطار.

اذهبوا لتطلبوا من أمكم أن تسمح لى بالمبيت معكم الليلة. لا أريد سريرًا، نلعب بعضنا مع بعض مرة أخرى.

سألت كادى أمى. جاسون ذهب أيضًا. قالت أمى: "لا أطيق نوم الزوج فى منزلى". وبكى جاسون. راح بيكى حتى قالت له أمى إنه لن يتناول الحلوى لمدة ثلاثة أيام إذا لم يتوقف. عندئذ قال جاسون إنه سيتوقف إذا عملت دلسى كعكة من الشكولاتة. كان أبى هناك. قالت أمى:

- ولماذا لا تفعل شيئاً فى هذا الشأن؟ وما فائدة الشرطة؟

قالت كادى:

- لماذا تظل نانسى خائفة من جوبا؟ هل تخافين من أبى أو أمى يانانسى؟

قال أبى:

- وماذا فى وسعهم فعله؟ إذا كانت نانسى لم تره، فكيف للشرطة أن تعثر عليه؟

قالت الأم:

- إذن لماذا هى خائفة؟

- تقول إنه هنا. تقول إنه هنا الليلة.

قالت الأم:

- ومع ذلك ندفع الضرائب. وعلى أن أنتظر هنا وحدى فى هذا البيت الكبير بينما أنتم توصلون امرأة زنجية إلى منزلها.

قال أبى:

- تعلمين أنتى لست مختبئاً خارج البيت بمشرط فى جيبي.

قال جاسون:

- سأتوقف إذا صنعت دلسى كعك بالشكولاته. أخبرتنا أمى أن نخرج، وقال أبى: إنه لا يعرف إذا كان جاسون سيئال هذه الكعكة بالشكولاته أم لا، ولكنه كان يعرف على ماذا سيحصل جاسون بعد دقيقة. رجعنا إلى المطبخ وأخبرنا نانسى:

- يقول لك أبى أن تذهبي إلى البيت وتغلقى الباب على نفسك وستكونين فى مأمن. وأردفت كادى: فى مأمن من ماذا يا نانسى؟ هل جوبا غاضب منك؟ كانت نانسى تمسك بالكوب بكلا يديها. مرفقاها فوق ركبتيها ويداها تمسكان بالكأس بين ركبتيها. كانت تنظر فى الكأس. قالت لها كادى: ماذا فعلت حتى غضب منك جوبا؟ تركت نانسى الكأس يقع على الأرض. لم يتحطم، ولكن القهوة انسكبت. وجلست هناك ويداها لا تزالان تقبضان على الهواء وكأن الكأس لم يقع. بدأت تصدر الصوت مرة أخرى. ليس بصوت عال، كانت تغنى ولا تغنى. رحنا نراقبها. قالت دلسى:

- هيا من هنا الآن. وخرجت دلسى.

نظرنا إلى نانسى. راح منكباها يرتعشان، ولكنها كانت قد توقفت عن إصدار الأصوات. كنا نراقبها. قالت لها كادى: وماذا يفعل لك؟ لقد ذهب.

نظرت نانسي إلينا وقالت:

- لقد كنت سعيدة بالمبيت معكم في حجر تكم. أليس كذلك؟

قال جاسون:

- لا، لم أحس بأية متعة.

قالت كادي:

- أنت كنت نائمًا. لم تكن هناك.

قالت نانسي:

- فلننزل إلى بيتي ونكمل المتعة.

قلت:

- أمي لن تسمح لنا. الوقت متأخر الآن.

قالت نانسي:

- لا تخبرها الآن. نخبرها في الصباح. لن تهتم.

قلت:

- لن تسمح لنا.

قالت نانسي:

- لا تسألها الآن. لا تضايقها الآن.

قالت كادى:

- هما لم يقولوا لنا إننا لن نذهب.

قلت:

- نحن لم نطلب منهما.

قال جاسون:

- إذا ذهبنا فسوف أخبرهما.

قالت نانسي:

- سنجد متعة. لن يهتما بالأمر إذا ذهبنا إلى بيتي. لقد عملت لديكم فترة طويلة. لن يهتما.

قالت كادى:

- لست خائفة من الذهاب. جاسون هو الخائف وسوف يخبرهما.

قال جاسون:

- لست خائفاً.

قالت كادى:

- بل أنت خائف وسوف تخبرهما.

قال جاسون:

- لست خائفاً. لست خائفاً.

قالت نانسي:

- جاسون لا يخاف من الذهاب معي. هل أنت خائف يا جاسون؟

قالت كادي:

- جاسون سوف يخبرهما.

كان الزقاق مظلمًا. مررنا عبر بوابة من العشب. قلت:

- أراهن على أن شيئًا سوف يقفز من خلف هذه البوابة. وجاسون سوف يصرخ.

قال جاسون:

- لن أصرخ.

نزلنا الزقاق. كانت نانسي تتحدث بصوت عال. قالت كادي:

- لماذا تتحدثين بصوت عال يا نانسي؟

قالت نانسي:

- من؟ أنا؟ أسمع كوينتن وكادي وجاسون يقولون إنني أتكلم بصوت عال.

قالت كادي:

- تتحدثين كأن هناك رابعًا معنا. كأن أبي معنا.

قالت نانسي:

- أأنا أتحدث بصوت عال يا سيد جاسون؟

قالت كادى:

- نانسى تتادى جاسون بالسيد.

قالت نانسى:

- اسمع كيف يتحدث كادى وكونتن وجاسون.

قالت كادى:

- نحن لا نتحدث بصوت عال. أنت التى تتكلمين مثل أبى...

قالت نانسى:

- كفى! كفى يا مستر جاسون.

- نانسى تدعو جاسون بالمستر. أف!

قالت نانسى:

- اسكتوا.

كانت تتكلم بصوت عال عندما أحنينا رعوسنا لعبور السور الذى كانت تعبره بصرة الملابس فوق رأسها دون أن تهتز. وصلنا إلى بيتها ونحن نسرع ونجرى مرحين. فتحت الباب وشمنا رائحة البيت القريية من رائحة الشباط. إنها رائحة المصباح والفتيل. إنها رائحة نانسى نفسها. أضاعت المصباح ورفعت المزلاج لتغلق الباب وخفضت من نبرة صوتها وراحت تنتظر إلينا.

قالت كادى:

- ماذا ستفعلين؟

قالت نانسى:

- ماذا تريدون أنتم؟

قالت كادى:

- قلت إننا سنجد متعة.

ثمّة شيء فى بيت نانسى. شيء يمكن للمرء أن يشمه. حتى جاسون استطاع أن يشمه وقال:

- لا أريد أن أبقى هنا. أريد أن أذهب إلى البيت.

قالت كادى:

- اذهب إذن إلى البيت وحدك.

قال جاسون:

- لا أريد أن أذهب وحدى.

قالت نانسى:

- تعالوا نلهو قليلاً.

قالت كادى:

- كيف؟

وقفت نانسى عند الباب. كانت تنتظر إلينا، وكانت كأنها أفرغت عينيها من المعنى، كأنها توقفت عن استخدامهما.

- ماذا تريدون؟

قالت كادى:

- احك لنا قصة. هل يمكنك أن تحكى لنا قصة؟

قالت نانسى:

- نعم.

قالت كادى:

- إذن احك.

تعلقت عيوننا بنانسى وقالت كادى:

- ألا تحفظين أية قصص؟

قالت نانسى:

- بلى، أعرف الكثير.

جلست نانسى على كرسى بجوار المدفأة المتقدة ببقايا حطب. أذكتها فاستعرت قليلاً. بدأت تحكى قصة. كانت تحكى بعينين قلقتين كأنهما لا تنتميان لها، وبصوت عميق كأنه لا يمت لها بصلة. وكأنها تعيش فى مكان آخر، وتنتظر فى مكان آخر بعيداً عن منزلها. كان

جسدها هناك. جسدها الذى يحدوب تحت السور بصورة الملابس على رأسها متزنة كبالون، كان هناك. "وهكذا تأتى الملكة، تتمشى إلى المصرف حيث كان ذلك الرجل الشرير يختبئ. كانت تعبر المصرف وتقول فى نفسها: لو أننى أستطيع أن أعبر هذا المصرف دون مشاكل، وتقول... " قالت كادى:

- أى مصرف؟ مصرف كذلك الذى خارج منزلك؟ ولماذا تذهب الملكة إلى المصرف؟

قالت نانسى:

- لتصل إلى منزلها. كان عليها أن تعبر المصرف لكي تصل إلى بيتها.

قالت كادى:

- ولماذا كانت تريد أن تصل إلى بيتها؟

IV

نظرت نانسى إلينا. سكنت عن الكلام ونظرت إلينا. كان ساقا جاسون يلتصقان بسرواله لفرط نحافته. قال:

- لا أظن أن هذه قصة جيدة. أريد أن أذهب إلى البيت.

قالت كادى:

- ربما كان الأفضل ألا نأتى. ونهضت وهى تقول:

- أراهن على أنهما يبحثان عنا الآن.

قالت نانسى وقد نهضت بسرعة وسبقت كادى:

- لا.. لا تفتحى الباب.

لم تلمس الباب.

قالت كادى:

- لم لا؟

قالت نانسى:

- عودى إلى المصباح. سنلهو قليلاً. يجب ألا تذهبوا.

قالت كادى:

- يجب أن نذهب إلا إذا كنا سنجد متعة حقيقية.

عادت هى وتانسى إلى المدفأة والمصباح.

قال جاسون:

- - أريد أن أذهب إلى البيت. سوف أخبر أبى.

قالت نانسى:

- عندى قصة أخرى.

وقفت قريبة من المصباح ونظرت إلى كادى. كانت كمن ينظر إلى عصا تقف عند طرف أنفه. كان يجب أن تنتظر تحتها لكي ترى كادى. ولكن عينيها بدت كمن يزن عصا. قال جاسون:

- لن أسمعها، سأقرع الأرض.

قالت نانسى:

- إنها قصة جيدة. أفضل من القصة الأولى.

قالت كادى:

- عن ماذا؟

كانت نانسى تجلس بجوار المصباح. كانت تضع يدها السمراء الطويلة على زجاج المصباح الساخن. قالت كادى:

- يدك على الزجاج الساخن. ألا تحسین بالحرارة على يدك؟

نظرت نانسى إلى يدها التى وضعتها على زجاج المصباح. نزعَت يدها الطويلة ببطء وكأنها شدت إلى رسغها بخيط. قالت كادى:

- دعونا نفعل شيئاً آخر.

قال جاسون:

- أريد أن أذهب إلى البيت.

قالت نانسى:

- عندى فشار .

نظرت إلى كادى، ثم إلى جاسون ثم إلى كادى مرة أخرى. وقالت:

- عندى فشار .

قال جاسون:

- لا أحب الفشار . أريد حلوى بدلاً منه .

نظرت نانسى إلى جاسون وقالت:

- أنت تمسك المحمصة .

كانت يدها طويلة ومترهلة وسمراء . قال جاسون:

- موافق . ساقبى بعض الوقت إذن . كادى لا تستطيع أن تقوم بهذا العمل . سوف أذهب إلى البيت إذا أمسكت كادى المحمصة .

أنكت نانسى النار . قالت كادى:

- انظروا إلى نانسى وهى تضع يدها فى النار . ماذا دهاك يانانسى؟

قالت نانسى:

- عندى فشار . وسحبت المحمصة من تحت السرير . كانت

المحمصة مكسورة . عندئذ بكى جاسون وقال:

- لن نحصل على ذرة .

قالت كادى:

- سأذهب إلى البيت مهما كان الأمر .

قالت نانسى:

- انتظروا، انتظروا. سوف أصلحها، ساعدونى فى إصلاحها.

قالت كادى:

- لا أظن أنى أريد ذرة مشوية. الوقت متأخر جدا الآن.

قالت نانسى:

- ساعدنى يا جاسون. ألا تريد أن تساعدنى؟

قال جاسون:

- لا، أريد أن أذهب إلى البيت.

قالت نانسى:

- بس.. بس. انظروا، يمكن أن نضبطها هكذا. وجاسون يمكن أن

يمسكها ونشوى الذرة.

أخذت سلكاً وأصلحت به المحمصة.

قالت كادى:

- لن تستطيعى إصلاحها.

قالت نانسى:

- لقد أصلحتها كما ترون. ساعدوني في تقشير الذرة.

كانت الذرة تحت السرير أيضاً. نزعنا الحب ووضعناه في المحمصة وساعدت نانسي جاسون في الإمساك بالمحمصة فوق النار.

قال جاسون:

- إنها لا تشوى. أريد أن أذهب إلى البيت.

قالت نانسي:

- انتظر. بدأت تشوى وستسعد.

كانت تجلس قريباً من النار. كان المصباح مائلاً حتى بدأ يدخن. قلت:

- لماذا لا توجهونه إلى أسفل؟

قالت نانسي:

- هذا أفضل. سوف أنظفه. انتظروا، ستبدأ المحمصة في خلال دقيقة.

قالت كادي:

- لا أظن أنها ستبدأ. يجب أن نذهب إلى البيت. إنهما سيقلقان علينا.

قالت نانسي:

- ستبدأ الآن. ستقول لهما دلسي إنكم كنتم عندي. ستبدأ في التحميص بعد دقيقة.

تسلل الدخان إلى عيني جاسون وبدأ يبكي. أسقط المحمصة في النار. أحضرت نانسي خرقة مبللة ومسحت بها وجه جاسون ولكنه لم يتوقف عن البكاء.

قالت نانسي:

- كفى! كفى.

ولكنه لم يتوقف. رفعت كادي المحمصة من النار وقالت:

- احترقت الذرة. نريد بعض الذرة.

قالت نانسي:

- هل وضعت كل الذرة؟

قالت كادي:

- نعم.

نظرت نانسي إلى كادي ثم أخذت المحمصة ووضعت فيها الذرة وألقت بالذرة المحروقة في حجرها وراحت تتنقى الحب الصالح منه بيديها الطويلتين السمراوين وكنا نراقبها.

قالت كادي:

- ألا يوجد عندك فشار أكثر؟

قالت نانسي:

- عندي. انظروا، هذا ليس محروفاً. كل ما نحتاجه هو أن...

قال جاسون:

- أريد أن أذهب إلى البيت. سوف أخبر أبي وأمي.

قالت كادي:

- اسكت.

رحنا نتسمع. كانت رأس نانسي متجهة إلى الباب المغلق.
وعيناها مليئتين بضوء المصباح الأحمر.

قالت كادي:

- هناك قادم.

بدأت نانسي تطلق ذلك الصوت الغريب. كانت يداها الطويلتان
تتدليان بين ركبتيها. وفجأة نزلت قطرات ماء على وجهها. كل قطرة
تحمل معها بعضاً من دخان الموقد.

قالت:

- إنها لا تبكي.

قالت نانسي:

- أنا لا أبكي. أنا لا أبكي. من بالباب؟

قالت كادي:

- لا أرى.

ذهبت إلى الباب ونظرت وعادت وهي تقول:

- حان الوقت للذهاب إلى البيت. أبي جاء.

قال جاسون:

- سوف أخبر أبي. أنتم الذين أغريتموني بالمجيء إلى هنا.

كان الماء لم يزل يجرى على وجه نانسي.

استدارت من مقعدها وقالت:

- اسمع، أخبره أننا كنا نريد أن نتسلى. قل له إنني اهتممت بكم

حتى الصباح. قل له أن يأخذني معكم إلى البيت وأنام على

الأرض. قل له إنني لا أريد سرير القش هذا. سوف نتسلى

جميعاً. ألم نتسل هذه الليلة؟ قال جاسون:

- أنا لم أستمع البتة. بالعكس لقد أنيتتى ودخل الدخان في عيني.

V

دخل أبي. نظر إلينا. نانسي لم تنهض وقالت: ..

- أخبره.

قال جاسون:

- كادى هى التى جعلتنا نأتى إلى هنا. لم أكن أريد أن أتى إلى هنا.

اقترب أبى من المدفأة. نظرت إليه نانسى. قال:

- ألا يمكنك الذهاب إلى العمة راشيل والبقاء هناك؟

نظرت نانسى إلى أبى. كانت يداها بين ركبتيها. قال أبى:

- هو ليس هنا. ليس هناك روح حية فى هذا المكان.

قالت نانسى:

- إنه فى المصرف. إنه ينتظر فى المصرف قريباً منى.

قال أبى:

- كلام فارغ. كيف عرفت أنه هناك؟

قالت نانسى:

- عندى علامة.

- أية علامة؟

قالت نانسى:

- علامة فهمتها، تركها على المنضدة ورأيتهَا عندما دخلت. كانت

عظمة خنزير عليها لحم ملطخ بالدماء. تركها بجوار المِصباح.

إنه خارج البيت. عندما تغادرون سوف يقتلنى.

قالت كادى:

- من يقتلك يا نانسي؟

قال جاسون:

- لست بالواشى.

قال الأب:

- كلام فارغ.

قالت نانسي:

- إنه خارج البيت، ينظر من خصائص النافذة فى هذه اللحظة.
ينتظر ذهابكم جميعاً ويقتلنى.

قال أبى:

- كلام فارغ. أغلق باب بيتك وسأخذك إلى العمه راشيل.

قالت نانسي:

- هذا لن يجرى.

لم تنظر إلى أبى فى تلك اللحظة. ولكنه نظر إليها. إلى يديها
المترهلتين الطويلتين المرتعشتين. قالت:

- التأجيل لن يفيد.

قال أبى:

- وماذا تتوین فعله إذن؟

قالت نانسي:

- لا أدري. لا أستطيع أن أفعل شيئاً. على أن أؤجل وهذا لن يفيد.
أعرف ماذا سيحدث لي. لن يجهز على غيري.

قالت كادي:

- ماذا سيحدث لك؟

قال أبي:

- لا شيء. اذهبوا إلى فراشكم جميعاً.

قال جاسون:

- كادي هي التي جعلتني آتي إلى هنا.

قال أبي:

- اذهبى إلى العمّة راشيل.

قالت نانسي:

- هذا لن يفيد.

جلست أمام المدفأة، مرفقاها فوق ركبتيها ويداها الطويلتان بين
وركيها وأردفت تقول:

- حتى النوم في مطبخكم لن يفيد. حتى لو كنت نائمة على الأرض
في الحجرة مع أولادك، سترانى في الصباح وقد غطتني الدماء.

قال أبى:

- كفى عن هذا الهراء. أغلقى الباب وأطفئى المصباح ونامى.

قالت نانسى:

- أنا أخشى الظلام. أخشى الظلام لأن ذلك يحدث فى الظلام دائماً.

قال أبى:

- تعنى أنك متبقيين هنا والمصباح مضاء؟

عندئذ بدأت نانسى فى إصدار الصوت من جديد وهى تجلس أمام المدفأة ويدها الطويلتان بين وركيها. قال أبى:

- آه، اللعنة. تعالوا يا أولاد، حان وقت النوم.

قالت نانسى:

- عندما تتصرفون جميعاً سيقطننى. غذا ستجدوننى ميتة. لقد ادخرت ثمن الكفن عند السيد لفليدى.

كان السيد لفليدى رجلاً قصيراً رث الملبس. يجمع تأمينات الزوج على حياتهم. يطوف حول المطابخ والأكواخ صباح كل يوم سبت ويأخذ منهم خمسة عشر سنتاً. كان يعيش هو وزوجته فى لوكاندة. استيقظ ذات صباح ليجد زوجته منتحرة تاركة طفلهما لرحمة القدر. اختفى السيد لفليدى وابنته بعد انتحار زوجته ولكنه عاد بعد فترة. كنا نراه ينزل إلى الأزقة صباح السبت. كان يذهب إلى الكنيسة المعمدانية.

حمل أبني جاسون على ظهره وخرجنا من بيت نانسي. كانت
تجلس أمام المدفأة. قال أبي:

- تعالى أغلقى الباب.

لم تتحرك نانسي. لم تنتظر إلينا. تركناها هناك جالسة أمام
المدفأة والباب مفتوح. قالت كادي:

- ماذا يا أبي؟ لماذا تخاف نانسي من جوبا؟ ماذا يريد جوبا أن يفعل
بها؟

قال جاسون:

- جوبا لم يكن هناك.

قال الأب:

- لا، هو غير موجود. لقد هرب.

قالت كادي:

- ومن الذى كان ينتظرها فى المصرف؟

ألقينا نظرة إلى المصرف. كان المدق ينزل بنا فى أحراش
كثيفة قبل أن نصعد منه مرة أخرى.

قال أبي:

- لا أحد هنا.

كان ضوء القمر كافياً لرؤية أى شئ. كان المصرف موحشاً
وهادئاً وكثيف الأحرار.

قالت كادى:

- لو كان هنا لراناء، أليس كذلك يا أبى؟

قال جاسون وهو على ظهر أبيه:

- أنت التى جعلتتى آتى إلى نانسى. لم أكن أريد أن آتى.

كان المصرف ساكناً تماماً. خالياً تماماً. يمتلئ بأعشاب الرحيق.
لم نر جوباً. ولم نر نانسى وهى تجلس هناك فى بيتها والباب مفتوح
والمصباح يضى لأنها لا تريده أن يحدث فى الظلام. كانت تقول: " لقد
تعبت. ما أنا إلا زنجية. ولكن ليس الخطأ خطئى". وكان فى وسعنا أن
نسمعها. بدأت الكلام بعد أن خرجنا من البيت. كانت تجلس هناك أمام
المدفأة ويداها الطويلتان السمران بين ركبتيها. كنا لم نزل نسمعها
حتى عندما عبرنا المصرف وجاسون مستقر فى مكانه العالى على
كتف أبيه.

ثم عبرنا المصرف. ابتعدنا عن نانسى وعالمها. كانت تجلس
هناك والباب مفتوح والمصباح مضاء، تنتظر بينما كان المصرف بيننا
وبينها بطول، والبيض ماضون فيما هم ماضون فيه، يقسمون حياتنا
المعتدى عليها نحن ونانسى. قلت:

- من سيغسل لنا ملابسنا الآن يا أبى؟

قال جاسون وهو على منكبي أبيه:

- أنا لست زنجيا.

قالت كادي:

- أنت أسوأ من الزنوج. أنت نمام. لو أن شيئا قفز الآن ستكون
أكثر ذعرا من الزنوج.

قال جاسون:

- لن أخاف.

قالت كادي:

- سوف تصرخ.

قال الأب:

- كادي!

قالت كادي:

- قطعة مذعورة.

قال الأب:

- اصمتوا.

أخى الميت يأتى إلى أمريكا (١٩٣٤)

ألكساندر جودن

عندما وصلنا خليج نيويورك كان الوقت شتاء بالفعل، وكانت الأرض مكسوة بطبقة كثيفة من الثلج. بدا الماء على مرمى البصر محفوفًا بطابور طويل من الأشجار المتعانقة. وعندما وقفنا على ظهر السفينة كانت الشمس تتعادم على رءوسنا، يؤذى عيوننا النظر إلى بياضها المبهر.

وعلى مقربة منا كان الماء أخضر شفافاً، ومن بعيد كان شديد الزرقة أو ملوناً. بدأت زوارق الجبر تتاور حول سفينيتنا محدثة ضوضاء مقلقة، تتجشأ الدخان من مداخنها وترسل السخام إلى سطح السفينة فيصطدم بوجوهنا. كانت السماء حبلية بضباب كثيف فيما راحت قوارب أخرى تحدث زئيراً مربكاً.

وبينما أقيمت المدينة لملاقاتنا، وبينما كانت كآبة واجهاتها تيزداد وطأة، وناطحات سحابها تحلق فوق رءوسنا طوال الوقت، تملكننا إحساس بصغر أحجامنا واستبد بنا خوف كأن شيئاً يهددنا. بعث العالم

الجديد فى أجسامنا برودة شعرنا بها. ولم تكن، فى معظمها، من برودة الشتاء.

عندما اقتربت سفينتنا من الشاطئ تـلـت قوارب السحب عن مهامها وراحت تشق الموج بعيداً عنا، سمعنا بعد ذلك صلصلة السلاسل الصندنة للمرساة الضخمة بدويها الشديد وهى تضرب المياه مرسلّة رذاذاً فى كل اتجاه. سمعنا صيحات تصدر من قوارب تحوم حول السفينة، ويحاول راكبوها شد انتباه المهاجرين على متنها. تبع الصيحات صرخات مسعورة لأناس عرفوا ذويهم على كلا الجانبين، انطلقت من أسفل صرة بها برتقال، ولكن الصرة تمزقت وتسحرجت منها حبات البرتقال على متن السفينة ما لبث أن تعقبها الأطفال والنساء بين صراخ وصياح. أكياس أخرى انطلقت من أسفل، وضلت الطريق إلى سطح السفينة وسقطت فى الماء محدثة طرطشة جعلت أصحاب القوارب الصغيرة يضعون أيديهم على وجوههم.

سمعنا صرخة تلتها أخرى، شخص ينادى باسم أمه. صيحة حادة بدت قائمة من بعيد. تجمهرنا جميعاً على درابزين السفينة ولكن أمى كانت الوحيدة التى استطاعت التطلع من فوق الدرابزين إلى المياه أسفلها. كانت أختى الكبرى فى الرابعة عشرة وكنت فى الثالثة عشرة أما أختى الأخرى فكانت فى التاسعة. ولكن حياتنا الصعبة أورثتنا القصر والضعف. تسلقنا درابزين السفينة حتى لامست ركبتنا الروافد الخشبية واستطعنا رؤية ناطحات السحاب وسائر مباني الميناء تنكس

رعوسها فى الماء. ولكن أمى استبد بها قلق وهياج خشية أن تسقط من فوق السفينة. لوحت بيدها، وتبعنا امتداد يدها بأقصى الجهد لعيوننا.
كان أبى.

كنت أول من عرفه وحاولت بوحى غريزى أن أختبر مشاعرى نحوه. لقد تركنى طفلاً فى الخامسة والآن أقترب من النضج. ولكن تلك اللحظة لم تكن تحمل عندى المعانى نفسها التى حملتها عند الآخرين. تملكأت أختى الكبرى فرحة جامحة وصرخت دون تحفظ. كانت تعرف الجانب الطيب من أبى. نالت قدرًا من حنانه يفوق ما ناله كل منا. لم أتذكر شيئًا غير مرارة طفولتى وعذاباتها وآلامها. أختى الصغرى كانت لم تزل فى مهدها عندما تركنا أبى إلى العالم الجديد، وهى الآن تمسك بكم أمى وتسال:

- أيهم أبى يا أمى؟

فى ذلك الوقت كانت رفات أختى تتحلل فى مكان ما فى الجانب الآخر من المحيط تحت شاهد منخفض. كانت الأرض التى غطت الشاهد صلبة وباردة. تحوم فى المكان بفعل الريح نتف من الحور دون أن تقع على الأرض. كان موته مفاجأة كبرى. نظر إلينا بعينين ثلثمان بالذكاء وكأنه كان يقول لنا: "أعرف أنى ميت لا محالة، لا ينبغي لكم أن تحزنوا، من العبث أن تذرفوا الدمع بسبب شيء تافه كالموت".

مضت ثمانى سنوات الآن منذ أن أبحر أبى إلى أمريكا. أختى الذى ولد بعدى مات أثناء الحرب. وسواء كان بسبب الإهمال أو بسبب

الخوف، فقد كتمت أُمِّي خبر موت أخي عن أبي طوال الوقت. لقد عشنا فترة بطولية من فترات التاريخ دون أن يكون لنا صلة بالبطولة، واختبرنا أحداثًا جسامًا تقطعت حياتنا بسببها إلى شظايا كثيرة. ونحن هنا في هذا المكان أحسست أنه لا ينبغي أن نسعى لتقطيع هذه الشظايا من جديد. أحس الآن بعبثية الحياة، إحساس أورثني قلبا لا يكثرث. لا شيء حطم قلبي كما حطمه موت أخي الوحيد. عاينت الموت لأول مرة في حياتي، وتحملت أكثر أحداث حياتي قسوة.

قالوا فيما بعد إنني بكيت ساعتها كأن عالمي كله قد إنهار، وصدقته. وقالوا أيضًا إنني مزقت ملابسِي وضربت رأسي في جدار منزلنا، وصدقته. ولكن عندما قالوا لي إن جزني مآله النسيان، وإن قلبي سيصبح نظيفًا مثل حقول أوكرانيا الشاسعة بعد الحصاد، وبعد أن يكون المحصول قد تم تخزينه، لذت بالصمت.

حمدت الله ونحن واقفون على ظهر السفينة بين الناس أن السفينة عالية وأن أبي لم يستطع أن يرى أننا كنا ننقص واحدًا. أحسست لحظتها أن أُمِّي فعلت خيرًا حينما لم تكتب له شيئًا عن وفاة ابنه الأصغر. لم تكن مشاعري هذه ناشئة من حب أكنه لأبي، فأنا لا أكن جبا كثيرًا لأبي. إنه غريب بالنسبة لي. ولكني كنت أحسد أباي على معاناته، وكنت أغار من حزنه. ولعلني كنت على حق، فقد أحسست أنني الأحق منه بالحزن على أخي.

في تلك الليلة نمتنا على ظهر السفينة، رمز المعاناة التي جربناها

فى رحلة العبور. كنا نحسى بالغثيان، ورائحة النشادر فى البحر لا تزال تزكم أنوفنا، ومشهد المياه الخاوى لا يخفف منه سوى طيور البحر الحزينة والطحالب البحرية. ولكن من الطريقة الجديدة التى كان النائمون يغطون بها فى نومهم، كان يمكن رؤية الطمانينة التى عادت إليهم ولو جزئيا، بينما راح آخرون يتقلبون فى فرشهم ويتنون.

حلمت أن أختى الميت وقف على سريرى... كئيب الوجه حزين. مسح على منكبى بأصابعه التى بانث فيها العظام. أردت أن أتحرك ولم أستطع. طفقت أرقبه فى فزع وافتتان. استيقظت وأنا أتشبث بالحلم تشبث اليائس، وأخذت أحملق دون أمل فى الأرض التى كانت تكسوها القذارة.

فى الصباح بعد الإفطار كنا نساق - جميعا - كقطعان الغنم. كنا أشباحا شاحبة الوجوه يستولى عليها الخوف تترنح بين عالمين؛ عالم عاقبا بعصى من حديد وقذف بعد تلك بنا بعيدا عن حماه، وعالم قاس لا يأبه، قدر لنا أن نمثل أمامه، نذرف الدمع تملقا وخوفا لعله يسمح لنا بالدخول، ولكن بعد أن يكون قد جرد قلوبنا من كل أمل.

طموحاتنا وآمالنا لا تعنى شيئا لأننا كنا متعبين. وكشأن المتعبين كنا نعرف أننا حين نصل إلى نقطة الإعياء الشديد فسوف ننام جميعا واقفين أو مقتادين، وسوف ننفذ أثناء نومنا ما كنا لننفذه أثناء يقظتنا.

بدعوا يقيمون المعبر الذى يصل بين السفينة وبين العبارة التى ستقلنا إلى جزيرة إليس. كانت إليس جزيرة كئيبة تحزن القلب مثل

مقاعد الدرجة الثالثة. المباني كلها من الحجر الرمادى تعلوها فطور كثيرة ضاربة للخضرة ومكسوة بحشائش وطحالب كثيرة. كان خصاص بعض نوافذها من الحديد المفتول، وبعضها الآخر تقوم عليه قطع من الزجاج الثقيل تتخلله أسلاك رفيقة من الحديد. وكان فى وسعنا أن نراقب من خلال الخصاص الحديدية الطحالب البحرية التى تطفو على مهل فى مياه الخليج.

كان الأطباء الذين قاموا بفحصنا قساة القلوب، فى قسوة القوة التى كلفتهم بتولى هذه المهمة. ظلوا يجذبوننا بعنف وفرف شديدين على نحو مهين، وفى عيونهم اقتناع بأننا لم نعد قادرين لا على الحياة ولا على الألم. أمسكنا بصررنا فى أيدينا حين اصطف جمع غفير من الموظفين على مقاعد عالية استعدادًا لاستجوابنا. كانوا يرتدون سترات سوداء من الصوف بأزرار لامعة طويلة وياقات منشأة. كانت المناضد التى جلسوا إليها طويلة أيضًا ومائلة بزاوية غريبة أشبه بالحمالات الخشبية التى يضع اليهود عليها كتبهم المقدسة فى معابدهم. وكانوا جميعًا يبتسمون على ذلك النحو البغيض لأوراقهم بينما يدنون إجابات أمى على أسئلتهم.

على الجانب الآخر من الحاجز كان أبى. سرعان ما أصبح هو الآخر هدفًا للتحقيق. وكان المحققون يطابقون إجاباتهما بحثًا عن تناقض. وعلى حين بغتة توقف كل شىء: سير الإجراءات تعطل ولم يستأنف. بدا الذعر على وجه أمى التى أنبأت ملامح وجهها أنها

اقتربت كذبًا. ثمّم الموظف بكلام غير مفهوم وقد بان عليه الغضب لأن غرابة الموقف دفعت به لأن يقدح زناد فكره الصدى. زفر بقوة وحاول أن يبدو متعاونًا على نحو رسمى. دفعه اضطراب أمى لاستثارة عطفه وإظهار إنسانيته ولكنه لم يعرف كيف السبيل إلى مساعدتها، وكانت الجملة القاسية:

- زوجك يقول إن أطفالكما أربعة يا مدام ولديك الآن ثلاثة أطفال فقط. كيف تفسرين ذلك يا مدام؟

تلعثمت أمى. تحولت شفتاها إلى اللون الأبيض. انهمرت الدموع من عينيها وهى تشرح الأمر للموظف بنبرات منقطعة. بدت علامات الخوف والقلق على وجه الموظف. حنى رأسه بينما كان نشيجها المتزايد يحول بينه وبين الاستيعاب. ترنح على مقعده على نحو خطير، وتشبث بمكتبه بأصابعه النحيفة المتوترة. لاحت على وجهه ابتسامة متعبة. وسواء كان فهم فجأة أو قرر ألا يابه أكثر من اللازم لهذه القصة التى أحزنته فقد سمح لنا بالانصراف. جربنا جميعًا خلف أمى مثل طيور صغيرة فقسّت لتوها.

وعلى الجانب الآخر من الحاجز كان أبى. ترى ماذا كان يدور بذهنه فى تلك اللحظة ؟ كيف كان يحس؟

ما رآنا حتى صاح: "بيسى، بيسى... أولادى!".

كان الاحمرار ظاهرًا فى عينيّه، والإعياء بادياً على قسّات

وجهه الذى استقر عليه أخدودان بارزان يقطعان خديه بدءاً من عينيه اللتين كانتا تسحان الدموع. بدا محطماً بلا حول ولا قوة.

عانق كل واحد منا بحنان وقوة الرجل. انتابنى فى تلك اللحظة إحساس بالحب لأبى، لعل مصدره الشفقة عليه. ولكن عندما حاول ضمى نحوه تراجع برأسى وساقاى للخلف مثل عنداء يستعد للانطلاق. أضحت عضلاتى مثل خيوط مشدودة. لا بد أنه أحس بمقاومتى لأنه لم يحاول فرض حنانه على بعد ذلك.

كان سعيداً وسكت عن سؤال أمى عن أخى الميت مما رفع قدره فى نظرى. لم يتغير. عندما يكون سعيداً يصبح مضحكاً مثل المسن حين يقع فى الحب. أخرج من جيبه قبعات من الصوف ووضعها على رعوسنا أنا وأختى. كانت القبعات دافئة ولها شرائبات فى أعلاها مثل الطربوش التركى. ولكن عندما رأيناها مثاراً للضحك لم نرتح لها. وحانت لحظة أخرى مأساوية، لحظة ساخرة غلفت بالحزن حياة هذا الرجل الذى هو أبى. لقد أحضر معه أربع قبعات، ولكنه لم يجد الوقت ليخبئ القبعة الرابعة. عندما رأتها أمى جن جنونها. راح ينظر إليها بعينين بائستين مرتعشتين. حاول النفوه باسمها ولكن شفثيه النحيثيين القاسيتين لم تطيعاه، وانحشرت الكلمات فى حنجرته محدثة صوتاً غريباً.

أخذتنا العبارة إلى بولنج جرين. ثم ركبنا القطار. وطوال الطريق إلى بيتنا كان الناس يحذقون فينا وكأننا هبطنا من كوكب آخر.

أردنا أن نخلع قبعاتنا ولكن أبى توسل إلينا بطريقة لا يصح معها عضيانه. عندما نزلنا من القطار مشى أبى أمامنا فى خفة كما كانت عادته فى الماضى. كانت القبعة التى اخبرها للابن الميت تلتصق بأحد جيوبه. جربنا خلفه وكأنا كنا نخاف أن يتركنا. كان الثلج ينسحق تحت أقدامنا ونفايات المعادن تفسد نعال أحذيتنا. طوال الطريق لم تفارق عناى القبعة التى التصقت خارج جيب أبى، ولم يفارق خيالى طيف أخى الميت. مر أمامنا رجل برید. يمتطى دراجته وتتدلى حقيبة الرسائل من كتفيه بينما كنا فى طريق بروك العام. كانت إطارات عجلته تحدث صريراً فى احتكاكها بالثلج الصلب.

دخلنا منزلنا الجديد بتؤدة وحذر وتردد كمن يدخل بيت غرباء. كانت الشقة مظلمة غير نظيفة الهواء، وكان الأثاث قديماً غير مرتب، وأكياس القمامة تملأ أرضية المطبخ. وفى اللحظات القلائل الأولى التزمنا الجدران فى وجل. وما تجاوزنا عتبة الباب حتى بدأ أبى ينتحب دون أن يقدر على كبح دموعه.

وضع القبعة الباقية على المنضدة وأشعل الموقد الغازى الصغير الذى أحدث هسيساً مفاجئاً. بدأ الصقيع يذوب ببطء على زجاج النوافذ. التهمنا الطعام الذى وضعه أمامنا بعيون جاحظة شرهة راغبة. ظننا أن ذلك مجرد حلم وأن الوجبة القادمة لن تجيء. أعطانا أبى، بعد ذلك، ملابس جديدة. طوى البذلة التى كان اشتراها لأخى ووضعها بهدوء داخل الدرج وكأنه كان يتوقع أن يأتى يوماً ويطلب بها.

حل المساء و غمرنا سكون عظيم. لقد بدأ تعبنا يزول شيئاً فشيئاً.
وفيما كنا نهتز فوق مقاعدنا اهتزاز السكارى اجتاحت البيت نوبة من
الحزن، المجنون. نهضنا من فراشنا وأصغنا السمع. كانت أعصابنا
مشدودة وجفوننا ترتعد فوق عيوننا كطيور جريحة.

كانت القبة البيضاء بشرابها الأحمر ترقد فوق الطاولة تبحث
عن صاحب. والسبب ما اتجهت عيون الجميع إليه. وفي ظلام الحجرة
برزت كنجمة وحيدة في ليلة ظلماء. كان الصدا في دماننا ثقيلًا يؤذي
أجسامنا ويزيد حزننا، في تلك اللحظة أيقنا من عودة أخى إلى حياتنا
المحطمة.

هو أيضًا جاء معنا إلى أمريكا.

ربما في حلب ذات يوم... (١٩٤٤)

فلاديمير نابوكوف

عزيزى "ف": ضمن أشياء أخرى أخبرك أننى وصلت هنا أخيراً، إلى البلاد التى طالما خيبت آمال القادمين إليها. أحد الذين رأيتهم بمجرد وصولى كان صاحبنا الطيب جلب ألكزاندر وفيتش جيكو، كان يعبر شارع كولومبس العام عابس الوجه يلتمس مقهى سيكون التى لن يعرج إليها أى منا نحن الثلاثة مرة أخرى. يبدو أنه كان يعتقد أنك خنت أدينا القومى على نحو ما، وأعطانى عنوانك وهو يهز رأسه الأشيب استنكاراً وكأنك لا تستحق أن يسمع منى تسويغاً لموقفك.

لك عندى قصة تذكرنى - أو قل إن سردها على هذا النحو يذكرنى - بأيام كنا نقرض شعر البدايات الأولى. كان شعراً دافئاً كالضرع، مزجها بالكلمات الرنانة. أيامها كان كل شىء: الورد والبركة الصغيرة الآسنة والنافذة المضئنة يهتف بنا ولسان حاله يقول: أنا مادة للشعر. أجل، كانت دنيا رائعة الجمال، وكنا نمارس لعبة الحياة والموت بالشعر. الرنين الحى فى لغتنا الروسية لا يضمن بالمعنى بمنحه

لرقص الأشجار الطائش، أو لجريدة منبوضة دفعتها الرياح فوق جسر طويل تعلو وتتخفض، وترحف وتتوقف، وتلملم نفسها من جديد بخفقات جهيضة وارتجافات مهيضة. ولكنى الآن لست شاعراً. أصبحت أشبه بتلك السيدة جياشة العاطفة التى كانت تتحرق شوقاً لأن تكون مادة للوصف فى إحدى قصص تشيكوف.

تزوجت، إذا لم تخنى الذاكرة، بعد أسبوع من رحيلك من فرنسا وقبل بضعة أسابيع من اجتياح الألمان الكرام باريس. ورغم أننى قادر على إثبات زواجى بالوثائق الرسمية، فأنا على يقين الآن بأن زوجتى لم يعد لها وجود فى حياتى. قد يتاح لك أن تعرف اسمها من مصدر آخر سوى رغم أن اسمها لا يعنى شيئاً الآن إلا كونه اسمًا لوهم؛ ولذا فإننى أستطيع أن أتحدث عنها بقدر كبير من الحيدة والتجرد مثل حديثى عن شخصية فى قصة، فى إحدى قصصك تحديدًا.

كان بالأحرى حبا من أول لمسة أكثر منه حبا من أول نظرة، فقد تقابلنا مرات كثيرة دون أن أحس ناحيتها بأية عواطف خاصة، إلى أن جاء يوم زرتها فى بيتها وقالت شيئاً طريفاً جعلنى أميل ناحيتها ضاحكاً وأعاجلها بقبلة على شعرها.

ولكنى لم أفهم زوجتى. ما زالت لغزاً غامضاً مثل أفضل قصائدى، تلك التى سخرت منها سخرية مرة فى مجلتك الأدبية. عندما أريد أن أتخيلها أجعل ذهنى يتعلق بوحمة كانت على ساعدها البض، كمن يحرق فى علامة ترقيم فى جملة غامضة. ربما لو كانت تستخدم

كمية أكبر من المساحيق على وجهها، أو حتى كانت تستخدمها على نحو دائم لاستطعت الآن أن أتخيل وجهها، أو على الأقل تلك الأخاديد الناعمة المتقاطعة على شفتيها المخضبتين بأحمر الشفاه. ولكنى أخفق، أخفق دائماً رغم أنى ما زلت أحس بلمسها المراوغ فى الحين بعد الحين كإحساس لاعب فى لعبة (الاستغماية) التى تمارسها حواسى فى ذلك الحلم عندما يتشبث كل منا بالآخر على نحو أخرق من خلال ضباب رقيق يجلب الحزن، فلا أستطيع أن أطالع لون عينيها المغرورقتين بالدمع لأن بريقها الأجوف يغمر حذقتيها.

كانت أصغر سناً منى بكثير، ليس بهذا العدد من السنين الذى كان بين ناتالى ذات الأكتاف العارية والأقراط الطويلة، وبين بوشكين الأسمر. بيننا كان هناك هامش لممارسة ذلك النوع من الرومانسية الذى أغراها بالتشبه بعبقريّة فذة حتى دون أن تفهم شعره؛ فى حرصها وحذرهما وفحشهما، حتى رغم الطعنة التى تسفر عن تحول عينيها اللوزيتين إلى صديقتها الأشقر كاسيو من تحت مروحتها المحلاة بريش الطاووس. ورغم ذلك أحببت شعري وكانت نادراً ما تتثاءب لدى سماعه مثلما كانت الأخرى تتثاءب فى كل مرة تتعدى فيها قصيدة زوجها حجم السونيتة^(*). لو كانت مخصصة لى لأخلصت لها. ولكنى أظن أن الذى كان يجذبها تحوى هو ذلك الغموض فى شعري لا غير. ثم راحت تصنع فجوة فى حجابيه فرأت وجهها غريباً كريهاً.

(*) قصيدة كلاسيكية من أربعة عشر سطراً.. (المترجم)

وكما تعرف فإننى كنت أنوى منذ فترة طويلة أن أحذو حذوك
فى رحيلك الميمون. وصفت لى عما لها كان يعيش، كما قالت، فى
نيويورك. كان يعلم الفروسية فى إحدى مدارس الجنوب وانتهى به
الأمر بالزواج من سيدة أمريكية غنية وأنجبا بنتا ولدت صماء.
أخبرتني أنها فقدت عنوانهم منذ فترة طويلة ولكننا عثرنا على العنوان
بعد ذلك بأيام قليلة بما يشبه المعجزة. وكتبنا رسالة مثيرة لم نلق أى
رد عليها حتى هذه اللحظة! لم يقلقنى ذلك كثيراً، فقد تلقيت استمارة
مختومة من البروفسير لومشكو من جامعة شيكاغو. ولكنى لم أستطع
إنجاز الأوراق المطلوبة بعد أن بدأ الغزو حيث توقعت أننا لو بقينا فى
باريس لما عدت، عاجلاً أو آجلاً، واحداً من بنى وطنى المخلصين
يسعى للوشاية بى عند من يهتمهم الأمر، ويدلهم على فقرات عدة فى
أحد كتيبى أقم فيه الدليل على أن ألمانيا فوق كل خطاياها الشائنة سوف
تظل دائماً وإلى الأبد أضحوكة العالم.

وعلى ذلك النحو بدأنا شهر العسل المشئوم، آمالنا محبطة
ونفوسنا منسحقة أثناء رحيلنا الأشبه بسفر الخروج، ننتظر قطارات لا
تعمل وفق مواعيد محددة، ولا تقصد محطات معلومة. نجتاز ميادين
خرية ومدنا ذاهلة، نحيا على الدوام فى نفق الإعياء المظلم. كنا نهرب
وكلما أمعنا فى الهرب لمسافات أطول كان يقينى يزداد بأن ما كان
يدفعنا دفعاً كان أكثر من أن يكون جندياً تافهاً مخدوعاً يسير على نعلين
ثقلين، كان شيئاً يرمز له فى الواقع، شيئاً بشعاً لا يمكن تحسسه، كتلة
ضخمة من الرعب الأزلى الذى لا ينتمى للزمان ولا يشمل التعريف

ما تنفك تدفعنى من الخلف حتى الآن وأنا فى هذه البقعة الخضراء من الحديقة العامة.

والحق أنها تحملت ذلك بشجاعة كافية، أو قل بنوع من الابتهاج الذاهل. ولكنها فجأة بدأت تتشج ونحن فى عربة قطار يرثى لحالتها وقالت: الكلب، الكلب الذى تركناه... لا أستطيع أن أنسى الكلب المسكين. أحسست الصدق فى حزنها. قلت: ولكن لم يحدث أن امتلكننا كلبًا. قالت: أعرف ذلك ولكنى تخيلت أننا اشتريناه بالفعل، كلب الصيد الذى كنا ننوى شراءه، أتخيله الآن خلف الباب المغلق بينى ويعوى. لم يحدث. أيضًا أن تحدثنا عن شراء كلب.

لا ينبغي أن أنسى أيضًا ذلك المشهد البائس على جانب الطريق العام. منظر أسرة من اللاجئين، امرأتان وطفل، وقد مات عنهم الأب، أو الجد فى الطريق. كانت السماء ملبدة بخليط من سحب داكنة وأخرى فى لون البشرة مع إشراقة شمس مفاجئة خلف تلال مغطاة بغيوم كثيفة. كان الرجل المتوفى يرقد على ظهره تحت شجرة سنط يعلوها التراب. حاولت المرأتان، بعصا تارة وببيديهما تارة أخرى، حفر قبر على جانب الطريق، ولكن التربة كانت صلبة جعلتهما تتكصان عما انتويتاه وتجلسان كل على مقربة من الأخرى بين أشجار الخشخاش الواهنة على مبعدة من الجثمان المسجى وقد ارتفعت لحيته فى الفضاء. ولكن الصبى واصل الخدش والتكسير حتى صادف حجرًا صلبًا جعله ينسى الهدف من جهوده العقيمة فقع على عجزه من شدة الإعياء.

كانت رقبة الصبى عارية نحيفة تكشف عن فقرات عموده الفقرى وكأنها مجهزة لسيف جلاد. لبث يراقب فى دهشة، وشيء من بهجة، آلافًا من النمل الأسمر الدقيق يضطرب فى سيره فى خطوط ملتوية، ويتبعثر فى وجهته إلى بقاع أكثر أمانا. وأخيرًا توقفنا أنا وهى عند نهر بو على الحدود الإسبانية.

كان السفر أيامها إلى إسبانيا محفوفًا بالمخاطر، ولذا قررنا الرحيل إلى نيس. وفى مكان ما يقال له فوجيرييه (محطة يتوقف عندها القطار عشر دقائق)، خرجت من القطار شاقا طريقى بصعوبة من بين الحشود البشرية لشراء بعض طعام، وبعد دقيقتين عدت فلم أجد القطار، وفى فظاظة مقببة أخبرنى الرجل الهرم المخبول المسنول عن هذه الورطة الشنيعة، أننى كنت مخطئًا وأنه لم يكن لى الحق فى أن أنزل من القطار. طالعت قشرة برتقال استقرت وحيدة بين قضبان عارية محايدة لا تأبه يلتصع عليها تراب الفحم، وترزح تحت سياط القبط التى لا ترحم.

فى عالم أفضل من هذا كان يمكن أن أجد زوجتى معززة مكرمة فى مكان ما، وأجد من يدلنى إلى ما ينبغى عمله (كانت التكرتان معى وأغلب النقود). باعت بالفشل محاولتى الجنوبية مع التليفون، وقررت أن أضرب صفحا عن سلسلة مزعجة من الأصوات الخفيضة التى تعوى قادمة من المسافات البعيدة كلما رفعت السماعة. أرسلت برقيتين أو ثلاثا أعتقد أنها الآن فى الطريق! وفى آخر النهار

أخذت قطار موندلبيه (القشاش) الذى لن يتوقف قطارها عند أبعد منه. ولما لم أجد لها هناك أصبح أمامى خياران: أن أواصل ناحية الغرب فلعلمها أخذت قطار مرسيليا الذى لم ألحق به، أو أن أعود إلى فوجيريه فقد تكون قررت العودة إلى هناك. لقد نسيت الآن أى اضطراب أصاب عقلى جعلنى أذهب إلى مرسيليا ونيس.

وبالإضافة إلى الإجراءات الروتينية كتقديم معلومات خاطئة عن أماكن لا يتوقع منها العون، فإن البوليس لم يفعل شيئاً لمساعدتى، أحدهم جأر فى أذننى لأنى كنت مصدر إزعاجه، وآخر لم يجبنى عن سؤالى وظل يشكك فى صحة قسيمة زواجى لأنه وجد الختم، حسب زعمه، فى غير المكان المخصص له. وراح ثالث، وكان ضابطاً مسئولاً ذا عينين بنيتين براقتين يعترف لى بأنه كان يقرض الشعر فى أوقات فراغه. بحثت عن معارفى من بين الكثير من الروس الذين يقيمون إقامة دائمة فى نيس، أو ممن يقيمون لأنهم عديموا المال والوسيلة التى تمكنهم من الرحيل. وعندما سمعت اليهود يتحدثون عن أقرباء لهم كانوا يساقون للهلاك فى قطارات الموت اكتسبت حالتى، على العكس، جواً بعيداً عن الواقع لا يناسب المقام بينما كنت جالسا فى مقهى مزدحم وأمامى البحر الأزرق وإلى مسمعى يتتاهى الحديث المعاد وراء المحيط، وأساليب موظفى السفارات وأهوائهم.

وبعد أسبوع من وصولى استدعانى ضابط تحريات بطيء الحركة واصطحبنى خلال شارع ملتو رائحته كريهة إلى مبنى

مصبوغ باللون الأسود عليه لافتة تحمل كلمة "فندق" تكاد تختفى وراء القذارة وفعل الزمن. هناك، قالوا إنهم وجدوا زوجتى. كانت الفتاة التى خرجت على غريبة عنى، ولكن حبيبنا هولمز الضابط ظل فترة يحاول إقناعنا بأننا زوجان بينما كان رفيق فراشها مفتول العضلات يستمع صامتاً وهو يقف صالبا ذراعيه على صدره الغريض.

وعندما انتهيت من أولئك الناس عدت إلى الحى الذى أسكن فيه، وتصادف أن مررت فى طريقى بطابور يتدافع فيه الناس بالمناكب أمام محل للمواد الغذائية. هناك، فى نهايته كانت زوجتى تقف على رءوس أصابعها تحاول إلقاء نظرة على ما كانوا يبيعونه. أتذكر أن أول شيء قالته لى إنها كانت تتمنى أن يكون برتقالا.

بدت لى روايتها عادية مألوفة، ولكنها مكتتفة بالغموض مغرقة فى السذاجة. عادت إلى فوجيريه وذهبت مباشرة إلى المفوضية بدلا من السؤال عنى فى المحطة حيث كنت قد تركت لها رسالة. وعرض عليها بعض اللاجئين أن تتضمن إليهم، وقضت ليلة فى محل لبيع الدراجات كان خاليا من الدراجات، ونامت على الأرض مع ثلاث سيدات أكبر منها سناً. رقتن، كما قالت، على الأرض فى صف مثل ثلاثة ألواح من الخشب. وفى الصباح اكتشفت أنها لم تكن تملك نقودا كافية للوصول إلى نيس. وأخيراً اقترضت من إحدى هؤلاء السيدات وركبت القطار الخطأ وذهبت إلى مدينة لا نتذكر اسمها. وصلت إلى

نيس منذ يومين. وهناك وجدت بعض الأصدقاء في الكنيسة الروسية أخبروها بأننى كنت أبحث عنها وسوف أظهر فى أية لحظة.

وبعد ذلك بوقت قصير، وبينما كنت جالسا على حافة المقعد الوحيد فى حجرتى واضعا يدي على ركبتيها البضتين (كانت تمشط شعرها الناعم وتنفذ برأسها للخلف مع كل جرة مشط)، تحولت ابتسامتها الباهتة فجأة إلى ارتجافة غريبة، ووضعت يدها على كتفى وهى تحقق فى وجهى كما لو أننى تحولت إلى صورة منعكسة على ماء بركة تراها لأول مرة وقالت:

- كنت أكذب عليك يا حبيبى، لقد أقمت فى مونبلييه عدة ليال مع رجل أحقق قابله فى القطار. لم أكن أريد ذلك البتة. كان يبيع مستحضرات تجميل.

الزمان، المكان، العذاب. مروحتها، قفازها، قناعها^(*) قضيت تلك الليلة وليالى أخرى كثيرة أحاول استخراج الحقيقة منها شيئا فشيئا. كنت تحت تأثير وهم غريب بأننى يجب أولا أن أضع يدي على كل صغيرة وكبيرة وأعيد تفسير كل لحظة وكل دقيقة، وساعتها أقرر إذا ما كنت أستطيع تحمل الأمر. ولكن حد المعرفة المطلوب كان بعيد المنال، ولم يكن فى وسعى التنبؤ بالنقطة التى يصح عندها أن أقول إننى اكتفيت.

(*) عبارة وردت فى مسرحية عطيل حين تمكن منه الشك فى سلوك ديبيمونة. (المترجم)

فى البداية كانت من الإرهاق بحيث لم تأبه لشيء. وفى المرة الثانية لم تأبه لشيء لأنها كانت تعرف أنني هجرتها. وبقي الوضع على ذلك النحو إلى ما لا نهاية، تعتل صحتها بين الحين والحين ولكنها لا تلبث أن تتشط من جديد وتجبب عن أسئلتى المخرجة فى همس لاهت، أو تحاول، بابتسامة هزيلة، التخلص منها بالجوء إلى الأمان الجزئى الذى تجده فى التعليقات غير ذات الصلة بالموضوع، وأنا أعض على نواجذى حتى يتفصد الدم من فكى ويصينى ألم فظيع أراه أحب إلى من ألم احتمالها الذليل.

لاحظ أننا فى الفترات التى تتخلل ذلك التحقيق كنا نسعى للحصول، من سلطات لا ترغب فى مساعدة أحد، على أوراق معينة نستطيع بموجبها أن نحصل على أوراق أخرى تمكننا من التقدم للحصول على نوع ثالث من الأوراق ينفعا كوسيلة للحصول على رخصة تسوغ لحاملها التقدم للحصول على الأوراق الأخرى التى قد نتيج أو لا نتيج أن يكتشف كيف ولماذا حدث ما حدث.

ولم نزل كذلك حتى لم يتبق شيء إلا أن يعذب كل منا الآخر، وينتظر بلا توقف أمام مبنى المحافظة، نملاً للاستمارات ونتشاور مع الأصدقاء الذين سبروا أسرار استخراج الفيزات، ونتوسل للمكتريرات ونملاً استمارات جديدة حتى أصبح صديقها الشهوانى متعدد المواهب، البائع المسافر، مرتبطاً فى ذهنى بخليط مروع من الموظفين الذين لا تجد غير شعيرات قليلة نمت فى لحاهم فأصبحت كلحى الفئران، ولا

يملون من نهر الناس وزجرهم، والأكوام العفنة من سجلات كريمة
الرائحة منبعثة من الأحبار البنفسجية، والرشاوى التى تتسلل مغلفة فى
ورق التشيف، وأعداد الذباب الضخمة التى تلسع الأعناق الندية بأرجل
سريعة مبطنة بالبرد، والصور الفوتوغرافية المدموغة حديثا كنيبة
الشكل لنظرائك الستة، والشد والجذب فى الاستجابات القاسية، وتلك
الابتسامة المريعة على وجه الرجل الأصلع ذى النظارات الذى أخبروه
بأنهم لم يجدوا جواز سفره.

أعترف لك بأنى ذات مساء، وبعد يوم طويل شاق، تهالكت على
أريكة حجرية وانخرطت فى بكاء مرير ورحت ألعن ذلك العالم
المزيف الذى يخدع فيه ملايين البشر على أبدى موظفى السفارات قساة
القلوب وضباط الجوازات الذين لا يرحمون، لاحظت أنها أخذت تبكى
أيضا، عندئذ قلت لها إنه لم يكن ليهمنى شىء كما يهمنى الآن لولا
فعلتك التى فعلتها. قالت وقد انتقد حماسها حتى إننى اعتقدت أنها تحس
كسائر الناس:

- لعلك تظننى حمقاء مخبولة، ولكنى لست كذلك، لست كما تظن
أقسم على ذلك. ربما عشت حيوات عدة فى وقت واحد، وربما
أردت أن أختبرك.

لا أريد أن أكون مملا وأسرد لك التفاصيل الثانوية المتصلة
بالمراحل المختلفة التى مررت بها قبل أن أقبل آخر الأمر روليتها
الأولى حول تأخرها. أصبحت لا أتحدث معها وكنت أجلس وحيدا

أغلب الوقت. كانت تظهر ولا تلبث أن تختفى وتظهر مرة أخرى وفي يدها شيء تافه ظنت أنه سيلفت نظري، حفنة من حبات الكرز أو ثلاث سجانر من نوع غالى الثمن وما إلى ذلك. راحت تعاملني بعذوبة هائلة صامئة وكأنها ممرضة تذهب وتجيء أمام مريض فظ يتماثل للشفاء. توقفنا عن زيارة أغلب أصدقائنا بعد أن توقفوا عن الاهتمام بأخبار جواز سفرى وتحولوا إلى غير الود المعهود. ضمنتها ذات يوم إلى صدرى الحزين، وذهبنا لمدة أسبوع إلى كابول؛ رقت هنالك على حصباء الشاطئ التى اتخذت لونا قرنفليا خلابا. والعجب أنه كلما بدت علاقتنا أكثر سعادة كان يقوى عندى الشعور بتيار خفى من الحزن الممض، بيد أنى كنت أعزى نفسى بأن ذلك لم يكن إلا ثمنا أوليا للنعيم المنتظر.

فى ذلك الوقت حدث ما غير مجرى حياتنا. خرجت أخيرا من أحد المكاتب الحكومية المظلمة سيئة التهوية وفى يدى المرتعشة تأشيرتا خروج ناعمتا الملمس نفوح منهما رائحة العالم الجديد. انطلقت إلى مرسيليا وتمكنت من الحصول على تذكرتين على أول سفينة مبحرة. عدت إلى البيت وارتقيت الدرج فى سرعة خاطفة. رأيت وردة وضعت فى كأس فوق المنضدة. كانت الكأس ذات لون قرنفلى جميل فيما راحت فقاعات هواء متطفلة تتعلق بجسمه من الخارج. فستاناها الاحتياطيان اختفيا. مشطها اختفى، سترتها ذات المربعات اختفت، وكذلك طوق شعرها البنفسجى وقبعاتها. لم تترك رسالة ولا ملاحظة تثبتها بدبوس على الوسادة. لم يكن بالحجرة شيء يدلنى على رحيلها

المفاجئ، ولكن الوردة فى الواقع كانت مفتاح الكمان ليس غير كما يقول شعراء الدرجة الثالثة الفرنسيون.

ذهبت إلى أهل فرتكيوف ولم يخبرونى بشيء، أهل هلمان رفضوا التفوه لى بكلمة، وأهل إليجوين ترددوا ولم أخرج منهم بشيء. وأخيرا ذهبت إلى السيدة العجوز، وأنت تعرف من تكون أنا فلاديميروفنا فى اللحظات الحاسمة، طلبت منى أن أحضر لها عكازها الذى غطت أعلاه بقطعة من المطاط. وبمشقة ولكن بنشاط أزاحت جسمها اللحيم من فوق مقعدها المجنح الأثير لديها واصططحبتى إلى الحقيقة. هناك أخبرتنى بأن لديها الحق - لأنها فى ضعف عمرى تقريباً - لأن تتعتتى بالوغد المتعنت.

عليك أن تتخيل المشهد، حديقة مفروشة بحصباء صغيرة، وشجرة سرو وحيدة، وأريكة متداعية كان والد تلك السيدة ينام عليها وعلى ساقيه بطانية. كان يقضى أمسيات قليلة فى نيس بعد أن أحيل للمعاش من منصبه كحاكم نوفوجور. كانت السماء خضراء شاحبة، والهواء محملاً برائحة العشب، والغسق يزداد قتامة فيما راحت صراصير الليل تنتشر أصواتها المرتجفة الرنانة. كانت أنا فلاديميروفنا يجلس وقد تكدت ثنيات وجنتيها المرتجفة عندما قذفت فى وجهى بإهانة أمومية لا أستحقها.

وأثناء الأسابيع المنصرمة يا عزيزى "فى"، كانت زوجتى، التى أضحت سرايا الآن والحمد لله، كلما زارت واحدة من الأسر الثلاث أو

الأربع التى يعرفها كلانا، تملأ الآذان المشغوفة لهؤلاء الناس الطيبين بقصة وهمية. على سبيل المثال أخبرتهم أنها وقعت فى الحب الجنونى مع شاب فرنسى استطاع أن يوفر لها منزلاً ببرج ونسباً تفخر به. وأنها ناشدتنى الطلاق ولكنى رفضت، وأننى قلت لها إننى أفضل أن أطلق الرصاص عليها وعلى نفسى على أن أبحر إلى نيويورك وحدى. وقالت إن أباهما تصرف فى حالة كهذه تصرف الرجل النبيل فلماذا لا أفعل مثله؟، وأننى أحببتها بأننى لا أهتم بما فعله "أبوها الديوث" (قالتها بالفرنسية).

لم أذكر لك ذلك الكم الهائل من التفاصيل المتصل بهذه الروايات المناقبة للطبيعة والعقل السليم، بيد أنها تدخل جميعاً تحت هذا النمط اللافت، حتى إن العجوز جعلتني أقسم أمامها ألا أسعى لمطاردة العاشقين بمسدس مردود الزناد للوراء استعداداً للرمى. لقد ذهباً، قالت، إلى بيت ريفى فى لوزير. سألتها: هل كانت تعرف الرجل من قبل؟ قالت: لا، ولكنها رأت صورة فوتوغرافية له. وعندما هممت بالانصراف مدت لى فلاديمير وفناء، التى هدأت أعصابها قليلاً، أصابع يدها الخمسة الممتلئة لأقبلها، وفجأة استشاطت غضباً من جديد وضربت الحصى بعكازها وقالت فى صوت عميق قوى: ولكن شيئاً واحداً لن أسامحك فيه: كلبها، ذلك الحيوان المسكين الذى خنفته بيديك قبل رحيلكما إلى باريس.

وسواء تحول السيد المبجل إلى بائع مستحضرات تجميل مسافر،

أو أن المسخ جاء بالعكس، أو حتى لم يكن هذا ولا ذاك وكان هو الروسي الفظيع الذى كان يغازلها قبل زواجنا، كل ذلك لم يكن ذا أهمية جوهرية. فلقد رحلت، وتلك هى نهاية القصة. لقد كنت غيبا حين بدأت مسألة البحث الجنونية عنها وانتظارها.

فى الصباح الرابع من رحلتى البحرية الموحشة قابلت على متن السفينة طبيبا شيخا وقورا ولكنه مرح، كنت قد لعبت معه الشطرنج فى باريس. سألتى ما إذا كانت زوجتى لا تترتاح للبحار العاصفة، وأجبتني بأننى وحدى، عندئذ رمانى بنظرة وجلة وكأنما فوجئ، ثم قال إنه رآها قبل يومين من السفر، أى فى مرسيليا، تسير على ما يبدو دون هدف عبر الجسر وقالت إننى سوف ألحق بها بالحقيبة والتذاكر.

هذه، كما أتصور، خلاصة القصة، ولو كنت أنت الذى كتبتها لما رأيت أن يكون طبيبا، لأن هذا النوع من البشر يكون دائما منكه القوى كثير التعب. لقد عرفت من حكاية الطبيب أن زوجتى ذهبت إلى غير رجعة. دعنى أخبرك بشئ آخر. عندما وصلت إلى نيويورك كنت أريد إشباع حب استطلاع عندى بأى ثمن، فتشت عن العنوان الذى أعطته لى ذات مرة وتبين أنه لم يكن إلا أرضا فضاء مجهولة المالك بين عمارتين، بحثت عن اسم عمها فى الدليل ولم أجد له أثرا. قمت ببعض التحريات فأخبرنى جيكو الذى يعرف كل شئ أن الرجل وزوجته المفتونة بالخيال كانا يقيمان هناك بالفعل، ولكنهما انتقلا إلى سان فرانسيسكو بعد أن ماتت ابنتهما الصماء.

أحس الآن وأنا أكتب هذه السطور بأن قصتنا الغرامية المهرنة تهوى في واد سحيق من ضباب ثقيل بين صخور عاتية لجبلين حقيقيين. كانت الحياة قبلها صادقة نقية، وستكون الحياة بعدها صادقة نقية كما أمل، وربما ليس في الغد القريب، ولكنى أثق فيما بعد الغد. وأنت أيها الهرم الفانى، كيف حال الدنيا معك؟ وكيف حال الأسرة الكريمة، كيف حال إنيه والنوأم؟ وماذا فعلت مع الجدرى؟ لا أظنك محاولاً فهم حكايتى تأسيساً على ما يجرى بين بنى البشر. وأغلب الظن أن بيانك الساحر سيضىء الطريق.

ولكن هون عليك وتبا لفك وسحر بيانك، فأنا شقى شقاء لا يحيط به وصف. إنها ما فتئت تزوح وتجىء أمام شباك سمراء منشورة لاستقبال الشمس على شرائح من صخور متقدة، وضوء الماء الأرقش يرقص فى دعة على قارب صيد مشدود إلى الشاطئ. فى مكان ما وعلى نحو ما اقتربت خطأ قاتلاً. ثمة قطع صغيرة مجندلة شاحبة من حراشف السمك تتلألأ هنا وهناك فى الشباك السمراء. ربما ينتهى بها المطاف فى حلب إذا لم يخب ظنى. سامحنى يا سيد "قى"، فلسوف تحمل نفسك ما لا تطيق إذا عدت ذلك عنواناً لقصتى.

الشجرة الثانية على الناصية (١٩٤٨)

إيه. بي. وايت

سأله الطبيب:

- ألم يحدث أن طافت أفكار شاذة برأسك؟

أخفق السيد تريكلر في فهم السؤال وقال:

- أفكار؟ من أى نوع؟

- أفكار غريبة؟

كرر الطبيب سؤاله وراح يراقب مريضه لعله يلاحظ أى تغيير فى تعبيرات وجهه، أى إجفال. بدا لتريكلر أن الطبيب لم يكن يراقبه عن قرب فحسب، وإنما كان يزحف ناحيته ببطء مثل سحلية تزحف ناحية بقعة. دفع تريكلر مقعده مقدار بوصة إلى الوراء وبدأ يستجمع قواه للرد على الطبيب. كاد يهم بالإجابة بنعم لولا أنه تذكر أنه إذا أجابه بنعم فلن يستطيع الإجابة عن السؤال الذى يليه. أفكار شاذة؟

أفكار شاذة؟ هل حدث أن طافت برأسه أفكار شاذة؟ وأية أفكار طافت برأسه غير الأفكار الشاذة منذ أن كان في الثانية؟.

أحس تريكلر بالوقت يمر. الحاجة ماسة لإجابة. هؤلاء الأطباء النفسيون ليس لديهم وقت وأعباؤهم فوق الطاقة، لا ينبغي أن نتركهم ينتظرون. المريض الآخر قد يكون جاثماً الآن في غرفة الانتظار، يتقلب على الكنبه وحيداً قلقاً. قال تريكلر في نفسه: يا له من مسكين ضائع! يجلس وحيداً في تلك الغرفة الكنيية ويحرق في خزانة الملفات ويسأل نفسه: هل يخبر الطبيب بما حدث في ذلك اليوم في «أوتوبيس» شارع ماديسون؟.

دعنا نرى! أفكار شاذة! راح تريكلر يتقلب جيئة وذهاباً عبر دهلز السنين المظلم، لعله يجد شيئاً. أحس بعيني الطبيب لم تبرحه، وأدرك أن الوقت كان يمر سريعاً. دعك من التفاصيل الدقيقة، قال في نفسه، فإذا كان يقصد أفكاراً شاذة فيكفي أن تمد يدك في الجراب وتخرج أي شيء وكفى. رجل مثلك لديه مخزون لا ينضب من الأفكار الشاذة لا يعجز عن إخراج إحداها ليؤدي الطبيب عمله. أبحر تريكلر في الجراب وتردد أمام واحدة من أفكاره. لا، ليست هذه، همس لنفسه. غاص ثانية في الحقيبة يلتمس فكرة أخرى. طافت بذهنه فكرة قرد الريف^(*). توقف وتأملها. "لا، ولا هذه"، قال في نفسه.

(*) قرد هندي صغير قصير الذيل يستخدم في الأبحاث الطبية. (المترجم)

أدرك تريكسلر أنه يجب أن يسرع. لقد استغرق أربعة ثوانٍ بالتمام والكمال منذ أن سمع السؤال. بيد أن الموقف كان عسيراً وبغيضاً. أين الجراب؟ سأل نفسه وأبحر من جديد. توقف هذه المرة في مصحة للأمراض العقلية. كانت خصائص النوافذ مخددة ومغطاة بمادة صمغية سهلة الضم. قال في نفسه: لا، ليس هنا، ليست هذه أيضاً.

ألقي نظرة فاحصة على الطبيب وقال في سكونية:

- لا، لم يحدث أن طافت بذهني أفكار شاذة.

راح الطبيب يمص غليونه مطلقاً ذبلاً من الدخان ناحية صفوف الكتب الطبية.

تابع تريكسلر الدخان بعينين محذقتين. استطاع فهم أحد العناوين: "الجهاز البوليتاسلي". اجتاحت موجة من الخوف وجفل لتذكر آلامه الأولى عندما عانى من حصوة في كليته. تذكر عندما كان طفلاً ودخل عيادة طبيب أول مرة في حياته. اختلس نظرة إلى عناوين الكتب فغلبه الخوف وابتل قميصه تحت إبطه. كان الكتاب عن مرض السل. تذكر المعرفة المفاجئة بأنه يمر بمراحله الأخيرة، والرؤية السريعة للنزيف. تنهد تريكسلر في إعياء شديد وقال في نفسه: "أربعون عاماً مضت ولا زلت أرزح تحت وطأة عنوان لكتاب طبي!". أربعون عاماً مضت وأنا عاجز عن الاستقرار على حصان الحياة الحرون!. لا عجب إذن أن أجلس هنا، في هذا المكان الكئيب في نهاية

أصيل مثقل بالهموم، أدارى أفكارى الشاذة عن هذا الطبيب الذى يبدو عليه التعب.

الجلسة تقترب من الانتهاء. بعد عشرين دقيقة نهض الطبيب ونفض غليونه. استيقظ تريكسلر ونفض الرماد من عقله وانتظر. لاحت من قم الطبيب ابتسامة حانية وأشار بيده إشارة مفاجئة وقال:

- لا يوجد عندك ما تشكو منه، أنت خائف وحسب. هل تريد أن تعرف كيف عرفت أنك خائف؟

- كيف؟ سأل تريكسلر.

- انظر إلى المقعد الذى جلست عليه! انظر كيف زحف للوراء بعيدًا عن مكتبى. لقد كنت ترجع للوراء بعيدًا عن المكتب كلما طرحت سؤالًا عليك. هذا يعنى أنك خائف.

قال تريكسلر وهو يتظاهر بابتسامة عريضة:

- هل هذا ما يعنيه حقًا؟

ثم أردف فى صوت خفيض:

- نعم.. أظن الأمر كما تقول.

و بعد أن تصافحا استدار تريكسلر وخرج غير واثق مما انتهى إليه الطبيب. اجتاز الممر إلى حجرة الانتظار وممر أمام المريض المنتظر، رجل ذو بشرة حمراء يعلق شارة على سترته ويجلس على

الكنبة يحرك قبعته بكلا يديه فى عصبية، ويحقق أمامه مباشرة فى الملفات. قال تريكلر فى نفسه: يا له من رجل خائف مسكين، لعله قرأ فى التايمز أن واحداً من الأمريكيين الذكور من كل اثنين سيموتون بمرض القلب فى تمام الثانية عشرة يوم الخميس. تنشر الجريدة ذلك عمداً كل صباح تقريباً. أو لعله يتذكر الآن ذلك اليوم فى «أوتوبيس» شارع ماديسون.

بعد أسبوع كان تريكلر على مقعد الطبيب مرة أخرى. ظل مواظباً على زيارة الطبيب بعد ذلك طوال أسابيع عدة. كان يذهب دائماً وقت الأصيل عندما يحس بالأبرة تعلق كثيفة على بركة عقله موقعة كآبة على فترة السبعينيات كلها. لم يشعر بتحسن مع مرور الوقت، وأدرك أن العمل أصبح مستحيلاً. اكتشف أن الزيارات فى سبيلها إلى روتينية مقيته لا يحبها، بيد أنه قبلها فى تنازل غير مكثر كما فعل ذات مرة منذ سنوات عندما قضى فترة عند طبيب أسنان راح يتسلى بزواج من أسنان تالفة عنده. فضلاً عن ذلك فإن الزيارات كانت قد اتخذت الآن طابعاً مألوفاً لديه.

فى كل مرة كان يقوم بسرد مجمل الأعراض - الدوخة وهو فى الشارع، الألم المصحوب بتقلصات خلف الرقبة، المخاوف من شر مرتقب، شد وتقلص فى فروة الرأس، العجز عن التركيز، نوبات القنوط والكآبة والإحساس بالضغط والتوتر، والغضب بسبب العجز عن العمل، وضيق الصدر بسبب عمل لم يتم، والغازات فى المعدة. أكثر

الأعراض العصبية كأبة ومدعاة للملل، قال تريكسلر في نفسه وهو يسترجعها في ذاكرته استعدادا لملاقاة الطبيب. وبعد أن كان الطبيب ينصت لرواية تريكسلر كان يطلق سؤاله المعهود: ألم تصادف في حياتك شيئا يمنحك الراحة؟. وكان تريكسلر يجيبه: "نعم... الشراب". وكان الطبيب يومئ برأسه إيماء العارف.

وإذ كان قد ألف هذا الأسلوب وجد تريكسلر نفسه يميل إلى تقمص شخصية الطبيب وقال في نفسه: لأجلس على مقعد الطبيب، ولتكن هذه حيلة من حيل الهروب. على كل حال لم تكن هذه أول مرة يتقمص فيها تريكسلر شخصيات الآخرين. فعندما كان يستقل سيارة أجرة لا يلبث أن يصبح السائق نفسه. يرى كل شيء من موقع السائق، يشير بيده اليمنى علامة على الوصول ويرفع الراية وينكسها برفق. كان يرى كل شيء: حركة المرور من خلال عيون أنثوني روكو أو أيزودورو فريدمان أو ماثيو سكوت. في مكان الحلاق كان تريكسلر يضع نفسه مكان الحلاق. كانت يده تلتف حول المشط، ويده الأخرى على سائل فروة الرأس. لم يكن غريبا إن أن يحتل تريكسلر مقعد الطبيب بهذه السرعة، يطرح الأسئلة وينتظر الإجابات. لقد جعله هذا يهتم بالطبيب أيما اهتمام. أحبه ولم يجد فيه ما يكره الصفو.

في الزيارة الخامسة، منتصف الرحلة، استدار الطبيب ناحية تريكسلر وقال له:

- ماذا تريد؟ وظل يضغط على كلمة تريد.

أجاب تريكلر فى قلق:

- سوف أعرف، أعقد ألا أحد يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال
غيرى.

قال الطبيب:

- بالعكس، إنهم يجيبون عن مثل هذه الأسئلة.

سأله تريكلر مستجمعا قواه:

- هل تعرف أنت ماذا تريد؟

فى تلك اللحظة أحس تريكلر أن مقعد الطبيب تراجع قليلاً
للخلف بعيداً عنه. أجهض تريكلر ابتسامة خفيفة وقال فى نفسه إن
الطبيب أصبح كالأرنب المذعور. انظر إليه وهو يتراجع بسرعة.
واصل تريكلر مستفيداً من الموقف أقصى ما يستطيع:

- ماذا تريد؟

انزلق الطبيب بوصة أخرى للوراء بعيداً عن مستجوبه وقال:

- أريد جناحاً فى المنزل الصغير الذى أملكه فى ويستبورت. أريد
مالاً أوفر ووقتاً أكثر لعلّى أفعل الأشياء التى أريد أن أفعلها.

هم تريكلر أن يسأله: وما هذه الأشياء التى تريد أن تفعلها
بادكتور؟، ولكنه توقف وقال فى نفسه: الأفضل ألا أفقد السيطرة على
الكرة. فضلاً عن ذلك ماذا يجرى داخل هذه العيادة، أدفع خمسة عشر

دولارا من أجل هذه الجلسات ثم أقوم بالعمل بنفسى، أطرح الأسئلة وأزن الإجابات ثم يريد جناحا فى بيته!. لك عندى قطعة من الششاش الأبيض ادخرتها لك! جناح جديد!!.

عاد تريكسلر من جديد واستعاد موقعه على مقعد المريض بقية وقت الزيارة. انتهت الزيارة بملاحظة مشجعة أبدأها الطبيب. أكد له أن مخاوفه لا أساس لها من الواقع. صافح كل منهما الآخر وعلى وجهه ابتسامة. خرج تريكسلر مصابا بدوار واجتاز حجرة الانتظار الخالية وشيعة الطبيب إلى الباب. كان الوقت متأخرا. أغلقت السكرتيرة العيادة وذهبت. قصد شارع ماديسون فى الغرب. فكر فى الطبيب الذى تركه وحيدا هناك بعد ساعات، فى تلك الحفرة الكئيبة. رجل يعمل أكثر من سكرتيرته، مسكين، خائف وضائع ومتقل بالهموم، ثم بعد ذلك يريد جناحا!. قال تريكسلر فى نفسه.

كان المساء صحوا. بدا الميدان من البعد يزدان بألوان خضراء جذابة. كان ضوء النهار الأخير يسبغ لونا فاتحا على الجدران المبنية من الطوب أو الحجر الأسمر، يمنح الشارع سناء مضيئا مسكرا.

فكر تريكسلر فيما يريد. تذكر سؤال الطبيب. كان يعرف ماذا يريد، ماذا يريد الناس جميعا. كان سعيدا على نحو ما. هو شىء لا يعرف كنهه ولا كيف السبيل إليه. أرضاه أن يتذكر أنه كان شيئا خفيا طويل الأمد، لا ينتظمه شكل، عصى على التحقيق، يدفع بالرجال إلى مرض محقق، وأنه إذا تسكع المرء فى الشارع الثالث واختلس

نظرة على مداخل البيوت وإلى الصالونات خافتة الأضواء، فقد يميز من بين الطبقات الضالة أولئك الذين لم يبتلوا بالنسيان، يحدقون فى قيعان الكئوس على رجاء اختطاف نظرة أخرى قصيرة إليه. وجد تريكلر نفسه يستعيد عافيته عندما تذكر أن ما كان يريده عظيم وبالغ الصغر فى الوقت ذاته. وأنه رغم كونه مقتبسا من طبيعة الأعمال العظيمة والحب الفتى والأغاني القديمة والخصوصيات الأولى، لم يكن يمت بصلة لأى من هذه الأشياء، وأنه لم يكن فى يوم من الأيام بالمحدد المعالم، وأن من سعى لتحديده أو تعريفه فى سرية حجرة الطبيب سينقلب خاسرا حتماً.

أحس تريكلر بقوة تسرى فى بدنه. فجأة أصبح مرضه صحة وضعفه ثباتاً. ثمة شجرة صغيرة تقوم هناك بينه وبين الضوء مشبعة بالمساء، أوراقها مذهبة، أطرافها ثملة بالبهاء والرقّة. سجل عمود تريكلر الفقرى رجفة خفيفة كأنه يتجاوب مع هذا الاضطراب الطبيعى فى المشهد الفاتن. "أتوق للشجرة الثانية على الناصية قائمة كما هى". هدف قائلاً وهو يجيب على سؤال خيالى من طبيب خيالى. أحس بمسحة بطيئة من خيلاء مردها أن ما كان يتغياها لم يكن فى طاقة أحد، وأن ما يملكه ليس فى وسع أحد أن يسلبه إياه. أحس بالرضا لكونه مريضاً فى مأمن من الخجل لأنه خائف. رأى فى غمرة الخوف ريش طائر الشجاعة يخطف الأبصار.

فكر ثانية فى الطبيب الذى تركه هناك وحيداً وقد غلبه الإعياء،

مذعورا كالأرنب المطارد. قال تريكسلر في نفسه: مسكين هذا الرجل وضائع. وطفق يندن بأغنية "هددة القمر". تجاوبت حواسه على الفور مع صوت ميرمان القوى المثير. عبر شارع ماديسون واستقل حافلة إلى وسط البلد. وما زال ينزل من حافلة ليركب أخرى حتى وصل إلى شارع ٥٢ قبل أن تقتحمه فكرة سماها "شادة الفعل".

أبناء الفلاح (١٩٤٩)

إليزابيث بيشوب

ذات يوم فى مزرعة كبيرة على بعد عشرة أميال من أقرب مدينة لها، كان يعيش فلاح مع زوجته وبناته الثلاث وولدين من زوجة سابقة، أحدهما فى الحادية عشرة والآخر فى الثانية عشرة. كانت الزوجة الأولى ابنة قس بروتستانتى، سيدة بسيطة وواضحة سمت ابنها كاتو وإمرسون. ولكن زوجة أبيهما كانت سيدة رومانسية وكريمة غاية الكرم مع بناتها على الأقل، سمت بناتها لياليولا وروزيتا وجراسى بل. كانت المزرعة مليئة بالحيوانات المختلفة التى توجد عادة فى المزارع، الخيول والأبقار والدواجن، ورجل يعمل عندهم بأجر يدعى جود.

كانت المزرعة فى الأصل ملكاً لجد الأبناء. ورغم أن بعض أجزائها كان يباع بين الحين والحين فلم تزل كبيرة جداً، أكبر من اللازم فى الواقع. يقع بيت المزرعة الأصلي على مسافة ميل من البيت الجديد على الطريق القديم. أتى عليه حريق بسبب البرق منذ عشر سنوات، فانتقل جد وجدة كاتو وإمرسون اللذان كانا يعيشان فيه مع

ابنهما وزوجته الأولى إلى البيت الجديد مدة العام أو العامين اللذين عاشاهما بعد الحريق. كان البيت القديم طويلاً ومنخفضاً تظلل جانباً منه صفصافة ضخمة نجت من الحريق بمعجزة، ولم تنزل تكبر. كان المنزل يقع على الطريق الجديد المرصوف بالحصى. كان منزلاً عالياً أشبه بالصندوق، مطاليا باللون الأصفر، ومغطى بسقف من النحاس اللامع.

وفي البيت القديم، بجوار شجرة الصفصاف، كان يقع مخزن للحبوب كان قد نجا أيضاً من النار، ولم يزل يستخدم في تخزين التبن، ويستغل في حفظ معظم أدوات المزرعة التي كانت غالية الثمن، تكلف دائماً أكثر مما في طاقة الفلاح. ولأن المخزن كان بعيداً عن البيت وكان من السهل اقتحامه وسرقته، كان الرجل الذي يخدمهم ينام هناك كل ليلة في كومة من التبن.

عرفنا هذه الحقائق من الجرائد بعد ذلك. وعرفنا أيضاً أنه منذ أن أصبح جود هو الأجير لدى هذه الأسرة منذ ثلاثة أشهر، كان يذهب هو وأبو الولدين إلى المدينة في رحلات ليلية للتجارة أو لبيع قطعة جديدة من الأرض أو نحو ذلك، أو حتى لاحتساء الجعة. وفي غيابهما كان إيمرسون وكاتو يحلان محل جود في المخزن القديم. يحرسان الحصاد وناشرة التبن والمتبنة وناشرة السماد والمسحاة... إلخ. آلات غريبة غالية الثمن ذات فكوك وأسنان وأنزع ومخالب، وذات فعل مباشر وغير مباشر وحركات غريبة غاية في الذكاء. كانت ساكنة بلا حراك إذ لم تكن تعمل إلا حين تجرّها الخيول.

وفى يوم من أيام ديسمبر كان الجو فيها بارداً إلى حد مخيف، والقمر بدرًا فى كبد السماء وقد انعكس ضوءه على سطح البيت النحاسى والمساحات الصغيرة المفروشة بالحصباء من الطريق العام، بينما كان فناء المزرعة مغلقا بعيدًا عن النور.

دفعت الأم بالأطفال جميعًا خارج البيت فى نوبة من غضب لأنهم كانوا مصدرًا لضيقها بينما هى مشغولة فى إعداد العشاء. كانوا يرتدون سترات الجوخ الماكيناوية^(*)، تخرج منها أذرعهم الباردة ويلعبون على رمت السفينة وحطامها. وكانت هناك كومة من الخشب فى ركن من الفناء كان الأب ينوى منذ فترة طويلة أن يصلح بها مرحاضًا خارجيًا أو شيئًا آخر. جلست لياليولا وروزينا على الألواح فى طمانينة وبلاهة بعيدتين عن الخطر، بينما حمل كاتو العمود الذى يشد إليه حبل الغسيل وصنع منه صاريرًا يوجه منه دفعة السفينة. فى الوقت نفسه كانت الطفلة جراسى بل تقف فى قلب السفينة الغارقة التى تستخدم كفن للججاج فى الركن الآخر من الفناء، تمد ذراعيها وتتظر فى خوف وتهم بالبكاء. راح إيمرسون يسبح لكى ينقذها! مشى ببطء، وهو يضع عقب قدم على أخمص الأخرى فى كل خطوة، ويؤرجح ذراعيه فى حركات دائرية مثل الطاحونة الهوائية، وطفق يصيح بصوت لاهث:

(*) ضرب من نسج الصوف الماكيناوى تصنع منه البطانيات الماكيناوية التى كانت توزعها الحكومة الأمريكية على الهنود الحمر. (المترجم)

- تحلى بالشجاعة يا جراسى بل! أنا قادم فى الحال! تكساد قواى
تخور ولكن سأنقذك!.

كان كاتو يهتف فى الوقت نفسه: "السفينة تغرق! السفينة تغرق
الآن!". وتردد صدى أصواتهما الصغيرة فضية الرنين عبر الريف
البارد. فى ذلك الوقت بدأ القمر يستقبل الحقول وهو يشير بأصابعه
النورانية فى هدوء إلى المأساة البحرية الخيالية التى تقع بعيداً عن
الماء. رفع إمرسون جراسى بل بين ذراعيه وتشبثت هى برقبتة بقوة
وانفجرت بالبكاء. بيد أنه استدار للخلف يريد أن يجتاز المياه بخطوات
قصيرة تعلقو وتتخفض فى حذر. وصرخت جراسى بل وطفق هو
يردد: "سوف أنقذك يا جراسى بل". ولكنه لم يغير من سرعة خطواته.

فتحت الأم الباب الخلفى فجأة وصاحت بهما: إمرسون! أنزل
هذه البنات! ألم أقل لك إنك إن جعلت هذه البنات تبكى مرة أخرى
سأضربك فلا تقدر حتى على الصباح؟ ألم أقل لك؟.

- أوه يا أمى لقد كنا نمزح فقط.

- ماذا جرى لكم يا أولاد؟ نتقاتلون وتتشاجرون، نتقاتلون
وتتشاجرون، ثم تصيحون وتصبحون من الصباح حتى الليل؟
وأنتما أيها الولدان، أنتما كبيران على هذه الأفعال.

وتتدفق من فمها الكلمات المزعجة على هذا النحو فى حين كان
الولدان يقفان فى الغناء كمنثلى المسرح. ولكن كما قال الأب ذات يوم:

"تبأحها أسوأ من عضها". فقد سكنت خلال دقائق قليلة، ثم قالت بصوت خفيض بعد أن تنبّهت للقمر ينشر ضوءه الجميل: "حسنا يا أولاد، لماذا تقفون هناك؟ ادخلوا البيت، فالعشاء جاهز".

وجدوا المطبخ دافئاً تفوح منه رائحة البطاطس المقليّة وينتشر فيه الضوء الأصفر لمصباح الزيت القائم على المائدة يمنح الجميع إحساساً بالسكينة. جلس الصبيان على طرف من المائدة، وجلست البنّتان الكبريان على الطرف الآخر، أما جراسى بل فقد جلست فى حجر أمها فى نهاية المائدة. كان الأب، وجود العامل قد ذهباً إلى المدينة، وكان ذلك سبباً فى سوء مزاج الأم على غير العادة طوال المساء. أكلوا فى صمت فيما عدا الأصوات الخفيفة التى كانت تصدر من تربيّات الأم على جراسى بل وملاطفتها لها حين كانت تعينها على شرب الشاي والحليب المحلى بالسكر من كأس أبيض. التهموا البطاطس المقليّة المختلطة بشرائح لحم الخنزير، وشريحة بعد شريحة من خبز السوق، وأطباقاً من الفاكهة المعلبة، وشربوا الشاي باللبن الساخن المحلى بالسكر. كان المفروش الزيتى الذى تغطى به المائدة فى لون المولاس الخفيف الذى انتشرت عليه نتف صغيرة من نبات الخشخاش الأصفر، تتلألاً مشيعة بهجة فى النفوس. توهجت علب الفاكهة المعلبة بنقط ذات لون أحمر غامق يحيط بها لون ياقوتى شفاف. قال كاتو فى سره: "الليلة ليلة كسر الخبز. وتمكن من وقت لآخر من دس أربع شرائح من الخبز تحت مفروش المائدة الزيتى، ومن ثم تحت سترته. بدت أفكاره مسرفة ومنذرة بسوء، راح ينظر بحذر

إلى أخواته ليتأكد من أنهن لم يلحظن شيئاً. ولكن وجوههن الشاحبة كانت تنظر إليه بعيون خالية من التعبير. مهما يحدث فالليلة ليلة كسر الخبز، وماذا كان سيفعل أيضاً؟

فى المرتين اللتين ذهب فيهما هو وإمرسون إلى المخزن القديم ليلاً، استخدم قصاصات صغيرة من جريدة ممزقة، لأنه لم يجد الحصوات البيضاء فى كل مكان بحث فيه. سار هو وأخوه إلى البيت، يعبث الكرى بأجفانهما، خلال ضوء الغسق الأزرق الضارب إلى الرمادى. كان سعيداً عندما وجد ذرات الورق المرقط مبعثرة هنا وهناك على الطريق. أسقطها من جيبه شيئاً فشيئاً، ولم يكن يجرؤ على النظر خلفه إلا فيما ندر، وقد آتت ثمارها. ولكنه تأق لكمال الحكاية، الحصوات كانت ستلمع مثل قطع العملة الفضية. لم يكن إمرسون يعلم شيئاً عن خطته أو بالأحرى عن ترتيباته، ولكنها آتت ثمارها دون مساعدته بالرغم من كل شيء.

وضعت الأم جراسى بل على الأرض وبدأت تنقل الأطباق من المائدة إلى حوض الغسيل. وقالت متهمكة: "أعتقد يا أولاد أنكما نسيتما الذهاب إلى المخزن الليلة". وأبدى إمرسون احتجاجاً خفيفاً.

- الآن ارتدوا ملابسكم واستعدوا قبل أن يفوت الوقت. أحياناً أبوكما يذهب ويغلق الأبواب. أو يذهب إلى المخزن الجديد. اذهبا الآن.

ورفعت غلاية الشاى من فوق الموقد. ولم يجد كاتو قفازيه. ظن

أنهما على الرف فى الركن مع حقائب المدرسة. بحث عنهما فى هدوء فى كل مكان، وفى النهاية تنبه لابتسامة ليولا الخبيثة.

- أمى! ليولاليا أخذت قفازاى! أخفتها عنى!.

اقتربت منها الأم وقالت: ليولا، هل أخذت قفازيه فعلاً؟

- أريد قفازاى.

قالت ليولا:

- لم تقع عيناى عليهما. وهمت بالبكاء. قالت الأم:

- الآن يا كاتو أرأيت ماذا فعلت؟ ! بالله اسكتى الآن يا ليولا!! وأنتم

يا أولاد، أسرعوا واخرجوا من هنا. لدى الكثير اليوم.

وعندما اقترب من الباب قال إمرسون:

- الجو بارد جدا يا أمى.

- حسناً، جود لديه بطاطين هناك، اذهبا. اذهبا وأغلقا هذا الباب

الذى يدخل منه البرد.

فى الخارج كان القمر يطارد فلول الظلام. بدت الطريق المفروشة بالحصباء رمادية اللون، تحدث رنينا تحت أقدامهما التى فقدت الحس بسبب البرد القارس. التصق البرد بالشعيرات الدقيقة داخل أنفيهما فأحس كلاهما بها محشوة بأعواد التبن البارد. وعندما حاولا جلب الدفء لأنفيهما بدسهما فى ثياب سترتيهما الماكيناوية، أحسا

بلسع الرطوبة المتجمدة فتخليا عن المحاولة. أصبح القمر وراءهما. تطلع كاتو إلى السقف النحاسي لبيت المزرعة فرأى كيف كان يلمع بلون ضارب إلى الزرقة، وكيف كانت النجوم فوقه تبدو زرقاء أو صفراء متناهية في الصغر لا تكاد ترى.

أنشأ إمرسون يتحدث في هدوء، ويسهب في الحديث عن فكرته، كيف يستطيع الحصول على دراجة رآها منذ فترة في نافذة عرض في متجر للأدوات المعدنية. تحدث كثيرا ولكن كاتو لم يكن يعيره اهتماما يذكر؛ لأنه أولا كان يعرف تماما كل ما يقوله وسيقوله إمرسون عن الدراجة، وثانيا لأنه كان مشغولا في تقطيع شرائح الخبز الأربع التي أخفاها في جيبى بنطلونه، شريحتين في كل جيب. حول الشرائح إلى لقيمات صغيرة بدلا من الكسرات الأكبر، حين وجد صعوبة فسي تحويلها إلى نتف صغيرة بأظافره، وطفق يسقطها في الطريق من وقت إلى آخر من تحت حاشية معطفه الماكيناوى.

لم يفرق إمرسون بين الطرق الشريفة للحصول على الدراجة والطرق الخبيثة. كان يفكر أحيانا في أكثر من حيلة لخداع صاحب متجر الأدوات المعدنية لكي يرسلها إليه عن طريق الخطأ مثلا، أو يتخيلها جائزة له على عمل بطولى. كان يفكر أيضا في قص الزجاج بمقص زجاج رأى أباه يستخدمه، آلة ساحرة لو توفرت لديه لاستطاع أن يحدث فجوة في اللوح الزجاجي لنافذة العرض في جناح الظلام. تحدث أيضا عن العمل بالأجرة في الصيف القادم. فكر في العمل لدى

الفلاح الذى يمتلك المزرعة المجاورة. كان يرى أنه يقوم بأعمال هائلة فى الحصاد وحلب الماشية. قال كاتو بنبرة العارف:

- ولكن العجوز بلاكادور لا يدفع إلا للكبار ويدفع لهم أربعة دولارات فى الأسبوع. ولن يدفع لك هذا المبلغ الكبير.
- حسناً...

شتم إمرسون وبصق على جانب الطريق، وواصل سيرهما بينما كان القمر فى طريقه إلى كبد السماء.

عبر أسلاك التليفون فوق رأسيهما سرت مهمة ظنا أنها كانت بسبب حديث الناس عبر الأسلاك. كانت الموصلات الزجاجية التى حملت الأصوات تلمع بلون أخضر باهت، وقد تحولت الأعمدة إلى اللون الفضى بسبب ضوء القمر، ومن كل منها كان يصدر هدير غريب، أكثر عمقا من طنطنة الأسلاك، أشبه بطنين أسراب النحل. وضعا آذانهما قريبا من الشروخ العميقة السوداء. حاول كاتو أن ينظر فى أحد تلك الشروخ. ظن أن بوسعه أن يرى الحشد الأسود للنحل داخلها.

قال إمرسون:

- ولكنك ستجدها تجمدت، أصبحت صلبة.

- لا، لن تتجمد. النحل ينام طوال الشتاء.

أراد إمرسون أن يتسلى أحد الأعمدة. قال له كاتو:

- ستصعقك الكهرباء.

وساعده على الصعود. دفعه من ردفه النحيفين بكتا يديه. لكن
إمرسون لم يتمكن من تجاوز المسمار الأول البارز على العمود. لم
يكن من القوة بحيث يستطيع أن يجذب جسمه لمسافة أعلى.

سارا حتى وصلا إلى مفترق طرق. سارا فى غيط ذرة كانت
عبدانه لم تزل واقفة، ساكنة مستسلمة للزمهرير. أسقط كاتو نفاً قليلة
من الخبز ليضع علامة على انعطاف الطريق. كانت الأوراق الطويلة
الشاحبة تتدلى من أعواد الذرة مثل أعلام من أوراق الكريب القديم،
أشبه ببقايا أكشاك منتصبة فى جناح الملاهى، فى سوق إقليمى. كانت
الأعواد أعلى من رأسيهما، أشبه بالأشجار. صفان من الأسلاك
المزدوجة، عليها زوائد تلمع فى الضوء انتظمت على جانب الطريق
فى مجاز الدراجات.

كان إمرسون وكاتو يتشاجران طوال النهار كل يوم تقريباً،
ولكن نادراً ما كانا يتشاجران ليلاً. الآن يتحدثان فى ود عن برودة
الطقس. قال كاتو: "ستمطر ثلجاً". قال إمرسون: "لا، الجو بارد، لا
ينزل الثلج فى الجو البارد. قال كاتو: "ولكن عندما يشتد البرد ينزل
الثلج".

- عندما يصبح البرد زمهريراً مثل اليوم فإن الثلج لا يسقط.

- لماذا لا يسقط؟

- لأن الجو برد قارس، على كل حال ليس فى السماء ما يندر بذلك.

ونظرا إلى أعلى فى وقت واحد. أجل. لم يكن هناك شىء سوى قرص القمر الأبيض الكبير. كانت السماء صافية لا يكرها شىء.

لم يسقط كائنو نطف الخبز على العشب الناشف، بنين دروب العربات، لأن الطير لن يراها. أخذ يسقطها على الطرق والقنوات الجافة. لم تظهر الطيور فى الأفق، ولكنه لم يغير خطته، كان عليه أن ينجزها حتى النهاية بصرف النظر عن النتيجة.

عند عودتهما كانت زوجة الأب تسعد للنوم. تبحث عن لحاف آخر تضعه على ليولا وروزينا وجراسى بل اللاتى كن ينامن على سرير واحد فى الحجرة المجاورة. نشرته وثنته دون أن تقلقهم. ورغم البرد القارس توقفت برهة ريثما تلقى نظرة بعينين قلقتين على النقش، أشكال مسدسة متفرعة بلون أبيض أقرب للشحوب تتوارى فى ضوء القمر. لحاف جميل، صنعه أمها. ترى ماذا كان اسم النقش؟ وبم كان يذكرها؟ بشكل فى لعبة طفولية قديمة؟ أم فى صفحة من صفحات كتاب مدرسى مفقود؟ قفزت الصورة إلى ذهنها: زهرة اللبن الثلجية.

سأل إمرسون وبصق مرة أخرى:

- أين هذا "الزفت" المخزن القديم؟.

شعرا بالراحة حين وصلا إليه ورأيا شجرة الصفصاف العتيقة.

دفع الباب الذى يفتح بالسحب بقوة بأيديهما التى فقدت الإحساس من شدة البرد. كان الظلام يغطى المخزن ولكن لم يلبث أن أضاءه القمر من كل الزوايا. على اليسار كانت المراتب المتروكة للأبقار والخيول وآلات الزراعة المتنوعة تجثم على الأرض فى وسط المخزن وعلى يمينه. وكان التبن يتكوم على كلا الجانبين على نحو ضبابى. ولم تسمح برودة الجو القاسية أن يشم رائحته.

أين بطانيات جود؟ لم يجدا لها أثرا. بحثا عنها فى كل العجرات الصغيرة داخل المخزن وعلى المشاجب الخشبية التى علقت عليها أجزاء طقم الفرس. وفى النهاية تداعى إمرسون على كومة تبن أمام المساحة قرب الباب. قال كاتو:

- ربما وجدناها فى مخزن التبن.

ووضع يده العارية على إحدى درجات السلم الخشبى. قال إمرسون:

- أنا أكاد أتجمد من شدة البرد. لا أستطيع صعود السلم. ثم صدرت منه قهقهة حادة.

جلسا على كومة التبن وراحا يكومان التبن فوق سيقانهما وجسديهما. كان مشهدا غريبا. لم يكن للتبن وزن ولا قوام يشعران به فى أيديهما. كان أخف وزنا من الريش، ولم يكن يستقر على جسديهما، إلا أنه كان يخز قليلا.

قال إمرسون إنه مجهد، وبعد أن تحول لينام على جنبه صب بعض اللعنات الحذرة... وكان كاتو يصب اللعنات أيضًا ورقد على ظهره لصق أخيه.

كانت المسحاة قريبة من رأسه، وكانت أقراصها المسطحة ماضية الشفرات تومض إليه في برود شديد. كانت المتبنة خافها مباشرة. مجاديفها ذات الأسنان مستدقة الأطراف كانت تلمع في ضوء القمر، وحين رقد على مستوى ارتفاعها كانت أسنان المجاديف تشكل ما يشبه مروحة حديدية أمامه مباشرة تعلو قليلاً عن الأرضية الخشبية. حوله، بين بقع الظلام والضوء، تتأثرت كل الآلات الأخرى، ناشرة السماد التي كانت تصنع ظلاً ضخماً، والحصادة التي رفعت ساعداً قويا وقد انتظمت أسنان مناشيرها الدقيقة أشبه بأسنان جندب عملاق، وناشرة التبن بأنزع مذراتها الصغيرة الحادة، تجثم هناك هادمة على بقعة يغمرها ضوء القمر الساطع، نراع يرتفع وآخر ينخفض، كأنها توقفت لتوها عن الحركة.

وفوق رأسيهما، بين مخازن التبن، في السقف القديم رأيا الشروخ والفجوات والبقع الصغيرة التي تبدو أشبه برقائيق الجليد القمرية وكأنها تتساقط عليهم وعلى ركام الآلات وعلى أكوام التبن الرمادية. نادراً ما كان يتصدع لوح من تلك الألواح الخشبية أو ينقصف فجأة غصين من تلك الغصينات الهشة لشجرة الصفصاف العتيقة.

فكر كاتو في نيل الكسر الخبزية الذي خلفه وراءه طوال

الطريق من البيت إلى المخزن. "لا وجود للطيور"، همس لنفسه. سوف يرجع إمرسون إلى البيت كما رجعا في المرات السابقة قبيل الشروق، وسوف يرى الكسر على الطريق التى داسها فى الذهاب، بيضاء راسخة فى الضوء الباكر.

ثم بدأ يفكر فى أبيه والعامل جود، فى رحلتها إلى المدينة. تخيل الأب فى مطعم يسطع بالأضواء الكهربائية، وجدرانه الزرقاء والدفء داخله، يأكل طبقا من الفاصوليا الحمراء. ذهب معه ذات يوم وأكل الفاصوليا. وفكر هنيهة، بازراء وكره، فى امرأة أبيه وأخواته البنات، ثم رجع بأفكاره إلى أبيه الذى كان يحبه غاية الحب.

تمتم إمرسون بكلمات عن ذلك الكهل جود، وحفر جحرا عميقا فى التبن. كانت أسنانها تصطك من شدة البرد. حاول كاتو أن يضع يديه بين فخذه ليدفئهما، ولكن التبن حال بينه وبين ذلك. أحس به كالصقيع. وخزه التبن فى جلد يديه اللتين فقدتا الإحساس. جرب ذلك الإحساس عندما كان يأكل حلوى العنب الحامضة التى كانت امرأة أبيه تصنعها كل خريف. ساعتها كان يحس بعصا صغيرة صلبة من الثلج تنخس سقف حلقه وتذوب فى الظلام أيضا.

ومن خلال الباب الموارب رأيا أعواد الذرة فى غيط الذرة. ماذا كان يجرى بين تلك الأعواد بأوراقها المعلقة؟ ألم يحن ميعاد قطعها؟ هناك كانت حبوب القمح تنتظر الحصاد. وهناك وقفت أو أقعت الآلات الزراعية. استدار ليلقى نظرة عليها. كل هذا الزرع مآله إلى حصاد.

كانت الحصادة تمد ذراعيتها فى صلابة مهيبه. وكانت ناشرة التبن تبدو كلفة سلك لشرك ضخمة.

كان يؤلمه تحريك قدميه. كان يحس بهما مثل حدوتى حصان، أو كأنه كان يرى حدوتى حصان عليهما. لمس إحديهما. أجل، كان على حق. كانت فعلاً مثل حدوة حصان كبيرة. كانت أجزاء عدة الفرس تطل عليهما من مكانها فوق مشاجبها الخشبية، تلمع أجزاءها المعدنية بلون أصفر شاحب مثل النجوم الصغيرة. لو سقطت هذه الأشياء فوقه لتحول إلى حصان، ولكن البرد القارس فى الغسيت لن يمكنه من جر المسحاة الثقيلة.

كانت عدة الفرس ثقيلة أيضاً. جرب الطوقين أكثر من مرة ووجدتهما ثقيلين للغاية. الطوق الواحد يكفى الفرسين. أراد أن يوقظ إمرسون رغم أن إمرسون يصعب إيقاظه حين يروح فى النوم. بدت أقراص المسحاة وتلك التروس المعلقة عليها أشبه بسفينة الفايكنج. كانت المسحاة بتروسها التى تحدث رنيناً على جوانبها، كسفينة فضاء على أهبة الصعود إلى القمر. أراد أن ينهض ويجلس على مقعد القيادة وينطلق إلى القمر. ذلك المقعد الغريب ذو الحديد المنقّب بدا مزعجاً، بيد أنه مصدر قوة وطمأنينة للجالس عليه.

لكن كيف يصعد إلى القمر والقمر قادم فى الطريق إلى التلال؟ لا، بل أقمار، طابور كامل من الأقمار. كلاء، إنها أقراص المسحاة، انقسم القمر إلى حزمة من الأقمار الصغيرة ما فتئت تنساب كل من

الآخر في كل اتجاه إلى ما لا نهاية. تحول إلى إمرسون وناداه باسمه. كان يغط في نوم عميق. أدخل ركبتيه بين ساقي أخيه واحتضنه بقوة بيده حول خصره.

وفي ظهر اليوم التالي وجدهما الأب على تلك الحال. وكانت القصة حديث كل الجرائد. ثم اقتصرت على فقرات قصار في الصفحات الداخلية للجرائد المحلية التي تسافر عبر الريف. كان حزن الأب عظيماً. ظل حزينا. عاماً كاملاً. ولمسبب ما أراد أن يخفف من حزنه العميق فأطلق الرصاص على جود.

الزوج الريفى (١٩٥٥)

جون تشيفر

سأبدأ لكم القصة من البداية، فلقد صادفت الطائرة التى أقلعت من مينابولس متجهة إلى الشرق، والتى كان فرانسيس ويد على متنها، أحوالا جوية سيئة. فجأة تحولت السماء إلى اللون الأزرق الغامق، وتراكمت السحب حتى عزت رؤية الأرض. بدأ ضباب خفيف يتكون خارج النوافذ سرعان ما تحول إلى سحابة كثيفة بسبب عادم الوقود. اشتدت السحب قتامة وبدأت الطائرة تترنح. سافر فرانسيس قبل ذلك فى أحوال جوية سيئة، ولكنه لم ير اهتزازًا كهذا. أخرج الرجل الجالس على المقعد المجاور قارورة من جيبه وشرب منها. ابتسم فرانسيس لجاره الذى أدار وجهه بعيدًا عنه. لم يكن يريد أن يشاركه أحد شرابه. بدأت الطائرة فى الاهتزاز المفزع. بدأ طفل يصرخ. أصبح الهواء داخل الطائرة متقذا كئيبا، عندئذ أحس فرانسيس كأن شللاً أصاب قدمه اليسرى. كان قد قرأ صفحات قليلة من كتاب اشتراه فى المطار، ولكن عنف العاصفة شتت ذهنه. كان الجو معتماً تماماً خارج الأبواب. اندلعت النار فى مخزن الوقود وتطاير الشرر فى العتمة، أما داخل الطائرة فقد أضفت الأضواء الخافتة وفساد الهواء والستائر المسدلة

جواً من ألفة قوية لا يناسب المقام. راحت الأنوار تومض وتخبو حتى انطفأت تماماً. فجأة قال الرجل الذى كان يجلس بجوار فرانسيس: أتعرف ماذا كنت دائماً أريد أن أفعل؟ كنت أحلم بشراء مزرعة فى هامبشير الجديدة أقوم فيها بتربية الأبقار. أعلنت المضيفة أن هبوطاً اضطرارياً كان لابد منه. رأى الركاب جميعاً، ما خلا الطفل، بعيون عقولهم أجنحة ملك الموت تبسط على رؤوسهم. تنهأ إلى أسماعهم صوت الطيار وهو يغنى: معى نصف شلن، رائع، رائع، نصف شلن. معى نصف شلن يكفينى بقية حياتى. لم يكن هناك صوت آخر.

بدأ صرير الصمامات المدارة بالماء يطغى على أغنية الطيار. انطلقت صرخة حادة فى الهواء أشبه بصوت فرامل سيارة؛ اهتز المسافرون بعنف شديد، وقفت الطائرة على بطنها فى حقل ذرة. اندفع رجل للأمام وراح يصيح بما يشبه العويل: "كليتى! كليتى!" فتحت المضيفة الباب، وقام أحد أفراد الطاقم بفتح الأبواب الخلفية فسمعوا خرير مطر منهمم لم يروا له نفعا فى تلك الساعة. اندفعوا من شدة الكرب منتظمين فى صف طويل خارج الأبواب، تبعثروا فى حقل الذرة فى كل اتجاه، يرجون الله أن يوقف انهمار المطر. وتوقف المطر. لم يحدث شئ. وعندما تبين أن الطائرة لم تحترق أو تنفجر. جمع الطاقم والمضيفة الركاب وأخذوهم إلى حظيرة مواش قريبة. لم تكن المسافة كبيرة إلى فيلادلفيا. وخلال وقت قصير كانت سيارات الأجرة تقلهم إلى المدينة. ساد بين الركاب، على غير العادة، جو من التحرر من ذلك الارتياح الذى ينظر به الأمريكيون إلى المسافرين معهم.

وفى فيلادلفيا استقل فرانسيس ويد القطار إلى نيويورك. وعندما وصل إلى نيويورك سار مسافة بعيدة ليستقل القطار القشاش الذى يركبه خمس ليال كل أسبوع إلى منزله فى شادى هل. كان أشبه بمن يريد الهرب من مازق.

جلس بجوار تريس بيردن. قال له: "كنت فى الطائرة التى تحطمت منذ ساعات خارج فيلادلفيا، هبطنا فى حقل نزة". لقد سافر أسرع من الجرائد والمطر. كان الجو فى نيويورك مشمساً معتدلاً. كان يوماً من أيام سبتمبر الأخيرة، أشبه بتفاحة جميلة شهية. استمع تريس للقصة ولم يبد اهتماماً. ولم يكن لدى فرانسيس قدرة تعينه على صنع صورة مذهشة لموقف يطل الموت من خلاله... لاسيما فى جو القطار القشاش الذى يقطع المسافات عبر ريف تغمره الشمس، وحيث تبدو، من خلال النوافذ، المزارع الفقيرة وعلامات على حصاد. التقط تريس جريدته وترك فرانسيس وحيداً مع حكايته. وعلى رصيف شادى هل قال فرانسيس لتراس: "طابت ليلتك". ركب سيارته الفولكس واجون، التى اشتراها مستعملة، إلى بيته فى بلهلو.

كان منزل أسرة فرانسيس ويد المبنى على الطراز الهولندى، أوسع مما كان يبدو من المدخل الطويل المؤدى إليه. كانت حجرة الطعام فسيحة ومرتبّة، على النمط الفرنسى، إلى ثلاثة أقسام. وعلى امتداد الحجرة من ناحية شمال القادم من الردهة، كانت توجد مائدة طويلة تكفى لستة أفراد، تتوسطها شموع وسلطانية للفاكهة. أثارَت الأصوات والروائح القادمة من باب المطبخ المفتوح شهيته للطعام، فقد

كانت جوليا ويد طبخة ماهرة. يتركز الجزء الأكبر من حجرة الطعام حول المدفأة. على اليمين يقع البيانو وقد ثبتت فوقه بعض أرفف للكتب. كانت الحجرة نظيفة وهادئة. ومن النوافذ الغربية تسالت أشعة آخر الصيف رائعة صافية كالماء الرقراق. لم يكن الإهمال من أى نصيب شئ هنا، وما من شئ لم تمتد إليه يد التلميع والتنظيف. لم يكن بيت المستر ويد من تلك البيوت التى تجد فيها أشياء ملقاة على الأرض كزرار قميص قديم أو عملة صدئة. المدفأة منظفة، والورود على البيانو تتعكس على سطحه العريض اللامع، وألبوم أسطوانات شوبيرت على الرف يلفت الانتباه. كانت لويزا ويد، فتاة فى التاسعة، تتطلع من النوافذ الغربية. وكان أخوها الصغير هنرى، يجلس قريباً منها. وكان طوبى، أخوهما الأصغر، يتأمل صوراً لبعض الرهبان الذين حلقوا رعوسهم وراحوا يحنسون البيرة على النحاس اللامع للصندوق الخشبي. خلع فرانسيس قبعته ووضع جريدته ولم يكن سعيداً بالمشهد. لم يكن مولعاً بالتأمل. كان المشهد من صنعه. وكان يعود إليه برفق وقوة العائد إلى بيته. قال لهم: "سلام عليكم جميعاً، تعرفون أن الطائرة التى كانت قادمة من مينابولس..."

كان الأولاد فى العادة يريدون تحية فرانسيس بحب وشوق وأكثر من مرة. ولكنهم الليلة مشغولون بخصوماتهم الشخصية. لم يكمل فرانسيس تقريره عن الطائرة المنكوبة حتى عاجل هنرى لويزا بضربة على ظهرها تمايلت لويزا على أثرها وتقول له: "عليك اللعنة!" ويرتكب فرانسيس خطأ عندما يوبخ لويزا على لغتها النابية قبل أن

يعاقب هنرى. وتتحول لويزا إلى أبيها وتتهمه بالمحاباة، وأن هنرى دائماً على حق، وأنها مضطهدة ووحيدة ونصيبها اليأس. ويتحول فرانسيس إلى الابن الذى كان لديه ما يبرر الضربة على ظهر لويزا. فقد ضربته قبل أن يضربها. ضربته على أذنه والضرب على الأذن خطر. وتوافق لويزا على ذلك بحماس. ضربته على أذنه وكانت تقصد ذلك لأنه لطح طاقمها الصينى. ويتهما هنرى بالكذب. ويترك طوبى الصغير البيانو ليدلى بشهادته لصالح لويزا. ويضع هنرى يده على فم طوبى ويبدأ طوبى فى البكاء. وتبكي لويزا. عندئذ تأتى جوليا ويد إلى حيث تعد المائدة. امرأة جميلة ونكية والبياض الذى فى شعرها جاء قبل الألوان. يبدو أنها لم تنتبه للشجار. قالت لفرانسيس فى هدوء: "مرحباً يا عزيزى". ثم أردفت: "اغسلوا أيديكم جميعاً، العشاء جاهز". وتشعل عود ثقاب لتضىء الشمعات الست خلال ذلك الوادى من الدموع.

كان إعلانها البسيط عن العشاء أشبه بصيحات الحرب التى يصدرها شيوخ القبائل الاسكتلندية فتزداد ضراوة المتحاربين. تعاجل لويزا هنرى بضربة على عاتقه. وتصدر من هنرى الذى لا يبكى إلا نادراً تسع أنات، ويتعب، ثم تنهمر منه الدموع. ويكتشف طوبى الصغير شقا فى يده ويبدأ هو أيضاً فى البكاء. ويصيح فرانسيس أنه قادم من حادث تحطم طائرة وأنه مرهق. وتظهر جوليا مرة أخرى من المطبخ وتتجاهل الفوضى وتطلب من فرانسيس أن يصعد إلى الدور الثانى ليخبر هيلين أن العشاء جاهز. ويصعد فرانسيس مبتهجاً لأنه

يستطيع أن يخبر كبرى بناته عن تحطم الطائرة. ولكن هيلين كانت تضطجع على سريرها وتتصفح مجلة ثرو رومانس، وأول شيء فعله فرانسيس هو أنه أخذ المجلة من يدها وذكر هيلين بأنه كان قد منعها من شراء هذه المجلة من قبل، وتجب هيلين بأنها لم تشتتر المجلة. أعطتها لها صديقتها الحميمة بسى بلاك والناس جميعا يقرءون ثرو رومانس. أبو بسى بلاك نفسه يقرأ ثرو رومانس. ويعبر فرانسيس لها عن ازدرائه للمجلة ثم يخبرها أن العشاء جاهز رغم أن الأصوات الكثيرة في الطابق الأسفل لا تدل على ذلك. وتتبعه هيلين إلى الطابق الأول. جلست جوليا على ضوء الشموع وفرشت فوطة على حجرها.

لم تأت لا لويزا ولا هنري إلى المائدة وما برح طوبى الصغير يبكى واضعاً وجهه على الأرض، ويقول له فرانسيس محذراً: "طوبى، كان أبوك على وشك الموت في حادث الطائرة التي تحطمت، ألا تريد أن تسمع القصة؟". ولكن طوبى يواصل البكاء ويقول له فرانسيس: "إذا لم تأت إلى المائدة الآن يا طوبى سأضطر إلى إرسالك للفراش دون عشاء". وينهض الصبي الصغير ويرمى أباه بنظرة حادة ويصعد الدرج مهرولا إلى حجرة نومه ويغلق الباب خلفه بعنف. وتقول جوليا: "يا ربى!". وتذهب للحاق به. ويقول فرانسيس إنها سوف تفسده بتدليلها. وتقول جوليا إن طوبى ناقص خمسة كيلوجرامات عن وزنه الطبيعي وينبغي أن نشجعه على الأكل، الشتاء قائم وسوف يقضى الأشهر في الفراش إذا لم يتناول عشاءه. وتذهب إلى الطابق الثانى فى حين يجلس فرانسيس إلى المائدة مع هيلين. هيلين تعاني من إحساس

بالكأبة لأنها ركزت فى القراءة فى يوم جميل كهذا، وتخص أباهما
والحجرة بنظرة ملؤها الإعياء. لم تفهم ماذا يعنى كلام أبيها عن تحطم
طائرة، ففى شادى هل لم تنزل قطرة مطر واحدة.

تعود جوليا بطوبى ويجلسون جميعا إلى المائدة ويبدءون فى
تناول الطعام. يقول هنرى: "هل أضطر إلى النظر فى وجه هذه البنت
السمينة المقرفة؟". كان يقصد لويزا. كلهم تورط فى هذه المشاجرة ما
عدا طوبى، يتقد أوارها ويخبو لخمسة دقائق على المائدة. وقبل أن
ينتهوا بقليل يضع هنرى فوطة فوق رأسه ويريق السبانخ على قميصه
وهو يريد أن يأكل على ذلك النحو. ويسأل فرانسيس جوليا: هل من
الممكن أن يتناول الأولاد العشاء قبل قدومه؟ وتبدو جوليا جاهزة للرد.
فهى لا تستطيع أن تطبخ عشاءين وتعد مائتين. إنها تقوم بإنجاز هذه
السلسلة المتواصلة من الأعمال المضنية بمهارة ذهب فيها شبابها
وجمالها وعقلها أيضا. ويقول فرانسيس إنهم يجب أن يفهموا ما يقول،
لقد كاد يموت فى حادث تحطم طائرة، ولا يريد أن يأتى كل يوم ليجد
ميدان قتال فى انتظاره. وانفجرت جوليا، أخذ صوتها يرتجف. إنه لا
يأتى كل ليلة ليجد ميدان قتال فى انتظاره. اتهام أحق وخبيث. كل
شئ كان هادئا قبل أن يأتى. وتتوقف عن الكلام وتضع سكينها
وشوكتها وتمعن النظر فى الطبق الذى أمامها ويبدو لها الطبق فى
اتساع الخليج. وتشرع فى البكاء. ويقول طوبى: "أمى حبيبتى". وعندما
تكف جوليا دموعها وتغادر المائدة بفوطتها يسير طوبى فى أثرها

وهو يردد: "أُمى حبيبتي، أُمى المسكينة". ويصعدان الدرج معًا، وبخار الآخرون ميدان المعركة، ويذهب فرانسيس إلى الحديقة الخلفية ليدخن سيجارة ويتنفس الصعداء.

كانت الحديقة تبعث البهجة والراحة في النفس، تزدان بأحواض الزهور ومجازات للمشى وأماكن للجلوس. كانت شمس الغروب تقترب من محطة الوصول مخلفة مقدارًا وافرا من الضوء. طفق فرانسيس يستمع لهمسات المساء في شادي هل بعد أن أسلمه حادث الطائرة وميدان القتال في البيت لحالة من الاستغراق في التفكير. تنتهي إلى مسمعيه صياح السيد نكسون العجوز بالسناجب في مزرعة تربية الطيور التي يمتلكها: "الأنزال. اغربوا عن وجهي الآن". ثم سمع بابا يغلق بعنف. هناك من يلعب التنس في ملعب عائلة بابكوك. وهناك من يقطع الأعشاب. ثم هناك دونالد جوسلن الذي يقطن على الناصية وقد شرع يعزف سوناتة ضوء القمر. يقوم بذلك كل ليلة تقريبا. يتخلى عن سرعة العزف الأساسية ويفضلها روباتو^(*) من البداية وحتى النهاية فتأتي أشبه برثاء نفس معذبة بالعزلة. دوى الموسيقى في الشارع وتحت الأشجار أشبه بالحنين أو أشبه بمناشدة حبيب لعزراء وحيدة في دارها أو فتاة غريبة في الحى تتوق للعودة إلى بلدها في جالوى، تطيل

(*) تقلب في درجة سرعة العزف داخل جملة موسيقية واحدة، غالبا دون مصاحبة إيقاعية ثابتة. المصاحبة: دور ثانوى في العزف أو الغناء يودى إلى تقوية الآلة الرئيسية أو الصوت الرئيسى أو تكملة لهما. (المترجم)

النظر فى لقطات فوتوغرافية قديمة فى حجرتها فى الطابق الثالث.
نادى فرانسيس على كلب عائلة مرسر: "جوبيتر، تعالى هنا، جوبيتر،
تعال هنا". واندفع جوبيتر ناحية حقل الطماطم ببقايا قبة من اللباد
كانت بين أسنانه.

كان جوبيتر يختلف عن سائر الكلاب. قدرته فى اكتشاف
الطرائد، وجرأته وإقدامه بدت فى غير مكانها فى شادى هل. تلمع
عيناه بالأذى، ويرفع رأسه عاليا فى ثقة واطمئنان. كانت رأسه رأس
كلب جبار بطوق من الحديد مضروب على عنقه، تراها منقوشة على
الدروع أو على نسيج مزدان بالصور، وتراها مرسومة على مقابض
الشمسيات وعصى المشى.

يستطيع جوبيتر أن يصل إلى حيث يريد، يفتش فى سلال
المهمات، ويعبث بحبال الغسيل وأكياس القمامة وعلب الأحذية
الفارغة، ويشيع الفوضى فى حفلات الحديقة ومباريات التنس، ويشوش
على جوقة الإنشاد فى كنيسة يسوع أيام الأحاد عندما ينبح فى وجوه
الناس بملابسهم الحمراء. كان يشق طريقه فى حديقة الورد التى
يمتلكها السيد نكسون العجوز مرتين أو ثلاث مرات كل يوم. وما أن
يشعل دونالد جوسلن نار الشى فى ليالى الخميس حتى يلتقط جوبيتر
الرائحة. لم تقلح محاولات أفراد عائلة جوسلن فى زجره وإبعاده.
العصى والحجارة والأوامر الخسنة لم تقلح إلا فى زحزحته إلى حافة
الأريكة حيث يجلس بأنفه الفخم المهيّب، ينتظر دونالد جوسلن أن يدير

ظهره لإحضار الملح ويثب من فوق الأريكة ويرفع الشريحة برشاقة من فوق النار ويهرب بعشاء عائلة جوسلن. أصبحت أيام جوبيتر معدودة؛ سوف يقوم بستاني عائلة رايتسون الألمانى أو طبّاخ عائلة فاركارسون بدس السم له. حتى السيد نكسون العجوز ينوى وضع بعض الزرنيخ فى القمامة التى يحبها جوبيتر. صاح به فرانسيس: "تعال هنا يا جوبيتر، جوبيتر!"، ولكن الكلب أخذ يثب جذلا وهو يهز القبة بين أسنانه البيضاء. رأى فرانسيس من نوافذ بيته أن جوليا نزلت من الطابق الثانى وأطفأت الشموع.

كانت جوليا وفرانسيس يخرجان كثيرا معا لتلبية الدعوات. كانت جوليا اجتماعية ومحبوبة، وحبا للحفلات كان ينبع من مقت فطرى عندها للشقاق والعزلة. كانت تفتش فى بريدّها اليومى بشغف وشوق، تبحث عن الدعوات، وكانت تجد بعض الدعوات أحيانا ولكنها لم تكن تشبع. وحتى لو خرجت سبع ليال فى الأسبوع فلن يحررها ذلك من نظرة شاردة تبدو فى عينيها، نظرة من يسمع ألحانا تأتي من بعيد، إذ كانت تظن دائما أن ثمة حفلا متألقا فى مكان ما. قصر فرانسيس خروجها على مرتين ووجد تفسيرا للبقاء يوم الجمعة. كان ينطلق آخر الأسبوع مثل زورق صغير فى ريح هوجاء. فى اليوم الذى تلا حادث الطائرة كانت عائلة ويد مدعوة للعشاء عند عائلة فاركارسون.

حضر فرانسيس إلى البيت متأخرا من المدينة، وأحضرت جوليا الجليسة بينما انتهى فرانسيس من ارتداء ملابسه وأسرع بعد ذلك

بالخروج. كان الحفل صغيرا وبهيجا، وجلس فرانسيس على مقعده وراح يسلى نفسه. خادمة جديدة كانت تنور بالشراب. كان شعرها داكنا ووجهها مستديرا وشاحبا بدا مألوبا لفرانسيس. لم يستثره دخان الخشب والليلك وألوان الطيب الأخرى، وأضحت ذاكرته أشبه بزيائته الدودية - مستودعا للصغائر. لم يقلقه حظه عن الهرب من الماضى. العيب كل العيب فى أنه كان موفقا فى الهرب منه كل التوفيق. لا شك أنه رأى الخادمة فى حفلات أخرى، ولا بد أنه رآها فى أصائل أيام الأحاد. بيد أنه لن يفتش الآن فى ذاكرته. العجب أن وجهها كان فى استدارة القمر - نورماندية أو أيرلندية - ولكنه لم يكن من الجمال بحيث يبرر إحساسه بأنه رآها من قبل، وفى ظروف ينبغى أن يتنكرها. سأل نيللى فاركارسون: من تكون؟ قالت نيللى: إن الفتاة جاءت عن طريق وكالة، وإن بلدها هى ترينيون، فى نورماندى، حى صغير به كنيسة ومطعم زارته نيللى ذات يوم. وبينما كانت نيللى تتحدث عن أسفارها إلى الخارج أدرك فرانسيس أين رأى المرأة قبل الآن. كان ذلك فى نهاية الحرب عندما غادر معسكرا لتدريب جنود الاحتياط مع بعض الرجال الآخرين، ومكثوا فى ترينيون ثلاثة أيام. وفى اليوم الثانى ساروا خلال طرق متقاطعة لكى يشهدوا العقاب العلنى لسيدة شابة أحببت قائد الوحدة الألمانى أثناء الاحتلال.

كان صباحا بارذا فى أحد أيام الخريف. كانت السماء متشحة بدثار ثقيل من السحب مرسله من ثم ضوءا خفيفا مبطا للهمة على

مفترق طرق موحل. كان الناس يحتشدون على ربوة عالية وكان
بوسعهم رؤية السحب تعانق نوائب اللال وهي تنهادى ناحية البحر.
وحين وصلت السجينة كانت تجلس على مقعد بثلاثة أرجل بلا ظهر أو
ذراعين ثبت على عربة مزرعة يجرها حصانان. وقفت بجوار العربة
بينما كان العمدة يتلو صحيفة الاتهام والعقوبة على الجمع المحتشد.
كان رأسها محنيا تعلق وجهها ابتسامة باهتة جوفاء تكاد روحها تطل
من ورائها مهزومة حائرة. وعندما انتهى العمدة من قراءته فكث
شعرها وأرسلته إلى ظهرها. تقدم منها رجل قصير القامة وقام بقص
شعرها بمقص كبير وتركه يسقط على الأرض. ثم غمر رأسها بماء
ممزوج بالصابون من سلطانية كبيرة وحرر جمجمتها تماما من الشعر
بموسى حاد. تقدمت منها سيدة وبدأت تفك أزرار ملابسها، ولكن
السجينة دفعتها بعيدا عنها وتحررت من ملابسها بنفسها. وعندما جذبت
قميصها من فوق رأسها وألقت به على الأرض أصبحت عارية تماما.
علت أصوات النساء بالاستنكار والاستهزاء بينما التزم الرجال
الصمت. لم يتغير شيء في ابتسامة السجينة المصطنعة وحزنها.
اخشوشن جلدها وتحجرت حلمتا ثدييها بسبب الرياح الباردة. خفت
صياحات الاستنكار شيئا فشيئا. إحدى النساء بصقت عليها رغم أن
جلالا لا يقاوم ظل يلزم عريها خلال محنتها.

وعندما هدأت الجموع استدارت وبدأت تبكى، ومضت عبر
الطريق الموحل بعيدا عن القرية، وحيدة دون شيء على جسدها خلا

حذاء بالٍ وجورب قديم. لقد نال السن قليلاً من ذلك الوجه القمري المستدير، ولكن ما من شك في أن الخادمة التي قدمت الشراب ثم قدمت العشاء لفرانسيس هي المرأة نفسها التي نالت العقاب عند مفترق الطرق.

الآن بدت الحرب بعيدة في الزمن، ومضى العالم الذي يعاقب الموالاة بالموت أو التعذيب إلى غير رجعة. إن فرانسيس لا يتذكر رفاقه الذين كانوا معه في فيشي. لم يكن يأنس لقدرة جوليا على كتمان السر. لم يستطع أن يخبر أحداً بما حدث. ولو حكى القصة حينئذ على المائدة لكان اقترب خطأ إنسانياً واجتماعياً كبيراً. وفي حجرة الجلوس في منزل فاركارسون بدا الناس وكأنما اجتمعوا على أن الماضي لم يكن، وأن الحرب لم تحدث، وأن العالم بات خالياً من الخطر والقلق. انصرفت السجينة بعد تقديم القهوة ولكن المواجهة أسلمت فرانسيس للإعياء والوهن، لقد فتحت ذاكرته وأحاسيسه وتركبتها فاغرة. وعندما انتهى الحفل استقل هو وجوليا سيارتهما إلى البيت. دلفت جوليا إلى البيت وبقي فرانسيس داخل السيارة ينتظر الجليسة ليصطحبها إلى بيتها.

كان يتوقع أن يرى السيدة هينيلين العجوز التي كانت تجلس مع الأولاد عادة. تملكته الدهشة عندما فتحت الباب فتاة في ميعة الصبا، وقبل أن تجتاز شرفة المدخل المضاءة، توقفت قليلاً تحت الأضواء تحصى كتبها المدرسية. كان وجهها عابسا يقطر ملاحه. العالم اليوم ملئ بالحسان الصغيرات. ولكن فرانسيس يطالع الآن الفرق بين الجمال والكمال. لم ينتبه للشقوق والشامات المحببة والوحمات

والجروح المندملة؟ مرت بخاطره تلك اللحظة حين يتحطم الزجاج من صوت الموسيقى. وخز قلبه إحساس مفاجئ بسابق معرفة بالفتاة مجللة بغموض وغرابة لا يضاهيها فى الروعة شىء. أطلت من وجهها العابس... من كآبة لا يدركها اللمس على وجهها... ابتسامة ساحرة أقرب للدعوة المباشرة للحب. وعندما فرغت من إحصاء كتبها غادرت الدرج وفتحت باب السيارة، وبعون من الأضواء طالع خديها النديين. دخلت وأغلقت الباب.

قال لها فرانسيس:

- أنت جديدة؟

- نعم! السيدة هينيلين مريضة، وأنا آن مرثيسون.

- هل سبب لك الأولاد أية متاعب؟

- أوه، لا، لا.

ثم استدارت ناحيته وقد افتر ثغرها عن ابتسامة حزينة انعكست على الضوء الخافت للوحة القياس. تعلق شعرها الفاتح بياقة سترتها فهزت رأسها لرده.

- أكنت تبكين؟

- نعم.

- أمل ألا يكون بسبب شىء حدث فى بيتنا.

- لا، لا، لم يكن بسبب شيء حدث في بيتكم.

وعادت تقول وقد أحس بكآبة في صوتها:

- الأمر ليس بسر، فالجميع في القرية يعرفون إيمان أبي للكحول،
اتصل بي منذ قليل من إحدى هذه الحانات وصارحنى برأيه؛
يقول إنى فاسقة، اتصل قبل أن تأتى المسز ويد بقليل.

- إنى أسف من أجلك.

- يا ربى.

- علا صدرها بتهيدة مصحوبة بنحيب. استدارت ناحية فرانسيس،
وأخذها بين ذراعيه وتركها تنشج على صدره. راحت تهتز بين
يديه اهتزازات زادت من إحساسه بجسدها الرقيق. شعر بخفة
ثيابها، وعندما بدأ اهتزازها يهدأ بعض الشيء أحس فرانسيس
برغبة عارمة فى ضمها إليه فقد معها صوابه وجذبها إليه بعنف.
تمسكت من بين يديه فى رقة وقالت:

- أسكن فى شارع بلفيو، تنزل شارع لافنج ناحية السكة الحديدية.

قال لها وهو يدير السيارة:

- حسنا.

اتجه يساراً عند الإشارة القادمة... "استدر الآن ناحية اليمين
وواصل السير مباشرة ناحية السكة الحديدية".

انتهى الطريق بفرانسييس بعيداً عن الحى الذى يسكن فيه.
اجتاز شريط السكة الحديدية واتجه ناحية النهر حتى وجد نفسه فى
شارع يعيش فيه الفقراء فى بيوت توحى جملواتها مستدقة الرعوس
وزركشاتها الخشبية بفيض من المشاعر تختلط فيه الرهبة بالخيال.
كانت المنازل، على صغر أحجامها الواضح، لا توفر الخصوصية
والطمأنينة المتوقعة لأصحابها. كان الشارع معتماً، وعندما تحول إليه
بدا فرانسييس وقد أصبح نهبا لحسن الفتاة المضطربة وفتنتها، وكأنما
ولج عالما حقيقيا يتألف من ذكريات غامضة مختلطة. ومن مقعده
داخل السيارة رأى مدخل البيت من الضوء الوحيد الذى ينيره. أخبرته
أن المنزل المضاء هو منزلها. وعندما وقفت السيارة كان بوسعه أن
يرى خلف ضوء المدخل الخافت مشجبا قديما. قال:

- حسناً، لقد وصلنا الآن.

كان يعلم أن شابا فى سنها كان سيقول شيئاً مختلفاً فى موقف كهذا
لم تحرك يديها اللتين كانتا تحتضنان الكتب. استدارت ناحيته
فأصبحت وجهها لوجه. كانت دموع الرغبة تترقرق فى عينيه. خرج من
السيارة ودار حولها ليفتح لها الباب. تناول يدها الخالية وتسللت
أصابعه بين أصابعها وصعد درجتين وهى إلى جانبه واجتازا ممرا
ضيّقاً عبر حديقة أمامية تكثر بها أزهار الدهليّة ونباتات القطيفة
والورود التى قاومت الصقيع الخفيف وراحت تنشر فى الجو رائحة
تمتزج فيها اللذة بالألم. وعند بداية الدرج حررت يدها من يده واتجهت

ناحيته وداهمته بقبلة خاطفة على وجنتيه. اجتازت الشرفة وأغلقت الباب. أطفئ ضوء الشرفة وأضيء ضوء آخر على الدرج فاض على شجرة لم تزل محملة بأوراق الخريف. ولم تمض غير دقائق حتى انتهت من خلع ملابسها وذهبت إلى فراشها وأصبح البيت مظلمًا.

كانت جوليا نائمة عندما وصل فرانسيس إلى البيت. فتح نافذة أخرى وذهب إلى فراشه ليغلق عينيه على ذكريات تلك الليلة. وما أغلق عينيه وغلبه النعاس حتى عادت الفتاة إلى ذاكرته تطوف بكامل حريتها حجرات العقل موصدة الأبواب، تملأ الحجرة تلو الحجرة بسناها الجميل وعبيرها الخلاب وصوتها الساحر. توفقا في موريتانيا القديمة وعبرا الأطلنطي، ثم قضيا فترة في باريس. وعندما استيقظ من ذلك الحلم نهض من فراشه وأشعل سيجارة واتجه إلى النافذة المفتوحة. وعندما عاد إلى الفراش راح يفتش في ذاكرته عن شيء يفعله ولا يؤذى أحدا. فكر في التزلج. وفي عتمة الحلم قامت صورة لجبل يغرق في الثلج في ساعة متأخرة من النهار، وعلى مرمى البصر كان يرى الأفق رحبًا ومشجعًا.

فوق منكبيه رأى واديا تغمره الثلوج ينهض على تلال تزدهم بالأشجار التي بدت أشبه بغطاء خفيف من الشعر خفف من البياض الناصع للثلج، وأجهض البرد كل صوت خلا القعقة العالية لحديد ماكينة المصعد. كان الضوء على الممرات ضاربًا إلى الزرقة وكان فرانسيس الآن أقل قدرة على التقاط انحناءات الطريق منه منذ دقيقة أو

دقيقتين، وأقل قدرة على التعرف وقد اتخذ الثلج الآن لونا أزرق غامقا على يابس الأرض والجليد والبقع العارية والأكوام الضخمة من الجليد الجاف. سار تحت الجبل مؤرجحا يديه يضاهي سرعته قبالة محيط منحدر كان قد تكون في العصر الجليدي الأول، يطلب بساطة في المشاعر والظروف.

وفي الصباح زال عن فرانسيس جبله الثلجي ولبث مع ذكرياته الباريسية والموريتانية المتقدة. لقد أضحى نهبا لعاطفة قوية لا يجد إلى ردها سبيلا. أخذ دشا وحلق لحيته وشرب قهوته وفاته قطار ٧٣١. غادر المحطة مع وصوله بسيارته. أحس بخنين للعربات وهي تبتعد عنه في تؤدة وعناد، حنين ذكره بنزوات الحب القديمة. انتظر قطار ٨٢ على رصيف أصبح خاليا من الناس. كان صباحا صافيا لم تعكر صفوه الغيوم، بدا مشرقا كجسر عظيم يتألق بالضياء فوق شئونه المضطربة. أصبح قلقا مهتما. وضعه طيف الفتاة الذي لا يفارقه في علاقة جديدة مع عالم غامض ساحر. بدأت السيارات تملأ مكان الانتظار. تنبه إلى أن القادمين من تلال شادي هل المرتفعة قد غمرهم الصقيع الأبيض. تذكر أن الصقيع أول علامات الخريف. عندما وصل القطار السريع - قطار ليلي يسير بين بفالو والنبى - يتهادى على مساره الحديدي لاحظ بين الأرصفة أن أسطح العربات الأمامية كانت تغمرها طبقة من الجليد. استوقفته شهوانية الأشياء الخارجة عن المألوف فطفق يبتسم للركاب في مطعم القطار وهم يلتهمون البيض في سفرهم ويمسحون أفواههم بمناديل صغيرة. كانت مقصورات عربات

النوم بأغطية أسرتها الكتانية المتسخة تمشى الهوينى فى الصباح الغر مثل صف طويل من نوافذ فنادق الدرجة الثالثة. ومن إحدى النوافذ طالع مشهدًا خارجا عن المؤلف: امرأة تحررت تمامًا من ملابسها ذات جمال خلاب كانت تمشط شعرها الذهبى، مرت مثل طيف خاطف بشادى هل وتبعتها عينا فرانسيس حتى غابت عن الرؤية. وعلى الرصيف لحقت به المسر رايتجتون وخاضت معه فى حديث: "أعتقد أنك ستعجب لرؤيتى هنا لليوم الثالث أفق فى الصف. أصبحت من زبائن القطار القشاش المنتظمين بسبب ستائر نافذتى. الستائر التى اشتريتها يوم الاثنين أعدتها الثلاثاء، والتى اشتريتها الثلاثاء أعيدها اليوم. يوم الاثنين حصلت على الستائر التى كنت أريدها بالضبط - ستائر من الصوف عليها رسومات ورود وطيور، ولكن عندما أخذتها إلى البيت وجدت أن طولها لا يناسب النوافذ. استبدلتها أمس، وعندما عدت إلى البيت لم أجد الطول مناسبًا للمرة الثانية. والآن أدعو الله أن تناسب طول النوافذ أو يجد لها مهندس الديكور حلا. أنت تعرف بيتى وتعرف نوافذ حجرة الجلوس عندي. يمكنك أن تتخيل المشكلة. لست أرى ماذا أفعل فى هذه المشكلة؟.

وقال لها فرانسيس:

- أنا أعرف ماذا يمكن أن تفعله.

- ماذا؟

- اصبغها باللون الأسود من الداخل وكفى عن الكلام.

وتتهدت السيدة رايتتجتون تهيدة تتم عن حرج شديد، وخصها فرانسيس بنظرة أراد منها أن يتأكد أنها عرفت أنه يقصد أن يكون فظا. وأدارت وجهها بعيدا عنه و غادرت المكان بنفس مكسورة مما جعلها تضطرب فى مشيها. غمره إحساس عجيب أضاء نفسه وهو يفكر فى فينوس التى ترجل شعرها بالمشط وهى تتهاذى عبر طريق برونكس. كان ممثنا للفتاة لإحساسه الجديد بالحرية. كانت الطيور تصدح - طيور الكاردينالى وما بقى من طيور أبى الحناء. ازدانت السماء بضياءها المتألق، حتى رائحة الأحبار على أوراقه الصباحية شحذت شهوته للحياة، العالم الممتد أمامه على مرمى البصر أصبح نعيما خالصا.

جاءت سكرتيرته الأنسة رينى، متأخرة ذلك الصباح. كانت تتردد على طبيب نفسى ثلاث مرات فى الأسبوع، وعندما رآها تسأل فرانسيس: ترى أية نصيحة يمكن أن يسديها الطبيب النفسى؟ منحتة الفتاة وعدا بعودة ما هو أشبه بصوت الموسيقى إلى حياته. تخاذلت غبطته عندما تذكر أن هذه الموسيقى حرية أن تنتهى بمحاكمته بتهمة الاغتصاب. أحس باللوم عندما اصطدمت عيناه بصورة أبنائه الأربعة وهم يبتسمون للكاميرا على الشاطئ. وعلى أوراق الشركة طالع صورة لاولكون^(*) وابنيه وقد أحكمت الأقعى التفافاتها حول أعناقهم، بدت له الصورة مليئة بالمعانى.

(*) لاولكون كاهن طروادى، قتلته وابنيه اثنتان من أقاعى البحر بعد أن حذر الطرواديين من الحصان الخشبى. (المترجم)

تناول الغداء مع بنكى ترابيرت الذى حكى له حكايتين بذيئتين. بدت عادات أصحابه فى الحديث سمجة تعوزها الطرافة. تذكر أن بيته الذى بناه على الأخلاق الحميدة قد يتهاوى إذا افتضح أمر اهتمامه بجليسة الأطفال. اجتر تاريخ شادى هل القريب فلم يعثر على سابقة شائنة واحدة ولا حتى حالة طلاق واحدة منذ إقامته هناك، لم يحدث أن اشتم أحد رائحة فضيحة. بدت الأشياء فى هذه القرية مرتبة أشبه بمملكة السماء. بعد أن غادر بنكى توجه فرانسيس إلى محل جواهرجى واشترى لفتاته سواراً من الذهب. أحس بسعادة غامرة بسبب هذا الشراء السرى. كان صبيها الجواهرجى سخيّفين. مرت من وراء ظهره امرأة جميلة الرائحة، وعلى شارع ٥ العام أمام محل أطلس كان منكباة ينحنيان بسبب إحساسه بثقل العالم. فكر فرانسيس عندئذ فى صعوبة احتواء شهوانية داخل الإطارات التى اختارها لنفسه.

لم يكن يدرى متى يرى فتاته مرة أخرى. وضع سوار الذهب فى جيبه البعيد عندما اقترب من البيت. وعندما فتح باب منزله وجدها فى اتصال، ظهرها أمامه. استدارت عندما سمعت صوت غلق الباب. بادرته بابتسامة صافية ساحرة. أذهله كمالها الأشبه بيوم جميل - يوم جاء بعد عاصفة رعدية. أمسك بها بقوة وغطى شففتيها بشفتيه. لم تضطر إلى مقاومته طويلاً فقد ظهرت جرتروود الصغيرة فجأة وقالت:

- أوه، السيد ويد...

كانت جرتروود شاردة الذهن دائماً. مغرمة بالاستكشاف

والتجوال. نأت بحياتها عن دائرة والديها اللذين يحبانها. من لا يعرف عائلة فلانرى يظن من مسلك جرتروود أنها ولدت لأسرة تفرقت بها السبل، أسرة انقسمت بسبب مشاجرات السكر التى لا تنتهى. وكان ذلك منافيا للواقع. الواقع أن ملابس جرتروود كانت رثة وخفيفة وهو ما كان يمثل انتصارها على والديها التى كانت تجبرها على ارتداء الملابس الثقيلة الأنيقة. كانت تنتقل من بيت إلى بيت فى كل أنحاء حى بلنهولو، تثرثر فى ملابسها المتسخة وجسدها النحيف، توثق الصلات وتقطعها بالصغار والحيوانات والصبية الذين فى سنها، والمراهقين والكبار أيضا. تفتح باب منزل فى الصباح فتجد جرتروود جالسة فى المدخل. تدخل الحمام لتحلق فتجد جرتروود فوق المرحاض. كانت تعرض خدماتها دائما، حاضرة فى كل مكان، لا تعرف الخيانة، شديدة الإخلاص، جائعة. لم تكن تذهب إلى بيت أسرتها برغبتها. وإذا حضر وقت الرواح لم تكن تأبه بالكلمات التى كانت تدعوها للذهاب: "اذهبي إلى بيتكم يا جرتروود، لقد حان الوقت لتذهبي إلى بيتكم يا جرتروود، الأفضل أن تذهبي الآن إلى بيتكم يا جرتروود وتتاولى العشاء.. قلت لك منذ ثلث ساعة اذهبي إلى بيتكم يا جرتروود، لا بد أن أمك قلقلة عليك الآن، اذهبي إلى بيتكم يا جرتروود.. إلى بيتكم يا جرتروود".

هناك لحظات تبدو فيها الخطوط التى تحيط بعين الإنسان أشبه بأرفف قدت من حجارة متأكلة. وعندما تفاجئنا العين المحدقة بضراوة حيوان فإننا نصاب بالاضطراب حيالها. كانت نظرة فرانسميس للفتاة بشعة ومريبة أخافتها فعلا. دس يده فى جيبه وأخرج دولارا وأعطاه

للطفلة وقال لها : "اذهبي إلى بيتكم ولا تخبرى أحدا بما رأيته بـ
جرتروود... لا تخبرى أحدا". وأحس بغصة وهو يسرع إلى حجرة
الجلوس عندما نادى جوليا عليه من الطابق الأول تريده أن يسرع فى
ارتداء ملابسه.

كانت فكرة أنه سيوصل أن ميرتشيون إلى منزلها بعد الحفل
ليلاً تسرى مثل خيط من ذهب خالص خلال أحداث الحفل الذى حضره
فرانيسيس وجوليا. كان يغرب فى الضحك بسبب دعابات فارغة،
وجفف دموعه انحدرت من عينيه حين أخبرته مابل مرسر بموت قطتها
الصغيرة. كان يتمطى ويتعاب ويتهد ويكثر الزفير مثل أى رجل آخر
على وعد بملاقة من يحب، يحتفظ به فى الركن الخلفى من عقله.
تحمس جيبه ليتأكد من وجود السوار. كان يحس برائحة العشب فى
أنفه وهو جالس فى الحفل يضحك ويثرثر. سأل نفسه: أين سيضع
سيارته؟ فالجراج القديم مغلق والممر أصبح ملتقى العشاق. كان شارع
تاونسد مسدودا ويمكن أن يركن سيارته هناك خلف البيت الأخير.
أصبح الممر القديم الذى يصل شارع إلم بضفاف النهر مكسوا بالعشب،
بيد أنه كان قد مشى هناك هو وأبناءؤه، وبوسعه أن يقود سيارته بين
الأغصان ليحتجب أمره.

كان فرانيسيس وزوجته آخر من غادر الحفل. تحدث مضيفهما
ومضيفتهما عن سعادتهما الزوجية بينما توقف الأربعة فى المدخل
يتبادلون كلمات الوداع. قال المضيف وهو يحتضن زوجته بقوة حانية:

"إنها حبيبتي وسمائي الصافية، بعد ستة عشر عامًا لا زلت لا أتصور فراقها، إنها تجعلني أحس دائمًا مثل هانيبال وهو يعبر جبال الألب".

كان فرانسيس وزوجته صامتتين داخل السيارة. وعندما تحول بالسيارة إلى الممر لم يوقف المحرك ولبث ينتظر، وفجأة قالت له زوجته وهي تهتم بالخروج: "فى وسعك أن تضع السيارة فى الجراج فقد أخبرت بنت ميرتشيسون أنها بإمكانها أن تذهب فى الحادية عشرة. أخذها أحد أقاربها إلى بيتهم".

لم يُترك له شيء إذن. لم يترك شيء للمقيم. لم تترك له الفرصة لممارسة فسقه الضار. لم تترك له الفرصة حتى للتعبير عن غيرته الغريبة، ولا عن ذلك الألم لأحاسيسه الذى يترع عينيه بالدموع... ولا حتى الازدراء. فقد كان بوسعه أن يرى بوضوح صورته الآن وقد نشر ذراعيه فوق عجلة القيادة ودفن رأسه بينهما من شدة الوجد.

كان فرانسيس فى صدر شبابه عضوا نشطاً فى منظمة كشفية. وعندما تذكر مبادئه الشبابية غادر مكتبه أصيل اليوم التالى ولعب الاسكواش لبعض الوقت. وبعد أن أحس بقوة فى جسده بسبب التمرينات وماء الدش، أدرك أن الأفضل له أن يبقى فى مكتبه. كانت ليلة باردة عندما عاد إلى منزله وأحس بريح تغيير. أحس بنشاط بعيد عن المؤلف. كان الأولاد يرتدون أحسن ما لديهم، وعندما نزلت جوليا كانت ترتدى فستاناً أرجوانى اللون وبروشاً من الماس. فسرت له السبب فى ذلك النشاط. سيأتى المستر هير فى السابعة ليلتقط لهم صور

لبطاقات عيد الميلاد. كانت قد أخرجت بدلة فرانسيس الزرقاء ورباط العنق الملون لأن الصور ستكون بالألوان هذا العام. هشت جوليا لفكرة النقاط الصور التذكارية في عيد الميلاد. إنه الاحتفال الذي كانت تحبه وتسعد به.

صعد فرانسيس إلى الطابق الثاني ليغير ملابسه. نال منه التعب بسبب عمل اليوم وبسبب الشوق. أحس بتعبه يزداد وهو جالس على حافة السرير. فكر في أن ميرتشيسون فأحس برغبة قوية لم تفل منها المصاييح القرنفلية على مزينة جوليا. ذهب إلى مكتب جوليا وتناول ورقة وكتب عليها: "عزيزتى آن: أحبك، أحبك، أحبك". ولم يجد من يردع كلماته لأن الرسالة لن يراها أحد. فكتب عبارات مثل: "النعيم السماوى وعش الحب". بلع ريقه وتهد وارتجفت يدها عندما سمع صوت جوليا تدعوه للنزول. اتسعت الهوة بين خيالاته والعالم الواقعى حتى أحس بانقباض فى عضلات قلبه.

كانت جوليا والأولاد عند المدخل بينما كان المصور وصبيه يعدان الكاميرات ذات الأضواء الباهرة لتظهر الأسرة والجمال المعمارى لمدخل البيت. أبطأ المارة سياراتهم ليشاهدوا أسرة ويد وهم يلتقطون الصور لبطاقات الميلاد. منهم من لوح بيده لتحيتهم.

مضى نصف ساعة من الابتسام ووضع الزينة على الشفاه قبل أن يبدأ المصور. أشاعت حرارة الأضواء رائحة غير محببة فى الجو، وعندما انصرف الجميع انتاب فرانسيس إحساس بتلكتهم وبطء حركتهم.

وفى وقت متأخر من تلك الليلة، وبينما كان فرانسيس وجوليا يحتسيان قهوتهما فى حجرة الجلوس دق جرس الباب. فتحت جوليا الباب ودخل كلايتون توماس. جاء ليرد لها ثمن تذاكر للمسرح كانت جوليا قد اشترتها لأمه منذ فترة، وكانت هيلين توماس قد أصرت على الدفع بالحاح رغم أن جوليا طلبت منها ألا تفعل. دعت جوليا للدخول وتناول القهوة. قال: "لا أريد قهوة، ولكن سأخذ من وقتكم دقيقة واحدة". وتبعها إلى حجرة الجلوس وألقى تحية المساء على فرانسيس وجلس على نحو أخرق على أحد المقاعد. كان أبو كلايتون قد قتل فى الحرب فلابد الشاب حرمان الأب ملازمة الظل. وكان ذلك معروفاً فى قرية شادى هل لأن أسرة توماس كانت الوحيدة التى فقدت أحد أبنائها. أما الأسر الأخرى فكانت وافرة النسل لم تبطل بالفقد. كان كلايتون فى السنة الثانية أو الثالثة فى الجامعة، يعيش مع أمه فى منزل واسع كانت تأمل أن تبيعه. ومنذ سنوات تسبب كلايتون فى مشكلة: سرقة نقودا وهرب إلى كاليفورنيا قبل أن يلحقوا به. كان طويل القامة بسيط الشخصية يرتدى نظارة ويتحدث بصوت خفيض. سأله فرانسيس: متى ستعود إلى الكلية يا كلايتون؟ فأجابه كلايتون: "لا أريد أن أعود، ليس لدى أمى من المال ما يكفى، ولا أجد داعياً لهذا الادعاء الفارغ، سأجد وظيفة، وإذا بعنا البيت فسوف نجد شقة فى نيويورك". عندئذ سأله جوليا: "ألن تفتقد شادى هل؟" قال: "لا، أنا حتى لا أحبها". فسأله فرانسيس: "لماذا لا تحبها؟" فأجابه كلايتون فى رزانة وتؤدة: "أشياء كثيرة تجرى هنا لا أحبها. الرقص فى النادى مثلاً. فى ليلة الأحد

الماضى رأيت السيد جرائر يحاول إدخال السيدة مينوت فى حقبة من الجلد. كانا ثملين. لا أحب كثرة السكر هنا". قال له فرانسيس: "كانت ليلة الأحد وحسب". قال كلايتون: "الجمعات هنا كلها تقوم على الدجل والزيف. لا أحب الطريقة الفوضوية التى يحيا بها الناس هنا. لقد فكرت فى الأمر كثيراً، وأكثر ما يقلقنى فى شادى هل هو أنه لا مستقبل لها. الطاقات تبذل فى الحفاظ على أشياء مرفوضة. الأمر الوحيد الذى يهتم به الناس هنا هو الدعوة لتوفير أكبر عدد من القطارات المحلية وإقامة عدد أكبر من الحفلات. لا أظن أن هذه ظواهر صحية. ينبغى للناس أن يكونوا قادرين على امتلاك الأحلام الكبيرة لمستقبلهم. أومن بأن يحلم الناس أحلاماً عظيمة". قالت له جوليا: "إنه لأمر سيئ أن تهجر الجامعة". أجابها كلايتون: "كنت أريد أن أذهب إلى مدرسة لاهوتية". عندئذ سأله فرانسيس: "ما كنيسةك؟" أجاب: "التوحيدية الثيوصوفية الفوقية الإنسانية". سألته جوليا: "ألم يكن إيمرسون من الفوقيين؟" قال: "أنا أقصد الفوقية الإنجليزية، الفوقيون الأمريكيون حمقى". سأله فرانسيس: أية وظيفة كنت تسعى إليها؟ قال: "أريد أن أعمل لدى أحد الناشرين. ولكن الناس تسألنى: وماذا تفعل عنده؟ ولكنه الشيء الوحيد الذى أهتم به حقاً، فأنا أكتب حالياً مسرحية شعرية طويلة عن الصراع بين الخير والشر. عمى تشارلى يستطيع أن يساعدنى على التعيين فى بنك. وهذا مفيد لى. أحتاج للنظام. ثمّة طريق طويل يجب أن أجتازه لأبنى شخصيتى. لدى عادات كثيرة بغیضة. أتحدث كثيراً. يجب أن أعاهد نفسى على الصمت. ينبغى أن

أحاول عدم الكلام لمدة أسبوع كامل. لقد فكرت فى أن أوى إلى أحد الأديرة الأسقفية ولكنى لا أحب عقيدة التثليث". سأله فرانسيس: "ألك صديقة؟" قال: "خطبت وأنوى الزواج. لست بالكهل أو الغنى حتى يعرف الناس بأمر خطبتى، ولكنى اشتريت زمردة مزيفة لأن ميرتشيون بالنقود التى أخذتها لقاء قطع الحشائش فى الصيف الماضى. سنتزوج بمجرد أن تنتهى من مدرستها".

تراجع فرانسيس لذكر اسم فتاته. وبدا أن ضوءاً داكناً ينبعث من روحه يظهر كل شيء - جوليا والصبى والمقاعد - فى شحوبه الحقيقى. كان الأمر مثل تحول سبى فى حالة الطقس. واستمر كلايتون يقول: "سوف يكون لنا أسرة كبيرة العدد، أبوها سكير بشع، وأنا مررت بأيام صعبة ونريد أن يكون لنا عدد وافر من الأطفال. أوه، إنها رائعة يا سيد ويد ويا مدام ويد. أنا وهى نتفق فى الكثير من الأمور: أرسلنا بطاقات الميلاد نفسها فى العام الماضى دون أن نخطط لذلك، ولدى كلينا حساسية للطماطم، وحواجبنا تنمو معاً فى الوسط. حسناً، تصبحون على خير".

شيخته جوليا إلى الباب، وعندما عاد قال لها فرانسيس: "إن كلايتون كسول ولا يحس بالمسئولية ومتكلف ورائحته كريهة". قالت له جوليا: "إن فرانسيس أصبح قاسياً، الولد صغير ويجب أن نمنحه الفرصة". ولاحظت جوليا حالات أخرى كان فرانسيس فيها يضيق ذرعاً لأسبابه.

"أتعلم أن المسز رايتسون دعت الجميع فى شادى هل لحفلها ما عدانا!".

- آسف لذلك يا جوليا.

- هل تعلم لماذا لم تدعنا لحفلها؟

- لماذا؟

- لأنك أهنت المسز رايتسون؟

- إذن أنت تعلمين؟

- أخبرتنى جون مرتشيسون، كانت تقف خلفك.

مرت جوليا أمام الأريكة بخطوات متناقلة فهم منها فرانسيس أنها كانت غاضبة.

- نعم أهنتها يا جوليا وكنت أقصد ذلك. لم أكن أحب حفلاتها، وأنا سعيد لأنها أسقطتنا من الحساب.

- وماذا عن هيلين؟

- وما شأن هيلين بهذا؟

- المسز رايتسون هى التى تقرر من يذهب إلى الحفلات ومن لا يذهب.

- تعنين أنها يمكن أن تمنع هيلين من حفلات الرقص؟

- نعم.

- لم أكن أفكر فى ذلك.

عندئذ صاحبت جوليا وهى تدفع بالسكين فى جرابه:

أعرف أنك لم تفكر فى ذلك، وما يثير غيظى أن أرى أن عدم مراعاتك لحقوق الآخرين ومشاعرهم تدمر الجميع.

- لا أظن أنى دمرت سعادة أحد هنا.

المسز رايتسون هى التى تدبر شؤون شادى هل، وكانت تدبرها خلال السنوات الأربعين الماضية. لا أدرى ما الذى يملك على الاعتقاد بأنك تستطيع أن تطلق العنان لأهوائك وتسبب للناس وتؤذيهم وتكون فظاً فى مجتمع صغير كهذا؟

أجابها فرانسيس وهو ينوى إضفاء جو من المزاح على المناقشة:

- أنا رجل مؤدب جداً.

عندئذ صاحبت جوليا وتطأير لعابها وارتطم بوجه فرانسيس وهى تقول: تبا لك يا فرانسيس ويد! لقد بذلت دمي حتى حصلنا على المكانة الاجتماعية التى نتمتع بها فى هذا المكان، ولا أستطيع أن أتفرج عليك وأنت تدمرها. لابد أنك عرفت منذ إقامتك هنا أنك لا تستطيع أن تعيش وحك مثل دب يعيش فى كهف. أنا أعبر عما أحب

وما أكره. احتفظ بما تكره لنفسك. لماذا تركب رأسك كالأطفال؟ أو تريد أن تكون منبوذاً من المجتمع؟ هل هي مصادفة أن بدعونا الناس إلى حفلاتهم؟ هل هي مصادفة أن يكون لهيلين أصدقاء كثيرون؟ إلى أين تريد أن تذهب أيام السبت؟ إلى السينما؟ أم تريد أن تقضى أيام الأحاد تفتش فى أوراقك القديمة؟ أم تريد أن ترى ابنك تجلس فى ليالى العطلات فى نافذتها وتصغى لصوت الموسيقى القادم من النادى؟ أم تريد أن... وبدأت كلماتها تتحول إلى جدار سميك بينه وبينها، فلم يعد يسمع شيئاً فأثر الصمت، ولكنه فاجأها بعد هنيهة بلطمة محسوبة على وجهها أذهلتها، ولكنها تماكنت نفسها بعد ذلك وصعدت الدرج إلى حجرتها فى الدور الثانى. لم توصل الباب. وعندما ذهب فرانسيس فى أثرها بعد بضع دقائق وجدها تحزم إحدى حقائبها.

- جوليا، أنا أسف جداً.

قالت وهى تبكى:

- لا تشغل بالك.

- إلى أين تتوين؟

- لا أعرف. سأخذ قطار ١١١٦ إلى نيويورك. عرفت من الجدول.

- لا يمكنك الذهاب يا جوليا.

- لا تحاول. لا أستطيع البقاء، أنا أعرف نفسى.

- أنا آسف للمسز رايتسون، وآسف لـ....
- الموضوع ليس موضوع المسز رايتسون. ليست هذه هي المشكلة.
- ما المشكلة إذن؟
- المشكلة أنك لا تحبني.
- بل أحبك يا جوليا.
- أنت لا تحبني.
- جوليا. أنا أحبك، أريد أن نعود كما كنا في الماضي - عاشقين فاجرين غامضين.
- أنت تكرهني.
- أنا لا أكرهك يا جوليا.
- أنت لا تدري كم تكرهني. إنه عقلك الباطن. أنت لا تدرك الأشياء القاسية التي تصدر منك؟
- أية أفعال قاسية يا جوليا؟
- الأفعال التي يدفعك عقلك الباطن للقيام بها لكي تعبر عن مقتك لي.
- ما هذه الأفعال يا جوليا؟

- ألم يحدث أن شكوت منك؟

- أخبريني.

- إنك لا تعي ما تفعل.

- أخبريني.

- ملابسك.

- ماذا تقصدين؟

- أقصد الطريقة التي تلقى بها ملابسك المتسخة في كل مكان نتم
عن كراهية يضررها عقلك الباطن لى. أقصد جواربك المتسخة
وبيجاماتك وملابسك الداخلية وقمصانك المتسخة!

كانت تنحنى على حقيبتها، وعندما انتهت نهضت وحدثت فى
وجه فرانسيس، كانت عيناها تبرقان، وفى صوتها رنة تأثر شديد.

- أنا أقصد أنك فى الواقع لم تتعلم قط كيف تعلق ملابسك وتكفنى

بتركها على الأرض كيفما اتفق إمعانا فى إهانتى. إنك تتعمد ذلك.

وثأفت على الفراش وبدأت تنشج. عندئذ وضع يديه على كتفها وقال:

- جوليا. حبيبتي.

ولكنها نهضت بسرعة عندما أحست بيديه.

- دعنى وشائى، يجب أن أذهب.

ومرت أمامه إلى خزانة ملابسها وعادت بفستان وهي تقول :

- لن آخذ شيئاً مما اشتريته لى. سأترك لآلئى والجاكت الفرو.

- أوه. جوليا.

بدت مكسورة الجناح وهي محنية على حقيبتها مما أثار شفقتة وعطفه الشديدين. لم تكن تدرك مقدار البؤس الذى ينتظرها بدونها. لم تكن تعلم عدد الساعات التى تضطر المرأة إلى الذهاب فيها إلى العمل. لم تكن تحسب أن جل أصدقائها جاءوا فى إطار علاقتهما الزوجية وأنه بدون هذه العلاقة ستجد نفسها دون صديق. لم تكن تفهم فى السفر والفنادق والنقود.

- جوليا، لن أسمح لك بالذهاب. إنك لا تفهمين إنك فى الواقع تعتمدين على كل شيء.

حينئذ ردت رأسها إلى الوراء بحركة مفاجئة وغطت وجهها بيديها وسألته: "هل قلت إننى أصبحت أعتمد عليك؟ هل هذا ما تقصد؟ ومن التى توقظك فى الصباح وتخبرك بموعد نومك فى المساء؟ ومن التى تعد لك وجباتك وتأخذ ملابسك المتسخة من خزانتك؟ ومن التى توجه الدعوات لأصدقائك؟ لولاى لكان الشحم يعلو أربطة عنقك ولأنت العثة على ملابسك. كنت تعيش وحدك عندما التقينا يا فرانسيس ويد، وستعيش وحدك عندما أتركك. أتذكر عندما طلبت أمى منك قائمة بأسماء من تريد إرسال بطاقات الدعوة لهم لحضور عقد قراننا؟ كم اسما ذكرت لها؟ أربعة عشر؟

- كليفلاند ليست بلدى يا جوليا.

- وكم من أصحابك جاء إلى الكنيسة؟ اثنان؟

- كليفلاند ليست بلدى قلت لك.

ثم عادت تقول بهدوء :

يمكنك إعادة الجاكت الفرو لأنى لن أخذه، وهناك وثيقة تأمين على مجوهراتى مستحقة الدفع فى يناير، اسم المغسلة ورقم تليفون الخادمة وكل هذه الأشياء فى درج مكتبى. أتمنى ألا تسرف فى الشراب يا فرانسيس. أتمنى ألا يحدث لك مكروه. إذا حدث شىء فى غيابى اتصل بى.

عندئذ أخذها فرانسيس بين ذراعيه وقال لها:

- أوه، يا حبيبتى، لن أسمح لك بالذهاب يا جوليا!

- حسناً، أعتقد أنى يجب أن أبقي معك فترة أخرى.

عندما ركب القطار إلى عمله فى الصباح رأى فرانسيس الفتاة تسير فى الممشى بين مقاعد العربى. استغرب لأنه لم يلاحظ أن المدرسة التى كانت تذهب إليها كانت فى المدينة. نهض مضطرباً بعد أن أفاق من دهبته ولف إلى الممشى. دخل بينهم أناس كثيرون ولكنه استطاع أن يراها تنتظر من يفتح لها باب العربى. وبينما كان القطار ينحرف فى سيره مدت يدها لتمسك بشىء يحفظ اتزانها وهى تسعى

للوصول إلى العربة المجاورة. استمر يلاحقها حتى منتصف العربة الثالثة ثم صاح: "أن، أن!"، ولكنها مضت في طريقها دون أن تلتفت وجلست على أحد المقاعد. أحس بدفع يسرى في كيانه وهو يقترب منها، ازدادت مشاعره حدة عندما وضع يده خلف مقعدها وهو بهم بمخاطبتها ولكنها لم تكن أن. كانت الجالسة سيدة أكبر سنا ترتدى نظارات. اجتاز الممر إلى عربة أخرى وقد احمر وجهه من الخجل الذى ازداد عمقا عندما أحس بأن عقله نفسه لا يركن إليه. فإذا نيل من قدرته على التمييز بين شخص وشخص فماذا بقى له؟، وما الدليل على أن حياته مع جوليا وأولاده لا يعثورها الوهم مثل أحلامه بالخطيئة فى باريس وفراش القش ورائحة العشب والأشجار التى تشبه الكهوف فى حارة العشاق.

اتصلت به جوليا فى ساعة متأخرة من ذلك الأصل لتذكره بأنهما مدعوان للعشاء. وبعد بضع دقائق اتصلت به تراسى بيردن وقالت له: "اسمع يا فلاح، لقد اتصلت بك من أجل المسز توماس. ابنها كلايتون يبدو أنه عجز عن الحصول على وظيفة، ترى هل تستطيع مساعدته؟ فى وسعك أن تتصل بتشارلى بل، أعرف أنه مدين لك، وقل كلمة خير فى حق الولد، اعتقد أن تشارلى يستطيع أن .." ولكن فرانسيس قاطعها قائلاً:

- تريسى، أنا مضطر إلى أن أصارحك بأنه ليس فى وسعى عمل شىء بالنسبة لهذا الولد. هذا الولد لا نفع فيه. الصراحة ثقيلة

ولكنها الحقيقة، أى شىء نفعله لمساعدة هذا الولد سيعود بالضرر على الجميع. إنه ولد لا يصلح لشىء يا تريسى، وماذا نفعل حيال ذلك؟ حتى لو حصلنا له على وظيفة فلن يستمر فيها أسبوعًا واحدًا. أنا أعرف ذلك جيدًا. شىء سيئ يا تريسى ولكن بدلا من تركبته سأضطر إلى تحذير الناس منه سيما الذين كانوا يعرفون أباه ويرحبون به سأحذرهم. إنه لص...".

وعند هذه النقطة من المناقشة دخلت الأنسة رينى ووقفت قريبًا من مكتبه وقالت لفرانيسيس: "لن أستطيع أن أعمل معك بعد الآن يا سيد ويد... فى وسعى أن أنتظر حتى الخامسة إذا كنت تريدنى، ولكنى رأيت من يمنع وظيفة لشاب محتاج. لدى رغبة الآن فى مغادرة هذا المكان بأسرع ما أستطيع". وخرجت وتركته وحده يفكر فى الأذى الذى سببه لابن توماس. كان أبنائه فى الصورة يغرقون فى الضحك، تلتهم عيونهم بألوان الصيف البهيجة، تذكر أنهم قابلوا نافخا فى مزمار قربة على الشاطئ فى ذلك اليوم، ودفع له دولارا ليغنى لهم أغنية الحارس الأسمر. ستكون الفتاة فى البيت عندما يعود إلى المنزل، سيمضى مساء آخر بين جيرانه الطيبين، يلتصق الشوارع المسدودة، وممرات العربات ومداخل البيوت المهجورة. ما من شىء يعيد إليه طمأنينة نفسه. لن يهدئه الضحك أو اللعب مع الصغار. وإذا يستعيد ذكريات حادث الطائرة وخادمة فاركارسون الجديدة ومشاكل آن مع أبيها السكر، تساءل: كيف كان يمكن أن يتجنب الحرج؟ لقد ضل

طريقه ذات يوم فى غابات الشمال، ويعاوده الآن ذلك الإحساس بالكآبة والحزن، أية بهجة أو أمل أو شجاعة أو طاقة على الجلد تعينه على تلمس طريقه الضائع فى هذا الظلام المدلهم. حزنه تجاوز الحد. إنه الآن على مفترق طرق وحانت ساعة الاختيار.

أمامه أن يذهب إلى الطبيب النفسى. وأمامه أن يذهب إلى الكنيسة ويعترف لهم بشبهه. وفى وسعه أن يغتصب الفتاة ويريح نفسه. الأمل كل الأمل فى أن يجد من يصوب له الطريق. أي شرب حتى الثمالة؟ إنها حياته، قاربه. ألم يكن قادرًا على أن يهب الحياة مثل بقية الرجال؟ إنه يمتلك القنرة لم يزل. ما الضرر إذن فى لقاء يقابلان العالم بعده بوجه جديد؟ إنه القطار الضال. فليطرق أول الأبواب: الطبيب النفسى. اتصل بطبيب الأنسة رينى وطلب موعدا عاجلا. ألح على سكرتيرة الطبيب، كان مجبولا على الإلحاح فى كل أعماله، وعندما أخبرته أن جدول الطبيب لا يتسع لموعد جديد لبضعة أسابيع قادمة طلب فرانسيس موعدًا فى اليوم نفسه. أخبرته السكرتيرة أن يأتى فى الخامسة.

كان مكتب الطبيب النفسى يقع فى مبنى يستغل الأطباء وأطباء الأسنان الجزء الأكبر منه. تفيض طرقاته برائحة مطهرات الفم وذكريات الألم. كانت شخصية فرانسيس مجبولة على اتخاذ القرارات المضمرة. قرارات حول النظافة أو القفز من فوق منصة الغطس أو القيام بأى عمل آخر قد يخلصه من الشك فى جرائه. قرارات أيضًا عن

البقة والأمانة والفضيلة. كان سعيه للخروج من العزلة التي اتخذ فيها
جل قراراته تلك سببا في تقويض فهمه لحسن الخلق وتركه الآن في
هذا الاضطراب العظيم. مشهد حياته الأخير أشبه بحجرة انتظار أمام
عيادات أطباء كثيرين. أعطى فرانسيس اسمه وعنوانه للسكرتيرة. في
تلك اللحظة لاحظ أن شرطيا كان يقف في ركن من الحجرة، اقترب
منه وصاح فيه: "قف مكانك، قف مكانك، لا تتحرك، أبق يديك حيث
هما!" قالت السكرتيرة: "أظن أن الأمر لا يستحق يا حضرة الضابط،
أظن أنه...". قال الشرطي: "فلنتأكد". وأخذ الشرطي يضرب ملابس
فرانسيس بيديه بحثا عن مسدس؟ سكين؟ فأس؟ ولما لم يجد شيئا
انصرف وبدأت السكرتيرة تعتذر في عصبية وهي تقول له: "عندما
اتصلت بالتليفون يا سيد ويد كنت عصبيا للغاية، وفي الوقت نفسه كان
أحد مرضى الطبيب يهدده بالقتل وكان علينا أن نحاط، ادخل الآن إذا
كنت تريد؟"، ودفع فرانسيس بابا يتصل بجهاز لقرع الجرس وجلس في
حجرة الطبيب متقلا بالهموم. تمخط في منديله وفتش في جيوبه عن
سجائره وولاعته ثم قال بصوت أجش وقد تعلق الدموع بأهداب
عينيه: "أنا في حالة حب يا دكتور هرتسوغ!".

مضى أسبوع أو عشرة أيام على تلك الحادثة. سارت الأمور في
شادي هل كال المعتاد. وصل قطار ٧١٤ ورحل. وهنا وهناك ينتهي
الناس من غدائهم أو عشاءهم وتلقى الأطباق في آلات التنظيف. وتتباطأ
حركة القرية المادية والروحية، ومع حلول المساء يبدأ دونالد جوسلن
في عزف مقطوعة سوناتا ضوء القمر مرة أخرى وكأنه يعصر فوطة

حمام مبتلة. ولكن الخادمة لا تعيره اهتماما. مشغولة فى كتابة رسالة إلى آرثر جونفرى. وفى قبو منزله تجد فرانسيس ويد مشغولا فى صناعة منضدة قهوة. أوصاه الطبيب بأشغال الخشب كعلاج، ويجد فرانسيس سلواه الحقيقية فى العمليات الحسابية المتصلة، وفى الراحة النفاذة لقطع الخشب الجديد. فرانسيس سعيد. فى الطابق الثانى طوبى الصغير يصيح؛ لأنه أحس بالسأم. خلع قبة راعى البقر وقفازيه وسترته ذات الأهداب. وفك حزامه المرصع بالذهب والياقوت، وتخلص من الرصاصات القضيية والجرباب الجلدى الذى انزلق من حمالته وقمصيه الكاروهات وبنطلونه الجينز الأزرق، وجلس على حافة سريره ليخلع حذاءه الطويل. كوم كل هذه الأشياء ودلف إلى خزانته ليخلع بذلته الفضائية ويعلقها. إنه يغالب نفسه على ارتداء هذه الملابس الضيقة، بيد أنه ينجح آخر الأمر. يثبت عروة الرداء الخارجى على منكبيه، ويصعد على قائم السرير وينشر ذراعيه ويطيّر تلك المسافة القصيرة إلى الأرض، ويهبط بصوت مكتوم يسمعه كل من فى المنزل فيما عداه.

وتقول المسز ماسترسون:

- اذهبى إلى بيتكم يا جرتروود، جرتروود، اذهبى إلى بيتكم. قلت لك اذهبى إلى بيتكم منذ ساعة يا جرتروود. لقد فات وقت عشائك وأمك سوف تقلق عليك، اذهبى إلى بيتكم!" وباب على سطح يفتح فجأة وتخرج المسز بابكوك دون ملابس على جسدها يتبعها

زوجها العارى أيضا (أطفالهما فى مدرسة داخلية و سطح منزلهما يحميه السياج) يسيران فوق السطح ويتجهان إلى باب المطبخ، يتقدان بالشهوة والفتنة مثل الحوريات والسناطير اللذين تجدهما على رسومات جدران منازل البندقية القديمة. يتناهى إلى مسمى جوليا وهى تقطف آخر أزهارها صوت السيد نكسون الهرم وهو يصيح بطيور السنجاب فى مزرعة تربية الطيور الذى يمتلكها: "الأوغاد! الأندال! اغربوا عن وجهى!". وهرة بانسة تتجول فى الحديقة، يستبد بها التوتر النفسى والجسدى، مربوط فى رأسها قبة صغيرة من القش - قبة دمية - ترتدى فستان دمية، من حاشيته ينأ ذيلها ذو الشعر الطويل. وبينما هى تسير تهز قدمها وكأنها سقطت لتوها فى الماء. تنادى جوليا:

- بوسى، بوسى، هذه بوسى! تعالى يا بوسى، بوسى المسكينة!

ولكن الهرة تحدجها بنظرة ملؤها الشك وتمضى متعثرة فى حاشية فستانها. آخر من يأتى كان جوبيتر. يتبخر بين حقول الطماطم، يمسك بفمه الواسع ببقايا خف سهرة. ثم يجن الليل، يدلهم الظلام، ويمتطى الملوك فى أرديتهم الذهبية ظهور الفيلة ويهيمنون فوق قمم الجبال.

إلى أين أنت ذاهبة، أين كنت؟ (١٩٦٧)

جويس كارول أوتس

كان اسمها كوني، وكانت في الخامسة عشرة من عمرها. تتطلق ضحكاتها النخيفة بسرعة وعصبية وتمد رقبتها إلى الأمام لتلقى نظرة عجل على المرأة، أو لتستطلع وجوه الآخرين لتطمئن على أنها على ما يرام. كانت أمها التي تراقب كل شيء توبخ كوني على هذا المسلك، كان تقول لها: كفاك تحديقاً في المرأة.. من تظنين نفسك؟ أتحسبين نفسك جميلة؟ وكانت كوني لدى سماع هذه الكلمات التي اعتادت عليها، ترفع حاجبيها وتسدد نظرة مباشرة إلى أمها. كانت تدرك أنها جميلة وكفى. كانت الأم جميلة أيضاً في أيامها الغابرة، تشهد على ذلك الصور الفوتوغرافية التي تحتفظ بها في ألبومها العتيق. ولكن أين جمالها الآن، لقد ذهب، وهذا هو سبب ملاحقتها لكوني.

لماذا لا تتظفين حجرتك مثل أختك؟ كيف نظفت شعرك؟ ما هذه الرائحة الكريهة؟ دهان شعر؟! ألا ترين أن أختك لا تستخدم هذه النفائات؟

كانت أختها جوني فى الرابعة والعشرين ولم تزل تعيش معهم فى البيت. كانت تعمل سكرتيرة المدرسة الثانوية التى تدرس بها كوني. لم يكن ذلك بالأمر الوحيد السيئ - وجودهما معاً فى مبنى واحد - ولكن جوني كانت أيضاً سطحية التفكير بالإضافة إلى قصر قامتها وامتلأتها وعدم إجادتها الحديث. ورغم ذلك فقد كانت كوني مضطرة إلى سماع أمها وخالاتها وهن يمتدحن أختها طوال الوقت: جوني فعلت هذا، وجوني فعلت كذا؛ ادخرت النقود، ساعدت فى تنظيف البيت، طبخت، وكوني لم تفعل شيئاً، عقلها مسكون طوال الوقت بأحلام اليقظة النافهة.

كان الأب يقضى جل وقته فى مكتبه خارج البيت. وعندما يعود يطلب العشاء ويقرأ الجرائد أثناء تناول الطعام، ثم لا يلبث أن يخلد للنوم. لم يكن يهتم كثيراً بالسؤال عن أحوال البنيتين. بيد أن الأم كانت تلزم رأسه المنكبة على الجرائد، وتبدأ فى انتقاد كوني والشكوى منها، حتى إن كوني كانت تتمنى الموت لأمها، بل تمنى أن تموت هى نفسها وينتهى الأمر. كانت تشكو لصديقاتها قائلة: إنها، أى أمها، تشعرنى بالغثيان. كان صوتها لاهثاً يجعل من يسمعها يظن بها التكلف صدقاً كان ما تقول أو كذباً.

ولكن شيئاً كان يروق لها فى الأمر كله وهو أن جوني كانت تخرج إلى بعض الأماكن مع صديقاتها اللاتى كن يشبهنها فى الهدوء والسطحية، وعندما كانت كوني تريد أن تفعل مثل أختها لم تكن الأم

تبدى اعتراضاً. أبو أقرب صديقات كوني كان يتطوع بتوصيلهن إلى المدينة ويتركهن في الشارع العام، فيشغلن الوقت بالحديث بينما يتفرجن على المحلات، وقد يدخلن السينما. وعندما كان يعود فى الحادية عشرة، ليعيدهن إلى منازلهن، لم يكن يكلف نفسه السؤال عما كن يفعلنه طوال تلك الساعات.

أصبحن من المشاهد المألوفة وهن يتجولن فى ذلك السوق بثيابهن القصيرة وأحذيتهن المسحاء الأشبه بأحذية راقصات الباليه، والتي كن يعمدن إلى جرّها على الطوار جراً. كانت أساورهن الذهبية تحدث جلجلة فى معاصمهن النخيفة. كن يتمايلن كل ناحية الأخرى ويهمسن ويضحكن بصوت خفيض عندما يمر بجوارهن عابر سبيل يجدن فيه مصدراً للتسلية. كان لكوني شعر طويل أشقر ثقيل يلفت النظر إليه، توقف بعضه على رأسها معقوصاً فى لفات صغيرة، وترسل الباقي إلى ظهرها. كانت ترتدى بلوزة من الصوف الجرسية تأخذ خارج البيت شكلاً مختلفاً عن شكلها داخل البيت. كل ما يتصل بها كان ذا وجهين، وجه للبيت ووجه آخر خارج البيت. خارج البيت كانت تتمايل فى مشيها كالأطفال، أو تتباطأ حتى ليظن الرائي أنها تنصت لموسيقى تأتي من رأسها. فمها الذى يعلوه الشحوب والابتسام المصطنع طوال الوقت، يتألق سحراً وبهجة فى تلك الأمسيات التى نقضيها خارج البيت. ضحكاتها التى كانت ساخرة متباطئة فى البيت (ها، ها، ظريف جداً!!)، تصبح خارج البيت عالية النبرة مفعمة بالحيوية، أشبه بجلجلة الأساور الذهبية فى معصمها النخيف.

كن أحياناً يذهب للتسوق، وفي أحيان أخرى كن يعبرن الطريق السريع فى انطلاقة مباغثة فرارا من السيارات المارقة، ويتوقفن عند مطعم صغير على الطريق، يتسكع حوله المراهقون. كان المطعم يأخذ شكل زجاجة صودا هائلة، أو هو أشبه ببيت صغير مكتنز، على قمته تمثال دوار لصبى ينطلق وجهه بابتسامة عريضة ويمسك بقطعة هامبورجر ويرفعها عاليا فى الهواء. وفى إحدى ليالى منتصف الصيف عبرن الطريق السريع جرياً وقد حبسن أنفاسهن من الخوف، وعلى حين غرة أطل شاب برأسه من نافذة سيارة ودعاهن للركوب، ولكنه كان من صبية المدرسة الثانوية الذين لا يأنسن لهم. وأحسسن بالراحة عندما استطعن تجاهله. اجتزن غابة من السيارات الواقفة والمنطلقة فى طريقهن إلى المطعم ذى الأنوار الساطعة فى كل أركانه، والهوام التى تغزوه بأعداد وفيرة. امتلأت عيونهن بالبهجة والترقب وكأنهن يدخلن مكاناً مقدماً يبدو لهن، فى عتمة الليل، ملاذاً آمناً، وعبادة يؤدينها. جلسن إلى النضد وصالبن أرجلهن فوق كواحلهن وقد تصلبت أكتافهن من فرط الإثارة، وأنشأن ينصتن للموسيقى التى كانت تشيع البهجة فى النفوس، موسيقى بدت لهن أشبه بالموسيقى التى تصاحب المصلين فى الكنيسة، بثت الطمأنينة فى نفوسهن.

دخل عليهن صبى يدعى إدى وشرع يتحدث إليهن. جلس خلفهن على مقعده وأخذ يدور به بطريقة متشنجة فى دوائر غير مكتملة ويتوقف ويبداً فى الدوران من جديد، وبعد فترة قصيرة سأل كوني: هل ترغبين فى أن تأكل شيئاً؟ ووافقت كوني ومست ذراع صديقتها وهى

تهم بالنهوض بينما رمتها صديققتها بنظرة باسمه تدل على جراءة مدربة. أخبرت كوني صديققتها أنها ستقابلها في الحادية عشرة في المكان نفسه: أنا فقط لا أحب أن أتركها وحسب. ورد الصبي بقوله: لن تبقى وحدها مدة طويلة. استقلا سيارته، وفي الطريق أخذت كوني تنتظر في حاجب الريح في السيارة وتحقق في الوجوه. أضاعت وجهها سعادة لا صلة لها بإدى أو حتى بالمكان، لابد أنها الموسيقى. أخذت نفساً عميقاً جعل منكبيها يرتفعان تعبيراً عن سعادة غامرة وإحساس خالص بالحياة. التقت عيناها في تلك اللحظة بعيني صبي آخر على مسافة أقدام منها. كان أشعث الشعر أسوده، يركب سيارة قديمة بغطاء بلون ذهبي قابل للطى. أطل فيها النظر ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة. وردت كوني عليه بنظرة شذراء سريعة. ولكنها ما لبثت أن عاودت النظر إليه وكأنه ما زال يراقبها. أشار بأصابعه وهو يضحك وقال: هل تذهبين معي يا حبيبتي؟ تحولت عنه كوني مرة أخرى دون أن يلحظ إدى شيئاً.

قضت ثلاث ساعات بصحبة الصبي، أكلا الهامبورجر وشربا الكوكاكولا في كنوس شمعية كانت ترشح طوال الوقت. وعندما رجعا في الحادية عشرة كانت أبواب المحلات موصدة ما خلا دار السينما. وجدت صديققتها تحدث صبياً. تبادلت الفتاتان النظرات والابتسام وسألته كوني: كيف كان الفيلم؟ وردت الفتاة: أخرى بك أن نخبرينا عنه. ركبا مع أبى الفتاة وهما منتشيتان يداعب الكرى جفونهما. ولكن عيني كوني تعلقت بالسوق المظلم ومكان انتظار السيارات وأنوار.

التي خبت الآن، والمطعم هناك على الطريق حيث كانت السيارات لم تزل تحوم دون ملل. لم تستطع سماع الموسيقى من تلك المسافة.

وفي الصباح سألتها جوني: كيف كان الفيلم؟ فردت كوني ردا مقتضبا: (نص ونص)

كانت تخرج مع هذه الفتاة وأحيانا تصحبهما فتاة أخرى ثالثة عدة مرات في الأسبوع بالطريقة نفسها، وتقضى باقى الوقت فى البيت. كانت — فى إجازة الصيف — تخلو إلى نفسها بعيدا عن الأم وتجتر ذكرياتها، تحلم بالصبية الذين قابلتهم. ولكن وجوه الصبية لم تلبث أن تراجعت وذابت فى شيء واحد لا يمت للوجوه بصلة. إحساس اختلط عندها بقرع الموسيقى اللجوج، وهواء صيف يوليو الندى. وما زالت الأم بها تحاول ردها إلى واقع اللحظة بأن تغريها بشيء عمله أو تسألها فجأة: ما أخبار بنت بنتجرجر؟

وكانت كوني تجيب فى نفاذ صبر: آه، هذه المغفلة.

كانت تتظاهر بأنها تمقت هؤلاء الفتيات، وكانت الأم تصدقها. كوني نفسها تعتقد أن أمها غاية فى البساطة، وأنه من القسوة أن تظل تخذعها على ذلك النحو. ظلت الأم تتمشى حول البيت تجر قدميها على الأرض فى (شيشب) نومها القديم. وفى التليفون أخذت تشكو من أخت لها لأخت لها أخرى، وبعد ذلك اتصلت هذه الأخرى وراحتا تشكوان من أخت لهما ثالثة، وعندما كان يذكر اسم جوني كان صوت الأم يشى بالرضا والقبول، وعندما كان يذكر اسم كوني كان صوتها يكتسى

بمسحة من النفور. والواقع أن ذلك لم يكن معناه أن الأم كانت تكره كوني، بالعكس كانت كوني تعتقد أن أمها تفضلها على جوني لأنها أحلى منها، ولكن كلتاها كانت تعتمد إلى الإبقاء على قدر من الحنق فيما بينهما، وهو أمر كائناً تحرصان على إظهاره بصدد أمور ذات قيمة ضئيلة، كأن تتشاجرا على القهوة مثلاً. ولكنهما كائناً صديقتين في الأغلب الأعم، ما خلا تلك اللحظات التي تتطلق فيها أسباب الحنق مثل ذبابة تدور فجأة حول رأسيهما فتضفى على تعبيرات وجهيهما علامات السخط.

فى يوم من أيام الأحاد استيقظت كوني فى الحادية عشرة - ليس منهم من يهتم بالذهاب إلى الكنيسة - وعمدت إلى شعرها فغسلته لتعرضه للشمس طوال اليوم حتى يجف. كان والداها وأختها يستعدون للذهاب تلبية لدعوة إحدى خالاتها لتلك المناسبات التى يقدم فيها لحم الخنزير المشوى، وكانت كوني قد رفضت الذهاب معهم، قالت ذلك. لأمها وهى تخرج عينيها. ربت الأم بحدة: "ابقى وحدك فى البيت إذن". وعادت كوني إلى مقعدها فى المرجة لتلقى نظرة عليهم وهم ينطلقون بسيارتهم. كان الأب هادئ الطبع مكشوف الطوية. رأته وهو يرجع بسيارته قليلاً للخلف حتى يتمكن من الخروج من الباب. كانت نظرات الأم لم تزل تحمل علامات الغضب. وفى المقعد الخلفى جلست جوني، الأخت الكبرى الطيبة ترتدى أفضل ملابسها لمناسبة لا تستحق كل هذه الزينة. إنها مناسبة عائلية يكثر فيها الأطفال الذين يعدون

وبمرحون ويصرخون وراء طائرات الورق. جلست كوني وقد أغلقت عينيها توقياً لأشعة الشمس التي أشاعت الدفء حولها وداعبت وجنتيها وكأنها قبيلات الغرام، مما جعلها تغوص في أحلامها الوردية التي لا تنتهى. طاف بخيالها الصبى الذى قابلته بالأمس. تذكرت ظرفه وعذوبة لقائه وحلاوة حديثه، ليس بالطريقة التي يمكن أن تتصورها فتاة مثل جوني، بل بالطريقة التي تصورها الأفلام والأغاني، وعندما فتحت عينيها استغربت المكان، فقد امتلأ الفناء الخلفى بنباتات الماء، وبدت السماء خلف سياج الأشجار غامقة الزرقة عميقة السكون. جفت من مشهد خيوط الحرير الصخرى "مزرعة الماشية" التي مضى عليها ثلاث سنوات الآن - فبدت صغيرة. هزت رأسها كأنما تريد أن تنفض عنه آثار الكرى.

كان الجو متقدماً بالحر. دخلت البيت وأدارت المذيع لتغرق بعد ذلك في الخيال والصمت. جلست على حافة السرير عارية القدمين وظلت تستمع ساعة ونصف الساعة إلى برنامج غنائى يسمى منوعات الأحد الغنائية إكس واى زد، يرسل الأغنية فى إثر الأغنية بصوت صاحب عفيف وسريع. كانت كوني تردد الغناء لا يقاطعها سوى صوت المذيع بوبى كنج وهو يقول: انظرن يا بنات إلى بن نابليون ونشارلى، أريدكن أن تتصنن جيذاً لهذه الأغنية القادمة.

وظلت كوني تصغى باهتمام، سابعة فى عالم المتعة المثألق القادم من تلك الموسيقى الصاخبة مع ذبذبات الهواء البطيئة لتملاً

جنبات الحجرة الصغيرة التى خلت من الهواء الطلق، يعلو صندرها وينخفض فى ثؤدة ورقة مع كل شهيق وزفير.

ولم تزل كذلك حتى تنهى إلى مسمعيها صوت سيارة قادمة عبر المدخل. نهضت فزعة لا تتصور أن أباهما رجع بهذه السرعة. أصاحت السمع لصوت العجلات وهى تسحق حصى المدخل. هرعَت إلى النافذة فإذا بسيارة لا تعرفها من النوع القديم مفتوحة السقف. كانت السيارة مطلية بلون ذهبى لامع يرتد عليه ضوء الشمس. بدأ قلبها يخفق بقوة وتوجهت أصابعها على الفور إلى شعرها وهمست لنفسها: يا إلهى! يا إلهى! وقد أفلقتها فوضى هيئتها. توقفت السيارة عند الباب الجانبى، وسمعت البوق يطلق أربع صيحات، كأنما كانت تلك علامة تعرفها كوني.

أمت المطبخ، واقتربت من الباب ببطء، ورفعت ستارته، ومشيت على أصابعها العارية بخفة على الدرج. رأت صبيين داخل السيارة، ثم عرفت السائق بشعره الداكن الأشعث وملابسه الرثة، وقد تطلق وجهه بابتسامة عريضة. قال:

- هل تأخرت عليك؟

- من تظن نفسك أبها الحقيقير؟

- وعدتك أن نخرج معاً، صح؟

- أنا لا أعرف من تكون؟

كانت تتحدث مقطبة الجبين عابسة الوجه، حريصة على التحفظ ضنا بسعادتها أن تظهر. وكان الصبي يتحدث في اطراد رتيب في إخراج الكلمات والجمال. مدت كوني بصرها إلى الصبي الآخر، لفت نظرها شعره الجميل وقد أرسل منه خصلة على ظهره، له شاربان على وجنتيه منحاه تعبيراً خجولاً، ولكنه لم يلتفت إليها حتى تلك اللحظة. كلاهما كان يرتدي نظارات شمسية على عينيه. كانت نظارة السائق من النوع الذي يرى من خلاله كل شيء صغيراً.

- هل تأتين معنا في جولة بالسيارة؟

وشاعت في وجه كوني ابتسامة مصطنعة، وأرسلت شعرها على أحد منكبيها بحركة سريعة مباغثة.

- ألم تعجبك سيارتي؟ قمت بطلائها حديثاً؟ هـ.

- ماذا؟

- أنت فاتنة.

وتظاهرت بالقلق والعصبية وشرعت تطرد ذباباً تداعى على الباب.

- ألا تصدقيني، أم ماذا؟

قالت كوني في قرف:

- أنا حتى لا أعرفك.

- إيلي لديه راديو.. انظري.. كان لدى راديو وتحطم.

ورفع نراع صاحبه وأراها الراديو الصغير الذى كان الصبى
يمسك به. وبدأت كونى تسمع الغناء. البرنامج نفسه الذى كانت تستمع
إليه فى سريرها.

- بوبى كنج؟

- أنا أسمعه دائماً، ممتاز؟

- بعبى، ممتاز. قالت كونى فى ابتساز.

- اسمعى.. هذا الولد رائع.. يعرف كيف يجد المتعة.

احمر وجه كونى خجلاً ولكنها لم تر وجه الصبى الآخر من
وراء نظارته الداكنة. لم تره حتى يحوز إعجابها أو استياءها. تبردت
وهى فى المدخل بين الإقبال والرجوع. قالت له: ما كل هذا الطلاء
على سيارتك؟

- ألم تقرئى؟

وفتح الباب بحذر خوفاً أن ترتد راجعة. وانسل منه انسلا حتى
ثبت قدميه على الأرض وظل العالم يضمحل فى زجاج نظارته حتى
بدا صغيراً متموجاً تظهر فى وسطه بلوزتها الخضراء الزاهية. قال:

- لنبدأ.. هنا كتبت اسمى.

آرنولد فرند. كتب بحروف سوداء فى لون القار تجاوره صورة
لوجه مستدير ينطلق بابتسامة عريضة ذكر كونى بالدباء. دباء ترتدى
نظارة شمسية.

- أريد أن أقدم نفسي: آرنولد فرند، هذا هو اسمى الفعلى، وأنا صديقك من الآن يا حبيبتي، أما الولد الذى يجلس داخل السيارة فهو إيلى، صبى خجول بعض الشيء.

رفع إيلى جهاز الراديو الذى يمسك به بمحاذاة منكبيه واستمر بشرح: هذه الأعداد من الآن شفرة سرية فيما بيننا ٣٣، ١٩، ١٧. ورفع حاجبيه ليرى أثر حديثه على وجهها. كتب على الحاجز الخلفى المحطم عبارة: هذا من فعل سائقة مجنونة. عندئذ ضحكت كوني مما جلب السعادة لآرنولد فرند ونظر إليها وكأنه يدعوها للقدوم.

- هل تقرئين ما كتبته فى الجهة الأخرى؟

- لا.

- ولم لا؟

- ولم أفعل؟

- ألا تريدان قراءة المکتوب على سيارتى؟ ألا ترغبين فى جولة بسيارتى؟

- لا أدرى.

- لماذا لا تدرين؟

- عندى مشاغل.

- مثل ماذا؟

- مشاغل.

وضحك كأنها قالت ما يستوجب الضحك، وضرب يديه على وركيه. كان يقف بطريقة غريبة معتمداً بظهره على السيارة وكأنه كان يحفظ اتزانها. لم يكن طويل القامة، كان أطول منها ببوصتين لا أكثر. أعجبتها طريقته في ارتداء ملابسه، طريقتهما معاً: البنطلون الجينز المحرق الذى نصل لونه الأسود، والحذاء البالى، والحزام الذى شد على خصره شدا وثيقاً، والقميص الضيق المتسخ الذى تظهر منه عضلات يديه ومنكبيه صغيرة نافرة. بدا كأنه كان يعمل فى الأشغال الشاقة، يرفع أثقالاً ويحملها، حتى رقبتة ظهرت بها العضلات. كان وجهه منطلقاً لا يصطنع التكلف، تعلوه بعض الظلمة لأنه لم يخلق منذ يومين أو أكثر. ظل يتنشق بأنفه الصقري وكأنها لقمة يريد التهامها.

- كونى، أنت تكذابين على، هذا يومك، جئت من أجلك لكى تخرجى معى وأنت تعرفين.

قال ذلك دون أن يتوقف عن الضحك والابتسام، تتم طريقته فى الضحك والحركة والتوقف والرجوع إلى الضحك مرة أخرى عن محاولة خداعة. سألته بشيء من التردد:

- كيف عرفت اسمى؟

- كونى.

- ربما، وربما لا.

- أنا أعرف كوني حبيبتي.

قال ذلك وهو يشير بإصبعه. تذكرته الآن. عادت بذاكرتها إلى المطعم، احمر وجهها خجلاً عندما تذكرت كيف خفق قلبها عندما مر أمامها وكيف كانت تنتظر إليه. "إيلي وأنا جئنا إلى هنا من أجلك، إيلي سيجلس في الخلف. ما رأيك؟

- أين؟

- أين ماذا؟

- أين نذهب؟

حدجها بنظرة ذات معنى. خلع نظارته الشمسية فرأت الشحوب حول عينيه اللتين كانتا أشبه بفجوات تعرضت فجأة للنور. كانت عيناه أشبه برقائق الزجاج المكسور لا تأنس للنور. ابتسم وكان الخروج معها في جولة بالسيارة إلى أي مكان شيء جديد في نظره.

- سناخذ جولة فقط، كوني حبيبتي.

- أنا لم أقل إن اسمي كوني.

- ولكن أعرف اسمك، أعرف كل شيء عنك، أشياء كثيرة.

ظل ساكناً معتمداً بظهره على السيارة وعاد يقول:

- أعرتك اهتماماً خاصاً، بنت جميلة مثلك يجب أن أعرف عنها كل شيء وعرفت كل شيء. أعرف مثلاً أن والسديك وأختك

مدعوون للعشاء، وأعرف كم سيبقيان. وأعرف مع من كنت الليلة الماضية، وصديقك المقربة هي بيتي، صح؟

كان يتحدث بصوت ناعم وكأنه يتلو كلمات أغنية. ابتسامته طمأنتها بأن كل شيء على ما يرام. في السيارة رفع إيلي صوت المذياع، ولم يهتم بالنظر إليهما. قال آرنولد فرند:

- إيلي يمكن أن يجلس في الخلف.

وأشار إلى إيلي بإيماءة من ثقته وكان إيلي لم يكن يهتم بشيء وأنها لا ينبغي أن تهتم به. قالت كوني:

- كيف عرفت كل هذه الأشياء؟

قال في صوت غنائي:

- اسمعي.. بيتي شولتز وتوني فاش وجيمي بتتجر ونانسي بيتتجر ورامون ستانلي وبوب هنر....

- أو تعرف كل هؤلاء؟

- أنا أعرف كل الناس.

- اسمع، أنت تهرج، أنت لست من هنا.

- طبعًا من هنا.

- ولكننا لم نرك هنا من قبل.

قال وهو ينظر إلى أسفل قدميه. لعله أحس بأنه أساء إليها قليلاً:

- طبعاً رأيتنى، أنت فقط لا تتذكرين.

- أعتقد أنى لو كنت رأيتك لتذكرتك.

وأخذ يتفحصها بعينيه. كان سعيداً. بدا أنه يستمع للموسيقى القادمة من مذيع إيلي؛ لأنه كان ينقر بقبضة يده على كف اليد الأخرى. نظرت كوني إلى السيارة التى كانت تلتصق فى ضوء الشمس. قرأت الاسم: آرنولد فرند، وقرأت عبارة أخرى تلفت الانتباه: انتبهوا للأطباق الطائرة. عبارة كانت تجرى على السنة الصبية فى العام الماضى، ولم تعد تسمعها منهم هذا العام. تطلعت إليه برهة لعله يفسر لها معناها. سألها آرنولد فرند:

- ما رأيك؟ هيه؟ ألا تحبين أن ترى شعرك يطير مع الريح وأنت فى السيارة بجوارى؟

- لا؟

- ألا تتقين فى قدرتى على القيادة؟

- وكيف أعرف؟

- أنت فتاة صعبة. كيف لا تعرفين؟ ألا تعرفين أنى صديقك؟ ألم تربينى وأنا أضع العلامة فى الهواء وأنت تمرين أمامى؟

- أية علامة؟

- علامتى التى رسمتها لك فى الهواء.

ورسم علامة X فى الهواء بينما يقترب منها. لم يكن يفصلهما سوى عشرة أقدام. وبعد أن أعاد يده إلى مكانها كانت علامة X لم تزل هناك فى الهواء تكاد تراها كوني. تركت كوني الباب السلكى موصداً ووقفت خلفه ساكنة تنصت للموسيقى المنبعثة من مذياعها ومذياع الصبى وتطيل التحديق فى آرنولد فرند. كان يقف هناك متصلباً ينظّاهر بالاسترخاء وقد وضع إحدى يديه على مقبض الباب مما دل على نيته بعدم الابتعاد. لقد فهمت من يكون، بينطلونه الجينز المحزق الذى يظهر فخذيه وردفيه وحذائه الجلدى الملوّث بالشحم وقميصه الضيق وهذه الابتسامة الخليعة على شفّتيه، تلك الابتسامة الحالمة التى كان الصبية يستخدمونها لتتوب عنهم فيما يريدون قوله. عرفت كل ذلك عنه، وكذلك طريقته الرديئة فى الحديث حيث يختلط عنده الجدل بالهزل والحزن بالفرح، وعادته فى ضرب قبضة يده فى باطن كف الأخرى علامة على الإعجاب. ولكنها لم تعرف كل ذلك مرة واحدة.

سألتها فجأة :

- هيه، كم عمرك؟

وغابت ابتسامته هنيئة، وظنت فى الحال أنه لم يكن صبياً صغيراً، لعله فى الثلاثين أو أكثر مما جعل دقائق قلبها تتدافع بشدة.

- هذا سؤال أحقق، ألا ترين أنى فى مثل سنك؟

- اذهب للجحيم أنت وسنك.

- أو ربما أكبر منك بعامين. أنا فى الثامنة عشرة.

- الثامنة عشرة! قالت بنبرة شاكة.

وعادت ابتسامته العريضة التى ظهرت معها أركان فمه وأسنانه
البيضاء الكبيرة وعيناه اللتان تشبهان الشقوق وأهدابه الكثيفة الداكنة
كانها طليت بالقار. مدت بصرها إلى إيلى فقال لها آرنولد :

- يا ربى، إنه معتوه، أليس كذلك؟ مخبول، شخص غريب الأطوار.

كان إيلى لم يزل ينصت للموسيقى، يرتدى قميصاً لم يخلق
أضرار النصف الأعلى منه، مما أظهر صدره الذى كان شاحباً ضارباً
إلى الزرقة خالياً من العضلات التى تظهر عند آرنولد. انتصبت ياقه
قميصه حول رقبته حتى مست حافته باطن نكته. وضع جهاز الراديو
قريباً من أذنه وجلس هناك كمن أصيب بدوار تحت أشعة الشمس
المباشرة.

قالت كوى:

- فعلاً، غريب الأطوار قليلاً.

- عندئذ صاح آرنولد فرند:

- تقول إنك غريب الأطوار قليلاً... قليلاً!

مال ناحية السيارة كى بلغت نظر إيلى، واستدار إيلى ناحيتها

للمرة الأولى، ورأت كوني أنه ليس صبياً صغيراً أيضاً، له شعر جميل ووجه وخدان متوردان قليلاً، وعروق بانبت تحت جلده، ووجه طفل في الأربعين. أحست كوني بالدوار مقبلاً من داخلها إلى رأسها وأخذت تحديق في الصبى كأنما تنتظر شيئاً يخفف من الصدمة، شيئاً يعيد الأمور إلى ما كانت عليه. كانت شفتا إيلي ترتعشان بكلمات لم تفهما ضاعَت في الهواء. فقالت بصوت خفيض:

- ربما الأفضل لكما أن تذهبا.

عندئذ صاح آرنولد فرند:

- ماذا ؟ ماذا حدث ؟ جئنا إلى هنا لكي نأخذك في سيارتنا، إنه يوم الأحد.

كان صوته يشبه صوت المغنى الذى يرسل الأغاني إلى المذياع. استمر يقول:

- ألا تعرفين أن اليوم يوم الأحد يا حبيبتي ؟ لا يهمنى مع من كنت بالأمس، اليوم أنت معى، مع آرنولد فرند! لا تنسى هذا... ربما الأفضل أن تخرجى من هنا.

أطلق الجملة الأخيرة بنبرة مختلفة، فظة وكأن الحرارة سرت في جسده آخر الأمر.

- لا.. عندى مشاغل كثيرة.

- هيه ؟

- الأفضل لكما أن تذهبا.

- لن نذهب حتى تأتى معنا.

- عندى...

- كوني، لا تحاولى خداعى وتضييع وقتى، أعنى، أعنى، لا تضيعى الوقت.

ظل يهز رأسه أثناء الكلام ويصطنع الضحك. رفع نظارته الشمسية بحذر على قمة رأسه كأنه كان يخشى من شعره المستعار أن يسقط. وضع ذراعى نظارته برفق خلف أذنيه. حدقت فى وجهه وأحست بنوبة أخرى من الدوار تتطلق من أعماقها إلى رأسها. رآته شبحًا غامضًا يعتمد بظهره على سيارته الذهبية. كيف دخل البيت؟ وكيف اجتاز المدخل؟ وما هى تلك الأشياء التى عرفها عنها؟

- لو جاء أبى الآن ورأنا...

- لن يجرىء، إنه فى حفل الباربيكيو الآن...

- كيف عرفت ذلك؟

- فى بيت خالتك تبلى الآن، كلهم.. هيه... يشربون ويتسامرون.^{١١} كان يتحدث بطريقة ملغزة وهو يرنو إليها كأنما كان يلقي نظرة على الفناء الخلفى فى بيت خالتها ثم فتح عينيه وقال متحمسًا:

- نعم، هناك.. يجلسون ويتسامرون، أختك فى فستانها الأزرق،

هيه؟ وحذائها العالى... بلا جمال... لا أحد مثلك يا حبيبتي،
ياحلوتي! وها هي أمك تعطى سيدة أخرى بدينة كوز اللزة، إنهما
ينظفان اللزة، يقشرانها... صاحت كوني:

- امرأة بدينة؟ ما اسمها؟

- وكيف أعرف اسمها؟ طبعا لا أعرف اسم كل امرأة بدينة فى هذا
العالم.

ضحك آرنولد فرند وأحست كوني بعودة الدوار مع تدافع فى
أنفاسها. قالت :

- أه، إنها المسز هورنبى... من الذى دعاها؟

- إنها بدينة جدا، لا أحب المرأة البدينة، لا أحب غيرك يا حبيبتي،
لا أحب المرأة إلا فى جسمك أنت.

كان يبتسم بوجه ناعس. حلق كل فى الآخر برهة عبر الباب
السلكى ثم عاد يقول برفقة:

- الآن سوف تفعلين الآتى: ستخرجين من هذا الباب وتجلسين على
المقعد الأمامى بجوارى، إيلى سيجلس فى المقعد الخلفى، يذهب
إيلى فى داهية، صح؟ إيلى لم يكن صديقك، أنا صديقك وأنت
حبيبتي، كل حياتي.

- ماذا تريد؟ أنت مخبول.

- نعم.. أنا حبيبك. أنت لا تعرفين معنى هذا، ولكنك ستعرفين، أنا متأكد من ذلك. أنا أعرف كل شيء عنك. لكن اسمعى، أنا شخص لطيف ولن تجدى أحدا أفضل أو أكثر أدبا منى، ودائما على وعدى، سأخبرك كيف ذلك. أولا أنا شخص لطيف، حلو المعشر دائما. فى البداية سوف أضمك إلى صدرى بشدة ولن ترضى ببديل لى ولن تبحثى عن غيرى بعد ذلك؛ لأنك سوف تعرفين أنك لن تستطيعى. سوف تكاتمينى أسرارك وأكون جزءا منك، وتحبيننى.

قالت كونى:

- اخرس، أنت مخبول!

وعادت إلى الباب. ووضعت يديها على أذنيها وكأنها سمعت شيئا بشعا، شيئا لا يعنيهها هى. بدأت تتمتم:

- الناس لا يتكلمون بهذه الطريقة، أنت مجنون.

بدأ صدرها ينشق عن قلبها الذى تسارعت دقاته. وبدأ العرق يتفصد من أماكن كثيرة فى جسدها. نظرت لتجد آرنولد فرند يخطو نحوها بجسد مترنج يكاد يقع، ولكنه استطاع أن يحفظ اتزانه كشأن الثمل الحريص. تعثر فى حذائه العالى وأمسك بأحد أعمدة الشرفة وقال:

- حلوتى، أنت تسمعيننى ولا شك.

- امش من هنا!

- كوني لطيفة يا حبيبتي، اسمعي.

- سأتصل بالبوليس.

وتعثر في حذائه مرة أخرى وبصق على الأرض وهو يلعن بصوت خفيض حتى لا تسمعه كوني، ثم استأنف ابتسامته المصطنعة الغريبة التي بدت قادمة من تحت قناع. قالت في نفسها إنه يضرب قناعًا على وجهه يصل إلى حلقه.

- حبيبتي...! اسمعي، أقول لك الصراحة؟ سأعذك... بصراحة لن أقتحم هذا البيت لكي أصل إليك.

- الأفضل ألا تفعل... سأتصل بالبوليس... إذا لم تتصرف...

قال لها مقاطعًا:

- حبيبتي، أنا لن أدخل البيت.. أنت التي ستخرجين، أنت تعرفين لماذا.

بدأت أنفاسها تتسارع بما يشبه اللهات. بدا لها المطبخ مكانًا غريبًا لم تره من قبل، دلفت إلى حجرة لا تألفها، حجرة لا فائدة فيها. نافذة المطبخ ليس عليها ستارة منذ ثلاث سنوات، والحوض مليء بالأطباق المتسخة، والمنضدة لزجة يعلوها الشحم.

- هل تسمعينني يا حبيبتي؟ هيه؟

- سأتصل بالبوليس...

- بمجرد أن تلمسى سماعة التليفون لن أكون مضطرا للإبقاء على وعدى لك، سأضطر لأقتحام البيت. هل تحبين ذلك؟

اندفعت إلى الداخل وحاولت إغلاق الباب. كانت أصابعها ترتجف. قال أرنولد فرند فى همس وهو يحدق فى وجهها مباشرة.

- ولكن ما الفائدة فى إغلاقه؟ إنه مجرد باب منخلى هش، لا يشكل عقبة.

كانت إحدى قدميه تتخذ وضعًا غريبًا كأنها ليست داخل الحذاء، تتجه ناحية اليسار محنية عند كاهله. أردف:

- أعنى أن أى شخص يستطيع أن يحطم بابًا هشا كهذا زجاجًا أو خشبًا أو حديدًا، أو أى شئ إذا أراد، أى شخص خاصة أرنولد فرند. إذا أضرمت النار فى البيت الآن يا حبيبتى فهل يكون أمامك سوى إلقاء نفسك بين ذراعى على الفور ثم تعودين إلى بيت أهلك فيما بعد؟ أنت تعرفين ذلك مثلما تعرفين أنى حبيبك فكفى عن خداعى.

جزء من هذه العبارات كان يقوله بصوت غنائى رشيق يرجع صدى أغنية تعرفها كوني من أغانى العام الماضى عن فتاة ألفت بنفسها بين ذراعى صديقها ثم عادت إلى بيت أهلها فيما بعد.

وقفت كوني عارية القدمين على الأرض المفروشة بالمشمع
تمعن النظر فى الصبى. قالت بصوت خفيض هامس:

- ماذا تريد؟

- أريدك أنت.

- ماذا؟

- رأيته تلك الليلة وفكرت، قلت إنك من أبحث عنها. نعم يا
سيدتى. ومن ساعتها لم أشغل نفسى بالبحث عن أخرى.

- ولكن أبى قائم، سيعود ليأخذنى، ويجب أن أغسل شعرى قبل أن
يصل...

- لا، أبوك لن يأتى الآن، واعتبرى أنك غسلت شعرك لى، شعرك
جميل ويعجبنى، شكرا لك يا حبيبتى.

ثم بدرت منه انحناءة مشوبة بالسخرية، ومرة أخرى كاد يفقد
اتزانة. انحنى ليحكم رباط حذائه. بدا الحذاء محشوا كأنه كان يريد أن
يبدو أطول من الواقع. حدثت فيه ثم مدت بصرها إلى إيلي القابع فى
السيارة، بدت عيناه تنظران إلى بعيد، فى الفراغ. قال إيلي وكأنه
يسحب الكلمات من الهواء الواحدة تلو الأخرى:

- هل تحبين أن أنزع هذا التليفون؟

- قال آرنولد الذى احمر وجهه من بعد انحنائه على الحذاء أو ربما
من الخجل لأن كوني رأته حذاءه.

- هذا ليس من شأنك.

- قالت كوني:

- ماذا.. ماذا تفعل؟ ماذا تريد؟ لو اتصلت بالبوليس سوف تفران في الحال.. سيقبض عليكما الآن..

- لقد وعدتك ألا أفتح البيت حتى تلمسى هذا الهاتفون.

واستمر فى وضعه المتشنج ورجع بمنكبيه قليلاً للوراء. بدا مثل بطل فى أحد أفلام الكاوبوى يهم بإعلان شيء ما. تحدث بصوت عال يشبه الصياح وكأنه كان يتحدث إلى شخص آخر يقف بعيداً عن كوني.

- ليس لدى خطة لاقتحام البيت الذى تنتمين إليه. لقد جئت من أجلك لكي تخرجى لى وبالطريقة التى تختارينها. إنك تعرفين من أنا.

- أنت مخبول!

همست وتراجعت خلف الباب دون أن تتجاوزته إلى داخل البيت حتى لا يغريه ذلك بتعقبها.

- ماذا.. أنت مجنون.. أنت..

- هيه ؟ ماذا تقولين يا حبيبتي؟

انطلقت عيناها تستكشف أرجاء المطبخ دون أن تدرى أين تقف.

- نعم هذه هى طريقي يا حبيبتي.. ستخرجين، وسوف ننطلق

بالسيارة فى جولة ممتازة، ولكن إذا انتظرت حتى يأتى أهلك
فسوف تكون المتاعب جمة.

- قال إيلى وهو يمسك بالراديو بعيدًا عن أذنيه ويلوى قنسمات
وجهه:

- هل تريدني منى أن أفصل التليفون؟

- عندئذ قال له أرنولد فرند:

- قلت لك: أغلق فمك يا إيلى، ألا تسمع؟ اذهب عالج أذنك، صح؟
اسمع.. هذه البنت الجميلة ليست مزعجة على الإطلاق، ستكون
لطيفة معى. لذا، إيلى كن فى نفسك، هذه ليست فتاتك.. صح؟ لا
تكثر الكلام معى. اعرف حجمك، لا تحشر نفسك، لا تثر
حفيظتى.

كان يتكلم بصوت هامس خال من المعنى كأنه كان يلاحق
العبارات التى حفظها غير مطمئن بتأثيرها على سامعه. ثم ما لبث أن
تلفظ بعبارات جديدة يحاول تجربتها مع الإبقاء على عينيه نصف
مغمضتين.

- لا تترحف تحت سورى! لا تدخل فى جحرى! حك بأصابعك
المتسخة جسدك فقط!

ووضع يديه فوق حاجبيه توقفا للضوء، وخص كونه بنظرة
جعلتها تترجع إلى المطبخ وقال:

- لا تأبهى بكلامه يا حبيبتي، إنه مجرد شخص تافه، مغفل، صح؟
أنا حبيبك، وكما قلت لك ستخرجين إلى بارادتك مثل أية سيدة
محترمة، وسأتناول يدك، ولن أسبب لك أى أذى، لن أسبب الأذى
لأحد، أعنى أباك الأصلع وأمك وأختك ذات الكعب العالي، لأنه..
اسمعى لماذا أسبب لهم الأذى؟

- قالت كوني هامسة:

- اتركنى وشأنى.

- هيه، هل تعرفين العجوز التى تعيش على الناصية هناك؟ السيدة
التي تربي الدجاج وأشياء... هل تعرفينها؟

- لقد ماتت!

- ألا تحبينها؟

- إنها ميتة... إنها لم تعد هنا...

- ولكن ألا تحبينها؟ أعنى هل تضميرين لها ضغينة أو حقدا أو شيئا
ما؟

ثم خفض صوته وكأنما لاحظ ما انطوى عليه من قسوة. مس
بيده النظارة الشمسية الجائمة على قمة رأسه وكأنه كان يريد أن يتأكد
من وجودها.

- الآن كوني فتاة لطيفة.. مهيبة.

- ماذا أنت فاعل؟

- أمرين، وربما ثلاثة فقط.... ولكن أعدك ألا يمر وقت طويل حتى
تهيمى بى حبا، ستحبيننى حبك لأقرب الناس إليك. نعم، لقد
شبع من نصحك، والآن هلمى. أنت لا تريدین الأذى لأهلك،
هل تريدین ذلك؟

عندما استدارت ارتطمت بمقعد أو شيء يشبه المقعد أصاب
ركبتھا. ولكنها استمرت تجرى إلى الحجرة الداخلية وأمسكت بالتليفون
وسمعت صوتا صاخبا كالزئير، زئير نحيف. كان الخوف قد عقل
لسانها فلم تملك إلا الاستماع إلى ذلك الصوت المنبعث من سماعة
التليفون التى بدت لها مثقلة بالرطوبة.

همت أصابعها أن تتلمس طريقها نحو الأرقام، ولكن الخوف
أصابها بالشلل فلم تجد القوة على الحركة. بدأت تصرخ فى التليفون.
فى ذلك الصوت الزئيرى النحيف. صرخت بأعلى صوت، تنادى أمها.
أحست بأنفاسها تتدافع تدافعا عنيفا فى رئتيها وكان آرنولد فرند كان
يطعنها بشيء من الخلف طعنات متكررة لا ترحم. أصبحت حبيسة
النحيب الحزين الذى غمر العالم مثلما كانت حبيسة ذلك المنزل الذى
أصبح لها سجنا.

وبعد برهة عاد إليها سمعها وبصرها ووجدت نفسها جالسة على
الأرض معتمدة على الحائط بظهرها الذى بلله العرق. وكان آرنولد
فرند يخاطبها من وراء الباب السلكى:

- فتاة مهذبة! أعيدى التليفون إلى مكانه.

عندئذ ركلت التليفون بعيدًا عنها.

- لا يا حبيبتي، خذيه مرة أخرى وأعديه إلى مكانه كما كان.

تناولت التليفون مرة أخرى وأعادته إلى مكانه. توقف الزئير.

- أنت إذن فتاة مهذبة! الآن اخرجي.

كان الخوف قد عقد لسانها. أصبح العالم فارغًا أمامها. اضمحل صراخها، وانتهى عويلها، وجثمت على الأرض وقد وقعت إحدى ساقها تحت فخذها. ومضة من النور بحجم رأس الدبوس جالت في قاع عقلها؛ قالت في نفسها: لن أرى أمي مرة أخرى، لن أنام في سريري مرة أخرى، أحست ببلوزتها الخضراء الزاهية مخضلة بالعرق.

قال آرنولد فرند بصوت واضح رفيق أشبه بصوت ممثل على

المسرح:

- انس هذا البيت، هذا البيت بيت أبيك، مثل صندوق كرتون

أستطيع أن ألقه رأسًا على عقب. أنت تعرفين ذلك، وكنت

تعرفين ذلك، هل تسمعيني؟

قالت في نفسها: يجب أن أجد حلاً. استمر يقول:

- سنذهب معًا إلى مكان رائع، في الخلاء حيث الشمس المشرقة

وأريج الأزهار الجميل، سأضمك إلى صدري، ولن تكونى فى
حاجة لأحد سواى وسوف تعرفين الحب على يدى وماذا يفعل،
ليذهب هذا البيت فى داهية! يبدو جامداً لا حياة فيه.

ومر بأظافره على الباب السلكى، ولم ترتجف هذه المرة بسبب
الضوضاء.

- الآن ضعى يدك على قلبك يا حبيبتى، اشعرى بما أقول، ماذا أمام
بنت جميلة مثلك غير أن تكون لطيفة وحلوة وتستسلم؟ وتأتى إلى
قبل أن يأتى أهلها؟

تسارعت دقات قلبها، ذلك الكائن الحى الذى تستطيع أن تمسك
به الآن بيديها. أحست أنها لا تملك شيئاً من هذا العالم ما خلا تلك
الدقات المتسارعة لقلب حزين يضطرب داخل جسد لم تعد تملك من
أمره شيئاً. استمر آرولد فرند يقول:

- أنت لا تريدین لهم الأذى، الآن انهضى يا حبيبتى، انهضى
بنفسك.

ونهضت.

- الآن اتجهى ناحيتى. تمام. تعالى هنا. إيلى، نح هذا، ألم أقل لك؟
أنت غبى، أنت مغفل يا إيلى.

لم تكن عيناه غاضبتين: الآن تعالى إلى المطبخ، إلى يا حبيبتى،
دعينا نرى ابتسامتك، حاولى، أنت بنت صغيرة وشجاعة وحلوة، وهم

الآن يأكلون الذرة المشوية والسجق المشوى على نار نصبت فى الهواء الطلق، ولا يعرفون عنك شيئاً. أنت أفضل منهم يا حبيبتي، ليس منهم من يستطيع أن يفعل شيئاً من أجلك.

أحست كونى ببرودة الشمع تحت قدميها. طردت خصلة من شعرها بعيداً عن عينيها. وغادر آرنولد فرند موقعه بجوار العمود، وفتح لها نراعيه برسغين متداعيين علامة على أن العناق سيكون حنوناً آمناً لا حرج فيه.

ألقت يدها على الباب السلكى وفتحته. راقبت نفسها وهى تدفع الباب فى تودة وتفتحه كأنها وجدت مأماً آخر الأمر، راقبت ذلك الجسد وتلك الرأس التى يزينها الشعر الطويل، يخرج ليلقى أشعة الشمس حيث كان آرنولد فرند يقف هناك ويقول فى تنهيدة طفق يتنغمها:

- فتأتى الحلوة الصغيرة ذات العينين الزرقاوين.

لم تكن عينا كونى زرقاوين بل كانتا سمرأوين. تسمرت فى مكانها لا تجد قوة على الحركة وقد شخص بصرها فى امتدادات لانهائية من أرض وقعت تحت أشعة الشمس الساطعة، مساحات لا نهاية لها، لم ترها كونى من قبل ولا تعرف عن أمرها شيئاً غير أنها كانت مقبلة عليها الساعة.

المفتاح (١٩٧٠)

إسحاق باشيفز سنجر

كانت الساعة الثالثة وقت الأصيل حين استعدت بيسي بوبكن للخروج، والخروج عندها مخفوف بكثير من المصاعب، لا سيما في أيام الصيف الحارة؛ فهي مضطرة إلى أن ترتدى الكورسيه الضيق الذي تشد به خصرها وردفيها، وإلى أن تحشر قدميها المتورمتين في حذاء ضيق، وإلى أن ترجل شعرها الذي كانت قد صبغته في البيت، والذي أصبح الآن جامحاً ومخضباً بألوان كثيرة: صفراء وسوداء ورمادية وحمراء، وإلى أن تطمئن آخر الأمر إلى أن الجيران لن يقتحموا شقتها في غيابها ويسرقوا الملاءات والملابس والوثائق، أو أن يعيثوا بأشياءها ويخفوها.

وإلى جانب الذين كانوا يضايقونها من بنى البشر، كانت بيسي تعاني من اضطهاد الشياطين والعفاريت الصغيرة وقوى شريرة أخرى. كانت تخفي نظارتها في الكوميدينو وتجدها بعد ذلك في الشبشب. تضع زجاجة الصبغة في خزانة الدواء، وبعد أيام تجدها بالمصادفة تحت الوسادة. ذات يوم وضعت قدر الحساء في الثلاجة،

ولكن الخفى أخذ القدر، وبعد بحث طويل وجدته ببسى مصادفة فى
دولاب ملابسها وعلى سطح الحساء طبقة كثيفة من الدهن تتطلق منها
رائحة شحم حيوانى زنيخ.

الله وحده يعلم ما كانت ببسى تعانيه، كم من عمل دنىء
تعرضت له، وكيف اضطرت إلى الخصومة مع الجيران حتى لا تكون
عرضة للهلاك أو نهبا للجنون. ضربت صفحا عن التليفون لأن
المبتزين كانوا لا يملون الاتصال بها ليلاً أو نهاراً، ساعين لمعرفة
شئونها الخاصة وأسرارها الدفينة. بائع اللبن فى محل بيرتو ريكان
حاول اغتصابها ذات يوم. وحاول الصبى الذى يعهد إليه البقال توصيل
السلع إلى الزبائن إحراق متعلقاتها بسيجارة. وسلط أصحاب شركة
الإسكان ومديرها الجرذان والفئران والصراصير على شقتها التى
تعيش فيها منذ خمس وثلاثين عاماً. كانت الشقة تخضع لقانون
الإيجارات، وكانوا يريدون أن يضطرونها إلى تركها. أدركت منذ زمن
بعيد أنه لا فائدة مع هؤلاء الذين امتلأت قلوبهم بالحقْد - لا الباب
الحديدى ولا القفل الذى صنعه خصيصاً، ولا خطاباتهما إلى الشرطة،
والعمدة ووكالة الاستخبارات الأمريكية، ولا حتى إلى الرئيس نفسه فى
واشنطن. ولكن المرء مضطر إلى أن يأكل طالما كان على قيد الحياة.
وكل شئ يأخذ وقته: التأكد من إغلاق النوافذ وأبواب الغاز وتأمين
الأدراج. كانت تحفظ أوراق النقد بين صفحات دائرة المعارف، أو بين
صفحات نسخ قديمة من كتاب الجغرافيا القومية، أو فى دفاتر سام

بوبيكنز القديمة. كانت بيسى تخبئ أسهمها وسنداتها بين ألواح الخشب الخاصة بالمدفأة التى لم توفد أبداً، وكذلك تحت المقاعد. أما المجوهرات فقد خاطتها فى ثنايا المرتبة. كانت لديها خزانة إيداع فى البنك فى وقت من الأوقات، ولكنها أقتعت نفسها منذ زمن طويل بأن الحراس هناك لديهم مفاتيح خاصة.

عند الخامسة تقريباً كانت بيسى مستعدة للخروج. ألقت نظرة فاحصة أخيرة على نفسها فى المرآة - وجه ضعيف عريض، وجبهة ضيقة، وأنف منبسط، وعينان مائلتان، ونصف مغلقتين مثل عيون الصينيين، على ذقنها نبتت لحية صغيرة لا تكاد ترى. ارتدت فستاناً فاتحاً مزينا بزهور باهتة وقبعة قديمة مزينة بحبات كرز خشبية وحبات عنب، وحذاء باليّا رثا. وقبل أن تغادر الشقة قامت بفحص أخير للحجرات الثلاث والمطبخ. كانت الملابس والأحذية وأكوام الرسائل التى لم تفتحها تتناثر فى كل مكان. كان زوجها، سام بوبيكنز، الذى رحل عنها منذ عشرين عاماً قد قام بتصفية تجارته فى العقارات قبل وفاته؛ لأنه كان ينوى التقاعد فى فلوريدا. ترك لها أسهماً وسندات وعدداً من دفاتر التوفير وبعض صكوك الرهن. ظلت الشركات والبنوك ترسل لها الشيكات وكشوف الحسابات. طالبتها مصلحة الضرائب بضرائب على الدخل. كانت تتلقى كل بضعة أسابيع عروضاً من شركة تعنى بدفن الموتى عن بيع مساحات من الأرض فى مدافن فسيحة جيدة التهوية. فى الماضى كانت بيسى تجيب عن هذه الرسائل،

وتذهب لتودع شيكاتها وتتابع دخلها ومصاريفها. كانت قد أهملت كل شيء في الفترة الأخيرة لدرجة أنها توقفت عن شراء الجرائد وقراءة صفحة المال والاقتصاد.

كانت بيسى تطبق البطاقات التي تحمل التوقعات التي تعرفها فقط وتحشرها بين الباب والحلق. كانت تحشو ثقب المفتاح بالمعجون. ماذا كان في وسع أرملة مثلها دون أبناء أو أقارب أو أصدقاء أن تفعل أكثر من ذلك؟ في الماضي كان الجيران يفتحون أبواب شققهم وينظرون إليها ويضحكون على حرصها البالغ، وكان آخرون يضايقونها. مضى هذا منذ زمن بعيد. بيسى لا تكلم أحداً. وكذلك لا ترى جيداً، أيضاً. النظارة التي كانت ترتديها منذ سنين لم تعد مجدية. ولكي تذهب إلى طبيب عيون ليصنع لها نظارة أخرى كان سيكلفها الكثير من الجهد - كل شيء كان صعباً، حتى دخول المصعد والخروج منه، ذلك المصعد الذي كان بابه لا يغلاق إلا بعنف.

لم تكن بيسى تمشي لأبعد من عمارتين من العمارة التي تسكن بها إلا فيما ندر. كان الشارع الواقع بين برودواي وطريق ريفرسايد يزداد صخباً وقذارة يوماً بعد يوم. فئات من صبية الشوارع الفقراء يذرعون الطرقات جيفة وذهاباً في مزقهم وأهدامهم. ورجال يملأ عيونهم الشر بشعور جعدة، وعيون مسعورة لا يملون من الشجار مع نسوة صغيرات تنتفخ بطونهن بالحمل على الدوام. كن يصحن بأصوات نحيفة مصلصلة في وجوه هؤلاء الرجال. كانت الكلاب تتبحر

والقطط تموء والحرائق تنشب وتهرع إليها عربات المطافئ والشرطة.
فى شارع برودواى حلت أسواق السوبرماكت محل دكاكين البقالة
القديمة. البقالة توضع الآن فى عربات صغيرة، وعلى الزبون أن
ينتظم فى طابور أمام المحاسب.

كان عالم بيسى يتداعى منذ وفاة سام فى نيويورك. المؤدبون
من الناس تركوا الحى الذى اجتاحتہ أسراب من اللصوص والبغايا.
محفظة بيسى سرقت منها ثلاث مرات أو أكثر. وعندما كانت تبلغ
الشرطة كانوا يغربون فى الضحك ولا يفعلون شيئاً. عابر الشارع
كانت حياته معرضة للخطر. كانت بيسى تفسح الطريق دائماً للمارة.
نصحها ناصح بأن تحمل عكازاً، ولكنها أجفلت من الفكرة؛ فلا هى
عجوز ولا هى معوقة. فى بعض الأوقات كان الرومانيزم يتركها فى
حالتها، فكانت تعتمد إلى ملابسها القديمة فى دولابها وتجربها وتتطلع
إلى نفسها فى المرأة.

فتح باب السوبر ماركت كان أشبه بالمستحيل. كانت تنتظر حتى
يأتى أحد الزبائن ويعينها على فتحه. السوبر ماركت نفسه مكان لا
يبتدعه إلا الشيطان. اللبات تتوهج فيه بضوء مبهر يؤذى العيون،
والزبائن يدفعون أمامهم بعربات صغيرة محملة بالبقالة، ويصطدمون
بالناس فى طريقهم. الأرفف مسرفة فى الارتفاع أو مسرفة فى
الانخفاض، والضوضاء تصم الأذان، والفرق بين القيث فى الخارج
والبرد القارس فى الداخل يصيب المرء بالسل الرئوى. المعجزة أن

بيسى لم تصب بسرطان الرئة. الأمر الذى كان يعذب بيسى أكثر من أى شىء آخر هو التردد. كانت تتناول كل شىء بيد مرتجفة وتتظر فى البطاقة المدون عليها السعر، ليس هو الطمع ولكنه الشك الذى يملأ المرء فى تلك السن. وكانت بيسى تقول دائماً إن التسوق يجب ألا يستغرق أكثر من ثلاثة أرباع الساعة، ولكنها أمضت ساعتين دون أن تفرغ من التسوق فى هذا السوبر ماركت. وعندما أحضرت العربة أخيراً ووقفت فى الطابور أمام المحاسب تذكرت أنها نسيت علبه الدقيق. وعندما عادت وجدت سيدة قد أخذت مكانها فى الطابور. وعندما دفعت الثمن ظهرت مشكلة جديدة؛ فقد وضعت بيسى الفاتورة فى الجهة اليمنى من جيبها ولكنها لم تجدها فيه، وبعد بحث وتنقيب طويلىن وجدتتها فى جيب صغير تضع فيه الفكة فى الجهة الأخرى من الحقيبة. نعم! من يصدق هذا؟ إذا أخبرت أحداً بذلك سيظنها ملتأثة.

عندما دخلت بيسى السوبر ماركت كانت شمس النهار ساطعة، خرجت منه قبيل الغسق. تحولت الشمس إلى اللون الأصفر أو البنى، وبدأت تغطس وراء نهر هدسون أو خلف تلال نيوجرسى الغائمة. بدأت المباني فى شارع برودواى تطلق الأشعة التى امتصتها خلال النهار المتقد. وسمعت بيسى قعقة القطار النفقى قادمة من تحت الأرض، وأحست بانبعاث الرائحة الكريهة لأدخنة تبعث على الضيق. كانت بيسى ممسكة بالحقيبة الثقيلة التى امتلأت بالبقالة فى يدها، وفى الأخرى كانت تتشبث بمحفظتها بقوة. لم تكن برودواى من قبل بتلك

الدرجة من الفقر وسوء المنظر والقدارة. استنشقت الرائحة العفنة لغائط الكلاب والإسفلت اللين والبنزين والفاكهة النتنّة الملقاة على الطرقات. كانت أسراب الحمام تحجل وسط أكوام من الجرائد الممزقة وأعقاب السجائر المتناثرة على رصيف المشاة. تعجبت كيف استطاعت تلك المخلوقات الضعيفة أن تتجو من أقدام المارة في زحامها الرهيب. كانت السماء المتقدمة بالحر تمطر الأرض بتراب أصفر غريب. وهناك أمام متجر زينت واجهته بزرع صناعي، وقفت فئات من الرجال في قمصانهم النتنّة يريقون عصير الببايا وعصير الأناناس على أنفسهم في حركات عصبية وكأنما كانوا يريدون إخماد نار اضطرمت في أحشائهم. كانوا يعلقون على رعوسهم ثمار جوز الهند وقد صاغوها على شاكلة الهنود الحمر. وفي شارع جانبي شاهدت بيسي صبية يجلسون تحت صنوبر مفتوح ويتراشقون بالماء في مزاح ثقل. وفي ذلك الحر الملهب كانت الشاحنات الضخمة تجوب الشوارع بمكبرات الصوت تطلق أغنيات صاخبة وصغيرا يصم الأذان دعاية لمرشح سياسي. وفي مؤخرة الشاحنة كانت تقف فتاة بشعرها الذي نصبته كالأسلاك تنثر وريقات الدعاية هنا وهناك.

كانت الأمور أثقل مما كانت بيسي تحتمل؛ عبور الشارع وانتظار المصعد والخروج منه إلى الطابق الخامس قبل أن يغلق الباب. وضعت بيسي الحقيبة على عتبة الشقة وبحثت عن المفاتيح. عمدت إلى مبرد أظافرها لتحفر به المعجون الذي كانت قد سدت به

تقرب المفتاح. وإنها لتدخل المفتاح وتديره في القفل فإذا به يقصف ولا يبقى في يدها غير مقبضه، وتترك بيسى حجم مصيبتها؛ فالآخرون من قاطنى العمارة يحفظون نسخا من مفاتيحهم لدى المدير، ولكنها لم تفعل لأنها لم تكن تتق في أحد قط. كانت قد طلبت من صانع الأقفال أن يؤلف لها قفلا رقميا ليس من سبيل إلى فتحه إلا بتأليف رقم سرى معين. كانت تحفظ نسخة من المفتاح في درج من أدراجها الكثيرة ولكنها لم تكن تحمل معها إلا ذلك المفتاح الذى قصف. همست بيسى فى نفسها: "حسنا، هذه هى النهاية إذن". لم يكن هناك من تلجأ إليه لطلب العون. كان الجيران أعداءها. الألداء. وكان المدير ينتظر سقوطها. أحست بيسى باحتباس فى حلقها أعجزها عن الكلام وحرمها البكاء. ظلت تتلفت حولها عليها ترى العفريت الذى وجه إليها تلك اللطمة الأخيرة. لقد دربت بيسى نفسها على استقبال الموت منذ فترة طويلة، ولكن الموت على عتبة الشقة أو على درجات السلم هو ما لم تكن تتمناه. إلى متى يستمر هذا الكرب إذن؟ راحت تقدح زناد فكرها. أكانت تجد صانع مفاتيح لم يغلق أبوابه تلك الساعة؟ وحتى إن وجدته أين المفتاح الذى ينسخ منه؟ سوف تضطره إلى القدوم إلى باب الشقة بأدواته لكى يعالج القفل، إنها فى حاجة إذن إلى حرفى من إحدى شركات الصيانة. لم يكن لديها من النقود ما يكفى. لم تكن تحمل من النقود أكثر من حاجتها الفعلية. كل ما أعطاه لها المصرف لا يتعدى ربع الدولار. همست لنفسها باللغة الليدية: آه يا أمى لا أريد أن أعيش

أكثر من ذلك. وعجبت غاية العجب لتذكرها تلك اللغة التي نسيها العالم أو كاد.

وبعد نوبات تردد طاللت أو قصرت عقدت ببسى العزم على العودة إلى الشارع عليها تجد واحداً من تلك المحلات التي تباع الأدوات المنزلية أو الأكشاك التي تعنى بصنع الأقفال والمفاتيح. تذكرت كشك المفاتيح القائم في الحي الذي تقطن فيه، فلم يزل للناس مفاتيح تتحطم أيضاً. ولكن ماذا كانت صانعة بحقيبة البقالة؟ كانت ثقيلة تعجز عن حملها. لم يكن أمامها من خيار إلا أن تتركها أمام الباب. وقالت في نفسها: "السرق في كل مكان، ومن يدريني ربما كان الجيران هم الذين عبثوا بالقفل عن نية مبيتة حتى لا أتمكن من دخول الشقة وتطلق أيديهم في سرقتها وتخريب ممتلكاتها". وضعت ببسى أذنيها على الباب قبل أن تشرع في العودة إلى الشارع.

لم تسمع إلا همهمة متصلة لا تعرف مصدرها أو سببها، أشبه بتكات الساعة أحياناً والأنين أحياناً أخرى. لعله كان عفريتاً من الجن محبوساً بين الجدران يتحرق للفكاك، أو لعله كان صوت المياه الجارية في الأنابيب. ودعت ببسى حقيبتها التي كان يجب أن تكون محتوياتها في الثلاثة الآن وليس أمام باب الشقة في ذلك الحر المتقد. قالت لنفسها: الزبد سوف يذوب واللبن سوف يحمض، إنها عقوبة حلت بي، اللعنة! اللعنة! في تلك الأثناء كان أحد الجيران يهم بالنزول بالمصعد، أشارت له ببسى أن يمسك لها الباب. ولكن ربما كان من

للصوص. قد يسعى لإيقافها والاعتداء عليها. فتح الرجل لها الباب. همت أن تشكره ولكن الكلمات التصقت بحلقها فلاذت بالصمت. ولماذا تشكر أعداءها؟

عندما خرجت بيسى إلى الشارع كان الظلام قد غشى كل شيء. كان الحوض تحت الصنبور يفيض بالمياه. وكانت أضواء مصابيح الشارع تتساقط على مياه الحوض فبدأ أشبه بالبحيرة الواسعة. شب حريق في إحدى الضواحي مرة أخرى. صك أذنيها صياح صفارات عربات المطافئ وقعقة آلات الحريق. ابتل حذاؤها فعمدت إلى شارع برودواي فلم تتج من غائلة الحر. كانت عيناها تخذلانها في النهار أما في الليل فقد كانت تقترب من العمى. كانت ترى الأضواء داخل المحلات ولكنها لم تكن ترى شيئاً من البضاعة. مشت قريبة من النوافذ ولكنها اصطدمت رغم ذلك بالمارة مما اضطرها إلى الاعتذار عن عدم وجود العصا. مرت أمام صيدلية ومخبز ومحل يبيع السجاد وقاعة مخصصة للمناسبات. لم تصادفها لافتة تشير إلى المحل المطلوب. مضت في طريقها لا تلوى على شيء. بدأت عزيمتها تقتز ولكن عزمها كان قد صح على ألا تستسلم. ماذا تفعل امرأة قصف مفتاحها؟ أتموت؟ أتبلغ الشرطة؟ لابد من أن هناك من يصلح ما تحطم. ولكن أين؟

كان رصيف المشاة مزدحمًا بالمتفرجين. لابد أن حادثة وقعت هناك. سيارات الشرطة وسيارات الإسعاف تسد الشارع. أحد الناس

ينظف الإسفلت بخرطوم مياه؛ ربما كان يزيل الدم. هُيئ لبيسى أن
عيون المشاهدين تلتصق بثشف غريب كأنما كانوا يجدون المتعة فى
مصائب الآخرين. إنها سلواهم الوحيدة فى تلك المدينة الشقية. لا، لن
تبحث عن يساعدها من بين أولئك الناس. ولم تزل ماضية فى طريقها
حتى وصلت إلى الكنيسة. بضع درجات كانت تؤدى إلى الباب المغلق
الذى تشمله الظلمة. لم تقو على الجلوس. كان ساقاها يرتجفان والحذاء
يسحق أصابعها وبعض كاحليها. تحطمت قطعة من العاج فى الكورسيه
وبدأت تعض فى لحم بطنها. قالت: حسناً لقد اجتمعت قوى الشر كلها
على الليلة. اختلط الغثيان بالجوع الذى راح يقرض أحشاءها وقفزت
السوائل الحمضية من معدتها إلى فيها. قالت: يا أبى الذى فى
السموات، إنها نهايتى. ثم تذكرت المثل البيدى الذى يقول: إن المرء
الذى يعيش دون أن يعمل حساباً للعواقب إنما يموت دون إيمان حقيقى.
لقد أهملت حتى أن تكتب وصيتها.

لا بد أن بيسى نامت. فعندما فتحت عينيها أحست بسكون آخر
الليل. كانت الشوارع خالية أو تكاد. وكان الظلام يغشى الكون. لقد
أطفئت الأنوار داخل نوافذ المحلات. لم يعد للحر وجود، والبرد
يخترق ثيابها. ظنت لبرهة أن محفظة نقودها قد سرقت منها. كانت
ملقاء على درجة أسفل قدميها. مدت بيسى يدها، نراعاها فقدا الحس.
أحست برأسها المستندة على الحائط ثقيلة كالحجر، بساقيها صلبتين
كالخشب، وبأذنيها يمتلآن بالماء. رفعت أحد حاجبيها ورأت القمر
يتهادى على ارتفاع منخفض فى نراه الغائمة. وقرينا منه كانت هناك

نجمة ترسل أضواءها الضاربة للخضرة. تتأبث ببيسى. كانت قد نسيت فى الغالب وجود السماء والقمر والنجوم. مضت السنون من عمرها دون أن تنتظر إلى النجوم. كانت تنظر إلى أسفل دائماً. كانت الستائر المصنوعة من الجوخ مسدلة على نوافذ شقتها حتى لا تتمكن العيون المستطلعة فى الشوارع من رؤيتها. حسناً، فإذا كان هناك سماء فربما كانت هناك إله وملائكة وجنة. أين ترقد روح أمها وأبيها؟ وأين سام؟ إن بيسى لم تعرف الواجب أبداً؛ لم تقم بزيارة واحدة لمقبرة سام فى مدافن الأسرة. لم تضىئ شمعة واحدة فى ذكرى وفاته. ظلت مشغولة طوال الوقت بمنازعة القوى السفلية ولم تتذكر أن هناك قوى عليا أقدر منها على جلب الضرر والمنفعة. أحست بيسى بالحاجة إلى الصلاة للمرة الأولى منذ سنين. إن الله غفور رحيم، يشمل برحمته الجميع حتى من لا يستحقون. أبواها سوف يشفعان لها فى الآخرة. تعلقت بضع كلمات على طرف لسانها ولكنها لم تتذكرها. قالت: يا رب، ارحمنى فإنى أستحق ما حل بى.

ازدادت الدنيا هدوءاً وبرودة. تغيرت إشارات المرور إلى اللون الأحمر ثم الأخضر دون أن تحس بسيارة مارة. رأت فجأة زنجياً مقبلاً من حيث لا تدرى. كان يمشى مترنحاً. دنا من بيسى وحدها بنظرة فاحصة ثم مضى إلى حال سبيله. كانت تعلم أن حقيبتها مليئة بالأوراق المهمة، ولكن اهتمامها كان قد فتر بهذه الأشياء. لقد ترك لها سام ثروة طائلة، ماذا فعلت بها؟ كانت تدخر لكبرها وكأنها لم تزل فى ميعة الصبا. سألت نفسها: كم عمرى الآن؟ ماذا فعلت لنفسى خلال تلك

السنين؟ لماذا لم أرحل إلى مكان ما وأستمتع بمالي أو أساعد محتاجًا؟ أحست بمن يضحك في أعماقها. كنت مشردة العقل وكأن منسا من الجن قد ألم بي. لم أكن أنا البتة طوال تلك السنين وإلا كيف أفسر ما حدث؟ عجبت ببسي غاية العجب. أحست كأنها استيقظت من نوم طويل. فتح المفتاح المكسور بابًا في عقلها كان موصدا منذ رحيل سام عن الدنيا.

انتقل القمر إلى الجهة الأخرى من موقعه المرتفع. كان كبير الحجم مخضبا بالحمرة ومطموس الوجه. وكان الجو باردا بعض الشيء وببسي ترتجف. أدركت أنها قد تصاب بالرئة ذاتها، ولكن الخوف من الموت كان قد غادرها كما غادرها من الإفلاس. هبت نسمات عليلّة قادمة من نهر هُدسون، وظهرت نجوم جديدة في السماء. دنت منها هرة سوداء قادمة من الجهة الأخرى من الشارع. وقفت هنيهة على جافة الرصيف ونظرت بعينيها الخضراوين إلى ببسي ثم اقتربت منها ببطء وحذر. قضت ببسي عمرها تكره الحيوانات كلها؛ الكلاب والقطط... الحمام وحتى العصافير. كانت تُعتقد أنها تنقل الأمراض وتجلب العفن للأشياء وأن الشياطين تتلبس القطط بالذات. وكانت تخشى أن تقابلها قطة سوداء مما ينذر بشؤم. ولكن ببسي الآن تشعر بحب لهذا المخلوق الذي يعيش في ملكوت الله دون بيت أو أبواب أو مفاتيح. أقبلت الهرة على الحقيبة فتشممتها وحكت ظهرها بساقي ببسي وطفقت تموء. قالت ببسي: "المخلوق المسكين جائع،

أتمنى لو أعطيتَه ما يأكله، كيف للمرء أن يكره مخلوقاً كهذا؟ آه يا أمي، لقد خدعت نفسي، خدعت نفسي، سأبدأ حياة جديدة". وساورتها أفكار خائنة. هل تتزوج؟

ولم يمض الليل دون إثارة ما. رأت بيسي فراشة في الهواء. حامت لحظات فوق سيارة مركونة ثم أفلتت. أدركت بيسي أنها كانت روح وليد لأن الفراشات الحقيقية لا تطير في الليل. واستيقظت ذات مرة لترى كرة من النار في حجم فقاعة الصابون المضيئة تنتقل من سقف إلى سقف ثم تغوص في مكان مجهول. أدركت أن ما رأيته كان روحاً لميت مات حديثاً.

لقد نامت بيسي. استيقظت فزعة مع الفجر. أشرقت الشمس على الحديقة المركزية. لم تستطع بيسي رؤية أشعة الشمس من موقعها أمام باب الكنيسة. كانت الدنيا في شارع برودواي في لون الورد الضارب إلى الحمرة. كانت نوافذ المباني على شمال بيسي تضطرم بلهب الشمس الطالعة. زجاج النوافذ يومض بالضياء مثل كوى السفن. حطت حمامة على مقربة من بيسي. حطت على قدميها الصغيرتين الحمرأوين. شرعت تتقر شيئاً كأنه كسرة عفنة من خبز أو قطعة طين. تملكّت بيسي الحيرة. كيف تعيش تلك الطيور وأين تنام عندما يجن الليل؟ وكيف تقاوم المطر والبرد والثلج؟ قالت: سأرجع إلى بيتي، لن يتركني الناس وشأني في الشارع. ولكن النهوض كان مصدر ألم لبسي. أحسّت أن جسدها قد التصق بدرجة السلم التي كانت تجلس عليها. ألمها ظهرها واستشعرت وخزاً خفيفاً في ساقها. بدأت تسير

بيبطة إلى البيت. استنشقت هواء الصباح المشرب بالندى. شمت رائحة العشب والقهوة. لم تعد وحيدة. بدأت الشوارع الجانبية تقنف بالرجال والنساء من كل ركن ذاهبين إلى أعمالهم. منهم من يعرج على كشك الجرائد ليبتاع جريدة قبل أن ينزل إلى المترو. بدوا صامتين ومسالمين على نحو غريب وكأنهم قضوا الليل أيضًا في وقفة مع أنفسهم ولم يصبحوا إلا وهي طاهرة نقية. قالت ببسى في نفسها: متى استيقظوا حتى يكونوا الآن في الطريق إلى أعمالهم؟ لا، لم يكن الناس في الحي من قطاع الطرق والقتلة. أشار لها أحد الشباب بتحية الصباح. حاولت أن تبسم له، ولكنها كانت قد نسيت تلك الإيماءة النسائية التي عرفتھا جيدًا في شبابها، لقد كانت الدرس الأول الذي لقنته لها أمها.

عندما وصلت ببسى إلى العمارة التي تسكن فيها كان المدير الأيرلندي، عدوها اللدود، يقف هناك يتبادل كلمات مع جامعي القمامة. كان عملاً طويلاً الشفة العليا بأنف قصير وذقن مدبب وخدين غائرين. شعره القليل الأصفر غطى الصلع الذي يغزو رأسه. حذج ببسى بنظرة مروعة وقال لها: ماذا حدث يا جنتي؟

تمتت ببسى ببضع كلمات. أخبرته بما حدث لها وأرته الجزء المتبقى من المفتاح الذي كانت تمسك به في يدها طوال الليل. صاح المدير في وجهها: "يا أطفاف الله". سألته ببسى: "ماذا أفعل الآن؟" قال المدير: "سوف نفتح لك الباب". قالت ببسى: "ولكن المفتاح العمومي ليس لديك". قال الرجل: "لدينا وسائلنا لفتح الأبواب في حالة الحريق". وغاب المدير في شقته دقائق معدودة وخرج يحمل بعض الأكواب

وحزمة من المفاتيح فى سلسلة طويلة. أخذ المصعد مع بيسى. كانت حقيبة الطعام لم تزل هناك على العتبة ولكنها بدت ناقصة. وبدأ المدير يعالج القفل. سألها: "ما كل هذه البطاقات؟"

ولم تجبه بيسى.

قال: "لماذا لم تأتى إلىّ وتخبرينى بدلا من التجوال فى الشارع. يا إلهي! امرأة فى سنك تفعل ذلك!" ولم يزل يتقّب ويخرق بأدواته إذ سيدة أطلت من شقتها فى معطفها البيتى وخفها وشعرها المعقوص وقالت: ماذا "جرى لك؟ كل مرة أفتح باب شقتى أرى هذه الحقيبة، أخذت منها اللبن والزبد ووضعتة فى ثلاجتى".

وتعلقت الدموع بأهداب بيسى وما لبثت أن نزلت على صفحة وجهها وهى تقول بصوت متهدج: آه يا ناسى الأعزاء. لم أكن أعرف ذلك...

أخرج المدير جزء المفتاح المكسور داخل القفل ولم يزل يعالج القفل حتى أدار فيه مفتاحا وفتح الباب. وهنا سقطت البطاقات المحشورة بين الباب والحلق، ودلف المدير إلى الصالة مع بيسى وإذا برائحة عفنة تتبعث من الشقة عجبت لها بيسى كما عجب لها المدير. قال المدير: "فى المرة القادمة عندما يحدث لك شىء كهذا تعالى وأخبرينى. هذا هو عملى الذى أنا هنا من أجله".

وهمت بيسى أن تكافئه ولكن الإعياء كان قد بلغ منها مبلغا لم تستطع معه أن تحرك يدها لفتح الحقيبة. أحضرت لها جارتها الزبد

واللبن. دخلت ببسى حجرة نومها وتهاققت على سريرها. أحست بضيق فى صدرها ورغبة فى التقيؤ. أحست بشيء ثقيل يتردد من قدميها إلى صدرها. استمعت له ببسى دون قلق. أنصتت له مستطلعة لرغبات جسدها. كانت الجارة تتحدث مع المدير ولم تفهم شيئاً مما كانا يقولانه. حدث لها الشيء نفسه منذ ثلاثين عاماً خلت عندما أخذت المخدر فى المستشفى قبل عملية جراحية. كان الطبيب والمرضة يتحدثان ولكن قبل العملية بدت اللغة غريبة وبدأ الصوت آتياً من بعيد.

وما لبث أن غشى السكون كل شيء. وما هى إلا ومضة حتى ظهر سام. لم يكن الوقت ليلاً ولم يكن بالنهار؛ إنه الغروب الذى خضب الأفق بحمرة الشفق. كانت ببسى تعلم أن سام فى ذمة الله. ولكنه تسلل من قبره فى توجس الهارب وزارها. كان ضعيفاً مضطرباً عاجزاً عن الكلام. جالاً فى فضاء دون سماء أو أرض حتى ولجا نفقاً مليئاً بالأنقاض، وداسا على أطلال لمبنى مجهول، ودلفا إلى دهليز مظلم تملؤه التعاريج بيد أنه مألوف لهما. أتيا منطقة يتلامس عندها جبلان بينهما ممر يسطع بأنوار شمس لا تدرى أكانت مشرقة أم غاربة. وقفا هناك يستولى عليهما التردد وقليل من الحياء. كان الموقف أشبه بالليلة الأولى من شهر العسل الذى قضياه فى البيتيل فى كاتسار. أدخلهما صاحب الفندق بملابس العرس. سمعت الكلمات نفسها التى قالها لهما حينئذ بالصوت نفسه والأداء نفسه: لستما فى حاجة لمفاتيح هنا، ادخلا وخذا راحتكما.

مدينة الكنائس

(١٩٧٣)

دونالد بارثلمى

"أجل"، قال السيد فيلبس "مدينتنا مدينة كنائس ما فى ذلك ريب".

أومات سيسيليا بالموافقة وهى تتابع بعينها يديه المشيرتين. على جانبى الشارع كانت الكنائس مرصوفة لا يفصل بينها شىء. تقف بناطح بعضها بعضًا فى تشكيلة من الطرز المعمارية المتباينة. كنيسة البحارة المعمدانية تقف شامخة بجوار كنيسة المسيح المقدس المعمدانية الحرة. كنيسة القديس بولص الأسقفية إلى جوار كنيسة العهد الإنجيلي. كنيسة العلم المسيحي الأول، كنيسة الله وكنيسة الموتى وسيدتنا سيدة الانتصار وجمعية الأصدقاء وجماعة الله وكنيسة الرسل المقدسين. قمم وأبراج. المباني التقليدية إلى جوار التصميمات الحديثة للمباني البارعة الفسيحة قريبة الشبه بالمصاطب.

قال السيد فيلبس:

- الكل هنا يهتم بالأمور الكنسية اهتمامًا بالغًا.

تساءلت سيسيليا:

- ترى هل أتسق مع هذا الجو؟

جاءت سيسيليا إلى بريستر لتفتح فرعًا لمكتب تأجير سيارات.
قالت للسيد فيلبس الذى كان يعمل فى مجال العقارات:
- لست متدينة بالمعنى الحقيقى.

وأجاب:

- لا تقولى ذلك الآن. ليس هذا أوانه. ولكن عندنا الكثير من الشباب
الرائع هنا. سوف تتسقين مع المجتمع سريعًا. المشكلة الملحة
الآن هى إيجاد سكن لك. أغلب الناس، يعيشون فى الكنيسة التى
تناسب عقيدتهم. كل كنائسنا بها حجرات زيادة. عندى القليل من
الشقق فى برج الجرس وفى وسعى أن أطلعك عليها. كم تريدين
أن تدفعى فى الشقة؟

واتجهها ناحية ركن كان أمامهما فيه كنائس أخرى. مرًا أمام
كنيسة القديس لوقا وكنيسة الغطاس وجميع القديسين الأوكرانية
الأرثوذكسية والقديس كليمنت وكنيسة الحوض المعمدانية واتحاد
الطوائف والقديس أنارجيرى ومعبد عمانويل وكنيسة يسوع الإصلاحية
الأولى. كانت أبواب الكنائس كلها مفتوحة. فى الداخل يمكن رؤية
بصيص من الضوء.

قالت سيسيليا:

- فى طاقتى أن أنفع مائة وعشرة. هل عندكم مبان هنا ليست كنائس؟

قال السيد فيلبس:

- لا يوجد، وكثير من مبانى كنائسنا البديعة تقوم فى الواقع بعمل مزدوج لأنها تؤدى وظيفة أخرى. ثم أشار إلى كنيسة جورجيسة بديعة وقال:

- هذه الكنيسة مثلاً تقوم بإسكان المنهجين المتحدين وهيئة التدريس. والأخرى التى بعدها وهى كنيسة عيد الحصاد انتويا، بها محل حلاقة.

وكان هذا حادثاً فعلاً. عمود الحلاق المرقط باللون الأحمر والأبيض كان يلتصق على نحو غير واضح بواجهة كنيسة انتويا الخمسينية.

سألت سيسيليا:

- هل يستأجر الكثير هنا سيارات؟ أو هل يستأجرونها إذا وجدوها فى مكان قريب منهم؟

قال السيد فيلبس:

- أوه، لا أدرى. استأجر سيارة معناه أنك تتوین الذهاب إلى مكان ما. معظم الناس راضون تماماً بإقامتهم هنا. لدينا الكثير من الأنشطة. لا أظن أنى كنت سأفتح مكتبا لتأجير السيارات إذا كان لى أن أبدأ فى بريستر. ولكنك سوف تعرفين بنفسك.

أطلعها على مبنى صغير غاية فى الحداثة بواجهة من الطوب
الكثير والصلب والزجاج.

- هذه كنيسة القديس بارنابا. هناك جماعة طيبة من الناس. ووجبات
عشاء من الإسباجتى الرائعة.

استطاعت سيسيليا رؤية رعوس تطل من خصاص النوافذ.
ولكن عندما رأوها تحديق فيهم توارت الرعوس فى الحال. سألت
مرشدها:

- أو تظن أنها ظاهرة صحية أن تحتشد الكنائس الكثيرة جنباً إلى
جنب فى مكان واحد؟ لا يبدو الأمر متزنًا، إذا كنت تفهم ما
أقصد.

أجاب السيد فيلبس:

- نحن مشهورون بكنائسنا. إنها لا تضر بنا. وها نحن كما ترين
الآن.

فتح باباً وشرعاً فى ارتقاء كثير من السلالم والبسطات. كانت
الدرجات تعلو الدرجات. وفى نهاية الدرج دخلا حجرة ذات حجم
معقول مربعة، بنوافذ على جوانبها الأربعة، يقوم فيها سرير ومنضدة
ومقعدان ومصابيح وسجادة. علق فى وسط الحجرة أربعة أجراس من
النحاس الأصفر. هتف السيد فيلبس متعجباً

- يا له من منظر بديع. تعالى وانظرى.

سألت سيسيليا:

- هل يدقون هذه الأجراس كلها فعلاً؟

قال السيد فيلبس مبتسماً:

- ثلاث مرات فى اليوم. فى الصباح والظهر والمساء. وطبعاً

عندما تدق هذه الأجراس عليك بالابتعاد عن المكان سريعاً

قالت سيسيليا دون تفكير:

- "يا إلهى العلى القدير"، ثم أضافت "ليس من عاقل يعيش فى شقق

الأجراس هذه. عرفت الآن لماذا هى خالية؟"

قال السيد فيلبس:

- وهل تظنين أن ذلك هو السبب؟

قالت فى نبرة اتهام:

- إنهم يؤجرونها للغرباء القادمين إلى المدينة.

قال السيد فيلبس:

- لن أفعل ذلك. هذا من شأنه أن يكون ضد الروح الكنسية.

- هذه المدينة مدعاة للخوف. هل تعرف ذلك؟

- ربما تكون كذلك. ولكن لست أنت التى تحكمين. أليس كذلك؟

أعنى أنك جديدة هنا. ينبغى أن تأخذى جذك فترة من الوقت. إذا

كنت لا تريدین شقة فی الأدوار العليا فعندی فی بدروم كنيسة
المشيخة المركزية، ولكن عليك أن تشاركی فیها آخرین. فیها
امرأتان الآن.

قالت سيسيلىا:

- لا أريد أن أشارك أحذا. أريد مكانا خاصا بى.

سألها الرجل الذى يعمل فی مجال العقارات مستطلعا:

- لماذا؟ ما الغرض؟

- غرض؟ لا يوجد غرض. فقط أريد أن...

- هذا ليس بالمألوف هنا. أغلب الناس يشاركون آخرین. أزواج
وزوجات وأبناء مع آبائهم وآخرين لهم رفقاء فى الحجرة
الواحدة. هذا هو الأسلوب المتبع.

- ما زلت أفضل مكانا خاصا بى.

- هذا غريب جدا.

- هل عندك أماكن كهذه؟ أقصد غير أبراج الأجراس تلك.

- أظن أنه يوجد القليل من هذه الأماكن.

ثم قال السيد فيلبس فى ابتسار:

- أظن أنى أستطيع أن أطلعك على واحد أو اثنين من هذه الأماكن.

توقف لحظة وأردف:

- الواقع أننا نتبنى قِيمًا مختلفة ربما من بعض الجماعات المحيطة.
وقد كتب عنا الكثير. لقد خصصت لنا محطة السى بى إس أربع
دقائق ضمن أخبار المساء فى برامجها ذات مرة منذ ثلاث أو
أربع سنوات. قالوا عنها: مدينة الكنائس.

قالت سيسيليا:

- مكان خاص بى وحدى. هذا ضرورى ومهم إذا كان لى أن أحيا
هنا.

قال السيد فيلبس:

- هذا موقف غريب. من أية ملة أنت؟

لزمت سيسيليا الصمت. الواقع أنها لم تكن تنتمى لأية طائفة.
كرر السيد فيلبس السؤال على مسمعيها:

- سألتك من أية ملة جئت؟

قالت سيسيليا:

- فى وسعى أن أستدعى أحلامي. فى وسعى أن أحلم بما أريد. إذا
كنت أريد أن أحلم أننى أقضى وقتا ممتعا فى باريس أو فى أية
مدينة أخرى، كل ما أفعله هو أن أذهب إلى فراشى وأحلم هذا
الحلم. أستطيع أن أحلم بما أريد.

عندئذ قال السيد فيلبس وهو يحدق فيها:

- وبم تحلمين أغلب الوقت؟

قالت دون وجل:

- فى الغالب أمور تتعلق بالجنس.

قال السيد فيلبس وهو ينظر بعيدًا:

- بريستر ليست المكان المناسب لهذه الأمور.

كانت أبواب الكنائس مفتوحة على جانبي الشارع. خرجت مجموعات صغيرة من الناس ووقفت هناك أمام الكنائس يمعنون النظر فى سيسيليا والسيد فيلبس. تقدم شاب وصرخ بأعلى صوت:

- كل واحد فى هذه المدينة لديه سيارة! لا يوجد أحد فى هذه المدينة لا يمتلك سيارة!

سألت سيسيليا السيد فيلبس:

- هل هذا صحيح؟

قال السيد فيلبس:

- نعم. هذا حقيقى. لا أحد هنا يستأجر السيارات. ولا حتى منذ مائة عام.

قالت:

- إذن لن أبقى هنا. سأجرب حظى فى مكان آخر.

قال السيد فيلبس:

- يجب أن تبقى. يوجد مكتب تأجير سيارات هنا فى كنيسة جبل موريا المعمدانية على أرض الردهة. هناك طاولة وتليفون وسلسلة مفاتيح سيارات وتقويم. قالت:

- لن أبقى ما دام السبب فى وجودى قد انتفى.

قال السيد فيلبس:

- نحن نريدك. نريدك أن تبقى خلف طاولة وكالة تأجير السيارات أثناء ساعات الدوام اليومية. هذا يجعل المدينة كاملة.

- لن أبقى هنا. لست أنا.

- يجب أن تظلى. هذا ضرورى جدا.

قالت:

- سوف أحلم بأمور لا تحبها.

قال السيد فيلبس:

- نحن قوم ساخطون. ساخطون حقاً. ثمة خطأ.

قالت:

- سأحلم بالسر، وستندم.

- نحن كسائر المدن، عدا أننا نتصف بالكمال. سخطنا يمكن أن يعوض بالكمال. نريد فتاة تأجير السيارات، واحدة تقف خلف هذه الطاولة.

قالت سيسيليا مهددة:

- سأحلم بحياة لا تحبها.

أمسكها من ذراعها وقال:

- أنت لنا، فتاة لتأجير سياراتنا، كوني مهذبة، ليس في وسعك عمل شيء.

قالت سيسيليا:

- انتظر وسترى.

إيماءة (١٩٨٠)

جون أباديك

أخبرته بإيماءة لم يرها تصدر منها من قبل. هاتفته جوان من المحطة بعد أن تناولت، وكان ريتشارد يعلم، الغداء مع صديقها. كان اليوم يوم السبت، ابنه الأكبر أخذ سيارته ذات الغطاء المتحرك... وكانت سيارة جوان الفولفو جديدة. عندما مر بوسط البلاد كانت هي قد اجتازت - مشيًا - الشارع الرئيسى متوجهة إلى هناك. كان يومًا من أيام سبتمبر الذى تورق فيه الأشجار ويشيع النفاذ فى كل مكان وتمس الأشياء برودة خفيفة وصفاء ساحر. ابتسم كل للآخر عندما تقابلت العيون من بعيد. فتحت الباب واستقرت على مقعدها وشرعت تربط حزام الأمان لتوقف طنينه المؤنب. تخضب وجهها بلون الورد بسبب المشى. بنت ملابس الخروج عليها أشبه بالبذلة. كانت تحمل كيسًا أو اثنين مما يدل على قدمها من جولة تسوق. حاول ريتشارد اجتياز منحنى حاد فى الشارع الضيق، وفى اللحظة التى استقرت بين توقفه ومحاولة الارتداد إلى الخلف أخبرته. قالت له بعد أن مست بأصابع يد كف اليد الأخرى على نحو عفوى سريع لم يحدث صوتًا؛ إيماءة تقع

بين تصفيق طفل مرح وإشارات الكبار على الإصغاء: "حبيبي.. لقد قررت الانفصال عنك، وأطلب منك الآن مغادرة المدينة".

خفق قلبه وامتلات نفسه بكبرياء طارئة؛ ذلك ما كان يبتغيه. قال لها في حرص واقتصاد: "موافق، إذا كنت متأكدة أنك ستكبرين أمرك".

ألقي نظرة فاحصة على وجهها المتورد وسمتها المتحضر ليرى ما إذا ما كانت تعنى ما قالت. لم يصدق أنها كانت تعنى ما قالت. توقفت خلفهما شاحنة بريد ذات ألوان حمراء وبيضاء وزرقاء أطلقت نفيرا حادا للتذكرة لا للوم؛ أسرة مابل معروفة لدى الجميع فى تلك المدينة التى أنفقا فيها معظم سنوات حياتهما الزوجية.

تمكن ريتشارد من رد السيارة للخلف واجتاز المنحنى الحاد ونيم شطر المنزل. مرقت بهما السيارة فى خفة الطيور السابحة فى الفضاء. كانت جديدة وقوية أحسا فيها بنشوة مسكرة وكأنها تبخرت هى أيضا بفعل إيماءة جوان المغناج. أردفت مفسرة: "الأمور انتهت بيننا إلى ركود؛ أسنبت، حياتنا أضحت بلا هدف". قاطعها قائلاً: "لن أتخلى عنها". قالت:

- لا داعى لتكرار ما قلته من قبل.

- ولا أحسبك متخلىة عنه.

- سأفعل إذا كنت تريد. هل تريدنى أن أتركه الآن؟

- كلا، إنها فرصتى.

- إذن متفقان. اذهب إلى حيث شئت. أظن بوسطن أفضل مكان...
بعيدًا عن الأولاد ولا تبعث على الملل بالنسبة لك.

- موافق، ومتى ترغبين في أن يتم ذلك؟

اختلس إليها نظرة بطرف عينيه. بدت من صورتها الجانبية
هشة مفعمة بالانفعال، وبدا انهيارها مرهونا بكلمة أخرى قاسية تصدر
منه. حبس أنفاسه محاولا الإبقاء على ثباته أثناء تخليق السيارة التي
كان يقودها وهي تجتاز ظهر الجسر النائي. أطلقت جوان العنان لدخان
سيجارتها المرتجفة. قالت:

- بمجرد أن تجد المكان المناسب. ليكن الأسبوع القادم، أم تراه
مبكرًا جدًا؟

- ربما.

- هل يحزنك ذلك؟ أترانى قاسية لا أرحم؟

- كلا، بالعكس، أنت مدهشة وفي غاية اللياقة والإنصاف كشأنك
دائمًا. جميل، إنه شيء لم أكن لأفعله دون موافقتك على كل حال،
ترى كيف ستعيشين بدوني؟

حرج نظرة أخرى بجانب عينيه. أحس بوجهها يسعى للتطلع
إليه فاستدار ناحيتها ليرى. كان وجهها الذى شاع فيه الدم ينطلق
بالدلال والتحدى. لا بد أنهما تناولا كأسا آخر من الخمر مع الغداء.

- الأمر هين.

كان يعرف أنها تغالط نفسها. إيماءة تحدى أقرب منه لطلب العفو، ولكنه أثر الصمت ولم يشأ أن يدخل فى جدال، فقد أصبح غرورها الآن تحت رحمته.

لاحت من منعطفات الطريق صناديق بريد وأشجار سفعتها شمس الخريف الغاربة. سألها:

- وهل هذه فكرتك؟ أم هى فكرته؟

- فكرتى. جاءتتى وأنا فى القطار. كل ما قاله آندى: "أخشى أن أظل أطعمك إلى الأبد".

منذ بداية الصيف وهما على حال الانفصال. كان ريتشارد يبيت جل لياليه فى شاليه مستعار على شاطئ البحر على مسافة ميلين من منزلهما. حاول النوم هناك ولكن الحنين كان يقض مضجعه بينما كانت ساعات الليل تطول. كان يحب أن يتناول ما أعدت جوان من طعام للعشاء. لقد اعتاد على طعامها؛ كل خلية فى جسده نمت على طعام من طهى يديها. كان العشاء ينتهى إلى شراب ما بعد العشاء بينما كان الأولاد (اثنان منهم فى المدرسة وآخران لم يزالا فى طور الطفولة) ينكبان على إنجاز واجباتهما المدرسية أو يحدقان فى التلفاز. كان الشراب ينتهى بحديث وإفضاءات، ثم كلمات قاسية، ودموع تذرف، وتوجه مباغت إلى الفراش. كانت على صواب. لم تكن الأمور بينهما تنبئ بازدهار أو تحسن قريب. عشرون عاما مضت على زواجهما دون أن يتمكنوا من صناعة الحب خلالها.

وجد شقة فى بوسطن فى اليوم الثانى من البحث. كانت
سكرتيرة المكتب العقارى ذات شعر أحمر وعجيزة مستديرة، تضع
قناعاً متداعياً من الماكياج كمن تريد أن تخفى شبابها. داهمه إحساس
بالسعادة والخوف. سار خلفها أثناء صعودها ونزولها حتى أحس
بتبرمها. أدارت المفتاح بعصبية فى القفل ودفعت الباب بكتفها لتفتحه.
أشارت إليه بالدخول بإيماءة استعراضية خفيفة من يد مبسطة.

لم تكن الأرض مكسوة بالسجاد الخشن ولا بالخشب المجزأ؛
كانت مكسوة بالمطاط. من خلال النافذة المفتوحة اصطدمت عيناه
بناطحة سحب فأدرك أن المشهد يكفيه. كانت ناطحة سحب لم يكتمل
بناؤها فاشتهرت بكونها كارثة جميلة. مشهورة لأنها كانت كارثة (كان
الزجاج يتساقط منها) وسبب الكارثة أنها كانت جميلة. كان لدى
المهندس المعماري الذي شيدها رؤية فنية. كان يحلم بتشديد بناء
لامرئى رغم ضخامة حجمه. جعل جدرانها من الزجاج حتى تعكس
مباني وسط المدينة الهائلة كما تبدو فى الأفق وتنبو فى السماء. ولكن
أمله خاب، فقد أخذ زجاج النوافذ الأشبه بالمرايا يتساقط فى الشارع
فاستبدل بالزجاج قطع كئيبة عتمة من خشب الأبلكاش. بيد أن الواجهة
الخارجية القديمة ظلت توحى، من خلال النافذة العتيقة المتداعية لهذه
الشقة المفاجئة، بزرقة هائلة قريبة الشبه بتلك الزرقة الهائلة للبحر التى
كان ريتشارد يستيقظ على رؤيتها كل صباح فى تلك الشاليه البحرى
ببرونته القارصة. قال لذات الشعر الأحمر: "جميل". رفعت حاجبيها

الأسودين. ارتعشت يداه وهو يوقع على عقد الإيجار عندما كتب
"سب" (*) في الفراغ المخصص للحالة الاجتماعية. ومن هاتف صيدلية
أبرق الأخبار، ليس إلى زوجته التي كانت ستحزن، ولكن إلى صديقته
على البعد نفسه. قال لها بصوت يشى بنبرة اتهام:

- حسناً، لقد وجدت شقة ووقعت العقد. لا أصدق. فى وسط
الاستثمارات التى ملأناها توجد هذه الجملة البسيطة: "غير مسموح
بأسرة ماء".

- ولكنك تبدو مهتزا جدا.

- أخشى أن تكون قد فتحتنا الباب لورطة قادمة.

- لا تفعل إذا كنت لا ترغب.

من البعد تقطع صوت روث وتضائل قليلاً، تخيل أنها كانت
تحاول الوصول إلى سيجارة أو طفاية، أو كانت تعتدل فى جلستها
استعداداً لجولة تدلل.

- بل أريد. هى أيضاً تريد. جميعنا يريدنى أن... حتى الأولاد أبدوا
استعدادهم، أو تظاهروا بذلك على الأقل.

تجاهلت كلمة "تظاهروا".

- هلا وصفتها لى؟

(*) اختصار كلمة separate وتعنى أنه منفصل عن زوجته. (المترجم)

كل ما كان يذكره الأرضية، ومشهد الكارثة الزرقاء والسحب المعكوسة التى تتهادى على صفحاتها وذات الشعر الأحمر. أخبرته أين يجد حاجته من المواد الغذائية وأين يغسل ملابسه. وهل سيكون له ملابس تحتاج إلى غسيل؟

جاء صوت روث من البعد عندما فرغ من حديثه.

- تبدو جميلة.

كان يقف خلفه رجلان أحدهما ساعى بريد أسود ينز عرقاً، ينتظران دورهما فى استخدام الكابينة. كره المدينة. كره زحامها ومظاهر الفقر فيها. رد بحدة:

- ماذا أعجبك فيها؟

- أراك مضطرباً. لا تفعل إذا كنت لا تريد.

- كفى عن هذا القول.

شكالية التزما بها مدعاة للضجر، الزعم بأنهما أحرار فيما يريدان فعله. تجنب الإحساس بالذنب كان الطريقة وروث خبيرة فى ذلك. لم يكن الصدق يفوح من كلماتها الأشبه بالطاولات الفارغة. عباراتها تدخل فى باب الإتيكيت. اثنان فى مئاة. بينما كانت كلمات زوجته لا تعرف التحفظ، صريحة المعانى. سأله روث:

- ماذا أقول غير أنى أحبك؟

وعلى الطرف الآخر سمع تنهيدة عميقة. تخيل سيناريو هذه العلامة: لقد استدارت بوجهها عن السماع، وأطلقت زفرة حادة؛ بالطريقة نفسها التي اعتادها، وفي الوقت نفسه أطفأت سيجارة لم تدخن نصفها، سحقها بين أصابعها الملولة كحشرة ظلت تقاوم إلى آخر لحظة طلبًا للنجاة. كان يؤلمه إصرافها الواضح. كان يؤلمه كل إصراف. عنَّ له أن يضع السماع ولكنه رأى في ذلك علامة على إصراف فارغ وظل على الخط.

وحده في شقته اكتشف أنه أشبه بربة بيت بارعة بعيدة عن كل إصراف. عندما كانت تغادر روث أو جوان كان يبدأ على الفور في ممارسة نظامه العزوبي؛ يفرغ الطفايات التي، إذا كانت روث هي الزائرة، تمتلئ حتى حافتها بأنصاف سجائر طويلة شاحبة أخدمت قبل الأوان. وإذا كانت جوان هي الزائرة، كانت تمتلئ بأعقاب قصيرة نادرًا ما تتجاوز الفلتر. وليس من السيدتين من نوهت بأكثر من إيماء للحاجة لتنظيف المكان. كان يسره أن يلاحظ ذلك. أصبح السرير حطامًا والأطباق متسخة، وكانت طفاياته الثلاث (واحدة من الزجاج وأخرى من الفخار والثالثة أشبه بغطاء برطمان من الصفيح على شكل كعكة مسطحة) تخضع أيضًا للتنظيف على نحو مرتب أشبه بنقاط انطلاق لاعب بيسبول. كان يفرغها ويبيّس سواء لمعرض الجثث القوضوى في طفاية روث أو لماوى الأعقاب القصيرة الذى يشبه فى أناقته البلورات الصخرية فى أصيص يمتلئ بأزهار النرجس. وعندما أنب روث ذات مرة لسحقها السجائر قبل الأوان، متكئة فى الواقع على

ظنها الجميل بقيمتها التي لا تتكرر عنده، أشارت إلى أنه من الأسلم لها كثيرا أن تقتل السجائر في المهد، وكانت طبعا على حق؛ فقتل الآخرين خير من قتل الذات. كانت روث هي الحب وهي الحياة، لذلك أحبها. ولكن اقتصاد جوان المفرط ورغبتها الصامتة في الموت أمور مألوفة لديه مثل الخيوط على يديها النحيفتين. لهذا ابتسم ريتشارد وهو ينظف طفايتها أيضا. كانت ابتسامته إيماءة بلا نظارة.

كانت "الكارثة" تقف مضيفة في قلب المدينة. في الليل كانت تبدو مثل صف باهت من أنوار خافتة أو سفينة نحيلة تمخر عباب السماء. وأثناء هطول المطر وتكاثف الضباب كانت تختفي تماما، بينما كانت قدور المداخل القرميدية وأبراج الكنائس المبنية من حجر الحديد بالنسبة لريتشارد تعضد وجودها المادي الداكن. حاول تحليل المنطق من وراء استبدال النوافذ كما يراها في الفرجات وما يملأها من زجاج. لم يتوصل إلى أي منطق فيما عدا السعي بطئ الحركة لعمال لامرئيين يفرغون التجاويف المعدة للزجاج ويملاونها في دأب النحل. وعندما كان يمعن النظر لدقائق يرى فضاء خاويا أشبه بتكاثف قطرة ندى يضحى زجاجيا عاكسا ذا لون أزرق ضارب إلى الخضرة. مرت أيام قبل أن يدرك أن على الزجاج القديم، قريبا من أنفه، على الألواح الزجاجية المتداعية لنافذته نقش مستأجرون سابقون طيبون تسلموا بقطع الماس، الحروف الأولى من أسمائهم وتواريخ. وكان أكثر منا نقشوه وضوحا وعمقا ذلك العهد المؤثر الباعث على الضحك في سطرين بمقاطع ثلاثية.

بهذا الخاتم

أتزوجك

استغرب سعادته الحالية بينما كان يتمشى فى الشارع. كان يعد نفسه لحزن أكيد وإحساس بالذنب وسأم. غير أن الأمور جرت على النقيض من ذلك، امتلأت أيامه عن آخرها بقوائم مشترياته من الأطعمة والأواني المنزلية، وبحته عن بدائل ربة البيت مثل حجرة آلات الغسيل حيث كان يجد الطلاب يقرءون أخبار هس ويتمازحون بينما كانت ملابسهم تتقلب داخل الآلة فى حركة سقوط وصعود دائرية لا تتوقف، وربات بيوت زنجيات شابّات يدندن فيما كن ينشرن ملاءاتهن الكتانية. يا لها من متعة لم يتوقعها؛ يتمشى إلى البيت فى الظلمة متأبطاً بملابسه النظيفة ساخنة كخبز طازج ويمضى تحت مشربيات الشقق المتألقة بالأضواء مثل نوافذ عرض. أحس بأنه أكثر عقلاً وانتعاشاً وإقبالاً على الحياة وتحرراً من الإثم. وساعة يأخذ التعب منه من كثرة التنقل بين المدينة والضواحي كان يسعده أن يلجأ إلى جلسة شرابه بعد العشاء. أحب شراء الطعام وإحضاره إلى البيت، ووجد سعادة فى طهى وجباته وأكل الطعام كله بينما يشنف أنفيه بموسيقى باخ التى يبيثها المذيع، أو يطالع كتاباً تركه مفتوحاً فوق حامل الكتب الذى اشتراه. استمر لعبته المنظمة الغريبة فى استهلاك الطعام قبل أن يفسد، وشرب اللبن كله قبل أن يحمض. أعجبه الطريقة التى تطوف بها الطائرات سماء الليل الداكن. الطائرة مدينة صغيرة أخرى فوق المدينة الأولى. أحب

الطريقة التى تشدو بها صفارات رجال البوليس منبئة بحلول كارثة غير كارثته. سعادة مؤقتة؛ فترة نقاهة. بيد أنها كانت سعادة كاملة على نحو غريب، سعادة مشروعة ومستقيمة الخطوط ومجللة بالوقار رغم ما يشوبها من خوف مباغت واضطراب طارئ. عليه أن يعيّن لكل ساعة هدفها دفعا للإخفاق. كان يتحرك مثل بقعة ماء أو مثل حجر يقفز من مكان إلى مكان فى خفة ورشاقة على السطح الزجاجى المنوتر لحبائه الجديدة. داس كل الأمكنة. تمشى ذات مرة أسفل ناطحة السحاب الزرقاء رفيقته والشاهد عليه. رآها بشعة المنظر مثقلة بألواح الخشب الضخمة والأنفاق التى تحوطها الأسلاك النحيلة المطلية بالزنك، يحرسها رجال البوليس الذين يطلقون أصواتهم المنبهة ويحمون المارة من الزجاج المتساقط، وملاك المبنى من إقامة المزيد من الدعاوى ضدهم أمام المحاكم لأن ملايين من أموالهم أصبحت فى مازق حقيقى. كانت المساند الخشبية والنفايات تنتشر فى المنطقة فتجعلها متافرة اللغيمات. كانت الطوابق السفلية مكسوة بخشب الأبلكاش المصمت ذى اللون الأسود الكئيب. جمال المبنى فى شقه عنان السماء على قواعد شديدة التشابك. تجنب ريتشارد المشى تحته مرة أخرى.

عندما زارته روث تعاونوا فى تنظيف بلاطات الأرضية البيضاء وتركوا السوداء فببت الشقة كلها غاية فى النظافة. داهمها الزمن بسرعه المعهودة. لم يتبق وقت إلا لتبادل بضع كلمات فى النهاية ويدها على مقبض الباب. سألته:

- ألم تلاحظ أن هذا المبنى مدهش بشروق الشمس على صفحته.

- أنا أحب هذا المبنى وهو يحبني.

- لا، أنا التي أحبك.

- ألا ترضين بالمشاركة؟

- كلا.

كانت تحس بأنها تمتلك الشقة. وعندما أخبرها أن جوان كانت هناك أيضاً وللمتعة لا غير نامت معه - زوجها - انتحبت روث في التليفون وهي تقول: على سريرى؟ فرد في حزم غير معهود: بل على سريرى. فسألت مذعنة بصوت متهدج أشبه بصوت الطفل النائم: على سريرك؟

وعندما انتهت المحادثة وهذأت ثورة صديقه توجه برؤاه الخيالية لصديقه العملاقة الجامدة وقد انتشحت بلون معتم باهت في جانب، وبفسجي فاتح في جانب آخر، ولون لازوردى في جانب ثالث، تغشاها خطوط باهتة من جراء انعكاسات سحابات رقيقة كالعهن المنفوش على ارتفاع شاهق. حادثته، كما تفعل دائماً، بنظرات وحش أخرس؛ عن الجمال والمعاناة، عن بساطة قدر لها أن تزول، وعن الخسارة المالية التي حلت على المقاول وحاجزى الشقق. نشر المساء ظلاله الزرقاء، وما لبث الليل أن حاصر أطراف النهار. تقلصت مساحة الرؤية لدى ريتشارد وشرع يقرأ بشيء من السخط للمرة المائة

ذلك النقش المشوه للحقيقة، تلك العبارة الابتهالية الكاذبة التي التمعت
في أضواء الشمس الراحلة.

بهذا الخاتم

أتزوجك

منذ شهور خلت خلعت روث خاتم زواجها. وعندما قامت
باصطحابه في رحلة لقضاء ليلة بطولها في فندق وضعت على إصبعها
العارى خاتمًا موروثًا من الماس. وفي الفندق أحست روث بالأسى
لفقدانها اسمها وانتحالها الزائف لاسمه، رغم أنه شرح لها أن ذلك من
قبيل تمشية الأمور. واحتجت قائلة: ولكنى أحب اسمى الحقيقى. وكانت
تلك في الواقع درتها التى تتألق سحرًا والتى لم تحب أن تنتهك: أن
روث كانت تحب روث. غادرا الفندق كل لهدف وعندما عادت قبله
طلبت المفتاح من موظف الاستقبال وأعطته رقم الحجرة.

سألها الموظف عن اسمها. إنها سياسة الفندق فهو لن يعطى
المفتاح لرقم.

سألها ريتشارد أثناء توقفها:

- وما الاسم الذى أخبرته به؟

وأثناء توقفها ومن نظراتها الحزينة رأى ريتشارد حيرتها التى
كانت عليها ساعة استوقفها الموظف تعود من جديد. ولما كانت، قبل
زواجها، مدرسة من الدرجة الثانية فإن ريتشارد يرى الآن صفاتها

التي جبلت عليها؛ الجد المتكلف وإثارة الخوف في محدثها واللهجة
الأمرة التي لا بد أنه كانت تواجه بها الفصول المليئة بالأطفال الصغار.

- قلت له إن اسمي هو المسز مابل.

وابتسم ريتشارد وقال: هذا أحسن تصرف.

أصبحت دعوة جوان للغداء خارج البيت من الأمور الصعبة.
عرضت عليه ذات يوم على سبيل الترويح لا أكثر، أن يخرجنا في
نهاية يوم من أيام الأحاد. مر شهر الآن على رحيله إلى بوسطن.
عادات جديدة حلت محل أخرى قديمة. مما يغري بترك أطفالهما الذين
أصبحوا فريسة للملل من التلفاز أكثر من ملهم من الأب، ذلك الزائر
الدكتاتورى. عنف جون، أكثر أبنائه قبولاً للتعلم وأكثرهم إحساساً
بالذنب بسببه: كف عند تكرار حكاية ملك هذه، أليكون سن الخامسة
عشر سن ملل؟ عندما كنت فى الخامسة عشر مثلك كنت أنفق الوقت
فى قراءة الروايات العالمية وأنت تقضى الوقت فى مشاهدة الكونغ فو.
على الأقل تعلمت كيف أقرأ.

"شئ جميل". قال الابن فى اقتصاد يشى باحتجاج. كان صوت
المراهق خشناً يخشى أن يصرفه شئ عن لقطة مذهشة بالتصوير
البطئى فى الفيلم. عندما كان ريتشارد يعيش بينهم كان يشاهد البرنامج
مع ابنه وكان يعلم أنه برنامج جيد، وأن سلبية البطل الشرقى التى
تخفف منها موجات مفاجئة من عنف غامض من شأنها أن تدس فى
عقل الصبى نسقاً من القيم مثلما تأثر ريتشارد فى سلوكه بالأفلام

الرخيصة والكتب الهازلة، وأخذ برودة أعصابه من بوجارت ولا مبالاته من أروول فلان والازبواجية والخداع من السوبرمان. نزل من فوق الأريكة واستند بركبة واحدة على الأرض حيث كان يجلس جون. كان جون ذا زغب فى الشفة العليا وحاجبين داكنين خليقين برجل، كان يحدق برواقية فى الفيلم الخيالى. تهدج صوت ريتشارد وهو يسأل ابنه: ترى هل يقل الملل لو كان أبوك لم يزل يعيش هنا؟

"لا". جاءت الإجابة فورية تشى بنفاد صبر، وكان السؤال كان متوقعًا. هل كان الابن يعنى ما يقول حقًا؟ لم تنتقل عيناه من مكنههما فى تلك اللحظة، ربما لخوفه من فضح نفسه، وربما لمال أصيل من الكبار وطرائق حياتهم. غادر ريتشارد موقفه المتضرع، خفف من حرجه وقع خطوات جوان على الدرج. كانت فى ملابس الخروج، ترتدى الفستان الأسود الذى لا يبلى مع كر الأيام، بقب مزين بمحار مروحي وقلادة من فضة مكسيكية. على الأكل ربما كان ذلك علامة على سوء توافقهما المثير، لا هو ملها ولا هى، خشى أن يعترف بذلك، ملته. كان حذرًا غاية الحذر. تحملا كل شئ، وجربا كل شئ.

وعلى الرغم من ذلك فقد حل الكوكيتيل وطعام البحر والنبىذ محل حذره وحرصه. سمع نفسه يقول للوجه المألوف والغريب جدا الجالس أمامه على الطرف الآخر من الطاولة:

- إنها جميلة وتحبنى، وأنت تعرفين.

أحس بالخجل مثل طفل شعر فجأة بأن أمه، رغم أنها كانت

منتبهة على سبيل المجاملة، لا تكثرث بوصفه لمباراة رياضية مثيرة.
ولكنه أرف:

- غير أنها تتحدث كثيرًا عن كل شيء وكأنها تخن لوظيفتها القديمة
كمدرسة من الدرجة الثانية. الأسوأ من ذلك، رغم كل هذا
التفسير، ورغم كل هذه المغامرات الرائعة التي جرت بيننا، لم
تزل بعيدة عن الإخلاص لى. مثلك.

تغيرت نبرات صوته. لقد ذهب إلى أبعد مما يريد. بسطت
جوان يدها اليسرى، كانت لا تزال ترتدى خاتم الزواج، على مفرش
المائدة فى إيماءة مفهومة صادقة. وقالت:
- ستخلص لك. إنها مسألة وقت لا أكثر.

المثال القديم لم يزل هو المرئى أمام العين. حيثهم النادلة التي
كانت تدرس لأطفالهما فى مدرسة الأحد، وكان زواجهما لم يزل قائمًا.
كانا ياكلان فى المطعم ثلاث أو أربع مرات فى العام. كانا يعرفان
المقاول الذى بناه محاكيا أثرًا قديمًا، منذ اثنى عشر عامًا ثم غادر
المدينة مقلسًا مطرودًا يلحق به العار، ورغم ذلك لم يحمل حقًا لأحد.
ما زالت نكراه تتردد فى غمرة الأضواء. زوجان آخران، أكبر سنا
من ريتشارد ميلل وزوجته، عمل الزوج يوما مع ريتشارد فى لجنة
بلدية، جلسا إلى مائدتهما وقد تطلق وجهيهما بالابتسام وطفقا يتلاطفان
ويتعانقان على تلك الطريقة الأمريكية المعهودة. هل كانا يعرفان؟ لا
يهم، فى هذا النادى ذى الترتيبات الطارئة. تلاطف ريتشارد وزوجته

بالمقابل، وتوقفا بعد أن غادر الزوجان الأكبر سناً. رمت جوان
ظهريهما بنظرة فاحصة وقالت: ترى ماذا لديهما وليس لدينا؟ ورد
ريتشارد: ربما كان لديهما القليل، ولا يطمحان في المزيد.

كانت كأنها تقاوم إطرانه المبطن، وكان ممثلاً. يقاوم الرجاءات.
سألها:

- ما شأن الأولاد الآن؟ يبدو جون منطوياً.

- هذه طبيعته. كف عن انتقاده له.

- فقط لا أريده أن يظن نفسه قد أصبح زوجك الصغير. فالمنزل
يبدو ضخماً الآن.

- أنت الذى تخبرنى؟

- أنا آسف.

كان آسفاً حقاً. رفع كفا يديه على المنضدة. قالت له جوان:

- أليس غريباً أن زجاجة ممثلة لم تعد تكفى اثنتين؟

- هل أطلب لك أخرى؟

وكان فزعاً فى قرارة نفسه من التبذير. وفهمت ذلك منه وقالت:

لا... فقط اعطنى نصف ما فى كأسك. وقال وهو يصبه لها: خذيه
كله. قالت: إذن جماعك معها كان رائعاً؟ وفاجأته الملاحظة، شعر
بالحرج وخشى أن تؤسس لاتجاه بغیض فى الكلام عن المعاشرة.

وكشأنه مع روث، ينبغي أن يكون هناك مع جوان أيضًا لغة خاصة بالاتصال. أخبرها بأن ذلك قائم بين غير المتزوجين.

- وهل هذا عدل أيها الرجل الطيب؟

مالت الخمر التي ابتلعته جوان من كأس دافيد برأسها فبدأت تخف لقصف صاخب وشيك. مالت على المائدة حتى أقصاها وقالت: يجب أن تعدنى ألا تخبر بذلك أحدًا، حتى روث. ثم صدرت منها إيماءة عند كلمة "تعدنى": بسطت يداً محتجة. قال لها ربما كنت لست مضطرة إلى أن تقولى ذلك. قالت: لست بحاجة.

فهم لماذا أبقت على تحفظها حتى تلك اللحظة. كانت تستبد بها الرغبة فى الحديث عن صاحبها الذى تبقى عليه دافئا كالرضيع. إنها تهم الآن بخيائته. قال لها ريتشارد: أرجو ألا تفعلنى. قالت: لا تكن متزمنا على هذا النحو. أنت الشخص الوحيد الذى أستطيع التحدث إليه. وهذا لا يعنى شيئًا.

- هذا ما قلته حين ذهبنا ونمنا فى شقتى.

- وهل اكرثت بالأمر؟

- وبشكل لا يصدق.

ضحكت جوان فانحسرت شفتاها عن أسنان متقنة أعجب ريتشارد للمرة الألف باستوائها واكتمال بياضها الناصع. رآها ريتشارد علامة على اكتمال عقلها ونقاء روحها.

انعطف بها المرح إلى نوع من السعادة الطاغية بينما كانت تبثه
 حكاياتها عن آندى وكيف تشاجرا مع مديرة أوتيل لعدم وجود منشقة
 فى حجرة أخذها ساعة أصيل، وكيف كان يستغرق فى النوم لسبع
 دقائق بعد كل جماع. كان ريتشارد يعرف آندى منذ سنوات. نحيل
 البدن داكن البشرة أخصائى فى قانون النقابات ومطلق، رغم أنه كان
 يعنى بدمج الشركات العملاقة مع تفصيلاتها الصعبة، عصبى شديد
 العناية بالتفاصيل وعضو فى كنيسة يصبح فى مناسبات عدة وقوراً إلى
 حد مفرط. لعله كان فى الواقع مفتونا بركة جوان السطحية وتحفظها
 الذى اتسم به أهل نيوانجلاند، دون أن يطلع على شياطينها المؤذية
 الكامنة.

- إني أراه سخيّاً.

- لا، ليس سخيّاً، إنه رجل طيب ومخلص وأنيق وكريم يدفع
 الضرائب ويحبك.

- قل إنه يحميك منى، هذا ما تقصده. وأزراره! كل مرة نضطر
 إلى الانتظار نصف ساعة حتى يفرغ من تثبيت كل أزراره.
 ويغسل! يغسل كل شيء فى كل مرة!!

- كفى، لا تزيدى.

ولكن كلماتها تثاررت. تخضب وجه النادلة بحمرة الخجل وأفتر
 ثغرها عن ابتسامة ودية وهى تصب للزوجين بيد مرتعشة. تورد وجه

جوان وأخذت عيناها زرقة واهنة أقرب للون الماس وشفافيته. عرف من خلال كلماتها ما كانت تقصده؛ أن هذين العاشقين مهما كان حبنا لهما ليسا كلانا، ليسا مقدسين مثل واقعنا المقدس. إننا الواقع والحقيقة. أنجبنا الأطفال ومنح كلانا جسد شبابه للآخر، وتواعدنا على الكبر معاً.

وصفت جوان حادثة جرت في منزلها، الذي كان منزلهما يوماً؛ عندما جاء السباك دون توقع. وكان على ريتشارد أن يضحك معها؛ فمشاكل السباكة في ذلك البيت مصدر قديم لسخرية ودعابة، قصة قائمة. تألفت عيناها بضوء غامض. وبايماءة أشبه بتلك الإيماءة في السيارة منذ شأن مضى، رسمت عيناها حرف v في الهواء وكأنها كانت تريد أن تكتب very. كانت حركة متلهفة حذرة رائعة حيية وثقة عرف مخانيها الكامنة. وعرف أنها لن تتوقف عن الإيماء داخله ما دام حياً.. أبداً؛ حتى لو فصل القدر بينهما، حتى لو كان الموت، سوف تواصل إيماءاتها النفاذ في الزجاج.

منستيونغ (١٩٨٩)

أليس مونرو

I

أزهار سوسن ودموية،

ونعناع برى،

نجمع ملء الكفين،

ونرجع جذلين.

"تقدمات"، ذلك هو اسم الكتاب. كُتِبَ بحروف ذهبية على غلاف أزرق غامق. أسفل الحروف نُقِشَ الاسم الثلاثي لمؤلفته: أليدا جويانت روث. كانت الجريدة المحلية الفيديت^(*) تتعنها ب شاعرتنا. يبدو أن ثمة مزيجاً من الاحترام والازدراء لمهنتها وجنسها كليهما، أو لما

(*) الفيديت معناها حسب قاموس أكسفورد الكبير مكان للحراسة على تل مكان مرتفع يقع في الخط الأمامي للجيش حتى يتمكن الحراس من مراقبة حركة العدو. وهي من الفعل اللاتيني "يرى" واسم الجريدة على ذلك النحو يعضد فكرة المراقبة والحراسة السائدة في القصيدة كلها، وهي رمز لمراقبة الرجل بوصفه السيد للمرأة بوصفها المسود. (المترجم)

يوحى به الاسم والمهنة من أزمة متوقعة. على غلاف الكتاب صورة فوتوغرافية واسم المصور فى زاوية، وفى زاوية أخرى كتب التاريخ: ١٨٦٥. نشر الكتاب فيما بعد عام ١٨٧٣.

كانت الشاعرة ذات وجه أسيل وأنف يميل إلى الطول، وعينين بارزتين حزينتين سوداوين، يخيل للناظر إليهما أنهما على وشك السقوط على خديها مثل دموع عملاقة. اجتمع بعض من شعرها الأسمر حول وجهها فى ضفائر مرسلة أو ستائر مسدلة، مع وجود خيط من شعر أشيب ظاهر للعيان رغم أنها بدت فى تلك الصورة لم تتجاوز الخامسة والعشرين. ليست حسناء ولكنها من ذلك النوع من النساء الذى يعمر طويلاً ولا يزداد مع الأيام سمناً. ترتدى فستاناً مزيناً بثنيات ضفيرية من شريط عريض مطرز بحاشية من قماش أبيض، أهداب أو عقد، يؤنس القبة عند الرقبة. على رأسها قبعة مصنوعة، على ما يبدو، من القطيفة ذات اللون الغامق ليضاهى لون الفستان. القبعة عاطلة من الزينة لا تبعث على الإعجاب، أشبه ببيريه ناعم الملمس مما يجعل الناظر يحس بمقاصد فنية، أو على الأقل غرابة حيية تشى بطبع حرون لهذه السيدة الشابة ذات الرقبة الطويلة ورأسها المائل للأمام مما يدل على أنها كانت طويلة القامة ضامرة الجسم تعوزها البراعة. تبدو بدءاً من خصرها أشبه بشاب من النبلاء عاش فى قرن سابق، أو لعلها كانت الموضوعة.

جاء فى التصدير لكتابتها: "فى عام ١٨٥٤ جاء أبى بنا - أمى

وأختى كاثرين وأخى وليام وأنا - إلى برارى كندا الغربية (كما كانت تسمى حينذاك). كان أبى يصنع عدة الحرب للفرس والإنسان. كانت هذه مهنته التى امتنها، ولكنه كان رجلاً متقفاً يحفظ عن ظهر قلب صفحات من الكتاب المقدس وصفحات من مسرحيات شكسبير وكتب إدموند بيرك. استطاع أن يحقق نجاحاً اقتصادياً بعد وقت قصير من هجرته إلى تلك البلاد الجديدة. أنشأ متجرًا كبيراً لبيع السروج والمصنوعات الجلدية. وبعد عام شيد هذا المنزل المريح الذى فيه أقيم الآن... وحدى. كنت فى الرابعة عشرة، أكبر إخوتى، عندما جننا إلى هذه البلاد من كنجستون، تلك المدينة الجميلة التى لم أعد أرى شوارعها الأنيقة، بيد أنها لا تبحر الذاكرة. كانت أختى فى الحادية عشرة وأخى فى التاسعة. وفى الصيف الثالث من إقامتنا الجديدة مرض أخى وأختى فجأة بحمى كانت منتشرة، وقضيا نحبهما لا يفصلهما إلا أيام قلائل. أما أمى الغالية فلم تستعد نشاطها وحيويتها بعد تلك الضربة القاصمة لأسرتنا. تدهورت صحتها ووافتها المنية هى الأخرى بعد ثلاث سنوات. أصبحت من ثم بمثابة ربة بيت بالنسبة لأبى، وكنت سعيدة لأن أساعده فى بيته اثنتى عشرة سنة حتى وافاه الأجل فجأة ذات صباح فى متجره.

منذ نعومة أظافرى وأنا أقرض الشعر. رحت أشغل نفسى، أو قل أسكن آلامى التى فاقت، على ما أظن، آلام البشر جميعاً، بمحاولات متعثرة فى نظمه. لم أوت براعة يدوية أستغلها فى أشغال الإبرة، وتلك

المنتجات الرائعة من أعمال الزخرفة التى يراها المرء هذه الأيام، ذلك الفيض الوافر من سلال الفاكهة والخضراوات التى تزدان برسومات لصبية هولنديين، أو عذارى متقلنسات يقبضن على كنوس ملأى بالماء، دليل آخر على أنها فوق طاقتى. ولذا فإنى أقدم، عوضا عن ذلك، ثمار ساعات فراغى، هذه الأبيات، أو قل هذه الزهرات المتواضعات، أو هذه الأغنيات البسيطة، أو الدوبيتات، أو قل هذه التأملات".

وفى ضمن العناوين التى أعطتها لهذه القصائد: "أطفال فى لهوهم" و"سوق الغجر" و"زيارة لأسرتى" و"ملائكة من ثلج" و"قس عند مصب منستيونغ" و"جولة فى الغابة القديمة" و"لحن الحديقة". وقصائد أخرى عن الطيور والزهور البرية والعواصف الثلجية. وبعض الأشعار الهزلية عما يجول فى خاطر المرء وهو يستمع للمواعظ الكنسية.

"أطفال فى لهوهم": الكاتبة طفلة تلهو مع أخيها وأختها. من هذه الألعاب لعبة يتجانب فيها الأطفال ويتوارون فى الأركان، ويحاول بعضهم الإمساك ببعض الآخر. كانت تلعب فى ظلمة الشفق المتعاطمة حتى جاء يوم أدركت أنها أكبر سنا من لداتها. لم تزل تسمع الأصوات الطيفية لأخيها وأختها وهما يناديان عليها: تعالى، هلمى، دع ميذا تأت. (ربما كانت ألميدا تسمى ميذا بين أفراد الأسرة، ولعلها اختصرت اسمها ليوافق مقتضى القصيدة).

"سوق الغجر": كان الغجر يقيمون معسكرهم على أبواب المدينة. سوق يبيعون فيها القماش وأشياء أخرى بسيطة. وكانت الكاتبة وهى طفلة تخشى أن يسرقها هؤلاء الغجر من أسرتها. ولكن الأمور جرت على النقيض، فقد سرقت أسرتها منها، سرقها غجر لا تعرف مكانهم ولا كيف السبيل إلى مساومتهم.

"زيارة لأسرتى": وهى زيارة للمقابر، والقصيدة حديث مع النفس.

"ملائكة من ثلج": كانت الكاتبة تعلم أخاها وأختها كيف يرسمون ملائكة بالرقود على الثلج وتحريك الأذرع لتطبع. أشكالا على الثلج أشبه بالأجنحة. كان أخوها ينهض دائما دون أن يكثر ثاركا ملاكًا بجناح واحد. هل سيتمنح جناحه الناقص فى السماء؟ أم سيظهر ببدائله؟

"قسيس عند مصب منستيونغ": هذه القصيدة تنوّه باعتقاد شعبى بعيد عن الصحة بأن المستكشف أبحر صوب الشاطئ الشرقى لبحيرة هورون، واستقر عند مصب النهر الكبير.

"جولة فى الغابة القديمة": عبارة عن قائمة بكل أنواع الأشجار التى تم قطعها من الغابة الأصلية، بأسمائها وصفاتها الشكلية واستخداماتها، مع وصف عام للدببة والذئاب والصقور والغزلان وطيور الماء.

"لحن الحديقة": يبدو أنها دليل أو تكملة لقصيدة الغابة، وتحتوى على بيان بالنباتات التى جلبت من الأقطار الأوروبية مع شذرات من التاريخ والخرافات التى اتصلت بها، وما استتبت منها من نباتات كندية فى النهاية.

القصائد مكتوبة فى رباعيات أو دوبينات. وثمة محاولتان فى السونيتة. القافية بسيطة فى الغالب أب أب أو أب ج. تستخدم القافية المذكورة أى التى تنتهى بمقطع منبور، وقليلًا ما تستخدم القافية المؤنثة أى التى تنتهى بمقطع غير منبور. ترى هل تستخدم هذه المصطلحات اليوم؟ لا وجود للشعر غير المقفى.

II

أزهار بيضاء باردة كالثلج
تزدهر حيث يرقد أولئك "الملائكة".

هل يكتفين بالرقود تحت الثلج
أم يهمن فى ملكوت الله؟

فى عام ١٨٧٩ كانت ألميدا روث لم تزل تعيش فى المنزل الذى يقع على الناصية عند ملتقى شارعى دوفرين وبيزل، المنزل الذى شيده الأب لأسرته. لم يزل المنزل قائمًا هناك حتى اليوم، يعيش فيه الآن مدير متجر لبيع الخمور. كان البيت مكسوا من الخارج بألواح من الألوميتال، واستبدل بالشرفة مدخلًا مسقوفًا. أما مخزن الخشب والسور والأبواب والمرحاض والزريبة فلم يعد لها وجود. تظهر هذه الأشياء فى مكانها فى صورة ترجع إلى ثمانينيات القرن التاسع عشر. يظهر البلى على البيت والسور حيث يبدو أن البيت كان يحتاج إلى طلاء، أو

لعل ذلك بسبب شكل الصورة الباهت ذى اللون الضارب إلى السمرة. بدت النوافذ ذات الستائر المصنوعة من شرائط، أشبه بالعيون البيضاء. لا ترى العين أثرًا لأشجار الظل. والواقع أن أشجار الدردار الطويلة التى كانت تغمر المدينة بالظلال حتى خمسينيات القرن التاسع عشر، كأشجار الجميز التى تلقى الآن بظلالها القصيرة، أضحت أشجاراً صغيرة ضامرة ضرب حولها سور لم يدفع عنها الماشية المعتدية. وخارج ذلك الحاجز من الأشجار توجد أفنية خلفية وحبال غسيل وأكوام خشب ومساحات صغيرة من النخيل وحظائر ومراحيض، كلها مكشوفة معرضة للجو. قليلة هى البيوت التى تهتم بتنمية الزرع حولها. لا تجد إلا مساحات صغيرة من نبات موز الجنة وكثبان النمل والقانورات المكومة وبعضاً من نبات البطونيا الذى ينمو فى تجاويف جذوع الأشجار المقطوعة. الشارع الرئيس فقط هو المفروش بالحصباء، أما سائر الشوارع فليست إلا طرقات قذرة موحلة يعلوها التراب حسب الفصول. الأسوار ضربت حول الأفنية لتزود عنها الحيوانات المعتدية. أما الأبقار فقد شد وثاقها بمعازل فى أماكن خالية من العشب، أو تركت لترعى فى الأفنية الخلفية، بينما تركت الخنازير وكذلك الكلاب حرة مطلقة السراح تنام بكبرياء على الجسور الخشبية. لقد استقرت المدينة ولن تزول، بيد أنها لم تنزل تأخذ طابع المخيم. ومثل المخيم أصبحت مشغولة طوال الوقت، تفيض بالناس الذين تراههم يمشون على أقدامهم أينما وجدتهم، مليئة بالحيوانات التى تترك مخلفاتها فى كل مكان؛ روث الخيل والأبقار وغانط الكلاب مما يدفع

السيدات لرفع أرديتهن تجنباً للأذى. أصبحت المدينة تعج بالضوضاء التي تصدر من عمال البناء وسائقي العربات الذين يصيحون بجيادهم، والقطارات التي تأتي مرات عدة في اليوم.

قرأت وصفاً لتلك الحياة في جريدة الفوديت. كان الناس أصغر سناً من اليوم، وربما مما سيكونون في المستقبل. الذين تعدوا الخمسين لا يهاجرون إلى البلاد الجديدة. كانت القبور تضم عدداً قليلاً من الناس لاسيما من الشباب الذين لقوا حتفهم في حوادث، أو من الأطفال الذين قضوا نحبتهم بسبب الأمراض المعدية. يشكل الشباب أغلب سكان المدينة، وأما الأطفال والصبية فإنهم يجولون الأرجاء في جماعات أشبه بالعصابات. الذهاب إلى المدرسة كان إجبارياً أربعة أشهر في العام. توجد الكثير من الأعمال المؤقتة التي يستطيع الجميع القيام بها حتى الأطفال الذين تعدوا الثامنة أو التاسعة؛ جمع الكتان وربط الخيول توصيل البقالة إلى المنازل وتنظيف المعديات القائمة أمام المحال التجارية. وكثيراً ما يشغلون الوقت بحثاً عن المغامرة. ذات يوم تبعوا سيدة ثملة تدعى كوين آجى. وضعوها على عربة يد وطاقوا بها حول المدينة ثم ألقوا بها في حفرة لإعادتها إلى وعيها. كانوا أيضاً يقضون جزءاً غير قليل من وقتهم حول محطة السكة الحديد، يقفزون فوق العربات الواقفة، ويندفعون بينها، ويأمنون على المخاطرة مما كان ينتهي بهم أحياناً إلى العجز أو الموت. كانوا يراقبون الغرباء القادمين إلى المدينة. يتبعونهم ويعرضون عليهم حمل حقائبهم وإرشادهم إلى الفندق لقاء خمس سنتات للحقيبة الواحدة. أما الذين لا يبدو عليهم سر

العيش فيصبحون عرضة للمهانة والمضايقة، يحيط بهم الصبية الذين يحتشون مثل أسراب الذباب ويمطرونهم بالأسئلة أينما ذهبوا. هل جاءوا للبدء في مشاريع جديدة؟ أو لإغراء الناس بالاستثمار في مشاريع بعينها؟ أو لبيع الأكلية أو تلك الصناعات الجديدة؟ أو للوعظ في أركان المدينة؟ كان ذلك يحدث طوال أيام الأسبوع. وتتصح الفديت الناس أن يأخذوا حذرهم هذه الأيام من الانتهازيين والسراق والمومسات والمحتالين والباعة الجائلين والمحامين المشبوهين والصوص الذين تقابلهم في الطرقات ولاسيما عند السكة الحديد. كانت صفحاتها تتضمن إعلانات عن سرقات تمت، وأموال أعطيت بقصد الاستثمار ولم ترجع لأصحابها، وينطلونات سرقت من فوق حبال الغسيل، وأكوام خشب نقصت، وبيض دجاج اختفى من حظائر دواجن. تكثر هذه الأفعال في الطقس الحار.

الطقس الحار مجلبة للحوادث أيضا. يزداد عدد الخيول الجامحة التي تقلب العربات وتهيج دون رادع. أيد تدهمها آلات الغسيل، ورجل يقطعه نصفين أحد لوح خشب سقط عليه في مخزن الخشب. النوم العميق صعب المنال، الرضع يذبلون بسبب أمراض الصيف. وأصحاب الأجسام اللحيمة لا يقدرّون على التقاط أنفاسهم. الموتى يدفنون على عجل. وذات يوم هام أحد الناس في الشوارع وهو يضرب على جرس بكرة ويصيح: التوبة! التوبة! لم يكن من الغرباء هذه المرة، كان شابا يعمل عند قصاب. أخذوه إلى منزله ولفوه في قمماش

بارد مبتل وأعطوه بعض المهدئات، ومنعوه من الخروج، وصلوا من أجله، وعندما لم يبرأ وضعوه فى الـبيمارستان.

يقع شارع ألميدا روٲ على ناصية شارع دوفرين، وهو شارع معروف محترم. فى هذا الشارع تقع بيوت التجار وبيت صاحب الطاحونة وبيت صاحب مصنع الملح. وأما شارع بيرل الذى تشرف عليه نوافذ بيتها وأبوابه الخلفية فحكاية أخرى. هناك تجاورها بيوت العمال، صف طويل من البيوت الصغيرة ولكن المحترمة. إلى الآن والأمور مقبولة. ولكن الأمور تسوء عند نهاية ذلك الصف من البيوت المتلاصقة، وتزداد سوءاً فى الصف الثانى. لا يسكن هناك غير الفقراء وسينو السمعة. كانوا يعيشون هناك على حافة مستنقع يسمى مستنقع شارع بيرل، تم ردمه فى ذلك الوقت. هناك تنمو الأشجار الكثيفة والنباتات الضارة. هناك أقيمت الأكواخ المؤقتة. هناك أيضاً تجد أكوام القمامة والأنقاض وأعداداً غفيرة من أطفال أشبه بالأقزام. هناك يدلق الناس الماء القذر أمام البيوت. أجبرت البلدية الناس على بناء المراحيض، ولكنهم استمروا فى الذهاب لقضاء حاجتهم فى الأدغال القريبة. فئات من الصبية يذهبون إلى هناك بحثاً عن مغامرة ويعودون بأكثر مما كانوا يرجون. ويقال إنه حتى مدير شرطة المدينة لم يكن يجرؤ على النزول إلى شارع بيرل فى ليلة الأحد. لم يحدث أن مشت ألميدا أمام تلك البيوت. فى أحد هذه البيوت تعيش الفتاة الشابة أنى التى تساعد ألميدا فى تنظيف المنزل. هذه الفتاة الصغيرة نفسها لم يحدث أن ذهبت إلى المستنقع. فالسيدة المهذبة يجب ألا تذهب إلى هناك.

ولكن هذا المستنقع، وهو يقع إلى الشرق من منزل ألميدا روث، يعد منظرًا جميلًا وقت الفجر. تنام ألميدا في الجهة الخلفية من البيت. لم تبرح حجرة نومها القديمة التي كانت تشارك فيها أختها كاثرين. لا تفكر في الانتقال إلى حجرة النوم الأمامية الأوسع، حيث كانت أمها تنام طيلة اليوم، وأصبحت فيما بعد مختلى أبيها حتى وفاته. من خلال إحدى نوافذها كانت ترى الشمس مشرقة تغمر ضباب المستنقع الخفيف بالضياء الكثيف، وتتأمل الشجيرات القريبة تطفو أمام الضباب والأشجار الخلفية وهي ترتد شفافة بيضاء. أشجار البلوط في المستنقع وأشجار الجميز والطمراق والجوز للمر.

III

هنا حيث يلقي النهر البحر الداخل،

تتشر تتورثها الزرقاء من الخشب المهيب،

أفكر في الطير والحيوان والذين ووروا التراب،

أطلالهم على الرمال الشاحبة لم تزل قائمة.

أحد الغرباء الذين وصلوا إلى محطة السكة الحديد منذ بضعة سنوات كان جارفيز بولتر الذى يشغل المنزل المجاور لمنزل ألميدا روث - يفصله عنه قطعة أرض فضاء تطل على شارع دوفرين، اشتراها جارفيز فيما بعد. كان البيت أقل زخرفة من منزل روث،

لا تحيط به أشجار الفاكهة أو الزهور. وذلك، كما كان الظن؛ لأن بولتر كان عزباً ماتت عنه زوجته ويعيش بمفرده. فى وسعه أن يحفظ بيته نظيفاً ولكنه لا يهتم بزخرفته خاصة إذا كان هو نفسه حسن الهيئة متأنفاً فى ملبسه. ولكن الزواج من شأنه أن يحمله على العناية بزخرفة البيت وبالجانب العاطفى من حياته كذلك، ويحميه أيضاً من شطط الغريزة ومن البخل والكسل والفساد والنوم الزائد وإدمان الشراب والتدخين وحتى من التجديف فى الدين.

فى الشأن الاقتصادى، يُظن أن وجيهاً جليلاً من مدينتنا يواظب على أخذ المياه من حنفية المدينة العامة، ويكمل مأونته من الوقود بجمع الفحم السائب من فوق خط السكة الحديد. ترى هل ينوى دفع حق البلدية وهيئة السكة الحديد بكميات مجانية من الملح؟

كُتبت ذلك جريدة الفديت، جرياً على عادتها فى الدعاية الحذرة والتعريض المستتر، أو حتى الاتهام الصريح، وعلى نحو لا تستطيعه جرائد اليوم دون الإفلات من عقوبة. إنهم يتعرضون لجارفيز بولتر بطبيعة الحال، بيد أنهم يتناولونه فى مواضع أخرى باحترام شديد بوصفه محامياً مدنياً، وصاحب عمل، وعضواً فى مجلس الكنيسة. رجل كتوم غريب الأطوار إلى حد ما. لعل ذلك بسبب حالة العزوبة التى يعيشها، فقد ماتت عنه زوجته ويعيش الآن وحيداً؛ حتى جابه الماء من حنفية البلدة العامة وملء جواله بالفحم السائب على قضبان السكة الحديد كان بسبب وحدته. ولكنه مواطن مهذب ثرى متقدم البطن

قليلًا يرتدى بذلة غامقة وحذاء نظيفًا، تزين وجهه لحية غزيرة، ويشيع برأسه شعر أسود يشوبه خط أشيب نحيل وثُلُول شاحب ظاهر في الشعر الكث وسط أحد حاجبيه. متجهم الوجه واثق النفس. يتحدث الناس عن زوجة شابة حسناء مانت في أثناء ولادة طفلها، أو بسبب حادثة مأساوية كاندلاع حريق في المنزل، أو حادثة قطار. ولا يوجد دليل على ذلك كله، إلا أنه كان سببًا في إثارة محبة. كل ما قاله إن زوجته متوفاة.

جاء إلى هذا المكان بحثًا عن البترول. لقد تم حفر أول بئر بترول في العالم في مقاطعة لامبتون، جنوب هذه المدينة في خمسينيات القرن التاسع عشر. وأثناء الحفر اكتشف جارفيز بولتر الملح وراح يعمل بجد ليستفيد أقصى درجات الاستفادة. في إياه من الكنيسة مع ألميدا روث كان يحكى لها عن آبار الملح التى يمتلكها. يقول إنها على مسافة اثني عشر قدمًا تحت الأرض. "تقوم بضخ الماء الساخن إلى الملح كي يذوب، ثم نرفع المحلول الملحي إلى السطح ونصبه في أوعية ضخمة على أجهزة تبخير مثبتة على نيران هادئة حتى يتبخر الماء ويترسب الملح الصافى النقى. إنها سلعة لا يستغنى عنها أحد."

"ملح الأرض". تقول ألميدا.

"نعم". يقول جارفيز وهو يقطب جبينه. قد يظن أنها تحط من قدره. ولكنها لا تقصد ذلك البتة. يحكى لها أيضًا عن المنافسين في مدن أخرى من الذين حذوا حذوه، ويسعون لاحتكار السوق. ولحسن

الحظ لم يحفروا آبارهم بالعمق المطلوب، وحتى أجهزة التبخير لديهم لا تعمل بالطريقة الفاعلة. الأرض تحتضن الكثير من الملح فى باطنها، ولكن ليس من السهل استخراجها كما يظن بعض الناس.

تقول ألميدا: ألا يعنى ذلك أنه كان هناك بحرا هائل فى باطن الأرض؟

ويقول جارفيز: جائز جدا. جائز جدا. وراح يحكى لها عن مشاريعه الأخرى: مصنع طوب وفرن لحرق الحجر. ويشرح لها كيف أن هذه المشاريع تدر أرباحا طائلة، وأين يوجد الطين الجيد. جارفيز يمتلك مزرعتين بهما مساحات من الأشجار الخشبية التى توفر الوقود لهذه المشاريع.

من بين الذين يمشون قادمين من الكنيسة صباح أيام الأحاد المشمسة، رصدنا ثنائيا: وجيه (ملحى) وسيدة (أديبة)، ربما تجاوزا سن الشباب الأول ودلفا الآن إلى مرحلة الكهولة. فهل لنا أن نحس؟ مثل هذه القفشات تظهر فى الفيديت فى كل الأوقات.

هل يحسسون؟ وهل ينطوى مسلك جارفيز على تودد للسيدة؟

ألميدا روث تمتلك مبلغا قليلا من المال ورثته عن أبيها، ولديها بيتها. ليست بالطاعنة فى السن، وفى وسعها أن تتجب طفلا أو طفلين. وهى ربة بيت جيدة، ولها غرام بعمل الحلوى الجليدية، والتورتة المزخرفة. وهو غرام نشهده غالبا عند الأنسات ذوات الخبرة. جمالها

لا تشوبه شائبة، وهيتها حسنة لا تتوافر للكثيرات ممن فى سنها من المتزوجات. فلم يرهق كاهلها تربية أولاد أو عناية بزواج. ولكن لماذا تجاهلت يفاعتها الأولى وضربت صفحا عن الزواج فى بلد يستغرب فيه الناس امرأة دون شريك وأولاد. كانت فتاة تميل للتشاؤم. ربما كانت هذه هى المشكلة: موت أخيها وأختها ثم أمها التى فقدت عقلها قبل عام من وفاتها، وكانت تنام على سريرها وتهذى بما لا تعرف، كل ذلك كان ثقيلا الوطأة على نفسها، وتركها شخصا صعب العشرة. وهل كان غرامها بالقراءة والقريض إلا دليلا على حاجتها وهى شابة، وليس عندما اكتهلت، إلى شىء تملأ به فراغها وتؤنس به وحدتها. لقد مضت خمس سنوات على نشر كتابها. وربما شجعها أبوها المتفاجر المولع بالكتب.

يعتقد الناس أن ألميدا روث تفكر فى جارفيز بولتر زوجا لها، وأنها ستوافق إذا طلب يدها. هى تفكر فيه بالفعل. ولكنها لا تريد أن تشتط فى الآمال وتخدع نفسها. كانت تنتظر إشارة منه. فلو كان يذهب إلى الكنيسة فى ليالى الأحاد لكانت فرصة لمرافقته هذه المسافة إلى البيت فى جنح الظلام. يحمل هو الفانوس (لم تكن الشوارع مضاعة فى ذلك الوقت) ليضىء الطريق عند أقدام الأنسة ويلقى نظرة على قدميها الهزيلتين الرقيقتين. وقد يمسك يدها ليعينها على عبور المعيدة الخشبية. ولكنه لم يكن يذهب إلى الكنيسة ليلا. ولم يكن يعرج عليها أو يصحبها إلى الكنيسة صباح الأحاد؛ فمن شأن ذلك أن يكون إعلانا. قد

يسير معها وهى فى طريقها إلى البيت و عندما تصل إلى باب بيتها يرفع قبعته وينكفى راجعا. لا تدعوه للدخول، فسيده تعيش وحدها لا يمكنها أن تفعل ذلك. فالناس يعتقدون أنه ما يخلو رجل بامرأة، من أى سن، داخل جدران أربعة حتى يحدث المحذور: الاهتياج الفورى والهجوم العاطفى والشهوة الحيوانية والزنا وانتصار الحواس. ترى ما هى الشواهد التى يراها الرجال والنساء كل فى الآخر حتى يخشوا هذه المخاطر؟

عندما تمشى بجواره كانت تشم رائحة صابون الحلاقة والزيت الذى استخدمه، وبخان غليونه ورائحة الصوف والكثان والجلد فى ملابسه الرجالية. الملابس المضبوطة المرتبة. كانت ملابسه ثقيلة أشبه بملابس أبيها التى كانت تتظفها بالفرشاة والنشادر. ناقت للمهنة ولتقدير الأب وسلطته الغامضة الحنون. إن ثياب جارفيز بولتر ورائحته وحركته تجعل الجانب المجاور له من جسدها يستشعر وخز الأمل، ويسبب لها رعشة تسرى فى جسدها وتستثير الشعيرات الخفيفة على ذراعيها. هل هو الحب؟ إنها تحلم به داخلا حجرة نومها (أو حجرة نومهما) فى ملابسه الداخلية الطويلة وقبعته. إنها تعلم أن هذه الملابس مثيرة للسخرية. ولكنها فى الخيال لا تبدو كذلك، ويكون لديه جراحة رجل فى اللحم. يدخل حجرتها ويرقد على الفراش بجوارها ويهم بأخذها بين ذراعيه. يخلع قبعته بثقة، وتأخذها فى تلك اللحظة نوبة من الإذعان له والتوق الغامر، ويصبح زوجها.

شيء واحد لاحظته على النسوة المتزوجات: كيف أن الكثيرات
منهن يعمدن لرسم صورة ما لأزواجهن. يبدأن بأن ينسبن إليهم الأشياء
المفضلة لديهم ثم الآراء والأساليب السلطوية. تقول الواحدة منهن مثلاً:
نعم، زوجي أنيق جداً ويدقق في كل شيء. لا يلمس اللفت ولا يحب
اللحم المقلّى (أو يحب اللحم المقلّى). يحبني أن أرثدى الأحمر (أو
اللبني) طوال الوقت. لا يطبق صوت الأرغن، ولا يحب أن يرى امرأة
عارية الرأس. يقتلني لو رآني آخذ نفساً من سيجارة. بهذه الطريقة
يتحول الرجال ضعاف الشخصية إلى أزواج، أصحاب بيوت. ألميدا
روث لا تتخيل نفسها تفعل ذلك. تريد رجلاً لا يحتاج إلى أن يصنع من
جديد، واثقاً من نفسه وصاحب رأى ومكتنفاً بالأسرار. إنها لا تبحث
عن مجرد رفيق. الرجال في رأيها - فيما عدا أباه - مفتقرون للحياة،
غافلون. وتري أن هذه صفات لا بد منها في الرجال حتى يفعلون ما
يجب أن يفعلوا. فهل كانت - لو عرفت أن الأرض تختزن الملح في
باطنها - تسعى لاستخراجه وبيعه؟ أبداً. كانت ستفكر في البحر القديم.
وهو نوع من التأمل. لا يجد جارفيز بولتر وقتاً له بأي حال.

بدلاً من المرور عليها في بيتها واصطحابها إلى الكنيسة فقد
يأتى جارفيز بولتر بمغامرة أوقع. يستأجر حصاناً ويأخذها خلفه في
نزهة ريفية. عندئذ ستكون سعيدة وحزينة في الوقت نفسه. سعيدة لأنها
بجواره، يأخذ بزمامها، وتلقى هذا الاهتمام منه أمام الناس جميعاً.
وحزينة لأن الريف انتقل إليها. وصفه لها بحديثه واهتمامه. الريف

الذى صورته فى قصائدها لا تريده أن يصدر من رؤيته ووصفه. بعض الأشياء تصرف عنها النظر: أكوام السماد ومساحات المستنقعات المليئة بجذوع الأشجار المحروقة، والأكوام الضخمة من الأغصان المقطوعة فى انتظار اليوم المناسب لإحراقها. النهيرات المتعرجة التى تم تقويمها وتحولت إلى قنوات صغيرة للرى بضفاف موحلة كئيبة. وأخرى ضربت حولها السياج ذات القضبان المتشابكة. الأشجار أعيد غرسها فى المساحات المخصصة لزراعة الخشب، وأشجار الغابة كلها قصيرة جديدة. ولا يوجد على جوانب الطرق أو الحارات أو حول المزارع شئ خلا القليل من الغرس الحديث كثير الأغصان غض الأوراق. توجد أعداد كبيرة من مخازن الخشب - مخازن الخشب الكبرى التى ستغمر الريف خلال السنوات المائة التالية كانت فى بداية الإنشاء. ومخازن الخشب ذات المنظر المزعج. وكل أربعة أو خمسة أميال توجد قرية صغيرة بها كنيسة ومدرسة ومتجر ومحل حدادة. ريف صرف منبت الصلة عن الغابة ولكنه عامر بالناس. كل مائة فدان مزرعة وكل مزرعة بها أسرة وكل أسرة بها عشرة أو اثنا عشر طفلاً. ذلك هو الريف الذى سيرسل بموجة بعد موجة من المستوطنين إلى المدينة، وبدأ يرسلهم فعلاً إلى أونتاريو الشمالية والغرب. والحق أنك تستطيع أن تجمع الزهور البرية فى الربيع من مساحات الأشجار الخشبية، ولكن عليك أن تسير بين قطعان من الأبقار ذوات قرون طويلة لكى تصل إليها.

رحل الغجر.

أرض مخيمهم أضحت عارية.

فهل لى أن أساوم بجرأة الآن

فى سوق الغجر؟

تعانى ألميدا روث كثيرا من السهاد. وصف لها الطبيب دواء البروميد وعلاجا للأعصاب. ولكن قطرات البروميد توقظ أحلامها للمزدحمة بالصور المزعجة. لذا ادخرت الزجاجة للطوارئ. قالت للطبيب إنها تحس بمقلتيها صلبتين كزجاج ساخن، وتحس بألم فى مفاصلها. قال لها: قللى من القراءة والدرس، علاجك فى التعب فى أعمال المنزل وممارسة بعض التمرينات الرياضية. إنه يعتقد أن مشاكلها ستزول إذا تزوجت. يعتقد ذلك رغم أن جل وصفاته لعلاج الأعصاب تذهب للمتزوجات. ولذا فإن ألميدا تعتنى ببيتها، وتساعد فى نظافة الكنيسة، وتمد يد العون لصديقاتها اللاتي يغطين جدران منازلهن بأوراق الحائط أو يستعددن للزواج، وتعد إحدى كعكاتها المشهورة لأطفال المدرسة فى نزهة الأحد. وفى يوم سبت حار من أيام أغسطس تقرر عمل حلوى العنب؛ عدة قوارير صغيرة من حلوى العنب تفيد كهدايا قيمة فى عيد الميلاد، أو حتى إعانات للمرضى. ولكنها بدأت فى وقت متأخر من النهار، والحلوى لا تتضج إذا حل الظلام. وضعت

العصير الساخن فى كيس الجبن لتصفيته. وتناولت ألميدا كأساً من الشاي مع شريحة من الكعك بالزبد الذى كانت تحبه منذ الطفولة، وهو كل طعامها للعشاء. ثم تأخذ حماماً سريعاً استعداداً ليوم الأحد. تلف ملاءة حول خصرها وتترك النافذة مفتوحة وترقد على السرير دون أن تشعل المصباح. وتحس بتعب شديد. وتحس بنسيم خفيف يداعب الحجرة. وتحس بشجار خفيف.

ولم تلبث أن تستيقظ. وعندما تستيقظ تحس بالليل متقدماً بالحر منذراً بالخطر. وترقد من جديد وجسدها ينز عرقاً. تحس أن الصخب الذى تسمعه يعمل فى جسدها عمل السكاكين والمناشير والفتوس، كل تلك الأدوات تقطع وتحز وتثقب فى رأسها. ولكن الأمر لم يكن كذلك. عندما تكتمل يقظتها تبدأ فى التعرف على مصدر تلك الأصوات التى سمعتها أو التى كانت تسمعها، أصوات الشجار فى ليالى الأحد الصيفية فى شارع بيرل. عادة ما يصدر الصخب من قتال حقيقى بين السكارى. تسمع احتجاجاً وصياخاً. تسمع من يهتف: "جريمة قتل! جريمة قتل!" حدثت جريمة قتل ذات يوم. ولكنها لم تكن نتيجة شجار. عثر. على جثة عجوز فى بيته أردى طعنًا. ربما كان السبب بضعة دولارات كان يخفيها تحت المرتبة.

وتنهض من فراشها وتذهب إلى المطبخ. كانت سماء الليل صافية افتقد فيها القمر وسطعت النجوم. يجاسوس^(*) تطل برأسها على

(*) كوكبة من النجوم فى نصف الكرة الشمالى بالقرب من أكواريوس وأندروميذا.
(المترجم)

المستمتع. علمها أبوها كيف تعد النجوم فى تلك المجموعة. وبشكل تلقائى راحت تحصيها. تستطيع أذناها الآن أن تميز بعض الأصوات: إضافات جديدة للمشجرة. بعض الناس، مثلها، استيقظ من نومه. تسمع من يصرخ قائلاً: "أخرس! كفوا عن هذا الشجار وإلا نزلت وأشبعنكم ضرباً على مؤخراتكم يا أولاد ال...".

ولكن أحداً لم يتوقف. وكان كرة من النار تتدحرج فى شارع بيرل تقذف الشرر فى طريقها، النار هى الجلبة والصراخ والضحك والسباب، والشرر هو الأصوات التى تتطلق نشازاً. صوتان يتميزان عن باقى الأصوات حتى الآن ويصدران صياخاً أشبه بالنباح وينخفض شيئاً فشيئاً ويتحول إلى ارتعاش متواصل. ثم تيار من السباب يحمل كل الألفاظ التى تربط ألميدا بينها وبين الخطر والحرمان والرائحة الكريهة والمناظر المقرزة. شخص ما ينهالون عليه ضرباً ويصيح: "اقتلنى! اقتلنى الآن!". إنهم يضربون امرأة وهى تصرخ: "اقتلنى! اقتلنى!". ويظهر جانب من فمها مترعاً بالدم رغم ما فى صوتها من نبرة استخفاف وانتصار. شىء من التصنع فى صوتها. الناس حولهم ينادون: "كفى! كفى!". ومنهم من يصيح: "اقتلها! اباقتلها!". يصيحون فى جنون وكأنهم على خشبة مسرح، أو يشاهدون مباراة مصارعة أو ملاكمة محترفين. أجل، تقول ألميدا فى سرها، رأيت ذلك من قبل. لعلها تمثيلية، أو لون كئيب من محاكاة ساخرة مبالغ فيها. وكأن ما يفعله هؤلاء القوم، حتى جرائم القتل، لا يؤمنون به، ولا يطيقون وقفه فى الوقت نفسه.

الآن تسمع صوت شيء يلقى على الأرض، مقعد أو لوح خشبي أو صوت كومة من الخشب أو جزء من سور ينهار وكم آخر من الأصوات مباغتة جديدة. صوت جريء، أناس يفرون من الطريق، أصبح الهرج قاب قوسين. هذه هي المرأة. كانت تمسك بشيء مثل عصا خشبية أو لوح من الخشب، وتديرها وتدفعها نحو شخص آخر لا مرئي يجري خلفها. وتهتف الأصوات: "آه، أسرع، الحق بها! الحق بها واضربها يا رجل!". أناس يقعون على الأرض الآن. شخص يمسك بتلابيب الآخر، ثم يتباعدان ويسقطان على سور الميدا. يصبح الصوت الذي يأتي منها غامضاً مشوشاً كأنه يصدر من فم مكعوم، ثم صوت نقيض ونخير وضرب شديد. يتبع ذلك صوت طويل مرتجف مذبذب، صوت ألم مخنوق ونفس مذلولة أو روح مغادرة.

تركت الميدا النافذة وجلست على سريرها. تقدح زناد فكرها. ليست هذه الأصوات التي سمعتها جريمة قتل؟ ماذا يجري؟ ماذا يجب أن تفعل؟ يجب أن تشعل مصباحاً. يجب أن تترك الدرج وتشعل مصباحاً. لا بد أن تخرج إلى الفناء. الفانوس. تلقى بجسدها على الفراش. تضع وسادة على وجهها. في لحظات. الدرج. المصباح. ترى نفسها هناك. في الصالة الخلفية. تحكم رتاج الباب الخلفي. تصبح فريسة لنوم لا يقاوم.

وتستيقظ مروعة مع أول أضواء الصباح. ترى غراباً كبيراً يجثم على عتبة نافذتها يتحدث في نبرة مستكبرة وبطريقة غير

مستغربة، عن أحداث الليلة المنصرمة. يقول لها مؤنبًا: استيقظي وحركي عربة اليد. وتفهم أنه يقصد شيئًا آخر بعربة اليد. شيئًا بغيضًا مجلبة لكرب عظيم. وتستيقظ بالفعل وتعلم أنه لا وجود للطائر. وتهض على الفور، وتتنظر من النافذة. وتلاحظ شيئًا يستد إلى سور بيتها. شخصًا ضخماً. جثة. عربة يد

وتضع منظرها فوق قميص النوم وتنزل الدرج. الحجرات الأمامية لم تزل مظلمة. الستارة مسدلة في المطبخ. شيء ما يتحرك محدثًا صوتًا كصوت شيء يغوص في الماء على مهل، يذكرها بحديث الغراب. إنه عصير العنب ينضج أثناء الليل. تسحب المزلاج، وتخرج من الباب الخلفي. العناكب نسجت شباكها على المداخل في جنح الظلام. الزهور تخفض رءوسها مثقلة بالندى، وبجوار السور تغرق في زهور متشابكة وتتنظر تحت رجليها وترى.

جثة امرأة مكومة هناك. نائمة على جنبها ووجهها منكفي على الأرض. لا تستطيع ألميدا أن ترى وجهها. ولكن هناك ثديين عاريين متدليين، وحلمة سمراء مشدودة مثل حلمة بقرة، وساقًا عارية وردفا به أثر كدمة في حجم قرص دوار الشمس. أما الجلد الذي خلا من آثار الكدمات فلو أنه ضارب إلى الرمادي، أشبه بلون نقارة الطبل المقتلعة ثواب. ترتدى ثياب نوم، أو ثيابا لكل الأغراض وتفوح منها رائحة قىء وبول وشراب.

وتعدو أليدا فى قميص نومها ومنزرها الرقيق. تجتاز الفراندا وأشجار التفاح، وتفتح الباب الأمامى وتسرع خلال شارع دوفرين إلى منزل جارفيز بولتر، أقرب المنازل إليها. تضرب الباب بكف يدها مرات عدة.

وعندما يظهر جارفيز فى النهاية نقول له:

- جثة سيدة.

كان فى بنطاله الداكن المشدود بحمالتين، وقميصه المزرر نصفه ووجهه غير الحليق وشعره المنكوش.

- سيد بولتر، سامحنى. هناك جثة سيدة أمام بوابتى الخلفية.

ويرمىها بنظرة عنيفة وهو يقول:

- مينة؟

أنفاسه رطبة. وجهه متجدد. عيناه محتقنتان بالدم. وتجبب أليدا:

- نعم. أظن أنها ماتت مقتولة.

تلمح جزءا من الصلاة الأمامية الكثيرة. قبعته معلقة على مقعد. ثم تضيف وهى تجتهد لتجعل صوتها خفيضا مفهوما:

- استيقظت فى الليل على أصوات لغط وجلبة فى شارع بيرل. سمعت اثنين. رجلا وسيدة يتشاجران.

ويلتقط قبعته ويضعها على رأسه. ويخلق الباب الأمامي، ويضع المفتاح في جيبه، ويسيران على الممشى الخشبي وتلاحظ أنها حافية القدمين. وينتابها إحساس بأن هناك من سيقى عليها ببعض المسؤولية. كان يمكن أن تخرج بفانوس. كان يمكن أن تصرخ، ولكن من كان في حاجة إلى مزيد من الصراخ؟ كان يمكن أن تضرب الرجل على رأسه. كان يمكن أن تسرع في طلب النجدة، ساعتها وليس الآن. ويتجهان إلى شارع بيرل بدلا من دخول فناء روث. كانت الجثة بطبيعة الحال منكفة على وجهها شبه عارية كما رأتها في البداية.

جارفيز بولتر لا يسرع ولا يتردد. يتجه إلى الجثة مباشرة. ويمعن فيها النظر، ويمس الساق بمقدم حذائه مثلما تمس كلبا أو خنزيرا. لكزها مرة أخرى وهو ينادى في جراءة ودون أن يرفع صوته: أنت.

والميدا تحس بطعم الصفراء في أسفل حلقها.

"حية!" يقول جارفيز بولتر. وتؤكد المرأة استنتاجه. إنها تتحرك حركة خفيفة. ويصدر منها شخير واهن.

تقول ألميدا: "سأحضر الطبيب". ولو أنها لمست المرأة. لو أنها وجدت الجراءة على لمسها، لما قالت ذلك.

قال جارفيز بولتر: انتظري، لنرى إذا ما كان يمكن أن تنهض.

وهتف بالمرأة: قومي الآن، هلمي! انهضي الآن!

ويحدث شيء مذهل. الجثة تقوم على أربع. ترفع الرأس أولاً. الشعر كله ملطخ بالدم والقيء، وتبدأ المرأة في ضرب رأسها بعنف على أوتاد سور ألميدا، ويخرج صوتها أثناء ذلك، ويصدر منها صراخ ملء الفم مثل العواء. صراخ قوى يشي بشيء من بهجة مكروبة. ويقول جارفيز بولتر: أبعد ما تكون عن الموت. لا تحتاج حتى لطبيب.

وتقول ألميدا حين رفعت المرأة رأسها الملطخ:

- يوجد دم!

ويقول:

- الدم من فمها وليس جديداً.

ويقترّب منها ويمسك شعرها البشع الغريب، ويجذبها بقوة ليمنعها من ضرب نفسها في الجدار وهو يقول:

- كفى عن هذا الآن، كفى. اذهبي لبينتك. اذهبي لبينتك الآن! من أين أنت؟

ويتوقف الصوت القادم من فم المرأة. ويهز رأسها برفق محذراً إياها قبل أن يترك شعرها.

- اذهبي إلى بينتك الآن!

وبعد أن يتركها تندفع المرأة للأمام بشدة. وتتهض على قدميها،

وتشير وتترنح وتتعثّر فى مشيها فى الشارع، وتصدر منها أصوات احتجاج متقطعة حذرة. ويتبعها جارفيز بولتر بنظراته برهة ليتأكد من أنها فى طريقها إلى بيتها. ثم يجد ورقة أرقطيون يمسح بها يده ويقول:

- ها هى جثتك تسير على قدمين!

كان الباب الخلفى مغلقاً. اتجه إلى الباب الأمامى الذى يظل مفتوحاً. ما زالت ألميدا تحس بالتعب. بطنها منتفخ وحرارتها مرتفعة وتحس بدوخة.

تقول بصوت ضعيف:

- الباب الأمامى مغلق. لقد خرجت من المطبخ.

لو تركها الآن لسانها لذهبت إلى الحمام مباشرة. ولكنه يتبعها حتى الباب الخلفى والصالة. يتحدث إليها بلهجة قاسية لم تعرفها منه من قبل. يقول:

- لم يكن هناك داع لكل هذا القلق. هذه المرأة كانت ثملة. سيدة بنت ناس لا ينبغي أن تعيش بمفردها وسط جيران كهؤلاء.

ويمسك بذراعها فوق المرفق بقليل. ولا تستطيع أن تفتح فمها لتكلمه، لتشكره. فلو فتحت فمها لتقيأت.

ما يحس به جارفيز بولتر نحو ألميدا فى تلك اللحظة هو ما لم يحس به فى السابق خلال التمشيات الحذرة وخلال كل حساباته فى عزلته. قيمتها التى لا خلاف عليها، وجدارتها بالاحترام لا شك فيها،

وجمالها مقبول. لم يتخيلها زوجة من قبل كما يتخيلها الآن. أثاره شعرها المرسل الذى شاب قبل الأوان، ولكنه كثيف ناعم على أية حال. وجهها مخضب بحمرة خجل غامضة. ثيابها الخفيفة التى لم يكن ينبغي أن يراها بها أحد غير زوجها. طيشها وتسرعها وطيبتها... وحاجتها؟ يقول لها:

- سارورك فيما بعد. سأذهب معك إلى الكنيسة.

عند ملتقى شارع بيرل بدوفرين صباح الأحد الفائت عثرت سيدة من سكان الحى على جثة امرأة من قاطنى شارع بيرل ظنت أنها ميتة. ولم تكن، كما تبين فيما بعد، إلا ثملة. ولم تستيقظ من نعيمها - أو قل سباتها - إلا بجهد السيد بولتر الحثيث وهو من قاطنى الشارع، ومحام مدنى معروف كانت السيدة قد استدعته. ذلك النوع من الحوادث غير اللائق والمزعج والشائن لمدينتنا أصبح فى الآونة الأخيرة كثير الوقوع.

V

أجلس فى أعماق النوم،

وكانى فى قعر البحر.

وأناس من سكان القاع

تحيينى بكرم زائد.

وما ذهب جارفيز بولتر وسمعت بابها الأمامى يوصد حتى

هرعت ألميدا إلى الحمام. ولكنها لم ترتح تمامًا. وتذكر أن تراكم دم الحيض الذى لم يبدأ فى التدفق هو السبب فى انتفاخ بطنها والألم الذى تحس به. وتغلق الباب الخلفى بالقفل. ثم، وهى تتذكر كلمات جارفيز بولتر عن الذهاب إلى الكنيسة، تترك له ورقة كتبت عليها: لست على ما يرام، وأرغب فى الراحة اليوم. وتثبت الورقة فى الإطار الخارجى للنافذة الصغيرة للباب الأمامى. وتغلق الباب بالقفل أيضًا. إنها ترتعش وكأنها تعاني صدمة عصبية أو خطرًا داهمًا. ولكنها تشعل النار لتصنع لنفسها كوبًا من الشاي. تغلى الماء وتضع أوراق الشاي فى إبريق الكبير. بخار الشاي ورائحته يزيدان مرضها. وتصب كوبًا من الشاي الباهت لتشربه دون أن ترفع ستارة المطبخ. هناك على الأرض كان كيس الجبن ما زال معلقا بين ظهري المقعدين. وعصير العنب قد صبغ القماش المنفتح بلون الورد الداكن. ألقت به فى الحوض. لا تستطيع أن تجلس وتنتظر شيئًا كهذا. وتشرب كأسها. وتضع البراد وزجاجة الدواء فى حجرة الطعام.

ولم تزل هناك حتى سمعت وقع حوافر الخيل الذاهبة إلى الكنيسة مثيرة سحببات من التراب تسخن راب الطريق فيصبح مثل تراب البراكين. وهى فى الفراندا يتأهى إلى مسمعيها صوت الباب يفتح ووقع خطوات واثقة لرجل. كأنها تسمع الورقة وهو ينزعها من النافذة، ويفردها ويقرأها. وكأنها تسمع رنين الكلمات فى عقله. ثم تأخذ الخطوات طريقًا آخر. ينزل الدرج ويغلق الباب. تقفز إلى ذهنها صورة الضريح. تجعلها تضحك. أضرحة تسير فى الشارع بأقدام

تنتعل الأحذية، وأجساد طويلة تميل للأمام. على سحنهم القاسية علامات استغراق. أجراس الكنيسة تقرر.

الساعة فى الصلاة تدق معلنة الثانية عشرة. مضت ساعة. المنزل يتقد بالحر. تشرب كوبًا آخر من الشاي تضيف إليه قطرات من الدواء. تعرف أن الدواء يؤثر على قوتها. إنه المسئول عن كسلها الغريب، ولكنه ضرورى.

أشياؤها التى تحيط بها، فى حجرة الطعام فقط، جدران مغطاة بورق حائط أخضر غامق مزين بأكاليل الزهور، ستائر منقوشة بخطوط ملونة، ومنضدة عليها مفرش من الكروشيه، وسلطانية تمتلئ بالفاكهة الشمعية، وسجادة رمادية ضاربة إلى اللون القرمزى عليها نقوش باقات من زهور زرقاء وقرنفلية غامقة، وخوان مبسوط عليه أغطية مزخرفة وأطباق وأباريق، وأكواب شاي عليها زخارف شتى. أشياء كثيرة تراها. كل هذه الزخارف تبدو زاخرة بالحياة، على أهبة التحرك والتدفق والتغير، أو ربما الانفجار. كل شغل ألميدا الشاغل طوال اليوم هو أن تتأمل هذه الزخارف. لا لكى تمنع تغييرها بقدر ما كانت ترصده وتفهمه وتكون جزءًا منه. لا تحرك شيئًا مما فى هذه الحجرة.

وبالطبع لا طاقة لألميدا على الهرب من الكلمات. ربما تظن أنها تستطيع أحيانًا، ولكن هذا لا يحدث. ذلك التوقد لا يلبث أن يدفع بالكلمات فى ذهنها للخروج. قصائد. أجل، مرة أخرى قصائد تتضاءل

أمامها كل القصائد التى كتبتها فى السابق. تصبح مجرد محاولة وخطأ،
أسملا بالية. النجوم والطيور والأشجار والملائكة على الثلج والأطفال
الذين ماتوا فى الغسق. كل هذا لا داعى لوصفه مرة أخرى. عليك
الآن بالصخب الفاحش فى شارع بيرل، ومقتم الحذاء اللامع الذى
يرتديه جارفيز بولتر، وردف المرأة الأملس بالكدمات عليه أشبه
بزهور زرقاء غامقة. ألميدا الآن على مبعده من العواطف الإنسانية أو
المخاوف أو اعتبارات الأسرة الحميمة. لا تفكر فيما يمكن عمله لتلك
المرأة، أو فى حفظ عشاء جارفيز بولتر ساخناً، أو نشر ملابسه على
حبل الغسيل. فاض عصير العنب وجرى على أرض المطبخ بإطخ
الألواح الخشبية ببقع لن تزول.

عليها أن تفكر فى عدة أمور فى وقت واحد. الشرائط المعدنية
التي تقصل بين النقوش، الهنود العرايا، والملح فى أعماق الأرض،
والمال الذى يجلبه الملح، والسعى لجمع المال الذى تتقنه رعوس مثل
رأس جارفيز بولتر، والعواصف القاسية فى الشتاء، والأفعال الخرقاء
فى شارع بيرل. وعندما تفكر فى تقلبات الطقس العنيفة فلا سلام حتى
بين النجوم. يمكن احتمال كل هذه الأشياء إذا نظمناها فى قصيدة.
ونظمناها هى الكلمة المناسبة. لأن القصيدة سيكون عنوانها، أو هو
عنوانها فى الواقع: "منستيونغ". اسم القصيدة هو اسم النهر. كلا، إنها
النهر نفسه: "المنستيونغ". ذلك هو اسم القصيدة، بكل حفره العميقة
وأحواضه الهادئة تحت أشجار الصيف البهيجة وكتل الثلج المطروحة

عقب الشتاء، تحدث صريحا أثناء الحركة، وفيضاناته الربيعية الكئيبة. ألميدا تمنع النظر في قاع نهر عقلها. وعلى مفرش المائدة زهور الكروشييه الطافية، تبدو نائمة بلهاء، تبعث على الضحك. الورود النى نسجتها أمها يوما لا تبدو مثل الورود الحقيقية. ولكن الجمال كامن فى الجهد المبذول، واستقلالها الزائف، والرضا بنفوسها البسيطة. علامة مفعمة بالأمل. منستيونغ.

وتلزم ألميدا الحجرة حتى الغسق عندما تذهب إلى الحمام وتكتشف أنها تتزف. الدم بدأ يتدفق. تناولت فوطة وشدتها حول بطنها كنطاق. لم يحدث من قبل، أيام صحتها، أن قضت الليل فى ثياب النوم. لا تحس بقلق خاص بسبب ذلك. فى طريقها إلى المطبخ عبر عصير العنب المسكوب. تعرف أنه سيكون عليها أن تزيل البقع. ولكن ليس بعد. ترتقى الدرج إلى الطابق الثانى مخلفة آثار أقدام وردية. تشم رائحة دمها الهارب وعرق جسدها الذى مكث طوال النهار فى الحجرة المخلقة المتقدة.

لا داعى للقلق.

لأنها لم تظن أن الزهور المنسوجة يمكن أن تطفو بعيدا، وأن شواهد الأضرحة يمكن أن تسير فى الشوارع. لم تحسب أن ذلك كان الحقيقة، وأن أى شىء آخر كان المجاز، وبذلك كانت تعرف سلامة عقلها.

أحلم بكم كلما أقبل الليل،
وأزورك حين يأتي النهار.

أبى، أمى،
أخى، أختى،

لم لا تجيبون ندائى؟

٢٢ أبريل ١٩٠٣. فى مسكنها يوم الثلاثاء الفائت بين الثالثة والرابعة بعد الظهر رحلت عن دنياها سيدة ذات موهبة وخلق حسن. أثرى قلمها فى الأيام الخوالى أدبنا الإقليمى بسفر من الشعر البليغ العذب. وإنها لبلاية كبيرة أن يصبح عقل هذه السيدة المهذبة موضع ريبة فى السنوات الأخيرة، وسلوكها، نتيجة لذلك مندفعاً خارجاً عن المألوف حتى نال من مسلكها وعنايتها بتهذيب شخصها فأصبحت فى نظر الغافلين الذين لا يعرفون قيمتها وأناقته السابقة، غريبة الأطوار أو موضع سخرية على نحو محزن. ولكن هذه الهنات قد نسيت الآن ولا يذكر لها غير شعرها الممتاز وخدماتها الماضية فى مدرسة الأحد، واهتماماتها الخيرية وعقيدتها الدينية الراسخة. كان مرضها الأخير قصير المدى من رحمة الله. أصيبت بالبرد بعد أن غمرها الماء أثناء جولة فى شارع بيرل. (قيل إن بعض الصبية الأشرار طاردوها فى

المياه، وهذه نتيجة وقاحة وقسوة بعض شبابنا الصغار، واضطهادهم المتعمد لتلك السيدة لدرجة أن السامع لا يمكن أن يكذب الحكاية برمتها)، وتطور البرد إلى التهاب في الرئة توفيت على أثره تحت سمع وبصر إحدى جاراتها المسز بيرت أنى فرايلز التى شهدت نهايتها الهائلة المحزنة.

يناير ١٩٠٤. أحد مؤسسى مجتمعا، أحد صناع مدينتنا وباعثي نهضتها، رحل فجأة عن دنيانا صباح الاثنين الفائت بينما كان منكبا على قراءة بريده فى مكتبه بالشركة. السيد جارفيز بولتر الذى كان يتمتع بموهبة تجارية قوية ونشاط ملحوظ مما مكنه من إنشاء عدة مشاريع تجارية محلية جلبت فوائد الصناعة والإنتاج والتوظيف لمدينتنا.

بحثت عن ألميدا روث فى المقابر. وجدت الضريح الخاص بالأسرة. لم يكن هناك غير اسم واحد مكتوب عليه روث. ثم تنبّهت لوجود شاهدين على الأرض، على مسافة بضعة أقدام أو ستة أقدام من الشاهد القائم كتب على أحدهما كلمة "بابا" وعلى الآخر كلمة "ماما". وعلى مبعده من هذين الشاهدين وجدت شاهدين آخرين على الأرض أيضا. عليهما أسماء وليام وكاثرين، وكان على أن أزيح ما تراكم عليهما من حشائش نامية وقذارة لأرى الاسم الكامل لكاثرين. لا وجود لتواريخ ميلاد أو وفاة. لا وجود لعبارات ثناء أو رثاء. لون فريد من إحياء الذكرى لا يابه بهذا العالم. لا وجود لورود ولا وجود حتى

لعلامات على شجيرات ورود ربما اقتلعت، اقتلعها الحارس لأنه لا يحب هذه الأشياء... لم يجد من يعترضه فاقطعها.

اعتقدت أن ألميدا دفنت في مكان آخر. عندما تم شراء هذه البقعة، عند موت الطفلين، كان يعتقد أنها سوف تعيش وتزوج وترقد في النهاية بجوار زوجها. لم يعملوا حسابها في مكان بينهم. ثم لاحظت أن الشواهد التي كانت ملقاة على الأرض إنما سقطت من الشاهد القائم. شاهدان للأبوين وشاهدان للصبيين، ولكن الشاهدين الآخرين وضعا بطريقة تسمح لثالث بينهما لتكملة المروحة. خطوات من شاهد كاثارين عدد الخطوات نفسه حتى أصل من كاثارين إلى وليام. وعند تلك البقعة رحت أجدب العشب وأزيل القذرة بيدي العاريتين. وما مضت برهة حتى أحسست بالشاهد وأدركت أنني كنت على حق. اجتهدت في الوصول إلى الشاهد كله نظيفاً وقرأت الاسم: "ميدا". كان مع الآخرين يتطلع للسماء. تأكدت من وصولي إلى نهاية الحجر. كان ذلك كل ما كتبه من الاسم؛ ميدا. إذن كان اسمها ميدا في الأسرة، وليس في القصيدة فقط. أو لعلها اختارت اسمها من القصيدة ليكتب على ضريحها.

كنت أظن أن أحداً لا يعلم ذلك غيري من بين الأحياء جميعاً، وأن أحداً لن يستطيع الوصول إلى هذا التسلسل في الأحداث في المستقبل إلاي. ولكن الأمر ليس كذلك. فالناس مجبولون على حب المعرفة. أو قل فئة منهم. سيجدون الدوافع دائماً لاكتشاف الأشياء.

حتى الأشياء التافهة. سوف يضعون الشيء جنب الشيء. ويعرفون أنهم ربما أخطأوا في البداية. ألا تراهم يتجولون يحملون كراسيات ويزيلون الأتربة من فوق الأضرحة، ويقرءون أفلامًا، لا هم لهم غير وضوح الرؤية، والعثور على الأسباب، وإنقاذ شيء، ولو شيء واحد فحسب، من انقراض الذكرى.

فى الغسق (١٩٩٤)

أليس إليوت دارك

هم ابنها بالحديث مرة أخرى.. فجأة. فى النهار كان يجلس فى سكينه ويطلق التفكير، مقطب الجبين عند حمام السباحة، من موقعه على الكرسي المتحرك الذى كان يجلس عليه، تغطيه البطانيات بالرغم من حر الصيف. فى أوقات المساء، رغم ذلك، كان يريد يعود إلى طبيعته القديمة - طبيعته القديمة... القديمة جدا. كان يصبح أكثر عنوبة ولطفاً، أشبه بأيام طفولته الباكرة، قبل أن يبدأ فى حجب نفسه وراء طبقات من الدعابة والتعليقات الساخرة. تكلم بصراحة أذهلتها. لا تعرف أحداً تحدث بتلك الدرجة من الصراحة.. رجلاً على الأقل. بعد أن كان يخلد إلى النوم، كانت جانيه تعود بذاكرتها إلى الحوارات التى دارت بينهما، عندئذ كانت تترك ما كانت تتمنى أن تقول. كانت تعرف أنه كان يعتقد بصراحتها، ولكن ذلك كان يرجع لكونها مستمعة جيدة أكثر منه بسبب حديثها. كانت ملازمته عملاً شاقاً، بيد أنه العمل الذى وقفت نفسها عليه طوال حياتها.

قبل شهر، بعد زيارة طويلة ومرهقة للغاية من جانب صديق

كان قد جاء بالقطار من نيويورك، أعلن ليرد بدء سياسة جديدة: لا زيارات ولا تليفونات. لم تلمه. فمن لم يره منذ فترة كان يصنمه المشهد حتى البكاء. بدلا من أن يجد من يشيع الأمل في نفسه، كان يضطر إلى تهدئة الناس. لقد استرقت، السمع لقليل من تلك المقابلات. لم تكن آخرها أسوأ مما سبقها. ولكنه كان قد شبع. سئم. قال أكثر من مرة إنه لم يخلق ليكون أشجع رجل في العالم، وإنه ليس مضطرا إلى أن يجعل كل من يزوره يخرج من عنده أفضل حالا، أو يهز رأسه عجبًا. كان يحب أن يتذكر أنه كان أكثر الشباب وسامة. يأخذه الحنين. عندما كان الكيل يفيض كان يتراجع داخل ذاته، يفرض ذلك على نفسه فرضًا، تراجعًا كاملاً مع جدار سميك من الصمت وممارسات أخرى كانت تشغل وقته لأسابيع عدة.

بدأ ذلك في الليلة التي تناولوا فيها الغداء في الشرفة لأول مرة منذ بداية الصيف. يومها قام مارتن - أبو ليرد - ليتحدث في التليفون، ولكن جانبيت بقيت في مقعدها المصنوع من الخيزران المجدول، تأخذ قسطًا من الراحة قبل أن تشرع في تنظيف المائدة. كانت لحظة من تلك اللحظات التي أحست فيها بحنين للسجائر. في ليال كنتك في الماضي، عندما كان الهواء يذعن للسكون، كانت تسلى طفليها بإطلاق دوائرها الدخانية في الهواء نزولا عند أوامرهما. كانت تطلق الدائرة تلو الأخرى، أو تطلق ثلاث دوائر حبلية كبيرة في طابور واحد يتمدد في هيامه في الأعلى. كانت تفعل ما كانا يطلبان. كانا يلحان عليها في

الطلب إلى أن تأتي أحياناً على ربع علبة السجائر قبل أن يسمح لها بالتوقف. والعجب أن آن وليرد لم يصبحا من المدخنين. بالعكس كانا يلحان عليها بالإقلاع عن التدخين، وكانا سعيدين عندما أقلعت فى النهاية. كانت تريد أن يشعرا على الأقل بالضيق لأن جزءاً من طفولتهما قد ولى، رغم كل شيء.

بوحى من العادة المتأصلة راحت تراقب أول نجمة تعلن عن ظهورها. كان الظلام يغشى المرجة، وأطلقت شذاها الأزهار التى ظلت طوال النهار عابسة بسبب القيظ. أسندت رأسها على حافة المقعد وأغلقت عينيها. ولم تلبث أن بدأت تتسمع أنفاس ليرد، وجدت نفسها تلتقط الإيقاعات الأساسية، الأنفاس وحدها. جل رضاها أن تكون قريبة منه على ذلك النحو. كم أم أنفقت تلك الساعات الطوال مع ابنها الذى أكمل السنة الثالثة بعد الثلاثين من عمره؟ سألت نفسها. فى قلبها منه أكثر مما كان فيه عندما كان طفلاً رضيعاً، أو أكثر، لأنها تملك ذكرى السنين الواقعة بين الفترتين مما يجعله مدار فكرها فى اليقظة والمنام. عندما كانا يخلوان كل إلى الآخر كانت تحس بقربها منه كما لم تحس به من قبل. كأنه لم يزل هناك، داخلها، داخل القوقعة الضعيفة. تحس بمتعة وجوده داخلها.. فى بطنها.

"الغسق" قال فجأة.

أومات برأسها إيماءة حاملة، آلية، ثم اعتدلت فى جلستها واستدارت نحوه وسألته: "ماذا قلت؟" رغم أنها كانت قد سمعته.

"أذكرين عندما كنت صغيراً، أخذت بيدي إلى الشرفة، وقلت إن هذا الوقت من النهار كانوا يسمونه الغسق The gloaming فى اسكوتلندا".

استشعرت وخزاً خفيفاً فى جلدها. تتحننت، فى هدوء، وحرصت على ألا تجعل من مناسبة عودته إلى الحديث معها مرة أخرى أمراً خارجاً عن المألوف. "كنت تظنين أنى قلت: حزين gloomy".

انفجرت أساريره بابتسامة، ثم رماها بنظرة فاحصة.

"كنت دائماً أعتقد أن انقضاء النهار يؤلمك بعض الشيء، ولكنك قلت إنه كان وقتاً جميلاً، لأنه فى لحظات قلائل يجعل اللون الأرجوانى الدنيا تبدو أشبه بمرتفعات سكوتلندا فى ليالى الصيف".

"أجل، وكما لو كانت الأرض قد اكتست بالخلنج".

"أنا حزين لأنى لم أر اسكوتلندا".

"أنت اسكوتلندى على أية حال، على الأقل من ناحيتى".

تذكرت أنها عرضت عليه أن تصحبه إلى سكوتلندا فى يوم من الأيام، ولكن ليرد لم يكن مهتماً. فى ذلك الوقت كان لم يزل طالباً جامعياً ووثاقاً من غاياته وتوجهاته التى كانت مختلفة تماماً عن غاياتها هى.

"يدهشنى أنك تتذكر تلك المحادثة. لا يمكن أن تكون وقتها أكثر من سبع سنوات".

"إنى أتذكر الكثير فى الفترة الأخيرة".

"صحيح؟".

"أغلب ما أتذكره حول الفترة التى كنت فيها صغيراً. أعتقد أن ذلك لأنك أصبحت تهتمين بى مرة أخرى. أحياناً عندما أستيقظ وأرى وجهك، أحس أننى أستطيع أن أتذكرك وأنت تتظرين إلى عندما كنت فى المهد، أتذكر فساتينك".

"أوه، لا". وضحكت ضحكة خفيفة.

"كنت دائماً فى أحلى هيئة".

كانت مذهولة... فوجئت... ثم تذكرت أيضاً عندما كانت تميل على مهد ليرد وتتذكر فجأة طفولتها فى المهد وهى تتطلع إلى أمها هى. "أعرف ماذا تقصد".

"فهمت؟ صح؟".

رماها بنظرة فاحصة حميمة جعلتها تنتبه لنفسها. تنبّهت إلى أنها كانت تؤرجح ساقها بعصبية مثل رقاص الساعة.. وتوقفت. قال: "أمى، لا تزال هناك أشياء قليلة أريد أن أفعلها. يجب أن أكتب وصيتى، من أجل شىء واحد لاغير".

غاص قلبها. كانت فى حضوره تؤكد دائماً، وبإيراد الدليل، على أنه سوف يتحسن. لم تكن تظن أن يأتى الوقت الذى تتحدث فيه عن الوجه الآخر. قال:

"شكراً"

"على ماذا؟"

"لأنك لم تقولى إن هناك فسحة من الوقت لمثل هذه الأمور، أو أية فكرة عاطفية أخرى".

"السبب الوحيد فى أنى لم أقل ذلك هو أنى أردت أن أتجنب الكلام المعاد، وليس لأنى أومن بما تقول".

"أو تظنين أن هناك فسحة من الوقت؟"

لاحظ ترديدها. مال قليلاً للأمام. قالت: "أعتقد أن هناك متسعاً".

"حتى لو كنت فى صحة جيدة، فإنها فكرة جيدة".

"وأنا أعتقد ذلك".

"لا أريد أن أدعها إلى أن يفوت الوقت. إنك لا ترغبين فى أن أتترك كل شيء فجأة للممرضات، أليس كذلك؟".

ضحكت، سعيدة لأنه يمازحها مرة أخرى. "حسنًا، حسنًا، سأتصل بالمحامى".

"عظيم". توقفاً برهة ثم عاد يقول: "ألا يزال هذا الوقت من النهار هو الأفضل فى نظرك يا أمى؟".

قالت: "أجل، أظن أنه كذلك، رغم أنى لم أعد أومن بلغة الأفضل وغير الأفضل".

"لا يهم الأفضل وغير الأفضل إذن، ما الشيء الآخر الذى تحببته؟"

سألته: "ماذا تقصد؟"

"أقصد ما قلت بالضبط".

"لا أدرى، أهتم بجميع الأمور العادية. أنت تعلم ماذا أحب".

"اذكرى شيئاً واحداً".

"أحس بالحرى".

"أرجوك".

"حسناً، أحب قطعة الأرض التى أملكها، المزروعة بأزهار السوسن هناك فى الوادى تحت الأشجار. الآن، هل نغير الموضوع؟".

"اذكرى شيئاً آخر".

"لماذا؟".

"أريد أن أعرفك".

"أوه، ليرد، ليس هناك ما لا تعرفه".

"لا أصدق ذلك".

"لكنها الحقيقة، الشيء الوحيد الرائع فى حياتى هو أولادى".

قال: "حسنًا، فلنتحدث عن شعورك نحوى".

"هل تغازل ممرضاتك على هذا النحو عندما أكون بعيدًا؟".

"لا أجرؤ، إنهن يجدننى حيث يتركننى". نظر إليها وقال: "أنت تغيرين الموضوع الآن".

مسحت بباطن يدها على تنورتها فى لطيف وقالت: "أعرف شعورك تجاه الكنيسة، ولكن إذا أردت الحديث فأنا متأكدة أن القس سيكون سعيدًا حين يأتى إلى هنا. أم أنك تفضل الطبيب؟". ضحك.

"فيم تضحك؟".

"لأنك ما زلت تسمين الأخصائيين النفسيين أطباء حقًا".

هزت كتفها علامة على اللامبالاة.

"لا أريد أخصائيين يا أمى". عقد على يديه وشد عليهما بينما كان يجتهد فى البحث عن الكلمات. سألته: "ماذا يمكن أن أفعل؟".

تقابلت عيناها: "أنت من جئت بى إلى هذه الدنيا، أريد أن أعرف عنك الكثير".

ظلت موقفة تلك الليلة، تفكر فى طريقة لمساعدته فى شىء تقدمه بالإضافة إلى وقتها. لم تجد شيئًا.

فى اليوم التالى كانت قلقة عندما وجدته حرونا متجههم الوجه

مرة أخرى، ولكن في الليلة التالية، وفي كل ليلة بعد ذلك، كان للغسق سحره. كانت تعد مائدة العشاء في الهواء الطلق. بعدئذ، عندما كان مارتن يغيب في أعماق مكتبته، تبدأ هي وليرد في الحديث. كان الهواء حولهما يفيض بالطاقة التي كانا يشحذانها في سعيهما ليعرف كل منهما الآخر، سألت نفسها، لم يحدث أن اقتربت على هذا النحو من أحد. الواقع أن الصلة الحميمة لم تكن تبين علاقتها مع مارتن، بعيدة عن كونها علاقة روحية. لم تكن تأبه بإخلاص أصدقائها أو عدمه. لم تكن تعمل عليهم كثيرًا. كانت دائمًا تجد من الأسباب ما يصرفهم عنها. وكان في وسع أصدقائها أن يختاروا مقاطعتها. وكان في وسع مارتن أن يطلب الطلاق. بينما كان ليرد مشاهدًا مقيظًا. الأبوان والأبناء مشاهدون يلزم بعضهم بعضًا دائمًا، مشدود كل إلى الآخر بحبل متين. لذا كان يدهشها أن يكون فهم كل للآخر فهما قاصرا. توقف الجميع عن الاهتمام بالمعرفة في وقت مبكر، وهم يعتقدون أنهم فهموا كل شيء. كانت تقر بذنبها، شأنها في ذلك شأن الآخرين. كانت لم تزل تتملكها الدهشة كلما ذهبت إلى بيت ابنتها وترى كيف أصبحت منظمة ومرتبّة. فقد كانت آن في نظرها لم تزل مرافقة مهملة، تلقى بملابسها في أي ركن من دولاها، وأغلفة الحلوى تحت سريرها. الذي يدهشها أيضًا أن ليرد لم يكن يهتم بالجنس اللطيف. هل كان يهتم في الماضي؟ تذكرت كيف كانت تبقى ساهرة تنصت لوقع أقدامه عائداً إلى البيت، متمنية أن يكون من الحرص بحيث يستفيد من كل ما تعلمه عن حقائق الحياة، أن يأخذ احتياطاته.

لديها الآن فرصة للتخلص من كل الأفكار القديمة. ليس لأنها كانت تحب كل ما يتعلق بليرد - فالكثير ظل غريباً عنها - ولكنها أرادت أن تعرف كل شيء. بيد أنها كانت تعود إلى وظيفتها بعد أن تستيقظ تواقفة إليه، تواقفة لحبه وافتتانه بها. وكأنه ارتد مخلوقاً ضعيفاً حديث العهد بالدنيا، وتتطلع من ثم لليوم الذي تراه فيه يكبر أمامها شيئاً فشيئاً. لم تلبث أن أصبحت تتحرق شوقاً لتلك الأمسيات. استبدلت بالوقت الذي تقرأ فيه الطالع من أجل النذر اليسير من الأمل والطرافة، عادة استحدثتها في مراقبة الوقت الذي يجئ بالغسق. تحس بالرضا من قدومه أبكر فيما الصيف يقصر. ذلك يعنى أنها لن تضطر إلى الانتظار طويلاً. اعتادت على النوم المتأخر إمعاناً في تقصير النهار. كان الأمر سخيلاً، كانت تعلم. كانت تتصرف - مثل فتاة عاشقة - بقلعة عقل. إحساس تعتقد أنها لن تجربه مرة أخرى، هاهو ذا الآن. أغرقت نفسها فيه، تعيش حياتها انتظاراً للحظة الغروب. عندئذ تبدأ عيناه في التآلق علامة على بقظة وعيه. عندئذ كان يومها يبدأ حقاً.

ذات ليلة قال: "أبى اختفى بسرعة". كانت تسأل نفسها كثيراً متى سيذكر أباه. قالت بطريقة آلية: ذهب ليتكلم في التليفون.

خصها ليرد بنظرة في عينيها مباشرة. تتم تعبيرات وجهه عن لوم مهذب. كان يريد أن يضبطها مثلثة بأكثر كذبة في حياتها، ظن أنها كانت تفهم غرام مارتن بعمله. حولت بصرها بعيداً عنه. الواقع أنها لم تفهم ذلك البتة. لماذا كان يرض عليها بالجلوس معها نصف

ساعة بعد العشاء أو الغداء؟ إذا لم يكن معها، فعلى الأكل مع ابنه الذى يحتضر.

استدارت نحو ليرد بحدة. كلمة "يحتضر" تردد صداها فى أعماقها حتى إنها تساءلت إذا كانت قد نطقتها فعلاً، ولكنه لم يبد أى رد فعل. تمنّت ألا تخطر هذه الكلمة لها على بال. تحاول التعلق بالنيات الحسنة فى حضوره. عندما لم تستطع، كانت تلوم نفسها، ففى وسعها أن تستعرض بذاكرتها القوية كل الكتب والمقالات التى قرأتها فى المجلات التى تؤكد على أثر العوامل النفسية فى مسيرة المرض. لم تكن تصدق كل شىء، بيد أنها تحس بضرورة إعطاء الفرصة لكل النظريات التى يرمى منها النفع. والتفكير الإيجابى لن يضر. لعل ذلك من شأنه أن يطيل فى عمره بضعة أشهر.

"لا أعتقد أن أبى يطيق البقاء بجوارى".

"ليس هذا صحيحاً". كان ذلك هو الواقع.

"مسكين أبى. كان دائماً يعانى من وسواس المرض، نشترك أنا وهو فى هذا الأمر. لابد أنه لا يحب ذلك".

"هو يريدك أن تتحسن وحسب".

"إذا كان هذا ما يريده فأخشى أن أخيب أمله مرة أخرى. على الأقل هذه آخر مرة أخلّله فيها".

قال ذلك مازحاً، مع ذلك ظهر الضوء القديم المألوف المتألق فى

عينيه. سمحت لنفسها أن تضحك. كان يحب المزاح دائماً، ولم ير قداسة في شيء. وبوصفها صاحبة السلطة الفعلية في البيت - لم يكن مارتن يقيم في البيت الوقت الكافي حتى يتمكن من فرض النظام - كانت كثيراً ما تضطر إلي تأنيب ليرد، وإن كانت، والحق يقال، تشاركه روح الدعابة. استجاب لها الساعة عندما مالت ناحيته لتصفعه على ذراعه. كانت استجابة عفوية مدفوعة بتفجر البهجة الذي لا يأبه بواقع الحال. وكانت غلطة إذ حتى من خلال ثيابه الوبرية فقد اصطدمت مفاصل أصابعها بعظم.

لم يتبق منه شيء.

قالت: "هو الخاسر على أية حال". فوجئت بنحافة ليرد مما أعاد إليها سميتها الجدى. ذلك أبعد ما كانت تذهب إليه في انتقاد مارتن. كانت تتذكر دائماً أن من واجبها أن تبقى على صورة مارتن طيبة أمام الأبناء. لقد أضحي شخصاً من ابتداعها، بسلسلة كاملة من العواطف والأحاسيس، كان وفقاً لها يفقددهم عندما يغيب في رحلة عمل، ولا يفارقون فكره عندما تضطره الظروف إلى التأخر في عمله خارج البيت. من بضع سنوات خلت اختلست زيارة إلى الطبيب النفسى، اقتنعت في نهاية الأمر أن مارتن لم يكن ذلك الفارس الذي كانت تحلم به. كان رجلاً مجبولا على منافسة الآخرين، رجلاً تستغرقه شئونه الخاصة، ما كان له أن يتزوج من البداية.

كان مصدر ارتياحها أنها كانت قادرة على مواجهة الموقف

بعزم إلى درجة أنها أرادت أن يعرف أولادها كل شيء، لولا أنها خشيت أن يعرفوا أنهم كانوا يعولون على خرافة. وربما كرهوا عمله. وتخلت عن الموضوع.

"شكراً يا أمى، إنه الخاسر من ناحيتك أيضاً".

تعلقت دمة بأهداب عينيها. البكاء آخر شيء كانت تريد أن تفعله. ثمة فسحة من الوقت لهذا كله. "ليس الخطأ خطأه كله". قالت عندما استعادت قدرا من رباطة جأشها "لا أجيد الكلام عن نفسى. لقد نشأت على هذا".

قال: ولا أنا.

قالت: نعم، أعتقد ولا أنت.

"لحسن الحظ أنى لم أبه". قال مقطباً.

"أتمنى ألا تهتم". قالت وهى تعنى ما تقول ثم أردفت: "هل أحضر لك شيئاً؟"

"جهاز مناعة جديد؟".

دحرجت عينيها محاولة أن تدارى وقع مزاحه على موضع أمانيتها جميعاً "أنت مضحك جداً، كنت أفكر أكثر فى اتجاه الشاى المثلج أو بطانية إضافية".

"أنا بخير، أحس ببعض التعب فحسب".

استيقظ جسدها كله. تفحصت وجهه باحثة عن شواهد على تدهور حالته. كان عصب ضرسها ينتصب ويخزها عندما كان يطلب شيئاً، يزيد لديها إفراز الأدرينالين، ينتابها إحساس جندى ليس أمامه إلا القتال أو الهرب. حدثتها نفسها كثيراً بالهرب. اضطرت إلى البقاء، القتال بما لديها من أسلحة قليلة. استجابت لجميع احتياجاته. تأكدت من وجود ملاءات جديدة ونظيفة جاهزة إذا حل به التعب، ومن وجود طعام عندما كان يجوع. كان ذلك كل ما تستطيعه.

رجعت بمقعدها إلى الخلف بعيداً عن المنضدة وقالت: "هل استدعى لك الممرضة؟".

"نعم". قال ليرد بصوت واهن. مد لها يده. أضاعت جلده أضواء القمر الأولى فبدأ في لون المرمر. علا وجهه شحوب كشحوب الموتى. أسلمها المشهد إلى حزن شديد. أسرع في طلب ماجى، وعندما عادت كان ليرد قد أغلق عينيه، وتذلت رأسه على جانب من المنضدة. وعلى نحو تلقائي شرعت جانيت تبحث عن النبض في قلبه. هاهوا صدره يعلو وينخفض، كان لم يزل يتنفس. مرت ثانية، قبل أن ترى حركة صدره، تلوذ فيها بالصبر والهدوء بينما كانت تعد نفسها لذلك الاحتمال: اكتشاف موته.

وضعت ماجى أصابعها على رسغ يده تحصى نبضات قلبه على دقائق الساعة في يده الأخرى. شفتاها ترتجفان. أعادت يده المتهالكة إلى حجره "سريع. لست مندهشة". قالت جانيت وهي تحاول أن تدارى خوفها بالتظاهر برباطة الجأش "لقد تحدثنا طويلاً".

وقطبت ماجى جبينها وقالت: "الآن سأضطر إلى إيقاظه مرة أخرى ليأخذ أدويته. قالت الأم: "أجل، أعتقد أن هذا صحيح، لقد كنت نسيت".

ودفعته جانباً إلى حجرته البديلة فى الطابق الأسفل. ساعدت ماجى فى رفعه إلى السرير المستأجر من المستشفى. ورغم أنه لم يكن يزن شيئاً فى الواقع. فقد كان عملاً لا يقوم به إلا اثنان، كان وزنه وزن الميت. كانت تتظاهر أمام ماجى بقدرتها على تمالك نفسها، إلا أنها انزعجت عندما ضلّت أصابعها ومست خد ليرد الشاحب، وخشيت أن تكون قد سببت له ضرراً.

ذات ليلة سألتها: "من هو كاتبك المفضل؟".

قالت: "أوه، كثيرون جداً".

"الذى لا تعدلين به أحداً".

فكرت هنيهة وقالت: "الحق أن هناك بعض موضوعات تروق لى أكثر من كتاب بعينهم. أحب قراءة مجموعة من القصص والروايات التى تعالج موضوعاً واحداً لكى أشبع توفاً عاطفياً".

"مثل ماذا؟".

"كتب حول الناس الذين ينزحون إلى إفريقيا أو أستراليا أو ما وراء البحار الجنوبية". ضحك وقال: "هذا واضح، وماذا أيضاً؟"

"عندما أكره الحياة حقاً فأبنى أجد متعة فى الكتب التى تتناول

جرائم القتل الحقيقية. كانوا يسمونها ذات يوم جرائم واقعية. إنها تتطوى على قسوة واضحة".

"هل هذا ما يروق لك؟ لست مقتنعا".

توقفت هنيهة ثم أردفت: "لا أحب القراءة في كتب الجنس".

"مفاجأة كبيرة".

قالت: لا، لا، ليس للسبب الذى تظنه. أو قل ليس فقط لهذا السبب الذى تظن: أنت ترانى امرأة محتشمة، أعرف، ولكن تذكر أن ذلك جزء من وظيفة الأم. إنك يجب أن تجدها على هذا النحو المحتشم، رغم أنى، ربما ذهبت بعيدا بعض الشيء...

هز منكبيه فى ود: "مياه تحت الجسر. ولكن هات ما عندك فى

الجنس".

"أعتقد أنه يجب ألا يظهر للناس. أعتقد أن أولئك الكتاب يسعون للفت الانتباه عندما يصفون مشهرا جنسيا. إنهم لا يصفون الجنس الحقيقى، ولكنهم يريدون أن يثبتوا للناس أنهم لا يهابون الكتابة فى شيء. إنهم كمن يضعون أصابعهم فى فروج أمهاتهم".

أنتا شفتيه استياء.

عادت جانبى تقول: "ألا تعتقد أن هناك شيئا من الصحة فيما

أقول؟ إننى أنقصى دوافعهم لأنى لا أظن أن الجنس يمكن أن يوصف.

الإحساس والعواطف أشياء فوق اللغة. إلا إذا كنت تريد أن تصف الجانب التقنى منه. وتصبح النتيجة وصفاً تحليلياً علمياً أو تصويراً إباحياً. أما إذا سعيت لوصف الحميمة فسينتهى بك الأمر إلى أفكبار مجردة. الجنس الوحيد القابل للوصف هو الجنس الرديء. ومن منا يريد أن يقرأ عن هذا النوع من الجنس إذا كان يمارسه في بيته، صدقنى.

"أمى! وضحك بإعياء. كان ذراعه يتكلمان بوهن على جانبي المقعد.

"إننى أعنى ما أقول. فى رأى أنه أشبه بمن يقرأ فى دورة المياه."

قال: "كارثة!"

"الآن من فينا الذى يدعى الاحتشام؟"

"لم أقل أبداً إنى كنت محتشماً، ربما يجب أن نغير الموضوع."

أقلت نظرة خارج النافذة، على الناس والبيوت. كانت الأنوار تطل من داخل النوافذ مضيئة على المساء جو الخريف المبكر. كانت الأوراق تتكلى فى حزن وقد أخذت لوناً مغايراً أيضاً. جفت الأعشاب بالرغم من المياه التى تغمرها وعناية البستاني التى يوليهها دون كلل. كان الصيف يوشك على الرحيل.

"لسنا مضطرين إلى تغييره. كنت دائماً أسأل هل كنت أنت

راضياً عن هذا الجانب من الحياة؟"

"أمى، قولى إنك لا تسألينى الآن عن حياتى الجنسية."

تناولت فوطتها ووضعتها على حجرها فى تودة وطفقت تسوى
حوافها وتمر بأصابعها عبر الأهداب. أحست أنها هادئة مستجمعة
القوى كأنها استطاعت آخر الأمر أن تتحول إلى امرأة وقورة. لولبت
أصابعها ووضعت يديها على حجرها. قالت:

"إنى أسألك عن حياتك العاطفية، هل أحببت أو كنت محبوباً؟"
"نعم".

"هذا يفرحنى".

قال: "لقد كان ذلك سهلاً".

"أه.. لقد تساهلت فى كبرى".

"وهل يعرف أبى ذلك؟". كانت عيناه تومضان فى خبث. قالت:
"لا تكن مشاكساً".

"أنت البادئة".

"وأنا المنهية الآن".

استطاع أن يرسم علامات المزاح على وجهه، واسم يلبث أن
حولها إلى الجد على نحو جعلها لا تملك إلا أن تبسم. أعادتها طريقته
المعتادة فى مداعبتها إلى ذكريات طفولته حين كان يسعى بشتى الطرق
إلى إرضائها وجذب انتباهها. يحضر لها اللوحات المائية للمشاهد التى
تهواها، وباقات من أزهار البنفسج يلقيها فى حجرها على استحياء،

وعندما كانت الواجبات المدرسية تنتجز دون نصح. كان يشتط في تودده وكانت تقبله راضية.

فجأة أدركت. لقد أصبح ليرد عشق حياتها.

ذات ليلة انهمر المطر بغزارة، وقررت جانبيت أن تعد الواجبات في المطبخ، فلم يكن مارتن في البيت. أكلا في صمت، تخففت من الالتزام بمواصلة ذلك التيار من الثثرة الذي كانت تمارسه لكي تحرك مشاعره عندما كانت تراه محجما عن الكلام؛ عندئذ تدرك أنها تدخر حديثها لوقته. لم يأكل شيئا سوى ما يسد رمقه. بطاطس مهروسة وبعض الأيس كريم بالفانيليا وحلوى البودينغ. لقد مضت أيام على ريجيمه النباتي القاسي، ودروس المطبخ التي كانت تدرسها لكي تساعد عليه. أصبح جسده نفسه في ذمة الماضي، كان يأكل لكي يبقى على ما بقي من عقله. بدا أنه كان يريد أن يسترد الإحساس المثلل الذي كان يلقاه عندما كان يمرض وهو طفل. كانت تعد له شراب الزنجبيل والخبز المحمص المغموس في الزبد، وتشاركه لعب الكوتشينة الذي لا ينتهي مستخدمة ساقيه المغطاتين بالبطانيات كمائدة. في تلك الأيام أيضا، كان يجد في نفسه طاقة على المرض، كان يحس أنه يستطيع تحمله حتى النهاية؛ لأنه كان يدرك أنه لا يلبث أن يتمائل للشفاء ويقف على قدميه ويستقبل مليون شيء كان في انتظاره. الآن يعتوره إحساس بأنه يتحمل المرض.

وفي النهاية دفع بإنائه إلى منتصف المائدة علامة على أنه فرغ

من طعامه.. عاداته الحميدة على المائدة تبددت، ومن كان يهتم؟ أحست بوكزة عصبية خفيفة، إحساس صادفته وهى فى طائرة تستعيد سرعتها على مدرج. رتبت شوكتها وسكينها على حافة طبقها وبفعت بمقعدها أسفل المائدة. قالت: "حلمت حلمًا غريبًا الليلة".

كانت عيناه باهتتين يعوزهما البريق.

انتظرت مترقبة، ظنت أنها ربما بدأت الحديث مبكرًا. سألته: "هل تريد شيئًا آخر؟".

هز رأسه. لم تحمل تعبيرات وجهه شيئًا. كان رفضه جنسًا خالصًا، إيماءة قادمة من الشبع فى معدته. "حيوان متجاوز بطنه". قالت فى نفسها.

ولكى تمضى الوقت حملت الأطباق إلى الحوض وغسلتها جيدًا وأدخلتها فى المغسلة. حملت الأيس كريم إلى المطبخ وتناولت ملعقة من الدرج ونزعت ملء فيها من فضالة الأيس كريم الملتصق بغطاء الإناء والتهمته دون تفكير حتى إنها فوجئت بحلاوته على لسانها، إلا أن أذنيها كانتا مع ليرد أثناء ذلك كله. وفى كل مرة تخس فيها بعلامات على رغبته فى الكلام تعود مسرعة إلى المائدة، ثم تجد وجهه لم يزل محايدًا خاليًا من أى تعبير.

عادت إلى النافذة. أصبحت المرجة عرضة لأن تغمرها المياه. استقرت بها البرك التى كانت تتسع مع الوقت مما أضعف النباتات التى كانت دائمة الخضرة. لم يغير المساء لونها الرمادى الذى كانت عليه

مذ الصباح. رآته يركز بصره على الخط الذى تلتقى عنده قمم الجبال مع صفحة السماء، وفهمت. كانت ليلة ماطرة لم تتخللها فسحة من صفاء. افتقد فيها اللون الخلنجى للغسق. امتدادات الطبيعة الرمادية سلبته البريق فى عينيه.

"آسفة". قالت بصوت عال، وكأنه خطوها.

هز منكبيه هزة خفيفة يائسة. حامت حوله لحظات قلائل يحدها. الأمل. وجدت وجهه راكدا لم يزل فارتدت بوجهها يائسة مخيبة الآمال يساورها إحساس المنبوذ، ونبذت فكرة الجلوس معه ومراقبة المطر.

"ولا يهملك، إنها ليلة جميلة لمشاهدة التلغاز".

دفعته إلى حجرته الصغيرة، مختلاه، وتركته مع ماجى. حارت فى أمر نفسها. لم تعد خطأً لطارئ كهذا. تلك كانت الفترة الوحيدة فى النهار التى لم تحتج فيها لمخدر مباريات التنس ودروس البروج، والعمل التطوعى والمهام الوجيزة. لم تفكر فى الاحتمال المائل أمامها الآن. لم تفكر حتى فيما قد يسميه مارتن: "المشهد الكبير". لقد أغرته حواراتها مع ليرد ببناء سيناريو من صنعها. أماسى الصيف تمتزج بالخریف وشيئا فشيئا يأتى الشتاء معلنا بداية الحوار أمام المدفأة وقد أراح ليرد قدميه على مسند قد من جلد الخنزير فى حجرته الصغيرة بينما شغلت هى نفسها، من منطلق الإحساس بالواجب، بحياكة سترات عيد الميلاد لأبناء آن. لقد وجدت الوقت لتصور المستقبل. كان ذلك خطأها. هذا المساء اللانهائى الصامت كان عقابها.

حارت أين تذهب فى بيتها. انتهى بها الأمر بالطواف بالحجرات
مدفوعة بإحساس غامض، إحساس المطارد. استدارت غير مرة
متوقعة وجود شخص ما، ولم يكن لأحد وجود فى الواقع. كانت وحدها
تمامًا. أدركت فى النهاية أنها كانت تتخيل شخصًا لكى تخلع سمات
الوجود المادى على مصادر جراحها. اخترعت وغذا، مجرمًا. يجب
أن يكون هناك مجرم، أليس كذلك؟ لابد من وجود عدو، شيطان، قوة
شريرة يمكن أن تطرد. راح خيالها يخلق شيئًا ذا وجود جسدى حتى
يتسنى لها الادعاء، ولو للحظة، أن هناك عدوا حقيقيا يحوم حولها،
شخصًا تستدعى له البوليس ويقبض عليه. ولكن العدو كان جزءًا من
ليرد نفسه ولم يكن فى وسعه ولا فى وسعها ولا فى وسع أى من
الأطباء أو الأخصائيين أو القسس أن يفصل الجزء عن الكل.

صعدت إلى الطابق الأعلى وأخذت دشًا. لم تعد تعنى بجسدها
إلا فيما ندر، تنبهت بشرود إلى أن الماء كان شديد السخونة، وأن
جلدها تحول إلى اللون الأرجوانى. استقرت، بعد الدش، على
الشيزلونج فى حجرة نومها وحاولت القراءة. سمعت صوتًا، مالت
برأسها نحو مصدر الصوت. هل كان ليرد؟ اعتقدت فجأة أنه شرع
يتحدث رغم كل شيء. اعتقدت أنه كان يتحدث إلى ماجى. ارتدت
ملابسها ونزلت الدرج. كان وحيدًا فى مختلاه. وحيدًا مع التلفاز. لم
يسمعها، لم يرها. رآته يتناول شربة من كأس. كانت يده ترتعش بشدة.
كان كأسًا من البلاستيك بماصة مغروسة فى فتحة فى غطاءه. ذلك

النوع الذى يستخدمه الأطفال ليتعلموا كيف يشربون. المفروض أنه يمنع الحوادث، بيد أنه لم يمنع يديه من الارتعاش وإراقة العصير كيفما اتفق.

كان ليرد يعشق الدثر الكشميرية الوبرية التى كانت قد جمعتها عبر السنين من الأسواق الحرة فى المطارات البريطانية المختلفة. إنه يضع الآن أحدها فوق منكبيه وآخر على ركبتيه. تذكرت ليالى أخرى كان الجو صحوا وكان يعود إلى البيت بعد حلول الظلام وهو يعلق واحدة منها على رقبتة. قال فجأة:

"أظن أن كل شيء يجب أن يكون فى الكنيسة".

قالت: "أظن ذلك، ولكن هذا يرجع لك".

"وأظن أن الوقت لن يكون مناسباً للحديث عن الأشياء التى لا أومن بها شخصياً. ولكن أريدك أن تتأى بالأمر عن الحزن الشديد. لا أريد أزهار السوسن على سبيل المثال".

"لا سمح الله".

"ولا بأس ببعض الموسيقى اللائقة".

"مثل ماذا؟"

"كان لدى فكرة ولكنى نسيتها".

وضع يديه على عينيه. كانت أصابعه شفاقة حتى إنها بدت كأنه رفعها فى مواجهة نور كاشف.

"أرجوك اشترى ثيابًا جميلة، شيئًا حداديا بيد أنه أنيق".

"طيب".

"ولا تنتظري حتى اللحظة الأخيرة".

ولم تجب.

تخلت عن فكرة إعادة التقارب بين مارتن وليرد، انتابها إحساس بالحرية عندما تخففت من الرجاء في ذلك أيضًا. لم يعد مارتن يأتي إلى البيت إلا نادرًا. ربما تورط في علاقة غرامية؟ أفكار لم تكن تسمح لنفسها الظن بها من قبل، بيد أن الأمر لا يعنيه الآن. "سيكون شيئًا مفيدًا له". همست لنفسها في أكثر لحظاتها مروءة وأقواها. "ساعت حالته ولا بأس من شيء يحسن به معنوياته المحبطة".

كانت آن تختصر زياراتها التي كانت تحاول فيها إشاعة جو من البهجة، ولكن عندما كانت تعود إلى سيارتها كانت تطوق ضلوعها بنزاعها وتشرع في بكاء مرير.

كانا البنت والولد اللذين كانت جانيت تتمناها بالضبط، فتاة جميلة حلوة العشرة، وولد مزعج مشاكس. كانت سعادتها تتحقق في اجتماعهما أمامها. لم تكن تسعى للاستماع إلى حديثهما، ولكنها كانت تراقبهما من بعيد، من المطبخ في العادة، بينما كانت تعد لهما وجبة خفيفة تذكرهما بأيام الطفولة. أطباق البطيخ وأكواب الليمون. ثم كانت تشيع أن إلى سيارتها فيما كانت أحذيتهم المتشابهة تصطك بحصباء

الأرض. كانتا تتعانقان وتضغط كل على نراع الأخرى. كان عناقهما المقتضب سندهما في الملمات، التجمل بالصبر والدعاء كان ملازمهما الذى يتبادلان فيما بينهما مثل ثوب يتبادلان ارتدائه كلما دعت الحاجة عند إحداهما. العناق استهلال لوداع هادئ بعيد كل أصيل. وبعد أن تغادر أن كانت جانبى تبحث عن السكينة لحظة أو لحظتين وهى قافلة إلى بيتها عبر هواء سبتمبر الندى. ساعتها كان السكون يجلل الكائنات، لا يحطمه سوى طنين قاطعة العشب وقرقتها، أو صيحات الأطفال العائدين من مدارسهم، والأصوات الخفيفة للطير والهوام. حياة بسيطة سهلة من اختيارها المحض. لم تكن تطمع فى الكثير وكانت تبغض البطالة. البساطة ملاذها حين يسوء الحظ وتدلهم الخطوب. وللحظة لم تطل قالت فى نفسها وهى تخطو فى خفة على الدرج ومن ثم إلى الباب، ولم تعد ساقاها بنشاطهما القديم: إن حظها لم يزل رفيقها.

ثم كان فى وسعها أن تنتظر من خلال النافذة، هنالك كانت عيناها تجابه منظر ليرد الباعث على الحزن، لن يعرج إليها فى إمامة قصيرة. عندئذ كان قلبها يؤلمها وتتدافع دقاته، كهف امتلأ بالخفاش.

ربما طمعت فى الكثير.

سألها ليرد: "ماذا كنت تريد أن تكونى عندما تكبرين؟"

"كنت أريد أن أصبح زوجة وأما. قبلت ذلك. لم أكن ناثرة".

"لا بد أن هناك شيئاً آخر".

"لا، آه، أظن أنى مررت بجميع أحلام اليقظة المعتادة، كنت أحلم أن أكون إميليّا إيرهارت مثلاً أو مارجريت ميد، بيد أنها كانت أحلاماً لا أكثر. لم أكن حتى قريبة من الشجاعة. هل تتخيلنى أطيّر فوق المحيط بنفسى؟ ضحكت وتطلعت إلى ضحكته ولكنه كان قد أخذ إلى النوم.

أحد أصدقاء ليرد وصلته أخبار خاطئة بأن ليرد قد قضى. تلقت هى ومارتن خطاب تعزية. حكى الصديق قصة حدثت منذ سنوات قليلة عندما كان يستقل أتوبيساً فى نيويورك مع ليرد. كانا يجلسان خلف سيدتين أكبر سناً منهما كانتا تعملان نادلتين فى فندق، أنشأتا تتحدثان عن ضرائب مستحقة على دخلهما، يحاولان معرفة كم يجب أن يصرحا به من دخلهما من (البقشيش) بحيث لا تلفتان نظر المحاسب. وأدلت كل منهما بمعلومات تتم عن جهلهما بالموضوع وأسهباً فى وصف موقفهما. وتحين ليرد هدوءاً تخلل المحادثة ونهض من فوق مقعده وخاطبهما:

"أرجو أن تعذرانى، فلم أملك إلا أن أسترّق السمع إليكما، هل لى أن أدون اسميكما وعنوانيكما... أرجوكم؟ أنا أعمل فى مصلحة الضرائب على الدخّل". وأطبق السكون على الركاب فى الأتوبيس إذ كان كل راكب يراقب الآخر ليرى النتيجة. تناول ليرد كراسة وقلمًا من جيب سترته الداخلى، وواجه المشاهدين المذهولين. أنا موظف فى مصلحة التهرب الضريبى، وفى غضون عشر دقائق سأكون قد دونت اعترافاتكم جميعاً. هل لدى أحكم ما يريد أن يقوله؟

شاعت الابتسامات على الوجوه. وانطلق الناس فى الأتوبيس يتحدثون ويبدون الملاحظات عندما أدركوا أنه كان يمزح، وما كان أخوفهم قبل أن يدركوا ذلك. كنت ترى أهل نيويورك المتجهمين فى عزلتهم عادة، أناسًا مختلفين.

"كان ليرد أكثر الجميع نشاطًا، وأكثر من قابلتهم فى خفة الدم".
الآن هو على كرسيه المتحرك يذب الحشرات بطيئة الحركة، يحاول طردها بتلويح من يديه.

"الغسق". قال ليرد.

كانت جانيت مشغولة فى الحياكة. رفعت رأسها عندما سمعته.
كان الوقت منتصف الأصيل، وكانت حجرة الجلوس تغمرها شمس أكتوبر الساطعة. قالت: "قاب قوسين أو أدنى".

قطب جبينه. مر بعينه وميض خفيف يشى بارتباك. أدركت أنه كان يظن أن الظلام قد حل بالفعل.

حاول أن يسوى شاله فوق منكبيه، كانت يدها ترتعشان. هزعت لمساعدته، ثم، عندما أشار إلى المدفأة، أسرعت بوضع الخشب فيما كانت تسأل نفسها عن سبب ضيقه. هل كان بسبب الجفاف؟ تذكرت أن ضبابية الرؤية لديه كانت علامة على جفاف الماء منه. حاولت تذكر أى شىء آخر كانت قد قرأت أو سمعت عنه إلا أنها حتى فى سعيها لاسترجاع المعلومات والوقائع كانت تحس فى نفسها بما يقطع الطراد

التذكر، شيء يتردد داخلها ويزعجها ويجعلها تتأوه لاهثة كما كانت تفعل كثيراً عندما كانت تتذكر أخطاء اقترفتها، أو أشياء كانت تتمنى أن لا تقولها أو تفعلها وتمنت لو تتاح لها الفرصة لتعيدها من جديد. كانت تعرف الخطأ ومع ذلك استمرت في الهرب من الحقيقة، كان عقلها يدور في اتجاه احتمالات أخرى وهى تتفخ فى كبرها القديم.

كانت تفعل ذلك على نحو آلى شارد حتى كأنها أعدت المدفأة مائة مرة. رفعت الستارة ودفعت به قريباً من النافذة ثم مالت إليه لتشد بيجامته حتى تصل بها عند الجورب وعظم الساقين. نشرت الشمس أشعتها حوله فبدأ محاصراً بين أصابع النور. شرعت يداها تستأنف الحياكة على نحو آلى.

"الغسق the gloaming" قال. خرجت منه الكلمات غير واضحة بسبب العى فكانت قريبة من كلمة "كئيب gloomy".

قالت: "عندما تصبح الدنيا فى اللون الأرجوانى".

أحست فى صوتها ببهجة زائفة. لم تكن متأكدة من رغبته فى الحديث. لقد مضى وقت طويل منذ حديثهما الأخير - ليس طويلاً، فى الواقع، فى حياة الآخرين، ربما أسبوعان - ولكنها واصلت الحديث وهما يقتربان شيئاً فشيئاً من الصمت حتى بدأت تحكى له القصص وهو يستمع. وأحياناً، عندما يخلق عينه، كانت تتباطأ فى حديثها ثم تشرع فى التوقف. وإذا طال التوقف كان يستيقظ ويلادى: "أمى".

بشيء من الذعر فى صوته وكأنه استيقظ من كابوس. عندئذ تستأنف حديثها محاولة إيجاد جسر لا تقطعه الفجوات بين ما كانت تفكر فيه وبين النقطة التى توقفت عندها.

"لقد كان جدك، فى الحقيقة، هو الذى علمنى حب الغسق، هل تتذكر عندما كان يتحدث عنه؟" تطلعت إليه بلطف وترقب، فقد يرد بإجابة تتطوى على بذرة محادثة. بدا كأنه كان يحب الاستماع إلى صوتها؛ لذا واصلت الحديث مع طقطقة إبرتها. لم تستطع بعد ذلك أن تتذكر النقطة التى توقفت عندها عن الحديث، هامت فى اضطراب أفكارها، تخشى الحركة وتخشى أن تعاود النظر إليه، وتخشى أن تدرك اللحظة التى أصبحت فيها وحيدة. كل ما كانت تعرفه هو أن النار أصبحت فى طريقها للخمود تمامًا، وعندما نهضت لكى توقد الجمرات زمته بنظرة فاحصة جاءت رغماً عنها. لاحظت أنه كان يشابك أصابعه على صدره على النحو الذى يصدر من شخص يحتضر. عرفت أنها لو ذهبت لإحضار الممرضة سيكون ليرد قد انتهى عند عورتها؛ لذا وقفت خلفه مقبلة عليه مسندة وجهها على وجهه وتسبلت يداها إلى زراعيه المشغولين تعينه على إنجاز رتقائه المضطربة، حتى يفرغ من تلك الشغلة الأخيرة.

وفيما بعد، بعد المكالمات الضرورية، وبعد نقل جثمان ليرد ذهبت جانبيت إلى حجرته القديمة ونامت على سريره المزدوج. كانت قد حولت حجرته إلى حجرة استقبال عندما ذهب إلى الجامعة، مستبدلة

بأشيائه ديكورات حجرة الاستقبال، حوامل للحقائب عند حافة كل سرير ومكتباً للكتابة مليئاً بالورق والأقلام، وحمالات خشبية ثقيلة للثياب، وقوالب للأحذية. اجتهدت لتتذكر شكل الحجرة عندما كان صبيها صغيراً، كانت مزخرفة بألوان زاهية لم تعجب ليرد فأعادت طلاؤها. وعندما أخبرها أنه كان يريد رسومات أشبه بالأدغال، استأجرت طالبا من كلية الفنون ليقوم برسم صورة أدغال زيتية على الجدران. ولم تعجبه أيضا ولكنه لم يرغب في مضايقتها وانتظر حتى رحل إلى الجامعة.

أنت آن، وعرضت أن تبقى معهما ولكنهما ألقعاها بالرجوع إلى أسرتها وبينها.

دخل مارتن في تلك الأثناء. كانت جانيت تراقب الأشجار التي كانت تتحول تدريجيا إلى صور ظليلة في الظلمة المدهمة. قاومت رغبة مباغته لأن تتناول كتابا في الجريمة وتقرأه. نام مارتن على السرير الآخر. قال: أنا آسف.

قالت في نبرة ملؤها الأسى: "إنه لظلم عظيم". لم تكن تحس بالغضب الكامن داخلها إلا في تلك اللحظة، لقد استبقتها لحضوره وعادت تقول: "الابن يجب ألا يموت قبل أبويه. الشاب لا ينبغي أن يضيع السنوات الأولى من عقده الرابع في الحديث مع أمه. كان يجب أن ينطلق إلى العالم. كان لا ينبغي أن يفكر فيّ وفي آرائى وفيما أحب

وما أكره. كان لا ينبغي أن يقابل حبي له. لقد بدد طاقته العاطفية. الآن عاد لى كل شيء، لا أدري ماذا أفعل الآن حيال هذا؟".

كان فى وسعها أن تسمع مارتن ينتحب فى الظلمة نحيبا جعلها تتجاوب معه. ثم ساد بينهما الصمت فترة.

سألها مارتن فجأة: "هل ستكون هناك جنازة له؟"

"نعم، يجب أن نبدأ فى عمل الترتيبات اللازمة".

"أظن أنه أخبرك بما يحب".

"لم يقرر شيئاً بشأن الموسيقى بصفة عامة".

سمعت مارتن يتحول إلى شقه الآخر حتى يستطيع أن يواجهها عبر الفرجة الضيقة بين السريرين. كان لم يزل فى ثياب العمل. قال: أتذكر أنه أعجب بمزمار القربة فى جنازة والدك.

كان عرضاً غريباً فى الواقع ومتأخراً، وبدأ أنه يجئ من شخص يعيش خارج محيط حياتها، يعرفها معرفة سطحية. لم يكن يهم؛ كان عرضاً جيداً. قلبها يندفع نحوه.

"أظن أن ليرد كان سيحب هذه الفكرة كثيراً". قالت.

كانا يشهدان اللحظات الأخيرة للغسق؛ آخر لحظة من لحظات النهار التى مات فيها ابنها. بعد برهة ستدول دولة النهار ويفضى القمر بأسراره للأشجار عندما يتبوأ مقعده من صفحة السماء. قالت فى نفسها

إنها ينبغي أن تنهض مع نهوض القمر. نهضت على رعوس أصابعها على بلاط الأرض العارية، تبحث عن حذائها. تحدث مرة أخرى بنبرة اعتادت عليها في ليالٍ مرت منذ زمن بعيد عندما كان لا يدخل البيت إلا نادراً، وبعد أن ينام الأبناء متكلاً عليها في تزويده بالمعلومات عما عملوه طوال اليوم المنصرم. النبرة المستطلعة نفسها. نهضت تجر جر أصابعها على البلاط العاري، تبحث عن حذائها، عندما تحدث مرة أخرى. النبرة المستطلعة الحبيبة المراعية لرغبات الآخرين، تلك النبرة التي كانت تشعر معها دائماً وكأن كل إحباطاتها ودواعي سأمها وأخطائها واندفاعاتها في أيام أمومتها ترقى في الواقع إلى درجة الأهمية، وقررت أن تؤجل الجولة الأخيرة من الاتصالات الهاتفية وتجيب على سؤال مارتن الذي سأله: "أرجوك - أخبريني ما الشيء الآخر الذي كان ابني يحبه؟".

اللدّتان (١٩٩٥)

جش جن

هذا ما كانت تعنيه المسئولية في صناعة ضخمة متدهورة، على مقربة من فاصل آخر من الأخبار التي كانت تسير من سيئ إلى أسوأ. تعاود الاتصال بموظفة شركة السياحة، وحتى على الرغم من توافر حجرة في الدرجة السياحية في الفندق الذي كان سيقام فيه المؤتمر: حجرة تطل على أبراج التبريد، لم تلبث أن تسألها عن حجرة أرخص. وعندما تعود ماري الفتاة الجديدة، لتخبرك بوجود حجرة أرخص بكثير توافق لتكتشف آخر الأمر مثلما تكتشف الآن، أن الأبواب تغلق بعد التاسعة تمامًا. لم يكن الحي أرستقراطياً ولكنه لم يكن بالسيئ أيضاً. كان المبنى منسقاً يحتوى على أربعة طوابق من الطوب المربع، في مدخله تعلق السجل تضيئه شمس نافرة من البلاستيك تبتسم بالضيء المصنوع. ولكن ثمة قضيتاً مستعرضاً من الصليب انتصب بعرض الباب الزجاجي ملفوفاً في قطعة من السجاد في لون التراب، فوقه داخل الزجاج علفت لافتة صغيرة في لون الرماد. لو لم يكن التاكسي قد غادر لما ضغط على الجرس كما تقول التعليمات.

ولكن التاكسى كان قد غادر بالفعل، وكلما ظل آرت رابضا هناك على مشهد من ثلج ديسمبر المتراكم، بدا له الشارع أكثر افتقارا للناس وأقل إضاءة. استجاب لدعوته رجل أسود البشرة ضخمة الجثة يرتدى "بوبيانة" حول عنقه. كانت درزات الخياطة فى سترته الزرقاء المنسوجة على غرار كمكة الوفل ملتوية للناظر إليها عند الكتف. حول البوبيانة ارتدى رابطة عنق لم تتجاوز منتصف الطريق إلى صدره العريض، ثبتها قبيل نهايتها ببوصتين بدبوس أنيق عليه شارة الفندق. كان وجهه المدور حليقا بارذا، ظل يردد نظرات عينيه على الوجوه لا ليستعرض حديثها ولكن ليقول إنه لم يكن يروج للفندق. بوبيانة رسمية، قال آرت فى سره، وسترة رسمية لابد أن تدفع وجه الرجل إلى عبوس بين الحين والحين.

لأن آرت توصل فى عامه الثامن والثلاثين إلى جملة من الاستنتاجات بشأن الحياة، منها أن الناس لا تلبث أن تكفهر وجوهم عندما لا يرضون عن ملابسهم. هذا الرجل، رغم ذلك، يكذب القاعدة؛ كان دمب الطبع منطلق الوجه أغلب الوقت. بدت حجرة الاستقبال ضيقة عليه مثل سترته، بيد أنها أشبه بمحطة أوتوبيس، بسورها الزجاجى الملطخ بالدخان وأرضيتها المكسوة بالمشمع وخشبها الأبلكاش وآلات البيع المنتشرة هنا وهناك، ماذا يعنى ذلك كله بالنسبة إلى آرت؟ بدت ساحة الجلوس فى طور التنظيف. هناك من سحب المقاعد الاسكندنافية التى تنتمى للسكنيات، والأريكة وطاولة القهوة كل

فى ركن؁ وكان ثمة من يزعم مطاردة كتل التراب المتغلخلة فى الزوايا والأركان. ومع ذلك استمر آرت فى تسجيل بياناته كنزىل فى الفندق. ذهب إلى هناك مسلحًا بالشجاعة وخبرة السنين. كموظف خبىر كان يهمله أن ينظر قبل كل شىء فى قلم المستخدمىن؁ والرجل ذو البوبىانة بث الطمأنينة فى نفسه. دفع آرت الحساب وقبل أن يسترد بطاقة ضمانه استوقفته لوحة خشبية من اتحاد سكان الحى كانت معلقة فوق مكتب موظف الاستقبال: اختلس نظرة على صفحتها النحاسية وقراء: أقل الإصابات بين الزبائن كانت بين عامى ١٩٧٢ و١٩٧٣.

وماذا عن السنين التى تلت عام ٧٣؟ هل أصبح الفندق أكثر خطورة منذ ذلك الحىن؟ ألم أن هناك من الفنادق الأخرى ما هو أهون منه خطرًا؟ ربما لا هذا ولا ذلك. كل ما كان يعرفه أن اتحاد الملاك لم يعد له وجود الآن ولم يعد يوزع اللوحات. تذكر أن الحياة مليئة باللافتات الفارغة. هذا ما كان يقوله لزوجته السابقة لىزا. لىزا التى اعتادت أن تقرأ كل شىء فى كل شىء؁ لىزا التى عاد إليها اقترانها النفسى أخىرًا. تركته يوم رأت شجرة يشطرها البرق نصفىن. كان مشهدًا خارجًا عن المألوف. حدث العمر بالنسبة لها. قالت لىزا إن الشجرة أحدثت أذىا لدى سقوطها. تمنى لو رأى المشهد أىضا. ولكن ماذا كان ذلك يعنى غير أن الشجرة كانت أطول من كل أشجار الحى؁ ولم يعد لها وجود الآن؟ لا يعنى هذا شىئًا؁ كذلك الشأن مع اللوحة. أخذ آرت قراره؁ ربما لم يكن القرار الصائب. ربما كان علفه أن يبحث عن فندق آخر.

لكن الوقت كان قد فات. فى المطار ظلت طائرته رابضة على المدرج، ظلت واقفة ساعات وساعات حتى ظن أنها لن تغلق أبداً. الله وحده يعلم كم كان سيأخذ منه صاحب تاكسى ليجد نفسه بعد ذلك فى مكان آخر غير الذى يريد. الضعف أو يمكن ثلاثة أضعاف أو أربعة أضعاف ما كان سيدفعه لتلك الحجرة التى تطل على أبراج التبريد، طبيعى.

ولذا ضاعف من إغلاق الباب عوضاً عن ذلك. فحص باب المرحاض (الأبلاكاش)، وفحص تحت السرير ذى الإطار الحديدى، وألقى نظرة على حوض الاستحمام الكروى الأخضر. فحص خلف اللوحات الزيتية ذات المشاهد البحرية ليتأكد من عدم وجود ثقب. ذلك المعنوه - كم تمنى ألا يكون قد رأى ذلك الفيلم أبداً. لماذا لم يخبره أحد أن الأفلام يمكن أن ترتد إليه أشباحاً تلازمه؟ لم يحذره أحد. كانت النافذة تفتح على سلم الجريق؛ لا يستطيع فعل الكثير غير أن يتأكد من مصاريع النافذة، هذه المصاريع ذات فائدة كبيرة، مانع أكيد أمام اللصوص الذين يحطمون زجاج النوافذ هرباً. نسبة هؤلاء ضئيلة على كل حال، كم؟ عشرة فى المائة؟ خمسة عشر فى المائة؟ أحكم إغلاق الستائر ثم غير رأيه وأعاد إزاحتها لأنه قال إنه سيكون أكثر أمناً مع الستائر المفتوحة. كان يريد أن يعرف وجه اللص حين يقترب. فصل جهاز التليفون من (الفيشة) مخاطرة محسوبة. من جهة لن يكون فى وسعه الاتصال بالبوليس عند اقتحام اللص. ومن جهة أخرى يكون لديه سلاح ما. قرأ قصة حدثت فى مكان ما عن امرأة قذفت بجهاز التليفون

فى وجه اللص فأرنبته قتيلا. لا داعى للقول إن هناك قدرا كبيرا من
الحظ فى هذه الحادثة. رغم ذلك قال آرت فى نفسه (أ) يستطيع أن
يقذف بالجهاز فى وجه اللص بالقوة نفسها التى قذفت بها المرأة، و(ب)
حتى بدون وجود الحظ فإن رميته ستكون من القوة بحيث تعوق، على
الأقل، تقدم اللص نحوه خاصة وأم الجهاز قديم ومن النوع الثقيل الذى
يمنحك الإحساس بجدية الاتصال بين البشر. فى فندق جديد كان يمكن
ألا يجد غير جهاز جديد بأضرار كثيرة لن يستخدمها أبدا ولكنها تمنحك
الإحساس بكثرة ثروائك وأن هناك موارد كثيرة تحت يديك، رهن
إشارة منك. كانت الأضرار كثيرة فى الفندق الذى سيعقد فيه المؤتمر،
أضرار للبار وأضرار للبواب وأضرار للمطاعم الثلاثة وأخرى لخدم
الحجرات. حاول ألا يفكر فى ذلك وهو فى طريقه إلى الفراش يقبض
على جهاز التليفون.

ولكنه لم ينم تلك الليلة.

فى الصباح فكر فى أخذ الجهاز منه إلى المصعد. قلب الأمر
على كل وجوهه. تمنى مرة أخرى لو لم يشاهد ذلك الكم الهائل من
الأفلام. الأفلام تدفعه للتفكير الكثير، تدفعه لتخيل أشياء غريبة، فماذا
لو واجه فى المصعد موقفاً؟ فى الواقع يبدو الأمر أميل للغرابة أن
يخفى جهاز تليفون كهذا فى جيبه. فهو ليس سكيناً يخرجها بسرعة
البرق من مكان خفى. حتى المبدس يمكن تثبيته فى الجيب. ولكن
جهاز تليفون كهذا لا يوضع فى الجيب. رغم ذلك أخذه معه. أراد أن

يحملة فى يده بطريقة تبدو عادية، عرضية، وكأنما هو خارج فى جولة
عدو ويحملة كـثقل يوازن به جسمه، أو كأنه يعمل فى مصلحة
التليفونات.

قطع الصالة بخطوات مسرعة. الضحايا من تقبلى الخطى دائماً.
هذا ما كان يسمعه من الناس فى كل مكان؛ الصمت أيضاً مجلبة
للخطر. كثير من حالات الهجوم الخلفى لها صلة بصمت الضحايا.
وهذا ما كان يدفع ليزا لأن تكلم نفسها عندما تمشى فى الظلام، ترسل
الكلمات فى الفراغ. بسبب ذلك اعتاد أن يضايقها بعبارات السخرية.
إذا كان الخوف قد استبد بها إلى ذلك الحد، لماذا لا ترفع أنفالا مثله
وتعدو على طريقته؟ أفضل طريقة للتغلب على الخوف. وقد وافقت.
كانا قد تقابلا بعد ساعات العمل فى صالة الجمنازيوم، كان ذلك قبل أن
يسقط ثقلا على إصبع قدمها قررت بعدها أن تحتسى الأناناس وتكتفى
بالفرجة. وبطبيعة الحال راح يقبع كالخنزير. ولكن ما الفائدة؟ من يقدر
كم الخوف الذى يخفيه فى صدره وراء بذلته ومعطفه؟ ليس للمشاعر
قيمة دفاعية. ذلك ما كان يشغله فى تلك الأثناء. لم يكن قصيراً أو
طويلاً. واصل المشى وإرسال الكلمات. كان ذاهباً إلى مطعم الفنسوق
الذى سيعقد فيه المؤتمر، قرر أن يتناول الإفطار الأمريكى، لحم
الخنزير المملح والبيض، لن يقرب الأطعمة الأوروبية التى لا غناء
فيها.

فى الواقع كان يسرى فى منظر الرجال وهم يتناولون

"الكورواسون" مصدرًا للضحك لاسيما في البداية وهم يهمون بالقضمة الأولى يعد مناورة طويلة مع حرف الكورواسون هلالى الشكل. ينتهى الأمر بالواحد منهم بملء فيه من الكورواسون فيضطر إلى ترحيله بلسانه إلى موقع آخر أكثر مركزية من الفم، مما يضيف على وجهه تعبيرًا بعيدًا عن الجدية، وهو ليس كذلك فى الواقع. بالإضافة إلى أن الكورواسون أكثر ميلا، من أى لون آخر، من أطعمة الإفطار إلى نشر رقائق صغيرة على كل أنحاء البنتلة الدلكنة النظيفة. آرت نفسه لم يطلب الكورواسون فى أى موقع من مواقع العمل، وكان يعتقد أن اهتمامه بتلك التفاصيل الدقيقة هو السبب فى أنه لم يفصل من عمله كما حدث للكثيرين من زملائه.

بعبارة أخرى كيف بقى إلى الآن فى عمله فى ذلك المصنع الذى تتدهور أحواله شيئًا فشيئًا؟ ويحمل الآن معه جهاز التأليفون فى المصعد. استجمع آرت قواه عندما فتح المصعد أبوابه فى تودة. كانت الأبواب تهتز بعنف على طريقة مصاعد العالم الثالث. عندما تلف بسرعة وجد نفسه محاطًا بالأطفال. فى الطابق الأول أيضًا قبل أن يصعد كان محاطًا بالأطفال، وقليل من النساء اللاتى عرف أنهن كن أمهات من نظرات السخط المتمكنة فى عيونهن. فندوق السعادة ! ضحك بصوت مرتفع. كان اللون الأسود هو الغالب على الأشياء. بدا الأطفال البيض أشبه بالفرص الضائعة، من النوع الذى دفع برئيس آرت المباشر فى العمل أن يقذف بمضرب التنس عبر الحجرة. كان

المضرب بطبيعة الحال في جرابه المبطن الذي يقيه بعيدًا عن خطر الكسر، أما الذي يظل عرضة للخطر فهو الرجل الذي يقف في طريق المضرب. ظن آرت في البداية أن المضرب كسر جانبًا من أنفه ولكنه لم يلبث أن اكتشف أنها لم تكن سوى كدمة بسيطة. أسفرت عن تغير طفيف في لون الجلد مما جعل الناس يرتابون في الحادثة من أساسها. ولكنها حدثت بالفعل. صناع به رئيس في العمل في غضب: "لا تقل لي زلة، أهي ما في الأمر أنكم معشر اليابانيين مسئولون عن هذه الفوضى الملعونة كلها". سرغم أن الخطأ كان بسبب أجهزة الكمبيوتر الصغيرة، الشخصية بالأخص. ظاهرة أمريكية خالصة. كان آرت يستطيع في الواقع أن يرفع دعوى على الرئيس لو كان لديه الدليل على الحادثة. بعض الناس، وأولهم ليزا، كان يرى أن آرت كان ينبغي أن يستقيل على الأقل.

ولكنه لم يرفع دعوى ولم يترك الوظيفة. أخذ مضرب التينس على أنفه كما يقولون وعندما اصتد له رئيسه في العمل في اليوم التالي مدعيًا أنه فقد أعصابه، قال آرت إنه تفهم الموقف. وعندما قال الرئيس إن آرت لا ينبغي أن يفهم ما بدر منه على أنه موجه إليه شخصيًا، فقد كان يعرف بالطبع أن آرت ليس يابانيًا، بل كان صينيًا، بالإضافة إلى أنه أطلق على شخص آخر كلمة ووب أي الإيطالي الكسول في ذلك الصباح نفسه، كانت هذه طريقته فحسب، مرة أخرى قال آرت إنه يتفهم الموقف. ثم قال إنه يطمح أن يتذكر رئيسه تفهمه العظيم لهذه

المواقف عندما يحين وقت الترقية. وقد فعل الرئيس ما أَرادَه آرث تكفيرا لخطيئته. وكان ذلك في نظر آرث نصرا كبيرا. كان يتطلع للترقية في الوقت الذي لم ينظر الآخرون إلا إلى هذه الإهانة. كان له وجهة نظره الخاصة به.

ولكن وجهة النظر هذه، بالإضافة إلى قصة الشجرة، هي ما دفع بليزا أن تهجره غير آسفة عليه. في تلك اللحظة كان يفكر في ذلك. تخلق حوله الأطفال وجهاز التليفون ما زال في يده، أطفال كثير. وكأنما كان يرى أمامه كل الأطفال الذين لن ينجبهم. وقف برهبة مشدوها، خائفا يترقب. طفل يرتدى بذلة غدا حمراء حام حوله وكاد ينتزع جهاز التليفون من قبضته. طفل آخر يرتدى سترة ألحق بها غطاء للرأس حام حوله. شخص يبصره في رأى حثيثا من صبية المدرسة الابتدائية انتظموا حول ساحة الجلوس، يراقبونه. كان قد تعرض لهجوم جريء، وعندما رأى انحسار عدد العابثين في الردهة أحس بنشاطه يعود إليه من جديد وشرع يضحك. في تلك الأثناء اندفع نحوه طفل صغير، ربما كان في الخامسة أو السادسة، يرتدى السروال الثلجي، كاد آرث يقذف بجهاز التليفون في وجهه، ولكنه عدل عن الفكرة، فمن يريد أن يدفع ثمن جهاز تليفون مفقود؟

الواقع أن آرث تساءل: لماذا لا يعيد جهاز التليفون إلى الحجرة بدلا من حمله معه أينما ذهب طوال اليوم؟ لأنه ماذا يريد أن يفعل به في الفندق الذي سيعقد فيه المؤتمر؟ يصلحه؟ تخيل نفسه مسرعا إلى

بيلى شور، نظيره فى إنفو إدج ومنافسه فى سوق التأمين. رجل يفتقر إلى البراعة الإدارية والخبرة الفنية على السواء. ولكنه استطاع أن يقدم للزيائن أجهزة الكمبيوتر الشخصية لقاء أموالهم المستحقة وهو الأمر الذى لم يستطع آرت أن يفعله. الأكثر من ذلك أن بيلى كان الظهير الأيمن فى فريق الكرة أيام الجامعة. كان ذلك يعنى أنه يحق له أن يختال عليه وكأنه لم يزل ذلك اللاعب المهاجم فى فريق الكلية، ولو أن آرت لم يكن يعترف بذلك. وكان يعنى أيضاً أن بيلى بالتأكيد سيسأله: "ماذا تفعل بجهاز التليفون الذى تحمله فى يدك؟ تتحدث به إلى نفسك مرة أخرى وتجعل الجميع يغربون فى الضحك؟".

كان بيلى يحب الفكاهة والنكت. كان يطلق النكات فى كل مناسبة، نكات ذات طابع خاص عن الشرب أو الجنس أو كميات الشراء الكبيرة التى تقوم بها الزوجات حين يذهبن إلى الأسواق. وللحق أنه لم يكن مسافراً ولم يكن يسمى الأشياء بأسمائها، كان يقتضب الألفاظ ويتخير الكلمات الغريبة مصحوبة بحركاته الجسدية. كانت ثقافته عادية جداً. ولكن الناس كانوا يفهمون ما يرمى إليه. كأن يقول مثلاً بطريقته التى تتم عن دمائه فى الطبع وهو يضع ذراعاه على كتفك: "اسمع يا بطل، قل لى ماذا تظن الفقراء يفعلون الليلة؟" كان يتكلم لغة يسميها آرت الاتجاه السائد. وقال له آرت: إنك تتكلم بلسان الآلاف اليوم. ولم يرد إلا بقوله: "ماذا؟" ثم مضى فى طريقه يمس يده تحت قميصه القطنى ويهرش فى صدره وكتفيه. كانت ليزا تقول: إن

هذه طريقة الحيوانات الثديية عموماً. وكانت تعتقد أن أربطة العنق إنما اخترعت خصيصاً لكي تحد من هذه العادة بالذات غير المتحضرة. كانت تعتقد أيضاً أن هذا السلوك لا يصدر عن الآسيويين أبداً، على الأقل نوى التربية الحسنة منهم.

هل كان ذلك صحيحاً؟ لقد نشأت ليزا في الساحل الغربى وكانت تعرف تماماً حياة الآسيويين. من ناحية أخرى يذكر آرت عندما قدموه لبيلي أول مرة قال ببلي على الفور: "آرت وو يا له من اسم هولندى جميل!" وجعل الجميع يغربون فى الضحك. والواقع أنهم كانوا يضحكون بالطريقة التى يضحك بها الناس فى المؤتمرات وهى لا تعنى أن هناك ما يستأهل الضحك فعلاً، بل لأنهم يريدون ألا يظهروا بمظهر من شذوا عن الإجماع.

التليفون، التليفون. لو يستطيع أن يحشوه فى حقيبته! ولكن الحقيبة دائماً محشوة بالأشياء.. دائماً. حقيبة صغيرة أقرب لمحفظة أوراق ذات جوانب صلبة. إيطالية. اختارتها له ليزا وكانت تقول: الحقائب الأكبر تجعله يبدو مثل بائع متجول. وحسب رأيه لم يكن ذلك ذا أهمية تذكر. ليزا لم تكن تفكر فى المال كثيراً، كانت تفكر فى مشاعرها فحسب. المال لا يكون شيئاً بالنسبة لها إلا إذا كان دعماً نفسياً، وهو وسيلة للدعم النفسى أقل بكثير فى الأهمية من الدعم الروحى والاهتمام الدائم. لم تكن تؤمن بالاقتصاد العصرى الذى يلعب فيه الفرد جزءاً داخل كل ضخم ومعقد مما ينشط الفعاليات التى تعمل

نظريا على الأقل على رفع مستوى معيشة الأفراد. كانت تؤمن بحرية الانطلاق والاختلاف إلى جلسات العزاء التي كانت تذهب إليها، وغزل ملابسها بنفسها. ليس هناك شيء، كانت تقول، يعدل عندها تمشية بين الأشجار وقت الخريف وهي مرتدية سويتر من غزل يديها. الحق أنها كانت تبدو جميلة في السويترات خاصة تلك البنفسجية منها، لونها المفضل. وبللمسة فنية من قلم الحاجب البنفسجي يبرز جمال عينيها، رغم أنها لم تفعل ذلك في كل مرة تذهب فيها في نزهة طويلة سيرًا على الأقدام.

اندفع نوو السراويل الثلجية نحو آرت مرة أخرى، متجهين نحو ساقيه هذه المرة - إمساك الخصم الحامل للكرة وتوقيفه - قال آرت في نفسه. أحاط به نوو بذل العدو الحمراء وخطفوا جهاز التليفون ومضوا يعدون بأقصى سرعة، منتشين بالنصر. فريق عمل! أخذوا يتضحكون بأصوات عالية، وكان آرت عاجزًا حتى عن الابتسام، حتى بعد أن وسخوا سترته نظف نفسه ومشى ببطء نحوهم وخاطبهم:

- ما هذا يا أولاد. هذه حركة ارتدادية لم أتوقعها.

وراح الصبية الصغار يهتفون:

- تشنج شانج بولى وولى وينج وونج.

- الآن، الآن ليس وقت الكلام يا أولاد.

- اذهب للجحيم.

أسبل سترته السمراء على جانب من فيه وقال:

- اسمعوا، تعالوا ننفق، لكم عندى صفقة.

والحق أنه كان يسعى لاسترداد التليفون من أيديهم لكي لا يضطر إلى دفع ثمنه لإدارة الفندق. ولكن كل ما أخذه بعد ذلك ضربة على رأسه بالجهاز سقط على أثرها مغشيا عليه.

كانت ليزا قد تركته بطريقة ودية جدا تقريبا. لم تذهب إلى محام، ولم تأخذ من أثاث البيت شيئا. تناولت يده وضغطت بكل بساطة عليها وقالت له بصوتها الجميل كشأن أهل كاليفورنيا: "لنفترق بهدوء". ثم طلبت منه أن يساعدها في نقل صناديقها، على الأقل الثقيلة جدا منها التي لا تستطيع حملها. وكذلك فعل. حمل عنها الصناديق الثقيلة والأقل وزنا أيضا بوصفه بطلا قديما في حمل الأثقال. رتب الكتب وطوى ألواح الزجاج في جرائد، تلازمه طبيعة موظفى الإحصاء طوال الوقت. طبعاً، عضو أصيل فى المجتمع العصري، وفر قصة لأصحابها كي يتندروا بها؛ وكل ذلك لأنه لم يواظب على الذهاب إلى جمعية المواساة التى تذهب إليها، أو على الأقل كانت هذه البداية الحقيقية للمشاكل بينهما، أو ربما كانت البداية الحقيقية عندما واجه هو وليزا مشكلة فى الحمل. كانا قد قررا، كما يقال، إيقاف الخصوبة فترة. أو ربما هو الذى كان قد اتخذ القرار كما قالت ليزا فيما بعد. كان يقول إن القرار كان مشتركاً، وقام هو بعمل التحاليل الخاصة به والتي أدت إلى القرار المشترك. راح بعد ذلك يحسب حساب كل شئ؛ الربح

والخسارة واحتمالات المستقبل. رسم شجرة القرار ونظر إلى أفرعها
وقرر أن الخسارة لن تكون كبيرة إذا استمر.

ولكن كليهما لم يقدر مدى الورطة، الاختبارات والإجراءات
والأدوية والفحص بالموجات فوق الصوتية. أصبحت ذراعا ليزا
ممتلئين بالبقع السوداء والزرقاء من كثرة استخراج عينات الدم من
عروقها كل يوم. وقبل ذلك بمدة طويلة كان هو يتمرن على حقن
برتقالة لأنه يعرف أنه سيضطر لحقن ليزا كثيرا فيما بعد. كان يطلب
منها أن تأخذ نفسا عميقا حتى يتمكن أثناء الزفير من دس الإبرة
بسهولة في ردفها، ليس على سبيل التمرين الآن، كما أنها ليست
برتقالة. في المرة الأولى تصبب وجهه عرقا حتى عشى بصره فكان
يغمض عينيه ويفتحهما بسرعة، وكانت النتيجة أنه سحب الإبرة ببطء
وبطريقة ملتوية جعلتها تصرخ بصوت غريب عال. في المرة الثانية
وضع على رأسه عصابة لامتصاص العرق. وفي المرة الأخيرة حقنها
وكانه لم يفعل شيئا ولكنه اكتشف بعد ذلك أن مبيضها تورما حتى إنه
كان في وسعه أن يحس بهما من خلال بنطلونها الجينز.

كان يستخدم السرنجات المستعملة. يقصفها في المنتصف
ويخزنها، كما قال له الطبيب، في زجاجات من البلاستيك مليئة
بالصودا. تركتها له، زجاجات من النفاية الطبية ليتخلص منها على
مسئوليته، وهي تعنى أنه ربما يحتفظ بها، ها - ها، طوال حياته.
ذكرى بسيطة من هذه المرحلة من زواجهما مع كومة من الغزل الذي

اضطرت إلى إنجازه أثناء المحنة. رغم كل شيء غزلت وكأنا وجدت في شغل الإبرة عوضاً عن مأساتها. سويترات وسويترات ويطانيات للأطفال كانت تتخلص منها في الغالب، قد تحتفظ بواحدة أو اثنتين. ولم تحتمل، فقدان وعي وهذيان تبعه فقدان آخر للوعي. حدث الحمل مرتين ومرة ثالثة، ورابعة استمر خلالها أربعة أشهر ونصف قبل أن تظهر مشكلة. أظهر الحامض الأميني بوضوح وجود لين في العظام، مرض وراثي قد يعرض لأي إنسان.

راح يشحذ همته لمحاولة أخرى. وكان ذلك هو الفرق بينهما: أنه كان متشبثاً بالأمل، حتى لو كان أملاً واهياً هزيعاً، في حين كانت لا ترى غير الخسران. كانت تعد الجنين في شهره الثالث طفلها الغالي، رغم أنه لم يكن طفلاً، أو هو مشروع طفل كما كان يقول. قالت إنه لم يفهم، أو بالأحرى عجز عن الفهم. هي فقط التي كانت قادرة على الفهم، إنه شيء لا تفهمه إلا بجسدك، ولم يكن جسده هو الذي عانى الأمرين، كان جسدها هي، جسدها هي الذي عرف الطفل وأحبه وفقده. وفي جلسة الأحزان التي تذهب إليها وافقته النسوة على ذلك. رحن يواسينها. كن يواسين بعضهن بعضاً، وكن يؤكدن على بيولوجيتهن المشتركة حين ينجزن نسبة ٨٥ % من الكلام في مقابل صمت الرجال. كانت الحجرة مدهونة باللون البنفسجي الزاهي، لسون نسائي بدا أنه يدعمهن في شئونهن الخاصة. أزواج آخرون بدعوا يهملون الذهاب إلى تلك الجلسات - نادراً ما كانوا يتحدثون على كل

حال فكان من الصعب أن تلاحظ غيابهم - وفي النهاية فاته الذهاب إلى بعضها أيضاً. مرة أو ربما مرتين، لأسباب حقيقية، ولم يحدث شيء نو بال. ولكن الحقيقة، كما رأتها ليزا، أنه اعتقد أنها فقدت القدرة على الرؤية السليمة. كان يمكن أن يحاول مرة أخرى رغم كل ما حدث. ماذا يفيد اليأس؟ سيقول الناس إنهما كانا يستطيعان الحمل، والأكثر من ذلك أنهما كانا يستطيعان الإبقاء عليه، كان ذلك تقدماً. ولكنها كانت حزينة كالجزيرة البائية.

الواقع أنه افتقدها كثيراً جداً في البداية. وهو يفتقدها الآن، ولكن على نحو متقطع في الأوقات الحرجة بالذات، مثل الآن وقد بدأ يعود إلى وعيه في حجرة غريبة ويتحسس الثلج فوق رأسه. كان يرقد على سرير حديدى قريب الشبه بسريره الذى ينام عليه في حجرته، الفرق تلك الأكوام مما بدا له بطانيات وملابس. الملابس الوحيدة على الشماعة كانت جاكته ومعطفه، علقا بعناية داخل دولاب فارغ إلا منهما. توجد منضدة زيادة في الحجرة عليها موقد عبارة عن صفيحتين معدنيتين متقدتين وضع على واحدة منهما إناء بجوار كومة من الأطباق وثلاجة بنية اللون مكعبة الشكل. كانت الستائر مسدلة وعلى ضوء السرير أقبلت عليه سيدة تمسح له جبهته في رفق. "لا تتحرك الآن". وكأنها ليزا في لون أسود ترتدى مريلة بنية مزينة بزهور كثيرة، ترمقه بعينين حائيتين ووجه طويل تظهر فيه عضلات وجنتيها والفكان، وشفة عليا أشبه بقوس السهم. أمريكية إفريقية تميل للقصر

والسمرة، شم مع دنوها رائحة دخان. كانت نحيفة، أنحف مخلوقة رآها في حياته. ومع ذلك يبدو أنها كانت تطبخ شيئاً أو تحرق شيئاً، تلازمها رائحة شعر يحترق. ظلت واقفة لتعيتني بشيء في إباء على الموقد. رأى شيئاً على المنضدة يشبه المسحوق الأبيض، ملء كيس كبير من البلاستيك. اتسعت عيناه. تراجع في سريره، حاول أن يتبين موقفه. شيء يدق داخل رأسه. التيلونول، يحتاج لقرصين. كانت ليزا تتناول واحدة دائماً لأنها كانت مقتنعة بأن الجرعات الموصوفة لا تناسب الوجبات الخفيفة التي اعتادت عليها، رغم أنها لم تقل له إنه يجب ألا يتناول أكثر من قرص واحد من التيلونول، لم يكن طويلاً إلى حد ملفت، كان يصر على القرصين في كل مرة. اثنين، اثنين، اثنين. أراد أن يتناول دواءه في تلك اللحظة.

"أولئك الصبية أشقياء للغاية في هذه السن"، قالت المرأة، "قلت لهم إنكم في يوم من الأيام سوف تسببون الأذى لشخص ما، وقد حصل. لا بد أنهم ضربوك بكرة بولنغ. لم أر في حياتي شقاوة كهذه. اتصلنا بالشرطة ولكن عندما جاءوا راحوا يبحثون عن شيء آخر بعيداً عن الواقعة. قلت لهم: ليس عندنا أحد مضروب بالرصاص، فنزلوا إلى دنكن بونتس أملاً في أن يجدوا شجاراً هناك أو شيئاً من هذا القبيل". وطرفت بعينيها واستمرت تقول: "كيف حالك الآن؟ كيف هذه الرأس الثمينة؟" تحسس رأسه. أحس بنوء في المنتصف، نوء غريب مثل شيء جلبه الجليد إلى التلال. قال:

- أحس كأننى مت وعدت إلى الحياة من جديد، رأسى أولاً.

- سأصنع لك شيئاً طيباً يجعلك تتحسن.

- أوه، إذا سمحت لأفضل أن أخذ قرص تيلونول الآن، هل معك تيلونول؟ معى بعض الأقراص فى الحقيقة، هل حقيبتى لم تزل معى؟

- ماذا تقول؟

سأل بذعر:

"حقيبتى، هل حدث شئ لحقيبتى؟".

- هناك بجوار الباب. سأحضرها لك، لا تتحرك.

تناول حقيبتة ووضعها فوق بطنه وهو يهمس لها: شكرًا.

- هل أساعدك فى فتحها؟

- لا.

ولكنه عندما فتحها انزلقت من بين يديه ووقعت محتوياتها على السجادة الحمراء التى تغطى أرض الحجر، كراساته وملفاته وأوراقه.

- لا تتحرك، سأعيدها لك.

وبكل النعومة والرفقة جمعت له أشياءه وأعادتها داخل الحقيبة. فى حركاتها أنيقة بعيدة عن التكلف. أوراق الملف فى يدها مثل أوراق

اللعب بين يدي لاعب ماهر. "كنت ممرضة طول عمري". قالت له ذلك وكأنها قرأت ما يدور في ذهنه. "هاك التيلونول".

- سأخذ اثنين.

- طبعاً، اثنان من التيلونول وكوب من اللبن الساخن المخلوط بالعسل. أرجو ألا تعترض على المسحوق، انتقلنا حديثاً إلى هذا المكان وليس لدينا شيء. كنت ممرضة طول عمري. لا أحتفظ باللبن أو التيلونول، ضيوفى يحضرون كل شيء معهم. ما رأيك؟

وضحك آرت بملء شديقه وقال:

- عندك عسل! كيف ذاك؟

- لا أدرى لعل نزيلاً تركه هنا، أتمنى ألا يكون نما فيه شيء.

- وضحك آرت مرة أخرى. ثم أعانته على النهوض ليتناول أقراصه. اسمها سندی.

ناولته اللبن المخلوط بالعسل، وجلست قريبة منه وخاضت معه في كل موضوع. حديثه عن نيتها في ترك الفندق، وعن أبنائها الذين سيختلفون إلى مدرسة جديدة، وكيف أنها لم تجد حرجاً فسي استقبال رجل غريب جريح في حجرتها. لقد عاشت عمرها في الفنادق على أية حال وتستطيع أن تدبر أمورها وتحمي نفسها وأبناءها. وأرته مدينتها التي تفتحها بسهولة وتضعها في جيبها طوال الوقت، نقشت عليها الحروف الأولى لاسم شخص لا تعرفه، لم يحدث أن استخدمتها. قالت

له إن شخصنا أعطاها لها ولا يعرف لمن تلك الحروف المنقوشة. أشعلت سيجارة. حكى لها فى البداية عن المؤتمر وكيف جاء إلى هذا الفندق عن طريق الخطأ. قال لها ذلك ببعض التردد أملاً فى ألا يكون قد أساء إليها. ولكنها لم تستقبل كلامه على ذلك الوجه. ضحكت وسعلت وأطلقت دفعات من دخان سيجارتها فى الهواء. وقالت: طبعاً هذه صدمة أن تنزل بمكان كهذا، هذا ليس مكاناً ينزل فيه ولد مهذب مثلك.

- وفاجأته كلمة "ولد" قليلاً. "وماذا عنك أنت، هذا ليس مكانك، لا أنت ولا أولادك".

- "لعلك صادق، ولكن هذا ما قدره العلى القدير، صح؟ أنتم القوم تزدانون رفعة ونحن نكتفى بالجلوس والفرجة".

قالت ذلك بقليل جداً من الحسد، بشيء أقرب للمودة حتى ظنه نوعاً من الإغراء الفج.

ولكن لعلها كانت تخطط الجد بالهزل أيضاً. ربما كانت تفترض أشياء مثلما كان يفعل بلى شو، كسائر الرجال فى كل العصور. يتصورون الرغبة وليس هناك رغبة. لم يُعقِّه أصله الأسوي من ذلك. أنتم القوم. كان آرت قد تأخر عن المؤتمر. ولكن هذا لم يكن يهمله كثيراً، فهذا المؤتمر كان سيعقد متزامناً مع مؤتمر آخر أكثر نشاطاً فى طرح الأفكار خلال اجتماعاته وفترات الراحة فيه عن أجهزة الكمبيوتر الشخصية. وكان ذلك فى الغالب يعنى العشاء.

كان الكساد هو السائد. كان آرت سيقوم بتقدير حجم التراجع في الأسواق الذي وصل إلى نسبة أعلى بكثير من الأعوام الماضية. وأكشاك العرض لم تعد كما كانت في الماضي. في الماضي كانت أرض المعرض مكتظة بالأكشاك المليئة بالبضاعة الفاخرة، وكان آرت يشرف على الكثير منها مما كان يستغرق أياماً لإقامته في أرض المعرض. يرى الآن المواقع الخالية على أرض المعرض، لا يهتم العارضون حتى بالحضور، وهؤلاء أكثر مدعاة لتثبيط الهمم. كان آرت نفسه يشرف على كشك تستطيع منه أن تبتاع كاتالوج طائرة من ذلك النوع المحفوظ في أكياس من قماش قطنى ذى طبيعة مخملية. لقد زهد الناس في الكراسيات أيضاً. ذهب زمن الكراسيات القديمة ذات الاثنى عشرة صفحة والألوان الأربعة، وجاءت الكتيبات ذات الصفحات الأربع واللونين مزينة برسوم توضيحية منضدة بحروف سوداء بغرض التأثير المتعمد، لا تتاح للجميع، لا يعطونها لغير الجادين.

استرد آرت نشاطه. وبدلاً من الوقوف عند موقعه الخاص ظل ينتقل من كشك إلى كشك يرحب بالناس الذين كان يجب أن يراهم على مائدة الإفطار. كانوا سعداء برؤيته والحديث معه فى شئون السوق، سعداء لأنهم يقتطفون العنب من كرمة قديمة. كان حقيقاً به أن يحس بالاحترام التام لولا مكانه فى ذلك الفندق المنحط. أنتم القوم. أى قوم كانت سندی تعنى؟ أو ربما لم تكن تعنى شيئاً غير وجهة نظر سانجة. ولكن كيف للمرء أن تكون له وجهة نظر سطحية فى أمر جلال كهذا؟

تعجب لذلك حتى عندما دلف بخياله إلى عالمها. بدأ الدخول بطرق على بابها، وبعد أوقات مثيرة انتهت به إلى أن أنقذها وأبناءها من حياة بلا مستقبل معروف. لم تكن قدرته الجنسية على ما يرام، كان ذلك جلياً، أو على الأقل لم تكن كما هي عند بلى شور. حاول آرت تدبير خطة. ولكنه لم يتحمس للأمر. لم يكن يعرف حتى ما الخيار الثالث الذى عساه يكون فى تلك الحالة. كل ما كان يعرفه أنها كانت رغبة.

ظل يلعب ببعض البرامج (السوفت وير) فى الكشك المجاور. بدت له الألعاب جذابة ولكنه لم يلبث أن تركها عندما أحدثت ضجيجاً صاخباً لم يفهم معه شيئاً. عاد إلى موقعه حيث زاره عدد من الناس الذين كان يعرفهم وكانوا يحملون له الود. أناس ربما حدث أن أراهم صوراً لأطفاله. فكر أن يتحدث مع واحد منهم أو اثنين عن أحداث الصباح المنصرم. لا فى أمر الدعوة التى لم تكن دعوة فى الواقع، بل عن إقامته العرضية فى فندق السعادة ثم يعاقب فى النهاية بتليفونه الخاص. تدفقت إلى رأسه عبارات: "ليس الأمر سيئاً كما تظنون. سوف تدهشون من ود الناس هنا وبساطتهم وتواضعهم. رغم عدم وجود بار بالطبع". لكن الأمر لم يعرض على بساط الحديث فى النهاية. أحس بأنه المقهور. السر لم يكن يحتمل، عرضة للتسرب منه فى أى وقت عاجلاً أو آجلاً. الأمل فقط فى ألا يكون انتشاره قريباً.

الأمل فى ألا يعرفه بلى شور الذى يبحث عنه الآن لكى يسعى لصدده.

سأل آرت عن بلى شور فى كل الأكشاك، لم يره أحد؛ كان

غيابه غريبًا. قذف الرعب فى قلب آرت. وعندما توقف عنده بعض المؤتمرين لإلقاء نظرة على برامجه، فى مواضع كثيرة كان يضع منه الإمساك بخيط المحادثة. وكل ذلك لأن (السى بى يو) عنده كانت مليئة بالهراء المعاد. منذ وقت ليس بالطويل، عندما كان ينظر فى بعض مواقع البيانات التى حملت معلومات بسيطة عن عاملين فى المصنع، ألقى نظرة على موقع بلى شور، اكتشف أنه ولد فى يوم مولده نفسه، آرت يكبره بأربع سنوات. بلى أصغر. كان ذلك مصدر ضيقه. ولكن آرت كان سعيدًا بالمعلومة. دوّنها فى أجندته حتى يندفع إلى بلى فى المؤتمر ويتخذ منها مادة للمزاح معه. الآن يجرى بروفة: "اسمع لقد ادخرت لك مفاجأة. كنت دائمًا أقول إنك من برج الأسد. أعتقد أن ذلك يجعلنا لِدَتَيْن". أى شئ غير أن يذكر فندق السعادة وكل ما حدث له ذلك الصباح هناك.

ولكنه لم يندفع إلى بلى أبدًا. راح يسأل عنه طوال النهار ليعرف فى النهاية أن بلى انتقل إلى وظيفة أخرى فى الوادى، مع رجل أعمال مبتدئ فى مجال الكومبيوتر الشخصى. انتقال ميمون، بصرف النظر عن خسارته فى الشركة.

قال له إرنى فورد المرشد: الدنيا لا تعرف غير الأمد الطويل، دعنا نعترف بالحقيقة، الأمد الطويل هنا غير متاح.

ووافق آرت بحماس. من جهة كان سعيدًا لأن منافسه رحل. كان ذلك يعنى أن هناك كما لا بأس به من الفوضى فى إنفو إدج، إذا

لم يكن هناك شيء آخر. سوق التأمين، لسوء الحظ، كان يمثل حوالى ٤٠% من جملة نشاطه. يستطيع أن يستفيد من أية ميزة تتاح له. الميزة الأخرى أن آرت لن يرى بلى شور مرة أخرى، لذلك، بنكاته ولغة التيار السائد التى كان يتحدثها. غير أن آرت لم يزل يحس بالانقباض. قال: "كان ينبغى أن نذهب جميعاً".

"الضراحة لم يتفوه بها أحد بعد". قال إرنى. لم يكن إرنى صديقاً مقرباً لآرت فى يوم من الأيام، ولكن لأمر ما كان الحديث عن بلى يجعله أكثر ودا مع الناس. وكان بلى لم يزل ذا تأثير حتى فى غيابه. "تعرف أنى أزمعت الرحيل لولا زوجتى والأولاد - لا يريدون أن يتركوا زملاءهم؟ بالإضافة إلى أن أكبرهم فى الصف الأول الثانوى ولا نتحمل مصاريف انتقاله فى الوقت الحاضر، وبقاؤه يجعله يحافظ على معدلاته العالية، حتى يستطيع دخول كلية محترمة، هذا يعنى أنى سأتبقى... ولكن أنت".

- اعتقد أنه يجب أن أذهب. قال آرت.
- طبعاً يجب أن تذهب، ما الذى يبقيك؟
- لا شيء، تعرف أنى مطلق الآن؛ لذا معك حق. حتى غير المطلقين يجب ألا يعلقوا الآمال.
- اذهب، خذ نصيحتى. إذا سمعت بشيء أفضل سأخبرك به.
- أشكرك.

ولكنه لم يتوقع فى الواقع أية مساعدة من إرنى. مر زمن طويل منذ اتصل به أحد معارفه. كثيرون هم الغرباء الذين عدموا المال الوسيلة التى تمكنهم من الرجوع إلى بلادهم واستولى عليهم اليأس. الكل يعزف ذلك. حتى الذين ظلوا يقاومون الظروف ما برحوا ضحايا الشك أينما ذهبوا. من قدر له النجاة قفز إلى سفينة مبكراً، حكمة معروفة. ظل آرت هناك، يكافح لكى يبقى فى وظيفته ليكتشف فى النهاية أن هناك أوقاتاً تخبو فيها الرغبة فى الاحتفاظ بالوظيفة، أوقات بحال فيها من أجل الحصول على مظلة الهبوط الذهبية لكى يقفز. ثمة شئ لم يخبره به أحد، لم يكن يعرفه، أن يخوض فى حوار ودى للغاية ليجد نفسه مفصولاً فى النهاية. من ذا الذى يمكنه أن يتنبأ بذلك؟ أحياناً كان يبدو لآرت أنه لم يكن يعرف شيئاً البتة، أو أنه كان يحفر قبره بنفسه وهو لا يعرف أنه سيرقد فيه، كان لا يزال يحاول الوقوف على قدميه.

وفى نهاية اليوم وجد القليل من المؤتمرين غاية فى الأدب على الأقل. وبينما كان يستعد للعودة إلى الفندق وجد مفاجأة كبيرة فى انتظاره. اقترب منه مندوب دعاية، أخصائى فى استقطاب الأدمغة، صديق لإرنست.

- إرنست، آه، إرنى! فوردا! طبعاً!

رجل متورد اللون مستدير الوجه، بشعره المعقوص أشبه بالقدیس فرانسيس أسيسى^(*)، يملأ يديه بكسر خبز على ما يبدو. قال:

(*) القدیس فرانسيس أسيسى ۱۱۸۲ - ۱۲۲۶. اسمه الكامل فرانسیسکو دى بیترودى -

"فرصة عظيمة". وقال إنه في عجلة من أمره، ولكنه كان يعرف الفتى الذى يجب أن يقابله آرت، شخص كان قادما إلى المعرض ذلك المساء. جاء فى شأن له ولكنه كان فى حاجة لشخص مثل آرت. بحث عنه بالأمس. قال: "إن ذلك من أولوياته. هل يظهر على مائدة الإفطار قبل الظهر؟ هل يتصل فى بحر ساعة أو نحو ذلك؟ قال آرت فى نفسه: "بالتأكيد". وعندما سأله القديس فرانسيس عن رقم الحجرة تردد آرت. ولكنه أعطاه اسم الفندق فى النهاية. فندق السعادة. كيف للقديس فرانسيس أن يعرف طبيعة الفندق؟ أعطاه آرت اسم الفندق دون تردد حتى لا يظهر التردد شيئا من طويته ويجهض مسعاه. لم يبح باسم الفندق لأحد فى المؤتمر. قال إنه كان مشغولا فلم يتمكن من الحجز فى فندق المؤتمر. كان ذلك هو السبب فى اختياره مكانا آخر.

نجاح طبعًا. طوال اليوم وعقل آرت يضطرب مثل القربة المخضوضة، وفجأة بدا فارغًا. لابد أنه بلى أيضا ولد فى اليوم نفسه، فى عام مختلف، وشهد بذلك نجم مختلف. كم تبدو الأشياء أبسط مما نتصور. لم يسبق أن فكر فى أمرين أو ثلاثة أو حتى ستة أمور فى وقت واحد. اليوم يوم انتصاره. لأنه أبقى فمه موصداً. لم يتفوه بشئ. حافظ على برودة أعصابه ورباطة جأشه. عاد إلى الفندق بسرعة وحماس. اجتاز الردهة. رجل كتوم. لم يطرق باب سندی. سينتقل إلى الغرب. هناك سيجد وظيفة أفضل، حياة جديدة، ربما يحترف التنس

ويصبح ثريا. ربما يتعلم أكل الأطعمة الغريبة التي يأكلونها هناك، مثل
الجبكاما وطحلب البحر، وربما يصبح نباتيا.

قبل أن يصل إلى حجرته تذكر أن جهاز التليفون ليس معه.

تهافت على سريره. سمع أصوات جلبة قريبا من النافذة، تأكيد
من رؤية ظل شخص ما. لم يستغرب. الظل لم يقف أمام باب حجرته
على الأقل حين رآه. ذلك كان من حسن الحظ. أنتم القوم، قالتها سندی
وهي تعبد كيس الثلج إلى رأسه. استطاع آرت أن يرى وجهة نظرها،
كانت على حق. كان أوفر منها حظا، حتى الآن على الأقل. ولكن الآن
يرى الظل عند نافذته، فكر مليا في خلو يده من السلاح. لو كان
التليفون في حوزته الآن لاتصل بليزا أو لاتصل بالبوليس. بحيرة
كبيرة بدأت تتشكل حوله، فجأة، بدت له محيطا. لكن كان يجب عليه
أن يتصل بليزا أولا ويعرف إحساسها بصدد انتقاله إلى الغرب. لم يكن
يريد أن يبدو كمن يتصل بلا هدف محدد... لم يكن يريد أن يبدو كمن
تتقاذفه الأمواج وقد يغرق. لم يكن يريد أن يبدو كالمئات. لم يكن يريد
أن يبدو كمن يتصل من فندق درجة ثالثة. منذ سنوات خلت كان يقول:
"نعم هذا طفل، نعم سيكون هذا طفلا". يتصل بالطبيب ليطمئننه على
الطفل... ولد... ظهر شبجه... كامل النمو عبر الموجات فوق
الصوتية الشفافة. هلامى الرأس طرى اللحم سريع دقات القلب...
وساعة خروجه تتحطم كل عظمة في جسده.

ببليوجرافيا الكتاب

بنيامين روزنبلات (١٨٨٨ -)

هاجر من روسيا إلى نيويورك مع أسرته وهو في العاشرة من عمره. نشرت له أول قصة في مجلة ييدية عندما كان في السابعة عشرة. تخرج في جامعة نيويورك وعمل في بروكلين كمندوب لشركة تأمين.

ماري ليرنر

يقول محرر الكتاب إنه لا يعرف عنها شيئاً غير أنها نشرت الكثير من القصص القصيرة في المجلات القومية المعروفة.

شروود أندرسن (١٨٧٦ - ١٩٤١)

بدأ حياته الأدبية في عام ١٩١٣ بعد أن خدم في الحرب الإسيانية الأمريكية كاتب مقالات دعائية ومديراً لمعمل تصوير. أشاد به النقاد بعد أن نشر كتابه المعنون: واينسبيرج، أوهايو. وهي أول مجموعة قصصية له تلتها مجموعات عدة. نشر أيضاً أعمالاً شعرية ونقدية ومقالات وروايات منها "الضحك الكئيب" و"القار" و"طفولة في

الغرب الأوسط" و"قصة كاتب قصص" قال عنه فوكنر: كان الأب الروحي لجبلى من الكتاب الأمريكيين، والمؤسس الحقيقي لتراث الأدب الأمريكى الذى سيحمله من سيأتى بعدنا.

جان تومر (١٨٩٠ - ١٩٦٧)

ولد فى واشنطن وتلقى تعليمه الثانوى فى مدارس بروكلين ونيويورك وواشنطن، ودرس بعد ذلك فى جامعة وسكنسون والكلية الأمريكية للتدريب المذنى فى شيكاغو. كان عضوا بارزا فى إحياء الهارلم. أشهر أعماله الروائية الرواية التجريبية كين الصادرة عام ١٩٢٣. له أعمال قصصية ومسرحية وشعرية أخرى يصور فيها الناس فى ريف جورجيا. اعتزل تومر الكتابة فى السنوات الأخيرة من حياته.

إرنست همنجواى (١٨٩٠ - ١٩٦١)

ولد فى إلينوى وفى الثامنة عشرة تطوع فى الحرب العالمية الأولى وجرح. بدأ حياته الأدبية بنشر مجموعتين من القصص القصيرة. نشر بعدها عدة روايات منها الشمس أيضا تشرق ولمن تدق الأجراس، وعدة مجموعات قصصية أخرى، وسيرة ذاتية، ومسرحية العمود الخامس. وفى ١٩٥٣ نال جائزة بوليتزر عن قصته العجوز والبحر، وفى ١٩٥٤ حصل على جائزة نوبل فى الأدب.

ويليام كاثر (١٨٧٣ - ١٩٤٧)

ولدت فى فرجينيا ونزحت إلى نبراسكا مع والديها وهى فى التاسعة؛ كتبت الكثير من الروايات منها أوه أيها الرواد! وصديقتى أنتونيا، والموت يحل على رئيس الأساقفة. لها أيضا عدة مجموعات قصصية منها الخوف الذى يسعى فى الظهيرة، ومصائر غامضة، ودواوين شعرية منها أوقات الغسق فى أبريل وقصائد أخرى، ومقالات نقدية، حصلت على جائزة بوليتزر عام ١٩٢٣ عن روايتها واحد منا والميدالية الذهبية للمعهد القومى للفنون والآداب عام ١٩٣٣ وعضوية الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب منذ عام ١٩٣١.

وليام فوكنر (١٨٩٧ - ١٩٦٢)

من مواليد مدينة أوكسفورد بولاية ميسيسيبي. خدم فى الحرب العالمية الأولى فى القوات الجوية الكندية. كان من الكتاب غزيرى الإنتاج فى القصة القصيرة والرواية والشعر. من أشهر كتبه أبشالوم، أبشالوم!، وعلى فراش الموت، والملاذ والضوء فى أغسطس، والداخل فى التراب، وموسى والصوت والغضب. نال فولكنر جائزة نوبل فى الأدب لعام ١٩٥٤ ثم نال جائزة بوليتزر مرتين، فى عام ١٩٥٤ وعام ١٩٦٢.

كاترين آن بورتير (١٨٩٠ - ١٩٨٠)

ولدت فى تكساس وماتت أمها وهى فى الثانية وكفلتها جدتها التى أحاطت جفيتها بالرعاية والكتب. حصلت مجموعتها القصصية على جائزة بوليتزر، وجائزة الكتاب القومى فى عام ١٩٦٥. لها رواية بعنوان "سفينة الحمقى" ١٩٦٢ حققت نجاحا تجاريا كبيرا. كما كتبت الكثير من المقالات النقدية.

ألكساندر جودن (١٩٠٩ -)

ولد فى أوكرانيا وقدم إلى نيويورك فى عام ١٩٢٢. كان يعمل فى تعبئة الزجاجات فى مصنع كيماوى بينما كان يكتب روايته: "على أعتاب البدايات". يقول المحرر إنه لا يعرف عنه أكثر من ذلك.

فلاديمير نابوكوف (١٨٩٩-١٩٧٧)

كتب أكثر من أربعين كتابا فى القصة القصيرة والنقد والشعر منها: دعوة لقطع عنق، والحياة الحقيقية لسيباستيان نايت، ولوليتا، وضحك فى الظلام، ونار شاحبة، وآدا. قام أيضا بترجمة أعمال بوشكين وكتاب روس آخرين إلى الإنجليزية. له شهرة عالمية كعالم فى الحشرات.

إليزابيث بيثوب (١٩١١ - ١٩٧٩)

شاعرة مرموقة ورحالة تحب السفر. ولدت في ورسستر بولاية ماسوشسيتى. اشتغلت بالتدريس فى الكثير من الجامعات مثل هارفارد وكامبردج. نالت جوائز كثيرة عن أشعارها. نالت جائزة بوليتزر عام ١٩٥٦ عن مجموعتها القصصية شمال وجنوب - ربيع بارد. من كتبها: مسائل الترحال والبرازيل (عاشت فى البرازيل ستة عشر عاما)، ومجموعة قصائد بعنوان جغرافيا III والأشعار الكاملة والأعمال النثرية الكاملة.

إي. بي. وايت (١٨٩٩ - ١٩٨٥)

عمل محررا مشاركا وكاتبا فى مجلة النيويوركر فى عام ١٩٢٦. ذاعت شهرته كأبرز كتاب المقالات فى القرن العشرين، كما أحرز شهرة واسعة ككاتب فكاهى وكاتب قصة قصيرة ومؤلف لكتابين شهيرين للأطفال: "ستيوارت القصير"، "وشبكة تشارلوت". نال جوائز كثيرة مثل الميدالية الذهبية من الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب ١٩٦٠. نال جائزة بوليتزر كإشادة بجميع أعماله عام ١٩٧٨.

جون تشيفر (١٩١٢ - ١٩٨٢)

أحد كتاب القصة القصيرة العظام فى القرن العشرين. نال جائزة أو هنرى التذكارية مرتين: فى عام ١٩٥٦ عن مجموعته "الزوج

الريفي"، وفي عام ١٩٦٤ عن مجموعته "نزول الفراشات". نال أيضا جائزة الكتاب القومي في عام ١٩٥٨ وجائزة بوليتزر، وجائزة جمعية نقاد الكتاب القومي، والجائزة الأمريكية للكتاب عن كتابه المعنون: "قصص جون تشيفر" المنشور عام ١٩٧٩. وفي عام ١٩٨٢ قلّدت له الدولة الميدالية القومية للأدب.

جويس كارول أوتس (١٩٣٨ -)

كاتبة غزيرة الإنتاج في القصة (أكثر من خمسين مجموعة قصصية وعشرين رواية) والشعر والدراما والنقد. نالت جوائز كثيرة منها جائزة الكتاب القومي وجائزة أو هنري ثلاث مرات. حصلت على درجة الماجستير من جامعة وسكنسون ودرّست في العديد من الجامعات بعد ذلك. تعيش الآن في برنستون، نيو جيرسي. قصة إلى أين أنت ذاهبة، أين كنت؟ كانت موضوع فيلم كلام ناعم الذي أخرجه جويس تشوبرا مؤخرا.

إسحاق باشيفز سنجر (١٩٠٤-١٩٩١)

ابن وحفيد حاخامات. ولد في بولندا ونزح إلى الولايات المتحدة عام ١٩٣٥. كان يكتب باللغة العبرية وسرعان ما اتخذ اللغة اليديشية لكتابة قصصه. من أعماله المنشورة بالإنجليزية: جمبل أضحوكة القصر، ساحرة لبنان، وقصص مختارة. نال سنجر عدة جوائز منها

جائزة الكتاب القومى مرتين. حصل على جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٧٨.

دونالد بارثلمى (١٩٣١-١٩٨٩)

ولد فى فيلادلفيا، بنسلفانيا، وخدم فى الجيش الأمريكى. وعمل أستاذًا زائرا فى عدد من الجامعات الأمريكية. معروف بولعه بالتجريب والخروج على القالب التقليدى فى الكتابة القصصية. ألف أكثر من اثنى عشر كتابا منها رواياته مثل: حزن والأب الميت وسنوهوايت. تحمل مجموعاته القصصية عناوين مثل: العودة والدكتور كالجارى، وأفعال شاذة، والمحبين، وأيام عظيمة. نال جائزة الكتاب القومى عام ١٩٧٢ ورشح للجائزة نفسها عام ١٩٧٤ عن كتابه: متع آثمة. ترجمت له قبل ذلك قصة "الزمردة" ونشرت ضمن مجموعة "تساء مفقودات" (٢٠٠٠).

جون أبدايك (١٩٣٢ -)

ولد فى شلنجنون، بنسلفانيا ودرس فى مدارسها العامة. تخرج فى جامعة هارفارد عام ١٩٥٤. درس لمدة عام فى مدرسة رسكن للرسم وللفنون بين عامى ١٩٥٤ و ١٩٥٥. ثم كلف بمراسلة باب حديث المدينة فى مجلة النيويورك انقل بعدها إلى ماسوشوستى فى عام ١٩٥٧ ويعيش هناك من ذلك الحين. حصل أبدايك على جائزة

روزنتال ١٩٥٤ وعلى جائزة أو هنرى عام ١٩٦٦ ثم اختير عضوا
فى المعهد القومى للفنون والآداب. آخر رواياته: عند نهاية الزمن.
متزوج وله ولدان وبنتان.

أليس مونرو (١٩٣١ -)

من مواليد أونتاريو، كندا. نالت جائزة الحاكم العام مرتين. ألقت
عدة مجموعات قصصية من بينها: من تظن نفسك ؟، أقمار جوبيتر،
رقص الظلال السعيدة، أسرار واضحة، صديقة شبابى، حب امرأة
طيبة صدر أخيرا كتابها المعنون: قصص مختارة لأليس مونرو. من
التيتمات المتكررة فى قصصها العلاقة بين الآباء والأبناء. تعد من أبرز
أعلام القصة الأمريكية القصيرة فى الوقت الحاضر.

أليس إبيوت دارك (١٩٥٣ -)

صدرت لها مجموعة قصصية بعنوان عارية حتى الخصر.
تنشر أعمالها القصصية فى النيويورك New Yorker ودوبل تيك
Doubletake. قصة فى الغسق كانت موضوعا لفيلمين أنتجا مؤخرا.
حصلت على منحة من المؤسسة القومية لمنح الفنون والآداب. تعيش
حاليا فى مونتكلير، نيوجرسى.

جشن جن (۱۹۵۶ -)

لها روايتان منشورتان: الأمريكى الخالص، ومنى فى أرض المعاد. نالت جوائز عدة من كلية رادكليف والمؤسسة القومية لمنح الفنون والآداب ومؤسسة جاجنهايم. تعيش حاليا فى ماسوشوسىتى. آخر أعمالها مجموعة قصصية بعنوان من الأيرلندى؟ وقصص أخرى.

المترجم فى سطور

أحمد الشيمى

- مدرس الأدب الإنجليزى - جامعة القاهرة.

- صدر له:

١- نساء مفقودات: مختارات من القصة الأمريكية الحديثة
(تصدير الأستاذ الدكتور/ ماهر شفيق فريد)

٢- رواية يقظة امرأة لـ كيث شوبان.

٣- كتاب هل يوجد نص فى هذا الفصل؟: سلطة الجماعات
المفسرة لـ ستانلى فيش. عن المجلس الأعلى للثقافة.

- تحت الطبع (كتاب اللغة والثقافة لـ كلير كرامش - كتاب:
الشاعر والسلطة فى الشعر الإنجليزى فى القرن السابع عشر
(تأليف)

- له بحوث فى الإنجليزية نشرت فى مجلات محكمة.

المراجع في سطور

طلعت الشايب

كاتب ومترجم مصرى من مواليد ١٩٤٢ (البنانون - منوفية)، حاصل على ليسانس أدب إنجليزى والتربية عام ١٩٦٢، يترجم من وإلى اللغة العربية والانجليزية والروسية، عمل بالتدريس والترجمة والصحافة الثقافية فى كل من مصر والكويت وقطر (١٩٦٢ - ١٩٩٢)، عضو اتحاد الكتاب ولجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، رئيس تحرير سلسلة «آفاق عالمية» التى تصدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة، وعضو مجلس تحرير مجلة «أدب ونقد» والفرع المصرى لنادى القلم الدولى.

صدرت له الترجمات التالية:

دراسات:

- حدود حرية التعبير "تجربة كتاب القصة والرواية فى مصر فى عهدهى عبد الناصر والسادات"، تأليف: مارينا ستاج - دار شرقيات بالقاهرة - ١٩٩٥.

- "المتفقون" تأليف: بول جونسون - شرقيات ١٩٩٨.

- "صدام الحضارات" تأليف: صمويل هنتجتون — سطور —
الطبعة الأولى ١٩٩٨، الطبعة الثانية ١٩٩٩.
- "فكرة الاضمحلال فى التاريخ العربى" تأليف: آرثر هيرمان —
المشروع القومى للترجمة المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٠.
- "الحرب الباردة الثقافية" المخابرات المركزية الأمريكية وعالم
الفنون والآداب" تأليف: ف.س. سوندرز — المشروع القومى
للتترجمة المجلس الأعلى للثقافة — الطبعة الأولى ٢٠٠٢،
الطبعة الثانية فبراير ٢٠٠٢.

روايات:

- "البطاء" تأليف: ميلان كونديرا — شرقيات — ١٩٩٦.
- "الملاك الصامت" تأليف: هينرش بول — الهيئة العامة لقصور
الثقافة — ١٩٩٧.
- "فتاة عادية" تأليف: آرثر ميللر — شرقيات — ١٩٩٨.

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز

الإشراف الفنى: حسن كامل

يصدر فى الولايات المتحدة الأمريكية منذ سنة 1915 كتاب
سنوى بعنوان "أفضل القصص القصيرة الأمريكية" ويضم
مختارات مما تنشره الصحافة الثقافية من قصص يراها النقاد
أفضل كتابات السنة، وقد صدر من هذا الكتاب السنوى على
مدى القرن العشرين 84 مجلدا تحتوى على ما يقرب من ألف
وسبعمائة قصة قصيرة، واحتفالا بانقضاء قرن وبداية قرن جديد
قامت الناقدة الأمريكية "كاترينا كينسون" باختيار 200 قصة من
تلك المجلدات وعرضتها على الكاتب جون أبدايك ليختار بدوره
من بينها ما يراه "أفضل الأفضل" ووقع اختياره على 55 عنوانا
لكتاب مختلفين من مراحل زمنية مختلفة هى فى نظره THE
BEST OF THE BEST.

يجد القارئ على صفحات هذا الكتاب عشرين قصة تمثل تطور
هذا الفن فى الولايات المتحدة بدءا من سنة 1915
1995، أما عنوان المجموعة "ربما فى حلب ذا
قصة الكاتب الأمريكى (الروسى) "نابوكوف" ص

